

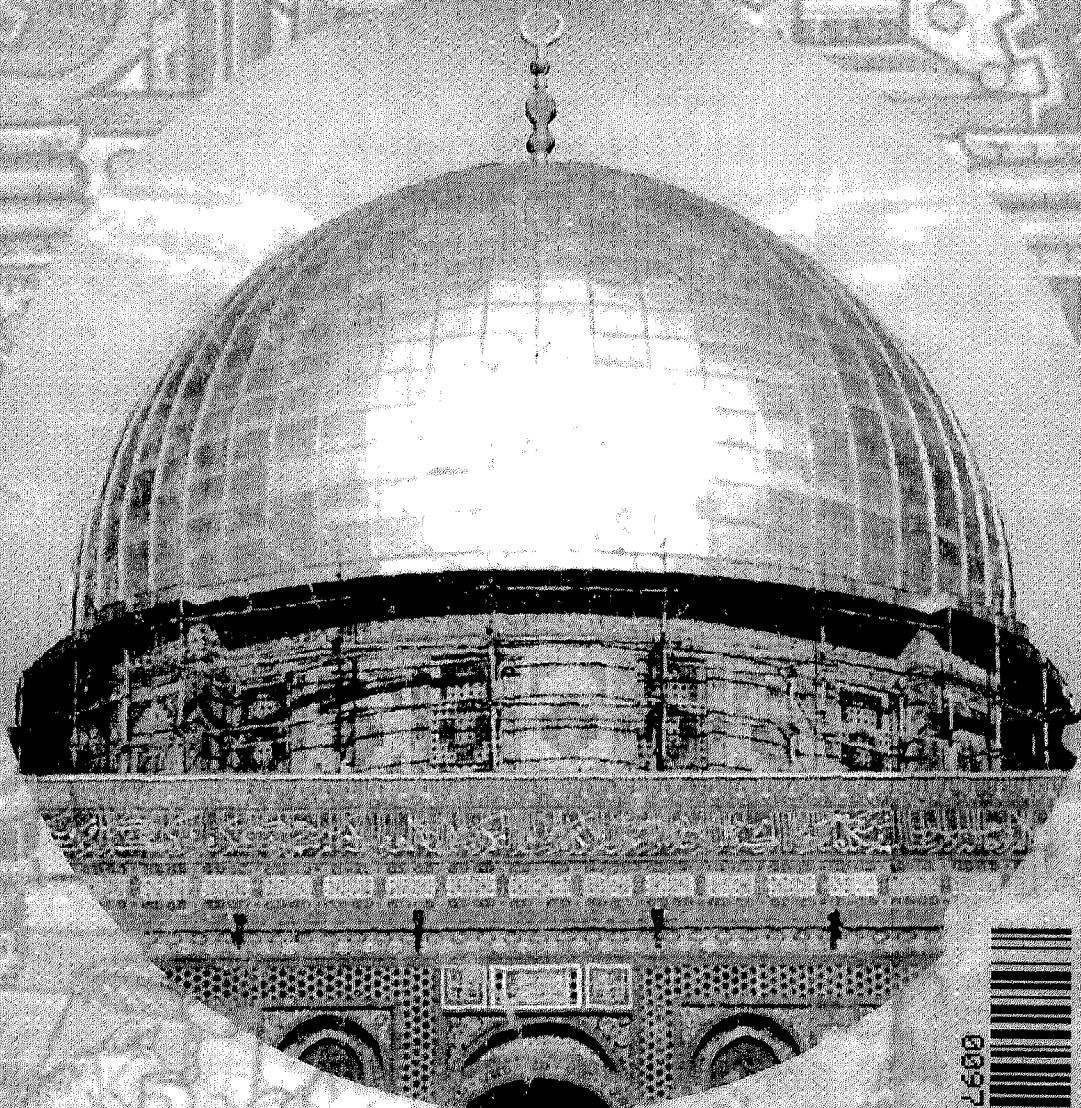


أ.م. محمد مونس أحمد عوض

في الصراع الإقليمي العربي - الفلسطيني

السياسة الخارجية للدولة المصرية

٥٤١ - ٥٦٩ هـ / ١١٤٦ - ١١٧٤ م



0097808



Bibliotheca Alexandrina

فى الصراع الإسلامى - الصليبي

السياسة الخارجية للدولة النورية

٥٤١-٥٦٩ هـ / ١١٤٦-١١٧٤ م

د. محمد مؤنس أحمد عوض

كلية الآداب - جامعة عين شمس

الطبعة الأولى

١٩٩٨



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المستشارون

د . أحمد إبراهيم الهوارى
د . شوقي عبد القوى حبيب
د . على السيد على
د . قاسم عبده قاسم
مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف : منى

الناشر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٦ شارع يوسف فهمى - اسباتس - الهرم - ج.م.ع - تليفون : ٣٨٥١٢٧٦

٥ شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج.م.ع - تليفون ٣٨٧١٦٩٣

Publisher: EYN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES
6, Yousef Fahmy St., Spates - Elharam - A.R.E. Tel : 3851276
5, Maryoutia St., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693

بسم الله الرحمن الرحيم

«رينا ءاتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا»

(صدق الله العظيم)

سورة الكهف آية (١٠)

الإهداء

إلى المؤرخ ، والمحقق ، والمترجم المصرى الكبير الأستاذ
الدكتور حسن حبشى ، أستاذ العصور الوسطى بكلية
التربية - جامعة عين شمس، رائد الدراسات التاريخية عن
نور الدين محمود؛ اعترافاً بعلمه وفضله فى مجال دراسات
العصور الوسطى والعلاقات بين الشرق والغرب خلالها .

محتويات الكتاب

صفحة

٩	تقدير وعرفان
١١	المقدمة
٢٥	المدخل قيام الدولة النورية وتطورها السياسى

الباب الأول

٥٣	سياسة الدولة النورية الخارجية تجاه القوى الإسلامية
٥٥	الفصل الأول : العلاقات النورية- العباسية
٧٧	الفصل الثانى : العلاقات النورية- الفاطمية
	الفصل الثالث : العلاقات مع القوى الإسلامية المحلية فى بلاد الشام والجزيرة
١٠٧	والأناضول

الباب الثانى

١٣٥	سياسة الدولة النورية تجاه القوى المسيحية
١٣٧	الفصل الرابع : العلاقات مع مملكة بيت المقدس الصليبية
١٦١	الفصل الخامس : العلاقات مع الإمارات الصليبية
١٨٥	الفصل السادس : العلاقات النورية- البيزنطية

الباب الثالث

٢٠٧	نتائج السياسة الخارجية النورية
٢٠٩	الفصل السابع : النتائج السياسية
٢٢٨	الفصل الثامن : النتائج الاقتصادية
٢٤٩	الفصل التاسع : النتائج الاجتماعية
٢٧٣	الفصل العاشر : النتائج الثقافية

٢٨٩	الخاتمة
٢٩٤	الملاحق
٢٩٨	الخرائط
٣٠٣	ثبت المصادر والمراجع

تقدير وعرفان

أود أن أقدم جزيل الشناء، ووافر التقدير ؛ لعدد من الأساتذة الأفاضل الذين أفدت من علمهم وخلقهم خلال إعداد هذه الدراسة ، وفى مقدمتهم أستاذى أ . د . محمود اسماعيل عبد الرازق الأستاذ بكلية الآداب- جامعة عين شمس، الذى أشرف عليها على مدى أربعة أعوام إشرافاً علمياً اتسم بالدقة والنظرة الشاملة المتعمقة وقد أفدت من سيادته فائدة عظيمة لاسيما فى الجانب المنهجى والتعامل مع النص التاريخى ومحاولة استخراج دلالاته المتعددة دون اعتساف الأحكام أو الوقوع فى منزلق القولية.

من زاوية أخرى ؛ لايفوتنى أن أتقدم بوافر التقدير لأستاذى أ . د . أحمد رمضان أحمد، الأستاذ بكلية الآداب - جامعة عين شمس فارس الدراسات الشامية فى عصر الحروب الصليبية ، الذى رشحنى منذ سنوات عديدة للتخصص فى دراسة تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، وقد قدم لى العديد من الملاحظات القيمة خلال مناقشة الرسالة عام ١٩٨٨م، حرصت على تنفيذها قدر والجهد والطاقة عندما اتجهت إلى نشرها بعد ذلك بنحو عشر سنوات، فله منى خالص الشكر ووافر التقدير .

ولأغفل التوجه بالشكر إلى أ . د . حسين عليوه الأستاذ بكلية الآداب- جامعة المنصورة الذى شارك فى مناقشة الرسالة ، وقدم هو الآخر عدداً من الملاحظات القيمة التى تعلمت منها وعملت على تنفيذها لما لها من فائدة بالغة أثرت موضوع الدراسة .

كما لايفوتنى أن أقدم شكرى العميق لوالدى الراحل الأستاذ / أحمد عوض حماد ، ابن كلية دار العلوم العريقة ؛ حصن لغة الضاد الحصين على أرض الكنانة؛ الذى راجع صفحاتها من حيث سلامة اللغة وأفدت منه فائدة كبيرة ، وقد أدى ذلك العمل دون كلل أو ضيق على الرغم من تقدمه فى السن طيب الله تعالى ثراه وجزاه عنى خير الجزاء .

وهناك أيضاً التقدير لاثنتين من المستشرقين أولهما الأمريكى كريستوفر ملتشرت Chris- topher Melchert بجامعة برنستون Princeton بالولايات المتحدة الأمريكية ، وثانيهما الفرنسى بيير تينار Pierre Thenard ، وقد قدما لى كل عون صادق من أجل تصوير العديد من المقالات المتخصصة بالإنجليزية والفرنسية التى احتاجتها الدراسة .

١٠

كذلك أتوجه بالشكر لصديقي الأستاذ / نشأت صدقي مجلع الذى كتب الرسالة على الآلة الكاتبة منذ عشر سنوات مضت فكان نعم الصديق المخلص الذى أفادنى فى عديد من النقاط التنظيمية .

أخيراً ، أقدم خالص الشكر للقائمين على مكتبات الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، والمعهد الفرنسى للآثار الشرقية، والمعهد الألمانى للآثار ، ودير الآباء الدومنيكان ، وجامعة القاهرة ، وكلية الآداب جامعة عين شمس وخاصة الأستاذ / سعيد شحاته وكذلك لجمع من الأصدقاء بفلسطين ، وسوريا ، وتركيا ، والعراق ، والأردن فجزاهم الله تعالى عنى خير الجزاء .
وختاماً ، أتوجه بالشكر لزوجتى وابنى هانى وداليا الذين شاركونى الحياة بحلوها ومرها على مدى أعوام إعداد هذه الدراسة .

المقدمة

يمثل عهد الدولة النورية المستند من عام ٥٤١ - ٥٦٩ هـ / ١١٤٦-١١٧٤م جانباً مهماً ومؤثراً في تاريخ العلاقات بين الشرق الإسلامى والغرب الأوروبى فى العصور الوسطى، ومرجع تلك الأهمية يكمن فى صراع القوى السياسية فى بلاد الشام والجزيرة ومصر من أجل فرض الهيمنة على مصادر الثروة الاقتصادية والسيادة السياسية، كما أن قيام الدولة النورية أسفر عن سياسة خارجية طموحة واعية لقدراتها وكذلك امكانات القوى الساسية المجاورة لها إسلامية كانت أو مسيحية .

ويلاحظ أن تلك المرحلة شهدت تطورات تاريخية فى العديد من القوى السياسية فى المنطقة، وهى التى دخلت معها الدولة النورية فى علاقات متعددة على كافة المستويات السياسية ، والاقتصادية ، والثقافية .

فالخلافة العباسية شهدت مرحلة فعالة من تاريخها : إذ أراد الخلفاء العباسيون استعادة نفوذهم من قبضة السلاجقة ، وتطلعوا بعد ذلك إلى دعم سلطانهم فى العراق من خلال الدخول فى علاقات سياسية قوية مع القوى الإسلامية السنية المجاورة .

أما الخلافة الفاطمية فقد سيطر عليها الوزراء العظام ولم يكن للخلفاء معهم نفوذ حقيقى، وتصارع الوزراء فيما بينهم على السلطة السياسية ، على نحو أدى إلى أن غدت تلك الخلافة نهياً للتدخل الخارجى بصورة أدت فى نهاية المطاف إلى اسقاطها عام ٥٦٧ هـ / ١١٧١م .

وفى بلاد الشام والجزيرة وجدت عدة أسر وأبيوت عربية حاكمة، وكذلك أتابكيات، ومن أمثلتها نجد العقيليين وبنى منقذ والجندليين وأتابكية دمشق، ولاشك أن تلك الكيانات المتفرقة مثلت بصفة عامة عنصراً فعالاً فى الانقسام والتشردم السياسى الذى عانت منه المنطقة.

ومن جهة أخرى ، وجدت على الجانب المسيحى ، مملكة بيت المقدس الصليبية والإمارات التابعة لها (الرها- أنطاكية- طرابلس) وقد تولى حكم المملكة خلال تلك المرحلة اثنان من الملوك الطموحين ، وهما بلدوين الثالث وعمورى الأول وقد شهد عهدهما نشاطاً وافراً من أجل توسيع حدود المملكة على حساب القوى الإسلامية المجاورة ، ونجد أن الإمارات الصليبية مثل أنطاكية وطرابلس وجد بها أمراء طامعون فى موارد المناطق الإسلامية المجاورة .

أما الإمبراطورية البيزنطية : فإنها عاصرت خلال تلك المرحلة حكم الإمبراطور مانويل كومنين ، الذى هدف إلى أن تكون لبلاده سيادة إقطاعية على الإمارات الصليبية ومملكة بيت المقدس ، وفى نفس الحين ، احتاجت القوى الصليبية إلى عون الحروب : من أجل وقف خطر الدولة النورية المحدث بها . لمساندتها فى مشاريعها التوسعية على حساب القوى الإسلامية المجاورة مثل الخلافة الفاطمية .

أما حظ السياسة الخارجية النورية من الدراسات السابقة : فمن المرجح - وذلك بالاعتماد على عدة دراسات عن بيليوغرافيا الحروب الصليبية^(١) - من المرجح أنه لم يتم تناول هذا الموضوع من قبل من خلال دراسة أكاديمية متخصصة تتناول مراحل تطور السياسة الخارجية للدولة النورية مع كافة القوى المجاورة ، ونتائج ذلك على كافة الأصعدة والمستويات السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية ، بالاعتماد على المصادر التاريخية المعاصرة والمتأخرة العربية ، والفارسية ، والإلآينية ، واليونانية ، والسريانية .

ولعل من أهم المشكلات والمصاعب التى واجهت الدراسة أن بحث السياسة الخارجية النورية ، أمر يستلزم الإحاطة بتواريخ كافة القوى المجاورة لتلك الدولة ، التى كانت مجالاً لنشاطها السياسى ، ودراسة أوضاعها وتطوراتها المتعددة على المستويات السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية ، وهو أمر يثير من المشكلات والمصاعب ما يجعل الباحث يزداد فى دراسة هذا الموضوع المتشعب والمتعدد الزوايا .

١- عن ذلك أنظر :

Mayer, Bibliographie Zur Geschichte der Kreuzzuges, Hannover 1960, Atuya, The Crusade, Historiography and Bibliography, London 1960 .

قسطنطين زريق ، «ما ساهم به المؤرخون العرب فى المائة السنة الأخيرة فى دراسة التاريخ العربى فى فترة الحروب الصليبية» ، مجلة الأبحاث ، الجامعة الأمريكية ببيروت ، السنة (١٢) ، ج٢ (٢) يونيو ١٩٥٢ م .

وأيضاً محمد مؤنس عوض ، «بيليوغرافيا الحروب الصليبية- المراجع العربية والمصرية» ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، م(٣) ، لعام ١٩٨٥م ، ص٣٩٤- ص٤٣٣ ، فصول بيليوغرافية فى تاريخ الحروب الصليبية ، ط . القاهرة ١٩٩٧م .

زد على ذلك ؛ هناك اختلاف وجهتى النظر الإسلامية والصليبية فى عصر شهد الصراع بين المسلمين والصليبيين ، وانعكس ذلك على المؤلفات التاريخية نفسها على نحو احتاج إلى جهد خاص فى التعامل معها .

ومن زاوية أخرى ؛ أضفت المصادر التاريخية العربية المعاصرة ، واللاحقة طابعاً دينياً صرفاً على مؤسس هذه الدولة ونعنى به نور الدين محمود . ولم تحصر على توضيح الدوافع الأخرى المحركة للسياسة الخارجية لتلك الدولة . ويتطلب الأمر الأخذ بالتفسير الشمولى لحركة التاريخ من خلال البحث فى بطون المصادر من الدوافع الدينية والسياسية والاقتصادية المحركة لها وذلك دون اعتساف الأحكام أو الوقوع فى مزالق القولية قدر الجهد المتواضع .

ويضاف إلى تلك العقبات ، التباين الواضح فى التحديد الزمنى للعديد من الأحداث التاريخية ، حيث اختلفت المصادر الإسلامية عن الصليبية فى هذا الصدد ؛ إذ أن من المؤرخين من كتب مؤلفاته - خاصة لدى الجانب الصليبي - دون تحديد زمنى أصلاً ، ناهيك عن الاختلاف فى تناول تلك الأحداث بين المؤرخين المعاصرين للدولة النورية والمتأخرين ، على نحو مثل عقبة من أجل تحديد التاريخ الدقيق أو الأكثر ترجيحاً للأحداث المتصلة بالسياسة الخارجية النورية .

ومن أوجه الصعاب أيضاً ، أن الكثير من مصادر ذلك العصر ، تعد مصادر رسمية ، حيث وجد المؤرخون الرسميون الذين عاشوا أو اتصلوا بالبيت الزنكى ، ومن ثم بالغوا فى تصوير إيجابيات سلاطين الزنكيين وغضوا الطرف عن سلبياتهم ، ومن ثم صار استجلاء السياسة الخارجية النورية ليس بالأمر الهين اليسير .

ولانغفل أيضاً ؛ أن مصادر تلك المرحلة اهتم فيها مؤرخوها فى المقام الأول بإبراز الأحداث السياسية ، وندر الاهتمام بالجوانب الاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية ، والتأريخ لها ، ومن ثم صار من الصعوبة بمكان دراسة النتائج التى قمخضت عن السياسة الخارجية النورية .

أما المنهج المتبع فى دراسة سياسة نور الدين محمود الخارجية ، فهو منهج تحليلى يعتمد إلى تحليل الحدث السياسى ، ورده إلى أصوله ودوافعه السياسية والاقتصادية والاستراتيجية والبحث فى نتائجه وآثاره والإفادة من إسهامات المفكرين الفرنسيين المحدثين خاصة رواد البنيوية مثل ميشيل فوكو ، دون إهمال الدافع الدينى الحيوى وبالإضافة إلى ذلك تم اتباع المنهج الوصفى ، وذلك من أجل تغطية الفجوات عند سرد المؤرخين المعاصرين واللاحقين

للأحداث التاريخية، كذلك تمت الاستعانة بالمنهج النقدي من أجل مناقشة الروايات التاريخية المختلفة في المصادر الإسلامية والصليبية ، ومحاولة ترجيح رواية على أخرى من خلال مراعاة التسلسل المنطقي للأحداث وإشارات المصادر نفسها .

أما محتويات البحث فقد اشتمل على مدخل وثلاثة أبواب احتوت عشرة فصول ، أما المدخل فقد تناول قيام الدولة النورية وتطورها السياسى، ونتاج ذلك على كافة المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، كتوطئة طبيعية لبحث سياسة نور الدين محمود الخارجية .

وبالنسبة للباب الأول ؛ والخاص بسياسة نور الدين تجاه القوى الإسلامية فقد احتوى على ثلاثة فصول ، الأول ، العلاقات النورية- العباسية وتناول دوافع توجه السياسة الخارجية النورية نحو العباسيين ، وأوضاع تلك الخلافة خلال معاصرتها للدولة النورية، ثم مظاهر العلاقات بين الجانبين على كافة المستويات .

أما الفصل الثانى ؛ فاختص بالعلاقات النورية- الفاطمية ، وعالج دوافع سياسة الدولة النورية الخارجية نحو مصر الفاطمية ، وأوضاع تلك الخلافة حينذاك ، ثم عرض للمراحل التى مرت بها العلاقات بين الجانبين ، وقد تمثلت فى محاولة التنسيق العسكرى ضد الصليبيين، ثم السفارات الدبلوماسية ، وأخيراً التدخل العسكرى المباشر فى مصر الفاطمية .

وفيما يتصل بالفصل الثالث ؛ فقد عرض لسياسة نور الدين تجاه القوى الإسلامية المحلية فى بلاد الشام والجزيرة ، وأوضح العوامل التى وجهت الدولة النورية نحو تلك القوى ومراحل إخضاعها ، وضم أملاكها إلى سيادة تلك الدولة .

أما الباب الثانى ؛ والخاص بسياسة الدولة النورية تجاه القوى المسيحية، فقد انقسم إلى ثلاثة فصول، الأول اختص بمملكة بيت المقدس وتطور العلاقات بين الطرفين إن حرباً وإن سلباً والأسباب والدوافع لكل من الحالتين ، أما الفصل الثانى فإنه تناول الإمارات الصليبية، (الرها- أنطاكية- طرابلس) وحوى مراحل العلاقات بين الدولة النورية وتلك الإمارات ، ورغبة الأولى فى توسيع أملاكها فى الشمال باتجاه وادى نهر العاصى حيث إمارة أنطاكية وحرصها على تجريدتها من مصادر قوتها العسكرية متمثلة فى الحصون والقلاع، ثم حرص الدولة النورية على استمرار سيطرتها على إمارة الرها، وعالج الفصل الثالث العلاقات النورية البيزنطية وتطورها ، وموقف الإمبراطورية البيزنطية ، من محاولة نور الدين محمود توسيع حدود دولته

فى سهل نهر العاصى، واشتراكها فى عدة معارك خاضها الصليبيون ضد الدولة النورية، كذلك تناول الاتفاق المعقود بين حلب والقسطنطينية فى عام ٥٥٤هـ / ١١٥٩م وناقش آراء المؤرخين فى ماهيته من حيث كونه اتفاقاً أم تحالفاً، وكذلك النتائج التى تمخضت عنه.

واختص الباب الثالث بعرض النتائج التى نجمت عن السياسة الخارجية النورية، وقد انقسم إلى أربعة فصول، الأول تناول النتائج السياسية وذلك بالنسبة للقوى الإسلامية وأيضاً المسيحية، ومدى أثر التوسع الخارجى لتلك الدولة عليها نفسها كإحدى دول المشرق الإسلامى، وأيضاً الخلافة العباسية والقوى المحلية الإسلامية فى بلاد الشام والجزيرة، ومملكة بيت المقدس والإمارات التابعة لها وكذلك الإمبراطورية البيزنطية، أما الفصل الثانى فشمل عرضاً للنتائج الاقتصادية، وهى التى تعد أهم ما تمخض عن سياسة الهيمنة الخارجية من نتائج، أما تلك الآثار التى حلت بالمجتمع الإسلامى والصليبي فقد عالجها الفصل الثالث فالملاحظ أن العلاقات الخارجية بين الدولة النورية والقوى المجاورة لها أثرت على البنيان الاجتماعى لدى كل من الطرفين، وركز الفصل الرابع على معالجة النتائج الثقافية التى نجمت عن تلك العلاقات، فمنطقتى بعد أن أوجدت السياسة الخارجية النورية آثارها على البنيان الاقتصادى والاجتماعى، أن يلحق التأثير بالجانب الثقافى أيضاً، وهو ما عمل الفصل على إبرازه وتوضيح العلاقة الجدلية الوثيقة بين الجانبين.

وقد تنوعت المادة التاريخية التى اعتمدت عليها فى دراسة الموضوع، فمنها الآثار، والنقوش، والوثائق، والكتابات القلمية فى صورة مؤلفات المؤرخين، والرحالة المعاصرين، واللاحقين لعهد الدولة النورية بالإضافة إلى المراجع الحديثة بالعربية والفارسية وكذلك الإنجليزية والفرنسية والألمانية.

أما الآثار النورية- والتى عمل نيكيثا اليسيف على حصرها - فقد أفادت فى إدراك نتائج السياسة الخارجية خاصة على المستوى الثقافى، مع ملاحظة أن تواريخ تشييد معظم تلك المنشآت، قد تم بعد أن خرجت الدولة النورية من تكوينها الأولى فى حلب، وقد أفاد تناثر المدارس التى تم تشييدها عقب إخضاع المناطق المجاورة لها- أفاد فى تصور تزايد نفوذ المذهب الأشعرى بصورة متزايدة عن ذى قبل من خلال الدعم الرسمى له.

وفيما يتصل بالنقوش، فهناك نقش باب شاغور والذى رجع إلى عام ٥٥١هـ / ١١٥٦م وقد أفاد فى دراسة الجوانب الاقتصادية للعلاقات النورية- العباسية، وحرص الدولة النورية على إلغاء المكوس المفروضة على التجار المتنقلين ببضائعهم فيما بين العراق والشام، كذلك

أعانت النقوش التى وجدت على جدران المدرسة الحلاوية بحلب عام ٥٤٣هـ / ١١٤٩م وكذلك الموجودة على باب شرق من أبواب دمشق عام ٥٥٩-٥٦٠هـ / ١١٦٣-١١٦٤م ، وأيضاً على جدران جامع بالرقعة عام ٥٦١هـ / ١١٦٥م والتى وجدت كذلك على جدران المدرسة النورية بدمشق عام ٥٦٩هـ / ١١٧٣م - أعانت على إدراك العلاقة الخاصة والوطيدة التى ربطت بين خليفة بغداد وسلطان حلب ، من خلال الألقاب التى منحتها له الخلافة العباسية ، وقد أمكن من خلال تلك النقوش اثبات وجود تحالف سياسى بين الجانبين ، وهو أمر أكدته العديد من الشواهد فى المصادر التاريخية الأخرى .

أما الوثائق ؛ فقد وصلت إلينا من خلال كتابات المؤرخين المعاصرين لعهد الدولة النورية ، والذين عملوا فى جهازها الإدارى ، وأمكنهم مطالعة أرشيف الدولة ، ووثائق ديوان الانشاء ، ومن أمثلتها ، الوثيقة التى أرسلها نور الدين محمود إلى مجير الدين أبى أتاك بدمشق فى عام ٥٤٤هـ / ١١٤٩م ، مبرراً فيها موقفه من قدوم قواته إلى دمشق ورغبته فى الاستيلاء عليها ، وتحوى الوثيقة - التى أورد ابن القلائسى قسماً منها- المبرر الرسمى المعلن لقدم القوات النورية إلى دمشق حيث ارتكز نور الدين محمود على أوضاع الفلاحين الدماشقة المتردية ، من جراء الغارات الصليبية كمبرر لمقدم جيوشه إلى تلك المدينة .

ثم هناك وثيقة أخرى ؛ عبارة عن رسالة صادرة عن ديوان الانشاء النورى إلى الخلافة العباسية فى بغداد فى عام ٥٦٨هـ / ١١٧٢م ، وفيها يقرر نور الدين محمود أن القسطنطينية- شأنها فى ذلك شأن بيت المقدس - فى طريقها إلى الخضوع لسيطرة دولته ، وقد أفادت فى دراسة العلاقات النورية - البيزنطية ، ومن خلال تتبع مراحل تلك العلاقات ثبت أن ذلك القول كان من قبيل الدعاية السياسية .

وتجدر الإشارة ؛ إلى أن تلك الوثيقة المهمة قد حفظها أبوشامه ، فى كتابه الروضتين ، نقلاً عن العماد الاصفهاني فى كتابه البرق الشامى ، ولما كان الكتاب الأخير قد فقدت أجزاء منه ، فقد تزايدت أهمية الاختصار الذى قام به الفتح البندارى له ، إلا أن الوثيقة المذكورة لم ترد لدى الكتاب المختصر ، وإنما وردت لدى كتاب الروضتين الذى استقى مؤلفه مادته التاريخية من البرق الشامى مباشرة .

وزيادة على ذلك ؛ هناك وثيقة على جانب كبير من الأهمية عبارة عن رسالة مرسله من ديوان الانشاء النورى وذلك فى عام ٥٦٥هـ / ١١٧٠م ، إلى خليفة بغداد تطلب فيها الدولة النورية عون خلفائها العباسيين من أجل مواجهة أخطار الزلازل التى حلت ببلاد الشام حينذاك

خوفا من اغتنام الصليبيين الفرصة بالهجوم عليها، وقد ألقت الوثيقة الضوء على حجم العلاقات النورية - العباسية، وكشفت النقاب عن الدعم المادى العباسى لسلطان حلب، على نحو دعم فكرة التحالف السياسى القائم بين الجانبين، ويلاحظ أن الوثيقة وردت لدى مؤرخ متأخر عن عصر الدولة النورية، ونعنى به ابن الفرات (ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م) ولم ترد لدى ابن القلائسى، وتعليل ذلك؛ أن الأخير توفى عام ٥٥٥هـ / ١١٦٠م حيث انتهى تاريخه فى ذلك العام، كما أنها لم ترد لدى اختصار الفتح البندارى لما ألفه العماد الأصفهاني، مما يعطى لها أهمية متميزة، ومن المرجح - على ضوء ذلك- أن ابن الفرات استعان بالبرق الشامى عند تأليفه لكتابه تاريخ الدول والملوك.

أما المؤلفات التاريخية فقد تعددت لدى الجانبين الإسلامى والصليبي، أما المؤلفات الخاصة بالمسلمين فهناك تواريخ المدن وتواريخ الدول وكتب التراجم وكتب الرحالة إلى غير ذلك وبالنسبة لتواريخ المدن فتحتل مكانة مهمة بين مصادر البحث، إذ وجد خلال عهد الدول النورية تأليف تواريخ مدن شامية مهمة امتدت إليها حركة التوسع النورى، واستمر ذلك الاتجاه من بعد ذلك لدى بعض المؤرخين المتأخرين عنها.

وفى مجال تواريخ المدن؛ نذكر ما ألفه ابن القلائسى فى صورة كتابه ذيل تاريخ دمشق، ويعد مصدراً بالغ الأهمية لدراسة علاقة نور الدين محمود بأتاكيه دمشق ومحاولته إقصاء حكم البوريين، كذلك فإنه قدم وصفاً مفصلاً لمحاولات سلطان حلب إخضاع دمشق لسيطرته، وأشار - من ناحية أخرى- إلى تبادل السفارات ما بين الدولة النورية والخلافة الفاطمية، فألقى بذلك الضوء على تطور العلاقات بين الجانبين، كما أشار إلى الاتصالات بين الخلافة العباسية والدولة النورية مثل إرسال تقاليد التولية أودعم نور الدين لتولية خليفة عباسى جديد إلى غير ذلك.

لقد قدم ابن القلائسى إشارات قيمة عن سياسة نور الدين محمود الخارجية تجاه الكيان الصليبي قبل عام ٥٣٩هـ / ١١٥٤م، خاصة موقفه من إمارة انطاكية والمعارك التى نشبت هناك مثل معركة يفرى وأنب، ويلاحظ أن إشارته عن تلك المرحلة تتميز بالاختصار الواضح نظراً لاهتمامه، الذى ركزه على مدينة دمشق، ومن ثم لم يعط ذات الاهتمام لشمال الشام، غير أنه منذ العام المذكور - وهو عام إخضاع دمشق للسيادة السياسية النورية- يقدم ابن القلائسى مادة تاريخية مفصلة عن العلاقات النورية تجاه مملكة بيت المقدس الصليبية.

وفى هذا المجال نذكر أن ابن القلائسى يقدم عرضاً لأحداث الصدام مع المملكة الصليبية فى

بانياس عام ٥٥٢هـ / ١١٥٧ م، وأوضح البعد الاقتصادي فى مطاعم الصليبيين فى مناطق الرعاية المسلمين .

وبالإضافة إلى ذلك ؛ قدم إشارات بالغة الأهمية عن العلاقات السلمية بين الجانبين ، على نحو دل على أن مهادنة المملكة اللاتينية صارت أمراً مقررًا وواقعًا فى أفق السياسة الخارجية النورية ، بل أنه أشار أيضًا إلى أن نور الدين محمود كان يقدم المال للصليبيين من أجل أن يحصل على مسالمتهم وافر صراحة من تلك الهدنات ، هدنة اتفق على أن تمتد نحو العامين .

ومع ذلك ؛ فينبغى ألا نفعل أيضًا أهمية الكتاب فى شأن العلاقات النورية- البيزنطية ، إذ أورد مقدمات حملة مانويل كومنين على شمال الشام عام ٥٥٤هـ / ١١٥٩م، والاتجاه السلمى الذى حدث بعد ذلك ، على نحو أدى إلى عقد اتفاق سلام بين الجانبين ، وقد أورد نصوصه وإن دافع- ضمناً- عن فكرة أن ملك الروم هو الذى سعى إلى عقد الاتفاق والمصالحة. وعلى الرغم من أن ابن القلانسى يقدم عرضًا مفصلاً للأحداث من عام ٥٤٩هـ / ١١٥٤م إلى عام ٥٥٥هـ / ١١٦٠م أى على امتداد ستة أعوام وتطور سياسة نور الدين محمود الخارجية خلالها إلا أنه يؤخذ عليه الارتباط الرسمى الواضح المعالم وميله الشديد للسلطة.

أما ابن عساكر ؛ فقد أفاد كتابه تاريخ مدينة دمشق البحث ، حيث قدم ترجمة لنور الدين محمود عرض فيها لكافة إنجازاته وإن أشار إلى سياسته الخارجية ، مثل علاقاته بالصليبيين وصدامه معهم لاسيما فى معركة حارم عام ٥٥٩هـ / ١١٦٤م، وذكر كثرة جيوش المملكة اللاتينية وتوابعها ، ومن جهة أخرى أفاد فى دراسة تطور الاقطاع النورى، على نحو ساعد على إدراك النتائج الاقتصادية للتوسع الخارجى، ولاسيما وضعية الأرض، ومن جهة أخرى أفاد كتابه فى تتبع النتائج الاقتصادية من خلال ما أشار إليه من وصف لطبوغرافية دمشق، ومع ذلك فمما يؤخذ على كتابه أنه أضفى طابع الجهاد فقط على كافة صراعات الدولة النورية مع جيرانها ، ويلاحظ أنه اشترك فى ذلك مع عدد من المؤرخين الرسميين، وكذلك المتأخرين .

أما ابن العديم ؛ فقد احتل كتاباه زبدة الحلب، وبغية الطلب أهمية متميزة ، إذ أنه جعل من تلك المدينة محور الكتابين، وقد أفاد البحث فى دراسة علاقات الدولة النورية بإمارة أنطاكية على نحو خاص، نظرًا لمجاورتها لمدينة حلب ومن ثم تناول معارك يغرى، وأنب، وحارم ومن جهة أخرى، قدم ابن العديم إشارات مهمة عن الدور البيزنطى فى دعم الوجود

الصليبي ضد الدولة النورية فى معارك حارم والبقية ، كذلك فإنه أعان على رصد النتائج الاجتماعية والعمرائية التى حلت بمدينة حلب -المدينة الأم- من جراء التوسع الخارجى ، حيث قدم إشارات فريدة فى هذا الصدد .

أما تواريخ الدول؛ فهناك ما ألفه ابن الأثير الجزرى تحت عنوان التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ، وقد قدم فيه عروضاً لتطور الأحداث لعهد عماد الدين زنكى وأبنائه من بعده ، وقد أفاد فى تتبع مراحل علاقات نور الدين محمود .

كذلك فإن الباهر احتوى على مادة تاريخية قيمة عن سياسة الدولة النورية تجاه الكيان الصليبي ، سواء مملكة بيت المقدس أو الإمارات التابعة لها ، وقد قدم وصفاً مفصلاً لأحداث معركة حارم ، كما أنه قدم عرضاً مفصلاً للعلاقات النورية- الفاطمية وبعد ويحق مصدرنا الأساسى فى هذا المجال ، بالإضافة إلى ما ألفه العماد الأصفهاني ، ومع ذلك فيؤخذ على ابن الأثير تحمسه الشديد للبيت الزنكى ولنور الدين محمود .

زد على ذلك ؛ هناك كتاب الروضتين فى تاريخ الدولتين لأبى شامه المقدسى ، وقد جعل مصدره الرئيسى ماورد لدى ابن القلانسى فى ذيل تاريخ دمشق ، وكذلك البرق الشامى للعماد الأصفهاني وحيث أن الأخير لم يصلنا إلا مختصراً ، فإن ذلك يعطى للروضتين أهمية متميزة ، وزيادة على ذلك اعتمد أبوشامة على ما ألفه المؤرخ الشيعى الحلبى ابن أبى طى ، والذي فقدت مؤلفاته لاسيما السيرة الحلبية ، ويمثل كتاب الروضتين المصدر الأساسى لمعرفة ما ألفه ذلك المؤرخ الذى كان متحاملاً على نور الدين وقد كان أبوشامه مدركاً لتلك الناحية عندما استعان بكتابه .

وقد أفاد أبو شامة على نحو خاص فيما يتصل بالعلاقات النورية- العباسية ، حيث أشار إلى تبادل السفارات بين الجانبين ، وكذلك المراسلات ، كما أوضح رغبة الخلفاء العباسيين مثل المستنجد والمستضى فى حث نور الدين محمود لاسقاط خلافة الفواطم ، وأفاد فى العلاقات النورية- الفاطمية ، وكرر المقولة الشهيرة بأن صلاح الدين الأيوبى قدم إلى مصر وهو كاره ، كما يلاحظ أن كتاب الروضتين أعان على تتبع النتائج الثقافية للتوسع النورى ، بفضل ما احتواه من أشعار عديدة لجمع من شعراء بلاد الشام فى عهد نور الدين محمود .

أما كتب التراجم فمنها من شارك أصحابها - الذين كتبوا ترجمة ذاتية لأنفسهم - شاركوا في الأحداث التاريخية أو عاصروها ، لذلك أفادت في دراسة السياسة الخارجية النورية .

ومن هذه الكتب كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ وقد أفاد في إلقاء الضوء على الصلات بين الوزير الفاطمي ابن السلار ونور الدين محمود ، ورغبة الوزير في التعاون العسكري مع الدولة النورية ضد الكيان الصليبي ، المغتصب لأمالك الفاطميين ، وقد قام أسامة بن منقذ بدور الوسيط بين الطرفين ، وتعد إشارته في هذا المجال متميزة ، إذ لم ترد لدى العديد من المؤرخين المعاصرين ، كذلك قدم إشارات هامة عن التداخل الاجتماعي بين المسلمين والصليبيين ، على نحو أفاد في بحث النتائج الاجتماعية للتوسع النوري .

كذلك كتاب سنا البرق الشامي ، وهو اختصار للبرق الشامي للعماد الأصفهاني ، وقام بالاختصار الفتح البندري ، عرض فيه العماد لحياته في بلاد الشام واتصاله بالدولة النورية ، وقد أيعان في إلقاء الضوء على العلاقات النورية - الفاطمية حيث قدم تاريخاً محدداً للجوء شاور إلى نور الدين طلباً للتدخل الحربي في مصر ، ومن جهة أخرى أفاد في تتبع النتائج الاقتصادية للتوسع النوري من خلال إشارات إلى الاقطاعات التي أقطعها نور الدين لكبار رجال دولته .

أما مؤلفات الرحالة فبالإضافة إلى أهميتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية فقد أفادت في الجوانب الثقافية كذلك ، ومنها ما ألفه بنيامين التطيلي ، الذي كان يهودياً وزار بلاد الشام في عهد الدولة النورية ، وقد أفادت رحلته في إلقاء الضوء على النشاط الاقتصادي للمدن التي تم التوسع النوري فيها ، على نحو ساعد في تحديد دوافع توجه نور الدين إلى ضم تلك المدن والأقاليم الواقعة فيها ، وحيث أنه اهتم باليهود ، فإنه قدم إشارات مهمة عن دورهم الاقتصادي ومراكز تركيزهم العمراني ، على نحو ساعد على إدراك النتائج الاقتصادية للتوسع الخارجي للدولة النورية .

أما رحلة ابن جبير فإنها تحتل مكانة متميزة ، حيث تناولت النشاط التجاري القائم بين المسلمين والصليبيين في عهد مقارب للدولة النورية ، وبصورة عاوتت على إدراك الدوافع الاقتصادية لسياستها الخارجية ، وكذلك العوامل التي وجهت تلك السياسة إلى مسألة الصليبيين أحياناً .

أما بالنسبة للمؤرخين الصليبيين، والذين كتبوا تواريخ عامة، فهناك ما ألفه وليم الصورى William of Tyre تحت عنوان : تاريخ الأعمال التى جرت فيما وراء البحر، ويعد مصدرنا اللاتينى الأساسى ، وقد أشار إلى كافة المعارك الكبرى التى خيض غمارها ضد المسلمين مثل يفرى ، وأنب ، وحارم ، والبابين ، وقد امتاز وليم الصورى فى تاريخه بالموضوعية فى بعض الأحيان، من ذلك امتداحه لنور الدين محمود على الرغم من أنه كان العدو الرئيسى للمملكة الصليبية ، كذلك فإنه أشار إلى أن غزو بلدوين الثالث لمراعى بانياس فى عام ٥٥٢هـ / ١١٥٧م، كان عملاً بعيداً عن الفروسية والبطولة وأنه لم يكن ليجلب المجد للملكة ، وقد أفاد تاريخه فى تتبع الدافع الاقتصادى للسياسة الخارجية النورية من خلال إشاراته إلى النشاط التجارى فى بعض المدن الشامية مثل شيزر وكذلك عكا، والمصرية كذلك مثل تناوله للنشاط التجارى فى الاسكندرية .

وقد ألقى وليم الصورى فى تاريخه الضوء على العلاقات النورية- العباسية من خلال إشارته إلى إرسال نور الدين الغنائم إلى الخلافة العباسية ببغداد ، ومن ناحية أخرى- وحيث أنه كتب تاريخه فى عهد الملك عمورى الأول- فإن كتابه يعد مصدرنا الأساسى عن العلاقات النورية- الفاطمية حيث أشار إلى الصراع الوزارى، ومراحل التدخل النورى العسكرى، وكل ذلك بصورة مفصلة لتجد لها نظيراً فى أية مصادر صليبية أخرى دوغماً مبالغة .

ومع ذلك فيؤخذ على وليم الصورى أنه أحياناً - بحكم أنه رجل دين فى الأساس- يفسر الأحداث تفسيراً لاهوتياً ، من ذلك أنه عندما تناول قرد التوتناش على سيده معين الدين - ، وهو الموقف الذى جعل نور الدين يقف إلى جوار أتابك دمشق - ذكر أن قبول المملكة الصليبية عرض التوتناش بأن تتدخل لمساعدته ، كان أمراً من قبيل دوافع الفروسية وأن الرب سيسعده ضم مناطق جديدة للسيادة الصليبية ومن الواضح أن الدوافع الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية كان لها القدر المعلى فى توجه المملكة اللاتينية .

كذلك فإن تاريخه أفاد فى توضيح تزايد اعتماد المملكة اللاتينية على فرسان الاستبارية والداوية فى عهده الملكيين بلدوين الثالث وعمورى الأول، على نحو أفاد فى دراسة النتائج السياسية للتوسع النورى على الجانب الصليبي .

ومن جهة أخرى : ألقى وليم الصورى الضوء على اتفاقيات السلام التى وقعت بين الدولة النورية والكيان الصليبي ، على نحو ساعد فى إدراك طبيعة العلاقات السلمية التى وجدت بين الطرفين .

ثم هناك أيضاً ما ألفه المؤرخ السرياني المجهول عن الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية ، وقد أفاد تاريخه فى تتبع أحداث السياسة الخارجية النورية حتى عام ٥٥٩هـ / ١١٦٤م ، وأورد إشارات مهمة عن دور جند المشرق فى مساعدة القوات النورية فى المعارك التى خاضت غمارها ضد الصليبيين ، كذلك قدم وصفاً لمعركتى أنب، ويغرى، كذلك امتاز بأنه قدم تفاصيل محاولة جوسلين الثانى استرداد الرها عام ٥٤١هـ / ١١٤٦م والتى تمكن نور الدين محمود من القضاء عليها .

كذلك أفاد البحث مما ألفه المؤرخ البيزنطى كيناموس Cinnamus ، الذى قدم عرضاً مفصلاً لعهد الامبراطور مانويل كومنين وقد أعان على تتبع تطور العلاقات النورية-البيزنطية؛ ولاسيما الظروف التى أحاطت عقد اتفاق عام ٥٥٤هـ / ١١٥٩م بين الجانبين ، وقد ألقى الضوء على النصوص الخاصة بإطلاق سراح الأسرى الصليبيين لدى السجون النورية، كذلك تناول جهود الصليبيين للإفادة من دعم البيزنطيين فى الهجوم على مصر الفاطمية فى عهد الملك عمورى خلال توليه صلاح الدين وزارة العاضد .

وبالإضافة إلى ذلك ، توجد المؤلفات الحديثة للمؤرخين العرب والمستشرقين ، وقد أفادت فى دراسة بعض جوانب سياسة التوسع النورى .

فهناك ما ألفه الرائد الكبير أ. د. حسن حبشى عن نور الدين محمود والصليبيين؛ وقد جعل اهتمامه يتجه - فى المقام الأول- لسياسة نور الدين تجاه مملكة بيت المقدس والامارات الصليبية ، ومن ثم فإن دراستى هذه تهتم بدراسة العلاقات مع القوى الإسلامية وكذلك المسيحية ونتائج السياسة الخارجية للدولة النورية على مدى عشرة فصول كاملة ولذلك وجدت اختلافات رئيسية بينها وبين دراسة مؤرخنا الكبير أ. د. حبشى ، ومع ذلك فإن الفصل الأخير الذى يحوى العلاقات السلمية بين المسلمين والصليبيين ، يعد عملاً رائداً عندما ظهرت دراسته الرائدة، ويظل كتابه يحتل أهمية كبيرة على الرغم من مرور نحو خمسين عاماً على تأليفه ويعود ذلك إلى أن مؤرخه ، مؤرخ فذ من جيل الرواد الذين أضاعوا الطريق لمن أتى بعدهم من الباحثين .

ويضاف إلى ذلك ؛ ما ألفه د. حسين مؤنس تحت عنوان «نور الدين محمود ، سيرة مجاهد صادق» ، وكذلك د. عماد الدين خليل وكتابه «نور الدين محمود وتجزئته الإسلامية» : وهما دراستان مهمتان عن الدولة النورية ، وقد أفاد الكتابان البحث فى بعض النقاط الجزئية المهمة .

كذلك هناك مؤلفات المستشرق الفرنسى نيكيتا اليسيف Nikita Elisseff عن «نور الدين محمود ، أمير مسلم فى عصر الحروب الصليبية » وكذلك مقالاته عن الجوانب الأثرية، والنقوش التى رجعت إلى عهده ، وكذلك النشاط الاقتصادى حينئذ، وتعد مؤلفاته من أهم المراجع المتخصصة عن نور الدين محمود ، ومع ذلك فإنه لم يتناول سياسته الخارجية إلا من خلال تناوله العام للعهد النورى .

وزيادة عن ذلك ؛ تمت الاستفادة من مؤلفات المؤرخين العرب والمستشرقين^(١) الذين تناولوا مرحلة الحروب الصليبية بصفة عامة فى العديد من الجوانب المتصلة بالبحث .

وهناك زاوية أخيرة أود أن أقررها فى هذه المقدمة وهى؛ أنه ليس من أهداف هذه الدراسة تمجيد البطل التاريخى أو الميل إلى المبالغة فى دور الفرد فى صنع التاريخ- بإذن الله تعالى- فلا قيمة لدوره دون دور الحشود البشرية المؤهلة أصلاً لصنع ذلك التاريخ ، والأمر المهم هو إدراك كيف أن هناك دوافع مشتركة تصنع الحدث التاريخى ، وإن هناك قيادات متفاعلة مع شعوبها وظروف عصرها أيا كان تقييماً الختامى لأدوارها .

وبعد ، فأترك القارئ الآن، يطالع محتويات الكتاب ، وأود أن أقرر هنا أن المؤلف ما هو إلا جامع أصداف من على شاطئ بحور الحروب الصليبية وهى بالتأكيد متلاطمة الأمواج شاقة على من يبحر فيها .

وختاماً أردد قوله تعالى «وفوق كل ذى علم عليم»

صدق الله العظيم

د. محمد مؤنس أحمد عوض

مصر الجديدة - مساكن شيراتون

المدخل

قيام الدولة النورية وتطورها السياسى

يعد قيام الدولة النورية وتطورها السياسى ، مدخلاً أساسياً لدراسة السياسة الخارجية للدولة النورية ، ولامراء فى أن دراسة البنيان الداخلى للدولة ، وأوضاعها الاقتصادية، والاجتماعية ، والفكرية ، تبين أبعاد تلك السياسة وأطوارها ، ومعلوم أن الدولة النورية ورثت دولة السلاجقة فى الكثير من نظمها الإدارية والمالية فضلاً عن الاقطاع العسكرى ، والاعتماد على عناصر من النخبة التركية العسكرية الحاكمة ، وعلى رأسها نور الدين محمود نفسه، ومعاونوه من القادة أرباب السيوف وآخرون من أرباب الأقلام ، ويلاحظ أنه على القاعدة القطاعية تشكلت كافة الأنشطة الاقتصادية للدولة وإن غلبت الصفة التجارية وذلك من خلال الموقع الجغرافى الحيوى الذى تحكم فى أهم خطوط التجارة العالمية ، وعلى المستوى الأيديولوجى اتخذت من المذهب الأشعرى التوفيقى المحافظ مذهبها الرسمى، وجعلها ذلك توجه الحركة الفكرية نحو دعمه ومحاربة الدعوة الإسماعيلية والتيار الفلسفى .

وبداية : يجدر بنا دراسة الإطار الجغرافى للدولة النورية : حيث أنه وجه اقتصادياتها وأوضاعها الداخلية وكذلك سياستها الخارجية على نحو ميزها على غيرها من الدول : إذ أن الإمتداد الجغرافى للدولة النورية يكشف لنا عن اتساع نطاق سيادتها السياسية وتعدد الأقاليم التى سيطرت عليها، فقد خضعت لها مناطق فى بلاد الشام والجزيرة ومصر ، وفى الشام والجزيرة ضمت لها مدن حلب، ودمشق، والموصل، وحماه، وحمص، ومعرة النعمان، وشيزر ، وكفر طاب، ومنبج ، والرقّة ، والباب ، وبزاغة ، وبانياس ، وحوار^(١) ، وغيرها وتاخمتها غرباً إمارتى أنطاكية وطرابلس الصليبيتين ومملكة بيت المقدس ، وفى الشمال جاورتها سلطنة سلاجقة الروم، أما فى الشرق فقد وجد النفوذ العباسى والسلجوقى وامتدت إلى النوبة جنوباً وجبل نفوسة غرباً .

Elisseeff, " Les Monuments de Nur Al- Din" , BEO, XIII, Anée 1949-1951, pp. 7-23 . -١-

لقد أعطى ذلك الموقع للدولة النورية عدة مميزات ؛ إذ احتوت مناطقها أنهاراً عديدة مثل النيل، والفرات ووقع الأخير على حدودها الشرقية وروى مناطق في الجزيرة وبلاد الشام مثل الرقة، وحران، ونهر العاصي^(١) ، ونبع من بعلبك وصب في أنطاكية وروى امتدادات كبيرة وكذلك أنهار بردى^(٢)، والخابور^(٣) ، والزبداني^(٤)، في أعمال دمشق ، ويزيد^(٥) في منطقة الصالحية وقويق في حلب والذهب وهو امتداد لبردى وعد من أنهار حلب أيضاً ، وأهمية تلك الأنهار أنها قدمت للبلاد السهول الفيضية ذات الكثافات السكانية المرتفعة نسبياً والتي أمكن توجيهها لخدمة سياسات الدولة الخارجية الطموحة .

ومن جهة أخرى؛ احتوى الامتداد الجغرافى للدولة النورية على سيطرة على شبكة مهمة وحيوية من خطوط التجارة الدولية بين الشرق والغرب فهناك طريق الشرق الأقصى - الخليج العربى - الشام، وبدأ من رأس الخليج العربى إلى البصرة ، ثم بغداد باتجاه دمشق ومنها إلى موانئ شرق البحر المتوسط مثل اللاذقية ، وطرطوس ، وطرابلس ، وغيرها ، وقد يتجه إلى مصر عابراً شبه جزيرة سيناء والصحراء الشرقية، ومن موانئ شرق المتوسط يتجه نحو آسيا الصغرى وإلى القسطنطينية^(٧)، ثم طريق وسط آسيا الذى التقى مع القوافل الصينية ، والذى

١- ابن سعيد المغربى، كتاب الجغرافيا ، تحقيق العربى، ط. بيروت ، ص ١٥٠ : الإدريسى ، نزهة المشتاق ، تحقيق جابريللى وديلانيللا، ط. نابولى، ج٤ ، ص ٣٧٤ : ابو الفداء، تقويم البلدان ، تحقيق رينو ودى سلان ، ط. باريس ، ١٨٤٠م، ص ٢٦١-٢٦٢؛ القزوينى ، عجائب المخلوقات ، ط. بيروت ، ص ٢٤٣ : يوسف سمارة ، جولة فى الاقليم الشمالى ، ط. القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١٠ .

٢- ابن حوقل ، صورة الأرض ، تحقيق دى جويه، ط. ليدن، ١٩٣١م، ص ١٧٤ : سهراب ، عجائب الأقاليم السبعة ، ط. فيينا ١٩٢٩م، ص ١٤٤ .

٣- اسكندر داود ، الجزيرة السورية ، ط. دمشق ١٩٥٩م، ص ١٠٥ - ص ١٠٦ .

٤- الوهرانى، منامات الوهرانى ومقاماته، تحقيق نفش وزميله ، ط. القاهرة ١٩٦٧م، ص ٢٠ .

٥- القزوينى ، آثار البلاد وأخبار العباد، ط. بيروت ١٩٦٠م، ص ١٩١ .

٦- ياقوت ، معجم البلدان ، ط. بيروت ١٩٥٥م، ج٧ ، ص ٢٨٣ .

٧- ماركوبولو ، رحلات ماركوبولو، ت. عبد العزيز توفيق جاويد ، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص ٣٨ ، نعيم زكى ، طرق التجارة الدولية فى أواخر العصور الوسطى ، ط. القاهرة ١٩٧٣م، ص ١١٧-١٧٧ ، =

تفرع إلى حلب بشمال الشام والساحل الشرقي للبحر المتوسط^(١) ، ثم طريق غرب أوروبا - الشرق الذي اجتاز بلاد الأندلس والشمال الأفريقي ، حتى وصل إلى مصر ، ومنها إلى بلاد الشام وامتد شرقاً حتى الصين^(٢) ، وهناك أيضاً طريق الشام مصر^(٣) ، وكذلك طريق القسطنطينية - أنطاكية حيث اتجه من المدينة الأخيرة إلى حلب وغيرها من المدن الشامية التجارية^(٤) ، ومر بمناطق وأقاليم الدولة النورية، كذلك لا تغفل طريق اليمن مكة الشام^(٥) ، هذا فضلاً عن اتصال العراق والشام بشبكة من الطرق التجارية المزدهرة حينذاك .

إن نظرة متأنية للطرق التجارية السابقة تكشف لنا عن أن مدن الشام والجزيرة الكبرى وقعت على امتداد تلك الطرق، على نحو ضمن للدولة النورية السيطرة على حركة التجارة الدولية في هذه المنطقة على نحو در عليها الأموال الوفيرة من خلال المكوس المفروضة على تجارة العبور .

وتجدر الإشارة إلى أن ذلك الموقع قد أثر على سياستها الخارجية بصورة كبيرة إذ أن المجال الحيوى لتوسعاتها صار في اتجاه الغرب حيث الوجود الصليبي ، سواء في أنطاكية وطرابلس

= عادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ط. دمشق ١٩٨٠م، ص ١٧٦ ، حاشية (٥٤) ؛ هايد ، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ت. محمد رضا ، ط. القاهرة ١٩٨٥ م، ص ٤٧-٥٩ .

١- نعيم زكى ، طرق التجارة الدولية ، ص ١٢٤ ، أحمد رمضان ، شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٧٧ م ، ص ١٩٠ .

٢- ابن خردازيه ، المسالك والممالك، ص ١٥٤-١٥٥ ، إبراهيم زغروت ، «العلاقات التجارية الدولية ودور الغرب الإسلامى فيها خلال القرنين الثانى والثالث الهجريين» ، الدارة ، العدد (١) ، السنة (١١) يونيو ١٩٧٥ م، ص ١٧٧ ، سرور ، تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ، ط. القاهرة ١٩٦٥ م، ص ١٥٠ ، حسن إبراهيم ، تاريخ الاسلام ح ٣، ط. القاهرة ، ١٩٦٥ م، ص ٣٢٢ .

٣- هايد ، المرجع السابق، ص ١٨٢ .

٤- الحويرى ، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين ١٢ ، ١٣ ، ط. القاهرة ١٩٧٩ م، ص ١٢٢-١٢٣ .

٥- أحمد رمضان ، الرحلة والرحالة المسلمون ، ط. جدة ب-ت، ص ٣٠ . أحمد الشريف ، دور الحجاز في الحياة السياسية العامة، ط. القاهرة ١٩٦٨ م، ص ١٥ .

ومملكة بيت المقدس ، وكذلك فى الجنوب الغربى نحو مصر الفاطمية، ونجد أن الاتجاهين المذكورين قد شكلا جانباً كبيراً من طاقاتها العسكرية وهو ما سنوضحه بعد مفصلاً .

ويقتضى تناول قيام الدولة النورية بحث أصولها فى النظام الأتابكى ودور الأتابك عماد الدين زنكى فى خدمة السلاجقة ، فمعلوم أن السلاجقة قوم من الأتراك الفز، ورجعت تسميتهم إلى زعيمهم سلجوق بن دقاق ، الذى وحد قوتهم وجههم نحو اعتناق الإسلام على المذهب الحنفى ، وقاموا بهجرة كبيرة من تركستان وهى الموطن الأصلى للعناصر التركية إلى منطقة ما وراء النهر^(١)، مدفوعين إلى ذلك بكثرة أعدادهم ، وبحثهم عن موارد الغذاء .

وقد توالى على حكم السلاجقة عدد من السلاطين الأقوياء مثل طغرل بك (٤٢٥-٤٥٤هـ/ ١٠٣٧ - ١٠٦٣م) وألب أرسلان (٤٥٤ - ٤٦٥هـ/ ١٠٦٣ - ١٠٧٢م) وملكشاه (٤٦٥-٤٨٥هـ/ ١٠٧٢-١٠٩٢م) ، وعقب وفاة الأخير ظهر التفكك والوهن الشديد فى جسد الدولة، من خلال التنافر والتنافس بين أفراد الأسرة الحاكمة، على السلطة ومناطق السيادة السياسية، ولذا ظهرت الأتابكيات كقوة سياسية مجزئة لعبت دوراً على قدر كبير من الأهمية فى ذلك العصر .

ووفقاً للنظرية الإدارية السلجوقية ؛ فقد وجد لكل إقليم من يحكمه من أعضاء البيت الحاكم، ثم تم إلحاق قائد تركى بكل واحد من أولئك الأمراء حمل لقب أتابك^(٢) ، وقد تحمل

١- الراوندى ، راحة الصدور وآية السرور ، ت . الشواربى وزميلاه ، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص١٤٥، سهيل زكار ، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ط. دمشق ١٩٨١م، ص٢٢ ، عبد الفنى عبد العاطى، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية ، ط. القاهرة ١٩٨٣ م ، ص٤٣، حاشية (٤٤) .

٢- تعنى الأب المربى ، انظر :

ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ط. القاهرة ١٩٤٨م، ج٢ ، ص١٢١ ، وعن النظام الأتابكى أنظر :

جب ، «تاريخ دمشق» ضمن كتاب صلاح الدين الأيوبي، دراسات فى التاريخ الإسلامى ، ت. يوسف أيبش ، ط. بيروت ١٩٧٣ م، ص٥٣-٥٤ ، عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكى ، ط. بيروت ١٩٧١م، ص٢٢٦ ، حاشية (١٧٦) ، حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية ، ط. القاهرة ١٩٧٥م، ص١٢٥-١٢٩ ، نافع العبود ، الدولة الخوارزمية ، ط. بغداد ١٩٧٨م، ص٦ ، حاشية (١) سليمان صانغ ، تاريخ الموصل ، ط. القاهرة ١٩٢٣م، ص١٦٥ ، الديوبجى، الموصل فى العهد الأتابكى، ط. بغداد ١٩٥٨م، ص٢٠، حاشية (٥) =

مستولية تربيتهم العسكرية وكذلك حكم أقاليمهم ، ونظراً لأنه امتاز بعلاقات ودية وأبوية بـ«الملك» السلجوقي ؛ فقد تمتع أيضاً بسلطة سياسية فاقت سلطة القادة العاديين ، ولكى يوطد الأتابك أقدامه فى السلطة عمد إلى أن يتزوج من أم عهده وتزويجه إحدى بناته منه ، والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها تاج الدولة تتش ابن ملكشاه الذى عين الأمير جناح الدولة حسين أتابك لأبنة رضوان ، والأمير ظهير الدين طفتكين أتابك لابنه دقاق^(١) .

لقد كان أمراً محتملاً للأتابكة ، فى الوقت الملائم مع سقوط التضامن السلجوقي ، أن تحل سلاطنتهم الحاكمة محل سلاطات محميينهم ، غير أن ذلك لم يكن ينطوى على قطيعة مع أسيادهم السلاجقة الكبار ، وإنما استمروا فى إظهار نوع من الولاء نحوهم^(٢) .

ويهمنا بطبيعة الحال من أولئك الأتابكة عماد الدين زنكى بن أقي سنقر بن عبدالله آل ترقان الذى ينتمى إلى قبائل السابىو التركمانية^(٣) ، فمن الثابت أن والده حظى بمكانة كبيرة لدى سلاطين السلاجقة ، لما قام به من أدوار عسكرية وسياسية فى سبيل دعم دولتهم ، وذلك فى عهد السلطان السلجوقي ملكشاه ، وفى عام ٤٧٧هـ / ١٠٨٤م . عاونه للاستيلاء على الموصل ، وطرده العقيليين منها ، كذلك عمل على استعادة حلب من قبضة نوابهم^(٤) ، ومكافأة له أمر السلطان له بحلب وأعمالها وحماها ، ومنبج ، واللاذقية^(٥) ، وقد قام بدور فعال فى ترويد الحكم السلجوقي بها ، وعمل على نشر الأمن هناك^(٦) ، على نحو ضمن ازدهاراً

Steingass, Persian - English Dictionary, Beirut 1970, p. 14 , El - Azhari, The Saljuqs = of Syria during The Crusades 463-549 A.H. 1070-1154 A. D., Berlin 1997 , P. 282-283 .

١- جب ، تاريخ دمشق ، ص ٥٤ .

٢- نفسه ، نفس المرجع والصفحة .

٣- ابن العديم ، بغية الطلب فى تاريخ حلب ، القسم الخاص بتراجم السلاجقة ، تحقيق على سويم ، ط . الجمعية التاريخية التركية ، انقرة ١٩٧٦م ، ص ٢٥١ .

٤- عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكى ط . بيروت ١٩٧١م ، ص ٣٢ .

أيضاً أنظر :

Alptekin , The Reign of Zangi (511-541 / 1127-1146) , A taturk University 1918, p.19 .

٥- ابن الأثير ، التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ، تحقيق عبد القادر طليمات ، ط . القاهرة ١٩٦٣م ، ص ٨ .

٦- ابن القلاسى ، ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق أميدروز ، ط . بيروت ١٩٠٨م ، ص ١٢٠ .

اقتصاديًا لاسيما على الصعيد التجارى، غير أنه دفع حياته ثمنا لذلك ، إذ قتل عام ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م فى موقعة تل السلطان ضد قوات الأمير السلجوقى بركياروق .

ويبدو أن من العوامل الرئيسية التى ساعدت على ظهور عماد الدين زنكى، ذلك الدور الذى لعبه والده فى عهد السلاجقة ، ويلاحظ أنه عندما استولى القائد التركى كربوغا^(١) على الموصل عام ٤٨٩هـ / ١٠٩٥م ، أولى زنكى اهتمامًا خاصًا^(٢)، وصارت له مكانة عالية فى حاشيته إلى أن توفى عام ٤٩٥هـ / ١١٠١م، ثم شارك زنكى بدور مهم فى دعم النشاط الحربى الذى قام به الأمير شرف الدين مودود^(٣)، خلال ولايته على الموصل (٥٠١-٥٠٧هـ / ١١٠٨-١١١٣م) وقد أظهر براعة قتالية فى المعارك التى خاض غمارها ضد الصليبيين، ومن بعد ذلك انضم إلى الأمير أبق سنقر البرسقى ، الذى وجهه السلطان السلجوقى لقتال الصليبيين، وقاتل فى الرها ، وسميساط ، وسروج ، وعندما عين البرسقى عام ٥١٦هـ / ١١٢٢م شحنة على العراق ، رافقه زنكى واشترك معه فى المعركة التى دارت ضد دبيس بن صدفة صاحب الحله وانتهت بهزئته، وقد اتجه البرسقى إلى زيادة اعتماده على زنكى فولاه وأسط^(٤)،

١- عماد الدين خليل، عماد الدين زنكى ، ص ٣٥ .

وعن كربوغا أنظر : ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ١١١-١١٢ .

ابراهيم خليل، «كربوغا صاحب الموصل» ، المؤرخ العربى، العدد (٥) ، ص ٩٥-١١٩ .

٢- عماد الدين خليل ، المرجع السابق، ص ٣٦ .

٣- عن مودود انظر : ابن القلائسى ، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨٧ .

Fink , "Maudud of Mosul Precursor of Saladin" The Muslim World, XL III , 1953 , PP.

18-37 .

عبد الغنى رمضان ، «شرف الدين مودود» ، مجلة كلية الآداب جامعة الرياض ، م(٤) ، السنة (٤) ١٩٧٦-١٩٧٧م، ص ١٢٩-١٥٠ .

عفاف صبره ، «الأمير مودود بن التوتكين» مجلة الدارة، العدد (٢) ، السنة (١٢) ١٩٨٦م، ص ١٠٩-١٣٢ ، أرشيد يوسف ، سلاجقة الشام والجزيرة فى الفترة ما بين ٤٣٥-٥٧٠هـ، ط. الرياض ١٩٨٨م، ص ١١٩ .

٤- ابن الأثير ، الباهر ، ص ٢٤ .

ومن بعد ذلك بدأ دوره يتزايد وفى عام ٥٢٠هـ / ١١٢٦ م صدر منشور شحنة الجية العراق إضافة إلى مالدیه من أملاك ، وفى العام التالى أى ٥٢١هـ / ١١٢٧ م صدر قرار بأن يكون أتابك لولدى السلطان السلجوقى ، وهما الب أرسلان ، وفروخ شاه وعرف منذ ذلك العهد بالأتابك ، ولاشك فى أنه تمتع بسلطات سياسية وعسكرية كبيرة وحجب أية أدوار لابنى السلطان .

وتمثل أتابكية عماد الدين زنكى مرحلة مهمة فى التاريخ السياسى لبلاد الشام والجزيرة فى مواجهة الوجود الصليبي، وقد اهتم بالجيش الذى مثل عصب دولته فصارت لديه قوة عسكرية كبيرة ، وتألف من عناصر من الخرسانيين والحليين والتركمان ، بالإضافة إلى عناصر غير نظامية مثل الفقهاء والمتصوفة وغيرهم، وقد حرص زنكى على الحصول على مورد بشرى ثابت لجيشه فعمل على فرض التجنيد الإجبارى^(١) على بعض المناطق ، كذلك احتوى جيشه على نظام الاستخبارات على نحو ممكن من معرفة الدقائق العسكرية لأعدائه^(٢) .

وقد ساهم عماد الدين زنكى بدور فعال ضد الوجود الصليبي فى الجزيرة ؛ حيث تمكن جيشه من إسقاط إمارة الرها عام ٥٣٩هـ / ١١٤٤ م^(٣) . فسقطت بذلك أولى الإمارات الصليبية وجاء ذلك إيذاناً بتهوى البناء الصليبي بأسره فيما بعد .

وبعد مقتل زنكى على يد أحد حراسه عند أسوار قلعة جعبر^(٤) فى ٦ ربيع الآخر عام ٥٤١هـ / ليلة سبتمبر ١١٤٦ م حدثاً هاماً ومؤثراً فى تطورات الأحداث فى بلاد الشام والجزيرة ،

١- ابن العديم ، بغية الطلب ، تراجم السلاجقة ، ص ٢٦٣ .

٢- عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكى ، ص ١٩١-١٢١ .

٣- ابن القلائسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩ ، عليه الجنزورى ، إمارة الرها الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٧٤ م ، ص ٣١٦ - ٣١٧ .

Gibb, "Zengi and The Fall of Edessa" in Setton, The Crusades, Pennsylvania 1952 , vol I, p. 461 .

٤- ابن القلائسى ، ذيل دمشق ، ص ٢٨٤-٢٨٥ ، ابن الأثير ، الباهر ، ص ٧٤ ؛ حسن حبشى ، نور الدين والصليبيون ، ط. القاهرة ١٩٤٨ م ، ص ٤٠ .

Stevenson, The Crusaders in The east , Beirut 1962, p. 131 .

لقد طويت صفحة من الصراع الإسلامى الصليبي ، وفى نفس الوقت أذن ذلك بتفكك دولة عماد الدين زنكى لتنقسم بين أبنائه سيف الدين غازى ، ونور الدين محمود ، وقطب الدين مودود ، ونصرة الدين أمير ميران ^(١).

وبان الاضطراب الذى وقع فى أعقاب مقتل زنكى حيث تفرقت جيوشه وتم نهب أمواله ^(٢)؛ وجد من القادة السياسيين والعسكريين المحنكين من أتباعه من سعى إلى رأب الصدع ودعم الحكم فى بيته، وعلى الرغم من العداء الذى وقع بين اثنين منهم، وهما جمال الدين الأصفهاني، وصلاح الدين الياغيساني ^(٣)، إلا أنهما اتفقا على تقسيم الأملاك بين أبنائه على أن يكون سيف الدين غازى حاكماً على الموصل، ونور الدين محمود حاكماً على حلب، وقد دفعهم إلى سرعة تدارك الأمر، الخوف من أعتبال الصليبيين الفرصة القائمة بالهجوم على الأعمال الشامية والجزرية ، وقد تقدم عدد من أولئك القادة نحو صحبة نور الدين فى طريقه صوب حلب للسيطرة عليها ، مثل الياغيساني ومجد الدين بن الداية وأسد الدين شيركوه وسيف الدين سوار ^(٤)، وجميعهم لعبوا أدواراً مهمة فى تمكين سلطان وتوسع الدولة النورية فيما بعد ، وقد تم توزيع الأموال لشراء الأتباع والأعوان ^(٥)، وأمكن السيطرة على حلب ، وحماه ، ومنبج، وحران ، وحمص ، وكافة أملاك عماد الدين زنكى فى بلاد الشام ^(٦) ، وهكذا وضع نور الدين محمود ومستشاروه أساس قيام دولته متخذاً من حلب مركزاً لها ^(٧)،

١- . Elisseeff, L'orient Musulman au Moyen age , Paris 1977, p. 244 .

٢- الفارقي ، تاريخه ، بهامش ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٥ .

٣- ابن الأثير ، الباهر ، ص ٨٤ .

٤- ابن القلاسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٥ ؛ ابن قاضى شهبه ، الكواكب الدرية فى السيرة النورية ، تحقيق محمود زايد ، ط. بيروت ١٩٧١م، ص ١٢٢، شاكراً أبويدر ، الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ، ط. بيروت ١٩٧٢ م ، ص ٢٧٦ .

٥- ابن القلاسى ، المصدر السابق ، ص ٢٨٥ .

٦- الفارقي، تاريخه ، ص ٢٨٩ .

٧- العماد الأصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق، ط. بيروت ١٩٨١م ، ص ١٩١؛ ابن الشحنة ، روضة =

وعلى الرغم من أنه كان حينذاك شاباً قليل الخبرة السياسية^(١)، إلا أنه أدار دفعة البلاد بنجاح بفضل مستشاريه، ويبين ذلك اختياره لمدينة حلب مركزاً لدولته فلم يكن ذلك اختياراً عشوائياً بل لدوافع اقتصادية تجارية خاصة وكذلك استراتيجية فقد كانت من أهم المراكز التجارية في بلاد الشام، وملتقى العديد من القوافل العراقية، والبيزنطية، والشامية، والمصرية، والهندية، وقد فرضت فيها المكوس على حركة التجارة على نحو قدم لميزانية الدولة الوليدة دعماً مالياً كبيراً^(٢)، وتمتعت بشراء عريض فاق غيرها من مدن الشام والجزيرة - باستثناء دمشق بطبيعة الحال - وعلى الصعيد الاستراتيجي، مثلت حلب مع الموصل في شمال العراق خطاً دفاعياً بالغ الأهمية عن بلاد الشام، فحق القول بأن من يستولى على حلب يمكنه السيطرة على كافة المناطق الشامية الشمالية والوسطى وفق مقتضيات الظروف التاريخية، ولا تغفل أيضاً أن اختيار الشام عامة وحلب خاصة، قد قدم لنور الدين فرصة سانحة للابتعاد عن المشرق ومشاكله السياسية سواء مع العباسيين أو السلاجقة^(٣)، وهى تلك المشاكل التى انغمس فيها عماد الدين زنكى واستهلكت جانباً من قوته.

وقد واجهت الدولة النورية مشكلات ومصاعب داخلية، فهناك الصراع على السلطة، وكذلك الحركات السياسية المناوئة لها متمثلة فى نشاط الإسماعيلية النزارية المضاد.

أما الصراع على السلطة فنجد مثلاً له فى دور أحد إخوة نور الدين محمود، وهو نصره الدين أمير ميران، الذى هدف إلى الاستيلاء على مقاليد الحكم بإخضاع مدينة حلب لسيطرته،

= المناظر، بهامش جـ (٨) من الكامل لابن الأثير، ط. القاهرة ١٣٩٠هـ، ص ٢٢٤، عاشور، الحركة الصليبية، ط. القاهرة ١٩٦٣م، ج ٢، ص ٦١١.

١- Gibb, "The Career of Nur Al- Din" in Setton, The Crusades, vol. I, P. 513.

٢- عن أهمية حلب التجارية أنظر:

ياقوت، معجم البلدان، ج ٧، ص ٢٨٥؛ شيخ الرتبة، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، تحقيق مهران، ط. بطرسبرج ١٨٣٥م، ص ٢٠٢، الغزى، نهر الذهب فى تاريخ حلب، ط. حلب ١٩٤٢م، ج ١، ص ١٤٥، هايد، تاريخ التجارة، ص ١٨٠، أحمد رمضان، المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص ١٠٧.

Elisseff, Nur Al- Din, Damas 1967, T. III p. 859-862.

Mayer, The Crusades, Trans. by J. Gillingham, Oxford 1972, p. 116.

وعمل على تدعيم حركته من خلال التركيز على عناصر الشيعة الإسماعيلية ، الذين عضدوه وذلك فى عام ٥٥٤هـ / ١١٥٩م غير أن تلك المحاولة لم تكلل بالنجاح ، إذ فشلت عندما حاول مد أهدافها إلى دمشق وتم قمع حركته^(١).

أما عناصر الإسماعيلية النزارية، فقد تفاقمت معارضتهم للدولة إذ أن السلطة السياسية القائمة كانت فى أيدي العناصر السنية بينما حرم الإسماعيلية من الاعتراف الرسمى بوجودهم على نحو متساو مع الوجود السنى .

وقد اتبع نور الدين سياسة متسامحة تجاههم فى أول الأمر، للاستفادة منهم ولكى يتجنب إثارة القلاقل فى وجه دولته الوليدة، ولكن منذ عام ٥٤٣هـ / ١١٤٨م اتجه إلى معاداتهم^(٢)، وعمد إلى إلغاء صيغة الأذان الشيعية الخاصة «بحى على خير العمل» فى عام ٥٤٣هـ / ١١٤٨م^(٣) بتأييد من العناصر السنية القيادية ، مما أثار الإسماعيلية الذين وقفوا إلى جانب الصليبيين ضده فى معركة أنب فى العام التالى مباشرة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م^(٤) . وتوالت من

١- عن ذلك أنظر :

ابن القلائسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٥٥؛ سبط بن الجوزى، مرآة الزمان ، ج ٨ / ق ١ ، ص ٥٥٢ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب، ج ٢ ، ص ٣٠٨ ؛ بغية الطلب، ص ٢٧٥ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، تحقيق الشيال ، ط. القاهرة ، ص ١٣٠-١٣١ .

Khayat, " The Shite Rebellions in Aleppo in the 6th A. D. century " R. D. S. O. XL VI , Fasc 3.4 , December 1971, pp. 131-132 .

٢- عمر كمال توفيق ، مملكة بيت المقدس الصليبية ، ط. الاسكندرية ١٩٥٨م، ص ١٤٩ .

٣- ابن القلائسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠١ ؛ ابن عساكر ، ترجمة محمود بن زنكى ، تحقيق اليسيف BEO, T. XXV, Anée 1972 ، ص ١٣٠ ، ولاية دمشق فى العصر السلجوقى، تحقيق صلاح الدين المنجد ، مجلة المجمع العلمى بدمشق م (١٤) ، ج (٤) لعام ١٩٤٩م، ص ٥٥٠، زكى نقاش ، الحشاشون وأثرهم فى المجتمع ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب جامعة القاهرة لعام ١٩٥٢م، ص ١٣٩ .

Lewis, The Assassins , Aradical sect in Islam, P. 109-110 , The Islamailites and The Assassins, in Setton , vol . I, p. 118 .

٤- بيشوف ، تحفة الأنبياء فى تاريخ حلب الشهباء ، ط. بيروت ١٨٨٥م ، ص ١٣٧ .

بعد ذلك المواقف العدائية من جانبهم ، فأحرقوا الجامع الكبير فى حلب عام ٥٤٨هـ / ١١٥٣م؛ فعمل نور الدين على إعادة بنائه وتوسيعه . كذلك وقعت مصادمات بين الشيعة والسنة عام ٥٥٤هـ / ١١٥٩م^(١) ، تم خلالها نهب مدرسة ابن عسرون السنية ولاريب أن نهبهم لها دل على حنقهم على الدور الذى قامت به المدارس السنية فى مقاومة إنتشار الدعوة إلى المذهب الإسماعيلى وعلى سياسة نور الدين المدعومة للسنة ضدهم .

فلا غرابة والأمر كذلك : أن بلغته تهديدات عديدة باغتياله^(٢) ، مثلما فعلوا من قبل مع العديد من القيادات السياسية السنية على مدى المرحلة السابقة من القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، وقد عاصر عهد نور الدين أحد كبار قيادات الإسماعيلية النزارية فى بلاد الشام خلال عصر الحروب الصليبية ونعنى به راشد الدين سنان^(٣) (٥٥٩-٥٨٩هـ / ١١٦٣-١١٩٣م) وقد تمتع بقوة سياسية كبيرة وأمكنه السيطرة الكاملة على أتباعه على نحو لم يتسن لغيره بقوة سياسية كبيرة وأمكنه السيطرة الكاملة على أتباعه على نحو لم يتسن لغيره من كبار مقدمى الإسماعيلية النزارية فى بلاد الشام بما فيهم الحكيم المنجم الباطنى ، وأمام تفوق مركزه اتجه نور الدين إلى مراسلته وتبادل وجهة نظره معه ، ولاريب فى أن كلاً منهما دافع عن مذهبه فى مواجهة الآخر، وقد أقر بتلك الاتصالات المؤرخين السنيون أنفسهم^(٤).

ويضاف إلى ذلك : اندلاع حركات ثورية إجتماعية ذات طابع فلاحى، ومن أمثلتها حركة معز الدين المغربى ، الذى خرج على السلطة ولقيت تحركاته دعم الفلاحين فى مدن الشام الكبرى ، كدمشق، وحلب، وحماه، وحمص، وغيرها ، وقرر البعض أنه ظهر بدمشق عام

١- ابن العديم ، زبدة الحلب، ج٢ ، ص٣٠٨-٣٠٩ .

٢- رنسيان ، الحروب الصليبية، ت. السيد الباز العرنى، ط. بيروت ١٩٦٨م، ج٢ ، ص٦٤١ ، حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية فى عصر الصليبية، ط. القاهرة ١٩٧٢م، ج٢ ، ص٧٣ .

٣- عنه انظر : ابن العديم، سيرة راشد الدين سنان ، تحقيق Lewis REA, Année 1966 ، ثلاثة تراجم من ابن العديم، تحقيق Lewis " Füad Koprülü, Melanges " ط. استانبول ١٩٢٣م ، ص٣٣٦-٣٤٢ .

٤- ابن خلكان ، وفيات الأعيان، ج٤، ص٢٧٢؛ اليافعى، مرآة الجنان، ط. حيدر آباد الدكن، ج٣ ص٣٨٧ .

٥٦٦هـ / ١١٧٠م^(١) ، والبعض الآخر عام ٥٦٩هـ / ١١٧٣م^(٢) ، وعضد القطاع الفلاحي حركته بصورة كبيرة ، ويؤكد البعض الدوافع الاقتصادية وراءها^(٣) ، وأن معاناتهم من مساوى النظام الإقطاعى حدت بهم إلى دعم حركة معز الدين المغرى ، وكما هو متوقع قام المؤرخين الرسميون باتهام حركته بأبشع الاتهامات - شأنهم دائماً- واتهموه بأنه ادعى الربوبية^(٤) ، أو النبوة^(٥) ونفوا عن حركته أية اتجاهات إصلاحية ، ويلاحظ أنها كانت من القوة والتأثير بحيث أنها استمرت عدة سنوات إذ لم تقمع إلا فى عام ٥٧١هـ / ١١٧٥م^(٦) .

ولاريب أن الدولة النورية أدركت مدى الأخطار المحدقة بها فى صورة الاتجاهات المناوئة لها فى الداخل، ومن ثم عملت على مواجهتها من خلال إقامة جهاز أمنى قوى تنتشر فروعه فى كافة أنحاءها ، وأيضاً من خلال تكوين قوة عسكرية ضاربة قادرة على حماية حدودها بل والتوسع الخارجى ، وفى المجال الأول نعرف أنها أوجدت وظيفة الشحنةجية^(٧) ، التى اختصت بأمور الشرطة ، والأمن الداخلى ، وكان هناك من لقب بمتولى شرطة الشام^(٨) . ومن الذين تولوا ذلك المنصب صلاح الدين يوسف بن أيوب^(٩) ، وكمال الدين الشهرزورى^(١٠) .

١- ابن قاضى شهبه ، الكواكب الدرية ، ١٩٥ .

٢- الأصفهاني ، البستان الجامع ، ص ١٤٠ .

٣- أشتور ، التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، ت. عبد الهادى عبله ط. دمشق ١٩٨٥م ، ص ٢٨٨ .

٤- ابن قاضى شهبه ، المصدر السابق ، ص ١٩٥ .

٥- الأصفهاني ، البستان الجامع ، ص ١٤٠ .

٦- ابن قاضى شهبه ، المصدر السابق ، ص ١٩٥ .

٧- عنها انظر :

ابن خلدون ، المقدمة ، ط. القاهرة ، ب-ت ، ص ٢٢٠ ، عبد القادر طليحات ، مظفر الدين كوكبورى ، القاهرة ١٩٦٤م ، ص ١٩ .

٨- ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١١٨ .

٩- ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٦٧ .

١٠- الفتح البندارى ، سنا البرق الشامى ، تحقيق فتحة النبراوى ، ط. القاهرة ١٩٧٩م ، ص ٢٨ .

أما الجيش النورى فإنه تلقى دعمه البشرى من خلال سهول أودية أنهار الفرات والعاصى، وغيرها من الأنهار الجزرية والشامية ، وقد ساهم التركمان^(١) بنصيب وافر فيه وتفوقوا فى المعارك الحربية واشتهروا بمهاراتهم خاصة فى رمى السهام^(٢) ، وبالإضافة إليهم وجدت عناصر الأكراد وشكلوا أعداداً كبيرة ولم يكن تواجههم لدى قوات نور الدين محمود فحسب بل فى غيرها من قوات أمراء البيت الزنكى والأرتقى^(٣) ، ومن أشهر قادتهم فى الحرب والسياسة بنى شيركوه وبنى أيوب ، ثم عناصر العرب ومثلوا جانباً من الخيالة ومن أمثلتهم بنى منقذ فى شيزر^(٤) ، ومع ذلك يلاحظ أن دور العناصر العربية حينذاك كان محدوداً إذا ما قيس بدورها فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبي ، حيث عملوا كمشاة مساعدين وقوات تخصصت فى عمليات الحصار^(٥) ، وهناك أيضاً المغاربة وقد أشار إليهم ابن جبير فى رحلته^(٦) ، على نحو أكد أن قضية الصراع مع الصليبيين فى بلاد الشام لم تكن قضية مشرقية فحسب بل ومغربية أيضاً .

وتجدر الإشارة إلى أن الجيش النورى احتل مكانة كبرى فى اهتمامات الدولة، ولم يكن وجوده يعنى ترسيخ كيائها فقط، بل إنه مثل أداة تنفيذ سياستها الخارجية ، وطموحاتها نحو الأقاليم المجاورة ، وقد صارت كافة مرافق الدولة تصب فى النهاية فى العمل على خدمته وتدعيمه ، بل إن ذلك الطابع الحربى الواضح قد أثر على وضعية الأرض نفسها، وارتبط بها ارتباطاً وثيقاً وهذا ما نجده فى صورة الإقطاعى العسكرى .

١- سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج٨ / ق ١ . ط. حيدر آباد الدكن ١٩٥١ م، ص ٢١٠ .

٢- ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٤١ ، ذكرى كتابجى، الترك فى مؤلفات الجاحظ ، ط. بيروت ١٩٧٠ م ، ص ٢٤٣ ، أحمد فؤاد سيد ، ملاحظات جديدة حول ظهور الماليك ، ضمن كتاب دراسات عربية وإسلامية ، مهداة إلى محمود شاكر، ط. القاهرة ١٩٨٢ م، ص ٥١ .

٣- جب ، «جيوش صلاح الدين» ضمن كتاب صلاح الدين الأيوبي، ص ١٧١ .

٤- نفسه ، نفس المرجع ، ص ١٧٢ .

٥- Gibb, The Career of Nur Al- Din , P. 520 .

٦- الرحلة ، ص ٢٤٧ .

فلقد ورثت الدولة النورية عن السلاجقة نظرتهم إلى الأرض والنظام الإقطاعى ، إذ اعتبروا المملكة بمثابة ضيعة السلطان السلجوقى ، فعمل على إقطاعها لأتباعه ورجال دولته^(١) ، وظهر شكل حربى للإقطاع وهو أن الجند الذين لازموا ركاب السلطان والذين عرفت أسماؤهم فى ديوان الجند ، وزعت إقطاعاتهم على سائر المملكة ، حتى إذا نزلوا منطقة ما كانت معداتهم واحتياجاتهم متوافرة^(٢) ، وفى ظل ذلك النظام إلتمز الحكام الأتراك بتقديم أعداد معينة من الجند للخدمة العسكرية كشرط للاحتفاظ بإقطاعاتهم^(٣) ، وورثت دولة عماد الدين زنكى ذات الاتجاه^(٤) ، وسار عليه من بعده أبنة نور الدين محمود ، فكان يقطع الإقطاعات لرجال دولته والجند فى مقابل الخدمة العسكرية^(٥) .

وأدركت الدولة النورية أنه لا سبيل لقيام الجيش بدوره فى خدمة سياستها الخارجية ، إلا بقيام جهاز إدارى محكم يمكنها من استغلال كافة الموارد الطبيعية والبشرية المتاحة من أجل

١- حسن محمود والشريف ، العالم الإسلامى فى العصر العباسى الثانى ، ط. القاهرة ١٩٦٦م ،

ص ٥٨١ .

٢- الراوندى ، راحة الصدور ، ص ٢٠٤-٢٠٥ .

٣- جب ، تاريخ دمشق ، ص ٥٣ .

٤- سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ / ق ١ ، ص ١٩٠ .

٥- ومن أمثلة الإقطاعات النورية :

إن نور الدين أقطع أسد الدين شيركوه حمص والرحبة فى عام ٥٦٣هـ / ١١٩٧م ، وأقطع مجبر الدين أبى عدة ضياع بحمص وذلك بعد أن سيطر على دمشق ، وأقطع أمراء الغرب البحتريين فى لبنان أقطاعات عام ٥٦٠هـ / ١١٦٤م وحدد لهم أربعين فارساً كحد أدنى للمساهمة فى الحرب عند الحاجة ، عن ذلك انظر : ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ط. بيروت ، ص ٢١٣ ؛ ابن ايبك الدوادارى ، الدرة المضيئة فى تاريخ الدولة الفاطمية ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ط. القاهرة ١٩٦١م ، ص ٢١٩ ؛ صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، تحقيق كمال الصليبي وهريس ، ط. بيروت ١٩٦٧م ، ص ٦٠ ، عماد الدين خليل ، « الجانب الإدارى فى مملكة نور الدين محمود » ، آداب الرافيدين ، العدد (٨) ، لعام ١٩٧٧م ، ص ٥٠ .

دعم ميزانية البلاد التى ستصب فى النهاية وبصورة كبيرة فى ميادين القتال ، وقد تمثل جهازها الإدارى فى صورة مجموعة من الدواوين المهمة ، مثل ديوان الاستيفاء أو المالىذ الذى اختص بكافة المصادر المالية للدولة مثل الزكاة والمجزية والخراج ، ويلاحظ أن الأخير اتخذ شكل حصة مالية تفرض على الأرض ، أو أن يكون حصة من الغلال حيث عرف النظام الأول بالالتزام^(١) ، والثانى بالمقاسمة^(٢) ، ويضاف إلى ذلك المكوس التى فرضت على تجارة العبور ، ثم ديوان الخراج وديوان الإنشاء^(٣) ، الذى اختص بأهمية كبيرة لإرتباطه بكافة المكاتبات والمراسلات التى أجرتها السلطة المركزية مع ولاية الأعمال فى الداخل ، وكذلك الملوك والخلفاء والسلطين والأباطرة فى الخارج ، ولإجدال فى أن عمله اتسع نظراً لاتساع رقعة الدولة ، وكذلك حجم معاملاتها مع القوى السياسية المجاورة. ثم ديوان البريد؛ الذى اختص بإيصال أخبار الأقاليم إلى مركز الدولة لمتابعة تطور الخدمات الإدارية ، ومباشرة حكم الأطراف ، ويلاحظ أنه تم إدخال الحمام الهوادى فى نقل الأخبار لسرعة توصيلها ، وذلك منذ عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م^(٤) ، كذلك وجد ديوان الضرب^(٥) ، وهو الخاص بسك العملة حيث استخدمت الدولة النورية عملات

١- محمد عامر ، دولة بنى مروان فى ديار بكر، رسالة ماجستير غير منشورة كلية دار العلوم- جامعة القاهرة ، ص٢٩٨ ، سامية توفيق ، «الثروة الزراعية فى إقليم خراسان» ، مجلة كلية الدراسات الإنسانية- جامعة الأزهر ، العدد (٣) لعام ١٩٨٥ م ، ص٢٤٠ .

٢- سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج٨ / ق١ ، ص٣١٢ .

٣- عنه بالتفصيل انظر :

ابن الصيرفى ، قانون ديوان الرسائل ، تحقيق على بهجت ، ط. القاهرة ١٩٠٥م ، القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ، ط. القاهرة ، حسن حبشى ، «ديوان الإنشاء ، نشأته وتطوره» ، ضمن كتاب القلقشندى وكتابه صبح الأعشى. ط. القاهرة ١٩٧٣م .

٤- ابن الأثير ، الباهر ، ص١٥٩ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج١ / ق٢ ص٥٢٠ ؛ ابن قاضى شهبه ، الكواكب الدرية ، ص٣٨ ، ص٦٧ ، ضيف الله بطاينه ، «الجهاز الإدارى فى الحضارة الإسلامية» ، الدارة ، العدد (٢) السنة (١٠) لعام ١٩٨٤م ، ص١١٥ .

٥- عنه بالتفصيل : ابن بكرة ، كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية ، تحقيق عبد الرحمن فهمى ، =

ذهبية وفضية ونحاسية ، ومن المرجح أن الفضة كانت متوافرة بصورة كبيرة ، ذلك أن بلاد الشام امتلكت كميات كبيرة من المعدن الأبيض لقربها من مناطق فارس وآسيا الوسطى حيث جلب من هناك ولائصالها مع الصليبيين الذين استوردوه من أوروبا^(١) ، وأشرف الديوان على مراكز سك العملة التى تمثلت فى حلب^(٢) ، ودمشق^(٣) ، حيث وصلت إلينا من الأخيرة عملة سكّت عام ٥٥٨هـ / ١١٦٢م^(٤). كذلك بلغنا درهم نحاسي^(٥) ، وإلى جانب العملات المعدنية من المرجح أن بلاد الشام والجزيرة حينذاك عرفت الأوراق المالية، وهى التى عرفت بالقراطيس^(٦)، وقد تعرضت لهزات متعددة .

ومن ناحية أخرى : أدى قيام الدولة النورية إلى نتائج عديدة على كافة الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، وعلى المستوى السياسى أقامت نظاماً أمكنها من إحكام قبضتها على أقاليمها لتوجه طاقاتها نحو سياستها الخارجية الطموحة وامتازت فى نظامها السياسى بمميزات خاصة، فعلى الرغم من أن دولة عماد الدين زنكى وصفت بأنها أتابكية ، ووصف بأنه أتابك إلا أن الأمر اختلف بالنسبة لنظام الحكم فى الدولة النورية

= ط. القاهرة ١٩٦٦م ؛ ابن ممتى ، قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية ، ط. القاهرة ١٩٤٨م ، ص ٣٣١ ؛ الخزرجى ، المنهاج فى علم خراج مصر ، تحقيق كلود كاهن، المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ، ط. القاهرة ١٩٨٦م، ص ٣٠ ص ٣١ ؛ أبو الحسن الحكيم ، الدوحة المشتبكة فى ضوابط السكة، تحقيق حسين مؤنس ، معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ١٩٦٠م، ص ٦١-٦٨.

١- اشتور ، التاريخ الاقتصادى والاجتماعى ، ص ٢٨٧ .

٢- Lavoix, Catalogue des monnaies musulmanes, Paris 1896, p. 172 .

٣- Lane- Poole , Catalogue of the collection of Arabic coins Preserved in the Khedieval Library in Cairo, London 1987, P. 345 .

٤- Lane- Poole, Loc. Cit.

٥- باقر الحسينى ، العملة الإسلامية فى العهد الأتابكى ، ط. بغداد ١٩٦٦م، ص ٨٣.

٦- الفتح البندارى ، سنا البرق الشامى ، ص ٢٦ ؛ أبو شامة الروضتين ، ج ١ / ق ٢ ، ص ٣٥ .

إذ اتخذ شكل الملكية أو السلطنة، وقد وصف نور الدين محمود بأنه ملك أو سلطان^(١)، ولم يوصف قط بأتابك كما تصور البعض^(٢)، مما يدل على أن تلك الدولة وإن كانت إفرازاً أتابكياً إلا أنها خالفتها حيث لم تنشأ في كنف السلاجقة وإن أخذت عنهم الكثير في نظمها السياسية.

وقد ورثت الدولة النورية عن دولة السلاجقة بعض المناصب السياسية مثل الوزارة، وإن لم تكن وزارة تفويض مثلما وجدنا الأمر في العصر الفاطمي الثاني، بل وزارة تنفيذ لأوامر السلطان، وأوكل نور الدين أمرها للعناصر المدنية دون العسكرية^(٣)، وربما دفعه إلى ذلك كفاءة المدنيين، وخشيته من زيادة نفوذ العسكريين على نحو يهدد سلطانه، ويضاف إلى ذلك مناصب أخرى مثل الحجابة وهي التي عرفت من قبل لدى السلاجقة، وكذلك على عهد الأتابك عماد الدين زنكى، وقد صار لنور الدين محمود عدة حجاب^(٤)، كما وجد منصب النيابة؛ حيث عمل النائب في المنطقة التي عين بها على المساعدة في إدارتها نيابة عن السلطان، وهناك منصب الولاية، وقد اختص بالأمور الداخلية للولاية وحمايتها من التهديدات الخارجية^(٥)، وإلى جانبه وجد منصب والى القلعة^(٦)، الذي اختص بفتح وإغلاق قلعة المدينة وصيانتها في حالة تعرضها للهزات الأرضية، أما رئيس المدينة^(٧)، فإنه اختص ببعض

Elisseff, la Titularité de Nur Al- Din , P. 160 .

-١

Baldwin , “ The Latin States under Baldwin III and Amalric I “ in Setton , The Crusades, vol. I , p. 545 .

٣- عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكى، ص ٢٦٥ .

٤- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٥٥ .

٥- عصام الدين عبد الرؤف ، بلاد الجزيرة في أواخر العصر العباسي، ط. القاهرة ١٩٧٩ م، ص ٢٢٨ .

٦- ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

٧- ابن العديم ، بغية الطلب - - تراجم السلاجقة ، ص ٢١٢ - ٢١٦ ، العظيبي، تاريخه ، نشر كلود

كاهن . J. A, Année 1938 . ص ٤٠٠ .

اختصاصات الوالى، وإن كانت المصادر لاتسعننا بما يجعلنا ندرك أن تلك الاختصاصات تمت فى وجود الوالى أو فى غيابه .

أما نتائج قيام الدولة النورية على الصعيد الاقتصادى فكانت ذات تأثير بالغ على سياستها الخارجية، وإن أثرت الأخيرة على تطورها الاقتصادى ، إذ أنها حرصت على التوسع من أجل السيطرة الاقتصادية على تجارة العبور وغيرها من الموارد الحيوية، ونظراً لمجاورة الدولة النورية للعدو الصليبي ونشوب المعارك على الحدود، ولأن هذا الوضع قد جعل منها «دولة ثغرية» لذا فإنها أدركت ضرورة أن تعتمد على دعامة اقتصادية قوية تمكنها من مواجهة الصراع مع الصليبيين، ولم يكن ليتأتى لها ذلك بدون استغلال موفق لمواردها الاقتصادية الطبيعة والبشرية .

وفى المجال الزراعى امتازت أقاليم الدولة النورية بخصوبة التربة بصفة عامة وتوافر مصادر الرى سواء من الأنهار أو الأمطار ، أو الينابيع ، والآبار وحرصت الدولة على تشييد شبكة محكمة من القنوات لإيصال مياه الأنهار إلى المناطق المزروعة ، وقد أنتج القطاع الفلاحى العديد من المحاصيل الزراعية التى دخل بعضها فى نطاق التصنيع مثل القطن^(١)، وقصب السكر^(٢)، والسهم^(٣) ، والزيتون^(٤) ، وغيرها .

أما فى المجال الصناعى فقد امتازت الدولة النورية بتوافر المواد الخام اللازمة للتصنيع ، وكذلك العمال المهرة ووسائل النقل ، وازدهرت حينذاك صناعة المنسوجات القطنية والصوفية

١- ابن سعيد المغربى، كتاب الجغرافيا ، ص١٥٤ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج٧ ، ص٢٨٢ ؛ ابن البيطار ، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ، ط. القاهرة ١٢٩١هـ، ج٤ ، ص١١ ، ص٢٤ ؛ القزوينى، عجائب المخلوقات ، ص٢١٠ .

٢- ناصر خسرو ، سفر نامه ، ص٤٣ ؛ ابن جبیر ، الرحلة ، ص٢٠٥ ؛ القزوينى ، آثار البلاد ، ص٢٠٧ ، صالح الحمارة ، «زراعة قصب السكر وصناعاته عند العرب المسلمين» ، الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب ، ط. حلب ١٩٧٧م ، ص٥١٥ .

٣- ياقوت ، المصدر السابق ، ج٧ ، ص٢٨٢ .

٤- ابن جبیر ، المصدر السابق ، ص٢٠٥ ، ابن بطوطة ، الرحلة ، ص٦٧ .

والحريرية خاصة ثياب الدمسك^(١) ، والموسلين^(٢) ، وكذلك صناعات الورق ، والزجاج ، وتكفيت المعادن^(٣) ، وغيرها .

وبلاحظ أنه من خلال استعراض عدد من الصناعات فى عهد الدولة النورية يمكن استنتاج عدة ملاحظات مهمة تدور حول معوقات التقدم الصناعى حينذاك ، وهى أن الآلات التى التى يمكن استخدامها لم تكن معقدة ، ولم توجد المعدات التى يمكن أن تدار عن طريق المعادن التى وجدت فى بلاد الشام والجزيرة ، وظلت الطاقة الأساسية متمثلة فى حركة الماء لإدارة الطواحين ، كذلك لم يتم استغلال مناجم الحديد والنحاس فى بيروت والموصل ومناطق أخرى فى صناعات ثقيلة بل إن استخدام الحديد انحصر فى صناعة أدوات الطب^(٤) ، والجراحة ، وكذلك الأسلحة وأيضاً فى بعض أدوات الصناعة البسيطة ، وهذا الوضع بالطبع حد من نمو حركة التصنيع ، ومن جهة أخرى حرصت الطبقة الوسطى التجارية على استثمار رأس مالها فى حركة التجارة الداخلية والخارجية النشطة ولم تشأ استثماره فى المجال الصناعى^(٥) ، حيث رغبت فى توظيفه فى المجال الذى توارثته وسبرت أغواره ، وهكذا فإن عدم حدوث تغير حقيقى فى وسائل الإنتاج ، وعدم التوصل إلى استخدام الطاقة ، كذلك عدم توافر وعى صناعى للطبقة الوسطى التجارية ، أدى إلى أن تكون بلاد الشام والجزيرة فى عهد نور الدين محمود معاصرة لنهضة صناعية لاثورة ، حيث استمرت أساليب الإنتاج التقليدية .

١- ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق بول رافيس ، ط. باريس ١٨٩٤م ، ص ٤٦ ، صلاح العبيدى ، الملابس العربية الإسلامية فى العصر العباسى من المصادر التاريخية والأثرية ، ط. بغداد ١٩٨٠م ، ص ٦٩ .

Serjeant, Islamic Textiles, Material for A History up to the Mongul conquest, Beirut 1972 , p. 117 .

٢- ماركو بولو ، رحلات ماركو بولو ، ص ٣٧ .

٣- ابن سعيد المغربى ، بسط الأرض فى الطول والعرض ، تحقيق خوان خنيس ، ط. تطوان ١٩٥٨م ، ص ٢٣١ ، وعن التكفيت ، أنظر : كرسى ، تراث الإسلام فى الفنون الفرعية ، ت . زكى حسن ، ط. دمشق ، ص ٥١ ، سعاد ماهر ، مشهد الإمام على بالنجف وما به من الهدايا والتحف ، ط. القاهرة ١٩٦٩م ، ص ١٥٣ .

٤- محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا الفكر الإسلامى ، ط. الدار البيضاء ١٩٨٠م ، ص ١٥٩ .

٥- نفسه ، نفس المرجع ، ص ١٥٨ .

وقد كان للدولة النورية سياستها تجاه القطاع الصناعى والحرفى، إذ حرصت على فرض الضرائب من أجل زيادة موارد ميزانيتها ، ويفهم من إشارة مقتضبة أوردها ابن القلانسى أن الدولة كانت تفرض رسوماً صناعية وهو ما أطلق عليه «الضمان»^(١) وقد فرض على أنواع من الحلوى ومنتجات الألبان ، حقيقة أنه ألغى فى عام ٥٥٣ / ١١٥٨ م^(٢)، إلا أن ذلك دل على أنها أخذت تفرض مثل تلك الرسوم على الصناعات والحرف المختلفة ، وإذا كان هذا هو الحال بالنسبة لصناعات ذات استثمار مالى محدود ، فلاشك فى أن الصناعات الكبيرة مثل الغزل والنسيج وغيرها نالت أهمية أكبر فى تدخل الدولة الضريبى ، ومن ناحية أخرى فمن المحتمل أن الدولة النورية قامت باحتكار بعض الصناعات حيث اتجه إلى نفس السياسة بعض الدول المعاصرة المجاورة حيث احتكر الفاطميون صناعة النسيج ودور الطراز^(٣) ، واتجه إلى ذلك البيزنطيون فى بعض الأحيان^(٤) .

وفيما يتصل بالتجارة اتبعت الدولة النورية سياسة انطوت على الرعاية الكاملة للتجارة الداخلية وكذلك الخارجية ، واتجهت إلى إقامة العديد من المؤسسات التجارية مثل الخانات^(٥) ، والقياس^(٦) ، والفنادق^(٧) ، وأورد ابن عساكر العديد منها^(٨) فى مدينة دمشق ، كذلك شجعت

١- ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٥٣ .

٢- نفسه ، نفس المصدر والصفحة .

٣- ناصر خسرو ، سفر نامه ، ت. الخشاب ، ط. القاهرة ١٩٤٥ م ، ص ٤٠ ، ماجد ، الإمام المستنصر بالله الفاطمى ، ط. القاهرة ١٩٦١ م ، ص ١٥٢ .

٤- Runciman , Byzantine Civilisation , London 1936 , p. 174 .

٥- ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٣٣ ، ص ٢٣٩ ، فتحى عثمان ، الحدود الإسلامية البيزنطية ، ج ١ ، ص ٢٣٤ ، اشتور ، التاريخ الاقتصادى والاجتماعى ، ص ٣٠٥ ، نعيم زكى ، طرق التجارة التجارية الدولية ، ص ٢٩٣ .

٦- ابن عماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٤٥٧ ؛ ابن جبير ، المصدر السابق ، ص ١٨٨ .

٧- عاشور ، بعض أضواء جديدة على ابن عساكر ، ضمن كتاب ابن عساكر بمناسبة الاحتفال بمرور تسعمائة عام على ميلاده ، ط. دمشق ١٩٧٩ م ، ص ٢٣١ ؛ صبحى ليبى ، «الفندق» ، ظاهرة سياسية واقتصادية وقانونية» ، ندوة مصر وعالم البحر المتوسط ، جامعة القاهرة ١٩٨٤ م .

٨- تاريخ مدينة دمشق ، م (٢) ، ص ٦٢ ، ص ١٣٧ ، ص ١٢٧ ، ص ١٥٣ .

التجار اليهود على المشاركة فى النهضة التجارية التى شهدتها البلاد وقد استقروا فى مناطق خطوط التجارة العالمية المارة بـ مدن الشام والجزيرة الكبرى مثل دمشق، وحلب، وشيزر، ومعرّة النعمان، والموصل وغيرها ، ففى دمشق مثلاً وجدوا بأعداد كبيرة وعرفت حارة باسمهم^(١)، وقد تزايدت أعدادهم بها حتى بلغوا الآلاف ووصفوا بأن منهم «ذو اليسار»^(٢) أى أنهم اشتغلوا بالتجارة حيث كانت أكثر المجالات المحققة للثروة ، كذلك وجدوا مجالاً متسعاً فى أعمال الصيارفة .

وقد تاجرت الدولة النورية مع العديد من الكيانات السياسية فى عالم البحر المتوسط ، فهناك الإمبراطورية البيزنطية ، والقوى التجارية الإيطالية مثل جنوة ، والبندقية ، وبيزا وأمالفى^(٣)، وتمكن الإيطاليون على نحو خاص من زيادة حجم تجارتهم مع بلاد الشام والجزيرة، وأقام قناصلهم فى المدن الشامية والجزرية مثل حلب ، ودمشق ، والموصل وغيرها ، حيث عملوا على رعاية مصالح بلادهم الاقتصادية .

ولا مرأ فى أن ذلك العهد قد شهد صحة واضحة للطبقة الوسطى التجارية، يدل على ذلك ما نلاحظه من تخصص التجار فى العمليات التجارية واتقسامهم إلى فئات تقوم بجانب من النشاط التجارى المتخصص فهناك الخزائون ، ثم الركاضون، والمجهزون^(٤)، ويكشف لنا

١- ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق ، م (١) ، ص٦٤ ، عبد القادر ربحانى ، خطط مدينة دمشق ، ضمن كتاب ابن عساكر ، ص١٠٩ .

٢- بنيامين التيطلى ، الرحلة ، ت. عزرا حداد ، ط. بغداد ١٩٤٨م، ص١١٧ .

وعن دور اليهود التجارى فى العالم الإسلامى فى العصور الوسطى انظر :

Lombard, The Golden Age of Islam Trans. by Joan Spencer, Holland 1975 , p. 204-212 .

Fischel, Jews in The Economic and Political life of Mediaeval Islam , London 1937, pp.

1-44.

٣- نقولا زيادة، «سوريا زمن الصليبيين» ، المقتطف ، م (٨٧) ، ج (١) لعام ١٩٣٥م، ص٢٠ ، جوزيف نسيم ، «علاقات مصر بالممالك التجارية الإيطالية فى ضوء وثائق صبح الأعشى» ، ضمن كتاب القلقشندى ، ص١٢٣ .

٤- بالتفصيل :

الدمشقى ، الإشارة إلى محاسن التجارة ، تحقيق الشوريجى، ط. الإسكندرية ١٩٧٧م، ص٦٤-٧٥ .

الدمشقي المزيد من التفاصيل عن كل نوعية منهم كذلك ظهرت عدة أسرات تجارية كبيرة النفوذ مثل أبناء الرحبي (ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٤م)، الذي عاصر نور الدين محمود ، فقد ترك أبناء لهم اشتغال جيد في هذا الفن^(١)، ووجدت في حلب بيوتات قديمة معروفة بالثروة ويتوارثونها^(٢)، وطبيعي أنها لمجتمعت عن النشاط التجاري في مدينة اشتهرت بذلك الطابع ، يضاف إلى ذلك أن تجارة الشرق الأدنى خلال عصر الحروب الصليبية (القرنين ٦ ، ٧ هـ / ١٢ ، ١٣ م) قد شهدت نهضة تجارية لم تكن موحدة من قبل^(٣)، ودفعتها دفعة كبرى إلى الأمام^(٤)، وانطبق ذلك على بلاد الشام، والجزيرة حينذاك نظراً للموقع الجغرافي المتوسط ومرور العديد من الطرق التجارية العالمية بها .

وقد فرضت الدولة النورية المكوس على النشاط التجاري، وكانت حلب أحد المراكز الرئيسية لجمع تلك الضرائب التجارية حيث جبيت فيها أموال الروم وديار بكر ومصر والعراق^(٥)، ومع ذلك فإنها أحياناً كانت تقوم بإلغاء جانب من المكوس، وأشارت المصادر إلى حدوث عدة حالات للإلغاء في عام ٥٥١هـ / ١١٥٦م، فمن خلال نقش رجع إلى العام المذكور وجد على باب شاغور بمدينة دمشق تم إلغاء حق التسفير على التجار المسافرين إلى العراق والعائدين إلى دمشق^(٦)، وفي ٥٦٧هـ / ١١٧١م ، وتكرر الإلغاء في أعوام ٥٥٤هـ / ١١٥٩م^(٧)،

١- ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول، ص ٢١٧ .

٢- ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ٢٨٦ ، أنظر أيضاً عن شيزر :

أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، تحقيق فيليب حتى ، ط. برنستون ١٩٣م، ص ١٨٢ .

٣- هايد ، تاريخ التجارة ، ص ١٩١ .

٤- كولتون ، عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، ت. جوزيف نسيم يوسف، ط. الاسكندرية ، ص ٢٠٢ .

٥- ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ٣٩ .

٦- Compe, Wiet, Sauvaget , Repertoire Chronologie d'Epigraphie Arabe, T. IX, P. 10, -٦
Wiet, Note d' Epigraphie Syro- Musulmane" Syria, T. VI , Paris Anné 1925, p. 164 , Van Berchem, " Inscriptions Arabes de Syrie " , MIE, T. III, Le Caire 1922 , p. 453-454 .

٧- ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٣٠٨ .

٥٥٨هـ / ١١٦٣م^(١)، و ٥٦٣هـ / ١١٦٧م^(٢)، و ٥٦٦هـ / ١١٧٠م^(٣)، و ٥٦٧هـ / ١١٧١م^(٤)، ويلاحظ أن عمليات الإلغاء المتكررة لها دلالتها ، فعند احتياج الدولة للأموال تفرض مكوسا زائدة عن المعتاد ، ثم بالحاح كبار التجار وتحسن ميزانيتها من الموارد الأخرى ، وأيضا لرغبتها فى جذب النشاط التجارى من الأقاليم المجاورة إلى الأسواق الشامية والجزرية- تعود إلى الغائها .

لقد بلغ ما ألغى من مكوس عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م مقدار ٤٦٠, ٥٨٦^(٥) دينار، أى ما يعادل نصف مليون دينار على نحو عكس حجم النشاط التجارى .

ومن المرجح أن الدولة النورية احتكرت تجارة بعض السلع الاستراتيجية ولم تشأ أن تجعلها فى أيدي بعض كبار التجار الأثرياء خوفاً من احتكارها ، وتزايد ثروتهم على حساب احتياجاتها ، واحتياج السوق الشامى واستقراره ، ويبدو أنها احتكرت بعضها كتجارة الحديد والأخشاب والقار ، وهكذا فعندما توقفت فى إحدى السنوات عن مطالبة أهل الشام بالخشب أشارت المصادر إلى ذلك كحدث مهم وجديد ، ولذا وجدنا ابن عساكر يمتدح نور الدين محمود لذلك ببعض الأسعار ، ووقع ذلك عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م^(٦)، ويلاحظ أن نفس السياسة

١- ابن العديم ، زبدة الحلب ، ص ٣١٥ .

٢- نفسه ، نفس المصدر ، ص ٣٢٥ .

٣- سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ١ / ٨٢ ، ص ٢٨٢ ؛ الصفدى ، تحفة ذوى الألباب ، ص ١٤٧ ؛ ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٢١ .

٤- ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ٣٣٤ .

٥- نفسه ، نفس المصدر والصفحة ؛ الذهبى ، دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ٨٣ .

٦- العماد الأصفهاني ، خريدة القصر ، قسم شعراء الشام ، تحقيق شكرى فيصل ، ط. دمشق ج ١ ، ص ٢٧٦ ، وفى ذلك يقول ابن عساكر مادحاً نور الدين :

لما سمحت لأهل الشام بالخشب

عرضت مصر فيها من النشب

العماد الأصفهاني ، المصدر السابق ، ص ٢٧٧ .

الاحتكارية اتبعتها الخلافة الفاطمية^(١) ، والدولة الأيوبية^(٢) ، وقد عاصرت الأولى الدولة النورية وقامت الثانية على أنقاضها .

وطبيعى أن يؤدي قيام الدولة النورية إلى تأثير واضح على المجتمع الشامى والجزرى حينذاك ، وقد انقسم المجتمع إلى طبقتين رئيسيتين الخاصة والعامة ، أما الأولى : فشملت عناصر الأسرة الحاكمة والتركمان من الذين خدموها وشاركوا فى قيادات الدولة والجيش ، أما العامة فشملوا الفلاحين وصغار الصناع والتجار وغيرهم ، ويلاحظ أنه فى ظل سيادة النظام الإقطاعى ، والطابع العسكرى للدولة ، وصحوة الطبقة الوسطى التجارية فإن التميز الاجتماعى قد وضع من خلال تلك العناصر التى انتمت إلى كبار رجال الدولة وكبار أثرياء التجار .

وفى ظل النظام الإقطاعى : ساءت أوضاع الفلاحين الذين مثلوا جانباً مهماً من قوة الدولة العسكرية إذ أن من المرجح استمرار نظام التجنيد الإجبارى الذى وجد فى عهد الأتابك عماد الدين زنكى^(٣) - استمراره فى عهد ابنه نور الدين محمود لتغطية احتياجات جبهات القتال سواء فى الشمال أو الجنوب ، وقد ساهموا فى صنع المجد الحربى لنور الدين وإن كان حظهم من جانب المؤرخين الرسميين كل احتقار وازدراء ، ويلاحظ أنهم عانوا من جراء هجمات الصليبيين على الأعمال الإسلامية وتخريبها^(٤) ، مثلما عانوا أيضاً من توقف هطول الأمطار^(٥) ، وكذلك بعض الأحداث العارضة مثل هجمات أسراب الجراد^(٦) .

أما مجتمع الحرفيين والصناع : فإنه قتل فى طوائف الحرف ومن المحتمل وجودها فى مناطق المدن الشامية والجزرية الكبرى حيث تركز العمل وتخصص بصورة واضحة ، وكانت

١- راشد البراوى ، حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ، ط. القاهرة ١٩٤٨م ، ص ٢٧٨ عطية مشرقة ، نظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين ، ط. القاهرة ١٩٤٨ م ، ص ٢٠٧ .

٢- ابن ممتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٢٩-٣٣٤ ، حسنين ربيع ، النظم المالية فى مصر فى عهد الأيوبيين ، ط. القاهرة ١٩٦٤م ، ص ٤٥ .

٣- ابن العديم ، بغية الطلب- تراجم السلاجقة ، ص ٢٦٣ .

٤- ابن قاضى شهبه ، الكواكب الدرية ، ص ١٣٣ .

٥- نفسه ، نفس المصدر ، ص ٣٠٧-٣٠٨ .

٦- الأصفهانى ، البستان الجامع ، ص ١٣٠ : ابن أبيك الداودارى ، الدرة المضنية ، ص ٥٦٠ .

طوائف الحرف قد تطورت منذ القرن الثالث هـ/ التاسع م في المدن الإسلامية الكبيرة مثل بغداد، والبصرة، ودمشق، وحلب^(١)، وذلك كنتيجة طبيعية لتركز العمل ورأس المال، وقد احتوت كل طائفة على المعلم والعمال والصبية وكانت كل واحدة لها تقاليد^(٢)، وقانونها غير المكتوب متمثلاً في العرف الذي حكمها، وقد انتظموا فيها من خلال ترابطهم والرغبة في التكتل والشعور بالمصلحة^(٣)، ومن الأمور ذات الدلالة وجود النسبة إلى الحرفة مثل ابن القلانسي الذي عمل والده بصناعة القلانس، بحيث لم يعد العمل اليدوي محلاً للاحتقار^(٤). ومن خلال ابن عساكر يمكن ملاحظة وجود أكثر من مائة حرفة في مدينة كبيرة مثل مدينة دمشق وطبيعي أن تلك الحرف وجدت تعبيراً عن نفسها في مواجهة التدخل الحكومي في مجالات النشاط الاقتصادي لاسيما الصناعي الحرفي، وعلى الرغم من أن رئيس الطائفة عينته الدولة^(٥)، إلا أنه في الغالب عبر عن مصالحها، ويلاحظ وجود بعض المساعدين له في صورة أمناء الصندوق والكتاب والأساتذة^(٦).

وعلى الصعيد الفكري اعتنقت المذهب الأشعري التوفيقى بين النصيين والعقليين، ومن ثم اتجهت إلى استقدام الفقهاء والعلماء لدعم نشره في كافة أنحاء بلاد الشام والجزيرة وأقامت المدارس العديدة للدعوة للأشعرية ومحاربة الفكر الشيعي والنزعات الفلسفية.

وضروري والأمر كذلك إلقاء الضوء على ذلك المذهب، إذ احتل فكر أبي الحسن الأشعري^(٧) (ت ٣٢٤هـ / ٩٤٩م) مركز الصدارة وقد اتجه إلى المزج بين المذاهب السنية

١- Massigeon, "Islamic Guilds", ESS, New York 1954, vol. VII, p. 214 .

٢- Ibid, p. 215 .

٣- الدوري ومعروف، تاريخ الحضارة العربية، ط. بغداد ١٩٥٢م، ص ٨١ - ٨٢ .

٤- الدوري، تاريخ العراق في القرن الرابع الهجري، ط. بغداد ١٩٤٨م، ص ٨١ .

٥- الدوري، المؤسسات العامة في المدينة الإسلامية، مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية ببيروت، السنة (٢٣)، لعام ١٩٧٨ - ١٩٧٩ م، ص ١٥ .

٦- أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي، ص ١١٣ .

٧- عنه أنظر :

ابن عساكر، تبين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، نشر المقدسي، ط. دمشق =

والنواحي الجدلية^(١)، وعارض المعتزلة والمشبهة رأى فى تنزيه المعتزلة للذات الإلهية تعطيلاً ، وفى تشبيهه الحشوية تجسيداً ، واتخذ موقفاً وسطاً بين الجبرية والمعتزلة فى مسألة الحرية ، فتقدم بنظريته فى الكسب كطريق وسط بين الاتجاهين فميز بين الفعل الجبرى والفعل الإختياري للإنسان ، وأثبت قدرته مع العقل ، وإن كان تأثيرها فى تصويره لا يرقى إلى درجة الخلق والإحداث ، أما موقفه من العقل فإنه قد سلم به كمصدر من مصادر المعرفة لكن جعل الوحى مصدر الجوب والتكليف^(٢) ، ومن ناحية أخرى اتجه إلى مهاجمة الشيعة وتفنيد عقائدهم .

ومع ذلك ينبغى ألا نبالغ فى حجم المزج الذى أحدثه الأشعرى بين السنة والنزعة الجدلية إذ أنه وقف موقفاً وسطاً بين النصيين والعقليين^(٣) ، ووافق السير وراء العقل من أجل خدمة الشرع^(٤) ، بل إن من الباحثين من رأى فى مذهب أنه أدى إلى كبح جماح العقل ومنع النشاط الفكرى والفلسفى المخالف له^(٥) .

= ١٣٤٧هـ ، ص ٣٢ - ص ٤٥ ، السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، ط. القاهرة ، ج ٢ ، ص ٢٤٥ - ٢٤٦ - ص ٣٠٨ - ٣٠٥ ، بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ، ج ٣ ، ت. أبوبكر وعبد التواب ، ط. القاهرة ١٩٧٧م ، ص ٣٨ - ٤١ ، مصطفى عبد الرازق ، تهديد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ، ط. القاهرة ١٩٩٦م ، ص ٢٨٩ - ص ٢٩٣ ، حنا فاخورى والمر ، تاريخ الفلسفة العربية ، ط. القاهرة ١٩٨٢م ، ص ٢٤٦ ، أحمد فؤاد سيد ، نظم الحكم والإدارة فى العصر الأيوبي بمصر ، رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآداب جامعة عين شمس لعام ١٩٨٣م ، ص ٣٣ ، حاشية (١) .

١- مصطفى عبد الرازق ، المرجع السابق ، ص ٢٨٩ .

٢- محمد عمارة ، المرجع السابق ، ص ٢٥٦ - ص ٢٦٠ .

وعن فكر الأشعرى أنظر مؤلفه القيم :

مقامات الإسلاميين واختلاف المصلين ، ط. القاهرة ١٩٥٤م .

٣- محمد يوسف موسى ، القرآن والفلسفة ، ط. القاهرة ١٩٧١م ، ص ٩٢ .

٤- حنا فاخورى والمر ، المرجع السابق ، ص ١٨٣ .

٥- عبد النعيم حسنين ، سلاجقة إيران والعراق ، ص ١٧٢ .

وقد تطورت أفكار الأشعرى على أيدي بعض كبار الفقهاء الأشاعرة مثل الباقلانى (ت ٤٥٣هـ / ١٠١٣م) والجوينى (ت ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م) والغزالى^(١) (ت ٥٠٥هـ / ١١١١م) الذى كان أكبرهم أثراً إذ أنه بعد أن كان دور الأشعرى وسطياً بين العقل والنقل ، نراه يقيم وسطية تمزجها معاً ، وإن انحاز إلى النقل فى حالة تعارضه مع العقل^(٢) .

ذلك عرض لقيام الدولة النورية وتطورها السياسى ونستعرض فى الصفحات التالية ملامح سياستها الخارجية .

١- محمد عمارة، تيارات الفكر الإسلامى، ص ٢٥٩ .

٢- نفسه ، نفس المرجع والصفحة .

الباب الأول

سياسة الدولة النورية تجاه القوى الإسلامية

الفصل الأول

العلاقات النورية - العباسية

تمثل العلاقات النورية - العباسية جانباً مؤثراً وحيوياً فى دراسة السياسة الخارجية للدولة النورية ، نظراً للشغل السياسى الكبير للخلافة العباسية، ودورها التأثيرى على القوى الإسلامية المجاورة، وقد ارتبط دور الخلافة العباسية وعلاقاتها الخارجية بأوضاع الخلفاء أنفسهم من حيث القوة والضعف ، فعندما وطدوا أقدامهم فى العراق تطلعوا إلى المزيد من النفوذ السياسى خارجه ، وخلال مراحل ضعفهم لم يتمكنوا من ممارسة نفوذ قوى خارج العراق، وكانت العلاقات السياسية توترت من قبل بين الأتابك عماد الدين زنكى وبين الخلافة العباسية، على نحو جعله يستهلك جانباً من قوته فى صراعات المشرق الإسلامى، ولكن بقيام الدولة النورية دخلت العلاقات بين الجانبين مرحلة جديدة وجهها تبادل المصالح المشتركة بل والتحالف السياسى بينهما ، وهنا نلاحظ أنه بعد أن كان زنكى عدواً لدوداً للخلافة صار ابنه نور الدين محمود حليفاً قوياً لها وأفادت الخلافة من وراء ذلك مثلما أفادت الدولة النورية .

جاء ذلك التحسن فى العلاقات بين بغداد وحلب فى وقت شهدت فيه الخلافة العباسية ما يوصف بمرحلة انتعاش لقوتها . ورغبة الخلفاء فى أن يلعبوا أدواراً سياسية نشطة ويقلصوا من نفوذ السلاجقة ، وانعكس ذلك بالطبع على السياسة الخارجية العباسية تجاه القوى المجاورة ومنها الدولة النورية نفسها .

وحيث أن الأهداف تشابهت لدى كل من القوتين ، فقد صار التحالف بينهما أمراً قهرياً بالظروف، فالخلافة العباسية أرادت أن تظهر بمظهر المحارب لأعداء المسلمين من الصليبيين فى بلاد الشام، ولم تكن تستطيع أن تقوم بذلك بمفردها نظراً لبعدها المسافة بينهما وبين الكيان الصليبي، ومن ثم رأت فى الدولة النورية التى توسعت على حساب أملاك الصليبيين - رأت فيها قوة يمكن التحالف معها لتكسب تأييد جموع المسلمين ، حيث إنها حينذاك قامت بواجباتها الشرعية ضد أعداء الإسلام، أما الدولة النورية ؛ فاحتاجت إلى دعم الخلافة العباسية لتوطيد أقدامها فى بلاد الشام بين رعاياها ، وللاستفادة من ثقلها السياسى لدى الأمراء المسلمين لدعم نشاطها العسكرى ، فإذا أضفنا إلى ذلك عداوة الدولة النورية للفاطميين

الشيعية، وأن بغداد نفسها عادت القاهرة عداءً مريراً أدرکنا أن أهداف كل من القوتين تلاقت معاً على نحو دعم وجود التحالف السياسى بينهما، وغدت الدولة النورية أقوى القوى المعضدة للنفوذ العباسى فى بلاد الشام، والجزيرة ومصر، وتدعم ذلك التحالف من خلال علاقات على المستويات الاقتصادية، والسياسية، والعسكرية، والمذهبية، والثقافية .

ومعلوم أن علاقات الأتابك عماد الدين زنكى بالخلافة العباسية، تعد مدخلاً طبيعياً لدراسة السياسة الخارجية النورية تجاه بغداد .

فقد توفى السلطان محمود السلجوقى فى عام ٥٢٥هـ / ١١٣٠م، وعلى أثر ذلك أرسل عماد الدين إلى الخليفة العباسى المسترشد، طالباً أن يجعل الخطبة فى بغداد للملك السلجوقى الب أرسلان، وهو أحد الملکین اللذين تولى زنكى الإشراف على تربيتهما، إلا أنه رفض على اعتبار أن الب أرسلان^(١) لم يزل صبيّاً . ولأن ولاية العهد كانت لداود بن السلطان محمود .

وفى العام التالى؛ أى ٥٢٦هـ / ١١٣١م، استمال السلطان مسعود بن محمد حاكم أذربيجان عماد الدين زنكى، لکى يعاونه فى المطالبة بعرش سلاجقة العراق، نظير منحه مدينة أربيل الحصينة الواقعة شرقى الموصل بشمال العراق، واتفقا على التقدم صوب بغداد لمطالبة المسترشد بالاعتراف بمسعود سلطاناً على العراق، ولكن باءت قوات زنكى بالهزيمة، وتم الاتفاق فيما بعد بين مسعود وسلجوقشاه بن محمد آخر مسعود على مواجهة عمهما سنجر^(٢)، واتجه الأخير إلى محالفة زنكى ضد خصومه، وطلب منه أن يقوم بالاستيلاء على

١- ابن العديم، بغية الطلب، ص ٢٥٦، ابن واصل، مفرج الكرب، ج ١، ص ٤٦، عماد الدين خليل، عماد الدين زنكى، ص ٥١، ويلاحظ أن الب أرسلان هذا، هو ألب أرسلان بن محمود بن ملكشاه، ويختلف بذلك عن ألب أرسلان أحد كبار سلاطين السلاجقة الذى هزم الإمبراطور البيزنطى رومانوس ديوجينوس فى معركة مانزكرت عام ٤٦٢هـ / ١٠٧١م .

٢- يعد السلطان سنجر آخر السلاطين السلاجقة العظام، وقد تولى حكم دولة السلاجقة لأكثر من نصف قرن من ٤٩٤-٥٥٢هـ / ١١٠١-١١٥٧م) عنه ابن الأثير، الباهر، ص ٤٤، ص ٤٥، سعد بن مسفر القاسمى، معركة قطران ٥٣٦هـ / ١١٤١م، مجلة العصور، م (٢)، ج (١) يناير ١٩٨٧م، ص ٧٩، حاشية (٢٥) .

بغداد ، ومعه أحد أمراء السلاجقة وهو ديبس بن صدفه وإعلان الخطبة له ، وفي مقابل نجاح المشروع ، تقرر أن يتولى زنكى شحنة العراق ويقطع ديبس الحلة^(١).

حاول زنكى وديبس مهاجمة بغداد غير أن الخليفة ألحق الهزيمة بهما ، فراجع زنكى إلى الموصل^(٢) ، وتمكن مسعود بعد صراع طويل مع خصومه من أن يصير سلطاناً على سلاجقة العراق وبلاد فارس بموافقة سنجر .

وتصارع زنكى مع الخليفة وتقدم الأخير إلى الموصل على رأس جيش كبير عام ٥٢٧هـ / ١١٣٢م^(٣) ، وقطع خطوط تموين جيش الخليفة ، وأبقى على القسم الآخر من جيشه في مدينة الموصل ، وبعد صراع مرير اضطر الخليفة إلى رفع الحصار عنها^(٤).

اتجه الخليفة المسترشد إلى مصالحة زنكى في العام التالي ٥٢٨هـ / ١١٣٣م ، بعد أن وحدهما العداء المشترك للسلطان مسعود ، وأرسل زنكى وفدًا دبلوماسيًا إلى بغداد لتقديم الولاء والطاعة للخليفة المسترشد^(٥) .

إن تتبع تطور العلاقات السياسية بين الخلافة العباسية وأتابكية الموصل توضح على الفور أن طموحات عماد الدين زنكى الواسعة جعلته يصطدم بالخلافة ويهاجمها في عقر دارها ، وإن دخلت العلاقات بين الجانبين بعد ذلك مرحلة من المسالمة ، بعد أن أدرك كل منهما خطر الآخر على الأوضاع السياسية في العراق .

ومن الملاحظ خلال ذلك الحين ، أن ضعف قلب الخلافة العباسية قد شجع الأطراف على تحديها على نحو مثل تهديدًا قائمًا لها وبصورة لم نعهدها من قبل يمثل هذه الصورة في العصر العباسي الأول عصر الخلفاء العباسيين العظام .

١- عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكى ، ص ٥٣ .

٢- ابن الأثير ، الباهر ، ص ٤٥-٤٦ ، ماجد ، العلاقات ، ص ١٥٥ .

٣- ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص ٤٧-٤٨ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٥٣ .

٤- عن عوامل رفع الحصار عن الموصل انظر :

شاكر أبو بدر ، الحروب الصليبية ، ص ٧٥ .

٥- ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص ٤٨ .

وتحتتم الدراسة تبيان أوضاع الخلافة العباسية خلال عهد الدولة النورية فى بلاد الشام، والجزيرة، إذ إن قدرًا مهمًا ومؤثرًا من التطور السياسى ، لحق بها على نحو اختلفت على أثره أوضاعها عما كان عليه الحال فى عهد الأتابك عماد الدين زنكى .

ومعلوم أن نور الدين محمود عاصر انتعاش الخلافة إبان المقتفى لأمر الله ٥٣٠ هـ / ٥٥٥ هـ / ١١٣٦-١١٦٠ م، والمستنجد بالله ٥٥٥-٦٦ هـ / ١١٦٠-١١٧٠ م، والمستضى بالله ٥٦٦-٥٧٥ هـ / ١١٧١-١١٨٠ م، إذ اتسم حكمهم بالطموح إلى استعادة التوازن السياسى مع السلاجقة فى العراق وإيران على نحو خاص، ومن بعد ذلك ، كافة البقاع الإسلامية الأخرى، ويثل عهد الخليفة المسترشد بالله مدخلًا طبيعيًا لتلك المرحلة .

والملاحظ أن تلك المرحلة من تاريخ الخلافة العباسية شهدت تنافسًا قويًا بين العباسيين والسلاجقة الذين كانوا خلال عهود سلاطينهم العظام قد هيموا على مقادير الخلافة، فصارت لهم القوة السياسية والعسكرية الفعلية ولم يعد للعباسيين سوى مظهر السلطة فقط، وهكذا احتلوا مكان البويهيين من قبل بسيطرتهم على الخلفاء .

وفى ظل هذا الوضع السياسى المتدننى للخلافة ؛ حاول بعض الخلفاء العباسيين إعادة هيبتها وقتل ذلك فى الخليفة المسترشد ^(١)، الذى تمكن من بسط سلطانه الفعلى على العراق بعد وفاة السلطان محمود السلجوقى، حتى أن السلطان لم يكن له معه سوى مجرد الخطية، ولم يتوان عن قيادة الجيوش لدعم سلطة الخلافة .

حقيقة أن المسترشد أراد اتباع سياسة التوازن السياسى مع السلاجقة ، غير أن الأخيرين لم يقبلوا ذلك، وأرادوا الاستمرار فى سياستهم ، وإذ اختلفت المصالح ، فطبيعى أن يقع الصدام بين الخليفة والسلطان مسعود ، وقد اندلع الصراع بينهما عندما لم يظهر الخليفة كبير حماس لمساعدة مسعود فى قتاله لخصومه وأقرانه ، وازداد الموقف تدهورًا عندما خشى الأمراء من السلطان ، بعد أن زادت سطوته باستيلائه على إقليم همذان بعد وفاة أخيه طغرل عام ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م ^(٢)، والتجأوا إلى المسترشد لاعتقادهم فى قدرته على تقليم أظافر السلطان

١- عن الخليفة المسترشد بالله انظر :

ابن الأثير ، الباهر ، ص ٤٩-٥١ ؛ الذهبى، دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ٥٠ .

٢- عبد النعيم حسنين ، سلاجقة إيران والعراق، ص ١٢٤ .

وبالفعل تشجع الخليفة لملاقاة خصمه ولكن منى بالهزيمة النكراء^(١)، بل إنه وقع أسيراً في قبضة أعدائه وأغتالته خناجر الإسماعيلية النزارية^(٢)، الذين كانوا على الأرجح أداة في أيدي أعدائه .

وهكذا؛ فإن محاولة المسترشد لتقوية شأن الخلافة قد باءت بالفشل ، نظراً لرفض الطبقة العسكرية الممثلة في السلاجقة ، التنازل عن نفوذها الذي اكتسبته بفضل مقاومة أعداء الخلافة العباسية نفسها من قبل .

وتعد مرحلة المسترشد بالله على جانب كبير من الأهمية ، باعتبارها مقدمة للمرحلة الواقعة من ٥٣٠-٥٧٥هـ / ١١٣٦-١١٨٠م ، وهي التي تولى فيها بعض الخلفاء الذين أدوا إلى انتعاش مركز الخلافة من جديد .

وبلاحظ أن سياسة التوازن التي أرادها الخلفاء العباسيون ، بدأت تحقق أهدافها بفضل ما لحق بنفوذ السلاجقة من وهن ، إذ أنهكت الحروب السلطان السلجوقي مسعود ، ثم أنه توفي عام ٥٤٧هـ / ١١٥٢م ، واندلعت نيران الفتنة بين أفراد البيت السلجوقي الحاكم في إيران والعراق فضلاً عن تدهور الأوضاع الاقتصادية وتدمير القوم ، وفي نفس الحين اتجه الخليفة المقتفى لأمر الله^(٣) . إلى توطيد سلطته السياسية بعد أن أراد إكمال ما بدأه المسترشد .

١- ابن الأثير ، الباهر ، ص ٤٩- ص ٥٠ .

٢- نفسه ، نفس المصدر ، ص ٥٠ ؛ الذهبي ، دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ٥٠ ، عبد النعيم حسنين ، سلاجقة إيران والعراق ، ص ١٢٤ ، العزاوي ، فرقة النزارية تعاليمها ورجالها على ضوء المراجع الفارسية ، ط. القاهرة ١٩٧٠م ، ص ١٠٤ .

٣- عن المقتفى الأمر الله انظر :

ابن الأثير ، الباهر ، ص ١١٤ ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٦٨ ؛ أبرشامة ، الروضتين ، ج ١ / ق ١ ، ص ٣١٠ ؛ الذهبي ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧١ ؛ المقرئ ، اتعاظ الخنفا ، ج ٣ ، ص ٢٢٣ ، حاشية (١) ، ابن الطقطقي ، الفخرى ، ط. بيروت ١٩٦٦م ، ص ٣١٠-٣١٥ ؛ حسن خليفة ، الدولة العباسية ، ط. القاهرة ١٩٣١م ، ص ٢٣٣-٢٣٤ ، الخضرى ، تاريخ الأمم الإسلامية ، الدولة العباسية ، ط. القاهرة ب- ث ، ص ٥٠٣-٥٠٤ .

وقع صدام حربى بين المقتدى والسلطان السلجوقى محمد، واتجه الأخير إلى محاصرة بغداد عام ٥٥٢هـ / ١١٥٧م غير أن أحداث همدان^(١) جعلته يرفع الحصار عن عاصمة الخلافة، وكلل جهده هناك بالظفر، غير أن المنية لم تلبث أن أدركته عام ٥٥٤هـ / ١١٥٩م^(٢).

وقد عمل المقتدى على توطيد مركز الخلافة، وحيث أنه أدرك أن قوة الأمراء السلاجقة الذين وقفوا ضد المسترشد اعتمدت على الاقطاعات، فلذلك سعى إلى الهيمنة على تلك الأملاك الإقطاعية، وعمل على تصفية قوة الأمراء بصفة عامة^(٣).

لقد تطابق إسقاط النظام الإقطاعى مع رغبات قطاعات طبقية مؤثرة، فالطبقات الدنيا المعادية للعسكرية التركية، والتي نظرت إلى السلاجقة على أنهم حكام أجنبي ما هدفوا إلا إلى استقلال هذه الطبقات انضموا فى سهولة ويسر إلى جيش الخليفة، ونجد أن العناصر التجارية الشربة بالعراق والتي كانت لاتزال نشطة فى حقل التجارة الدولية، مع بلدان وسط آسيا مثل بخارى، وأفغانستان، ومدن البحر الأسود، وبلاد الشام، فضلت حكم الخليفة العباسى على حكم الأمراء السلاجقة الذين مالوا إلى الحرب ومثلوا بالتالى عائقاً واضحاً ضد النمو التجارى، ولم تكن تقدر على تحمل الأزمات السياسية المتكررة الناجمة عن تصارع أولئك الأمراء، ولذلك عاوت الطبقة الوسطى الخليفة^(٤).

يضاف إلى ذلك؛ أنه مما ساعده على دعم خطته الوزير عون الدين ابن هبيرة^(٥)، كذلك عصمت الخلافة على الوقعة بين الأمراء السلاجقة لإبعاد خطرهم أو على الأقل تحجيمه كلما سنحت الفرص لذلك، وعلى ذلك فقد وصف بعض المؤرخين الخليفة المقتدى بأنه كان «أول من استبد بالعراق من خلفاء بنى العباس منذ عهد دخول الديلم، وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم على عسكره»^(٦).

١- عبد النعيم حسنين، سلاجقة إيران والعراق، ص ١٣٧.

٢- نفسه، نفس المرجع والصفحة.

٣- حسن محمود والشريف، العالم الإسلامى فى العصر العباسى، ص ٦٣١.

٤- اشتور، التاريخ الاقتصادى والاجتماعى، ص ٢٩٦.

٥- حسن محمود والشريف، المرجع السابق، ص ٦٣٧.

٦- ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٦٨، جاسم حمادى، نهاية النفوذ السلجوقى فى العراق، المؤرخ العربى، العدد (٢٥) لعام ١٩٨٤م، ص ٢٠٢.

منطقي أن الوضع الجديد السابق أثر على علاقة الخلافة العباسية بالقوى السياسية المجاورة لها، بما فيها الدولة النورية في بلاد الشام والجزيرة، فبعد أن وطد المقتفى سلطته في الداخل، تطلع إلى مد نفوذه إلى خارج العراق، وعمل جاهداً على بسط سلطانه في أنحاء العالم الإسلامي، ومن أجل ذلك عمل على توطيد علاقته بنور الدين محمود^(١)، وذلك بعد أن أوضحت الأحداث بجللاء مدى قوة دولته عسكرياً وسياسياً، وخاصة أنه أدرك أهمية نور الدين في سياسة التوازن مع السلاجقة، إذ أن وجود تحالف معه من الممكن أن يدعم الخليفة، ولو على الصعيد السياسي في مواجهته للنفوذ السلجوقي.

ومن بعد المقتفى تولى الخلافة المستنجد بالله^(٢)، الذي انتهج نهجه في دعم سلطان الخلافة وإن عمل على التخلص من أعوان والده بالقتل والحبس، ولم يختلف المستنجد بالله^(٣) عن سابقيه في سياستهما داخلياً وخارجياً.

وجدير بنا تناول وضعية الدولة النورية وطبيعة العلاقات بين نور الدين محمود والخلافة العباسية، ومدى استقلال قراره السياسي، إذ أن ذلك يمثل نقطة محورية لفهم سياسته الخارجية تجاه العباسيين.

لم تكن الدولة النورية صنيعة عباسية؛ بل مثلت ميراثاً أتابكياً كان قد خاض غمار صراع عنيف مع بنى العباس أنفسهم، وتلك النشأة المتميزة ضمنت لها استقلالية واضحة في قرارها

١- محمد الحاج فلغل، علاقة الأيوبيين في مصر والشام بالخلافة العباسية، رسالة ماجستير غير منشورة- كلية الآداب- جامعة القاهرة لعام ١٩٧٧م، ص ٣٠.

٢- عن المستنجد بالله أنظر:

العماد الأصفيهانى، تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٢٦٦؛ ابن الأثير، الباهر، ص ١٥٠-١٥٢؛ أبو شامة، الروضتين، ج ١ / ق ٢، ص ٤٨٣ - ٤٨٤؛ الذهبي، دول الإسلام، ج ٢، ص ٧٩؛ ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، م (٤)، ج (١)، تحقيق الشماع، ط. البصرة ١٩٦٧ م، ص ١١٥-١١٦، حسن خليفة، الدولة العباسية، ص ٢٢.

٣- عن المستنجد أنظر:

ابن الجوزى، المصباح المفضى في خلافة المستنجد، مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم ٧١٩٧، ابن الكازرونى، مختصر التاريخ، تحقيق مصطفى جواد، ط. بغداد ١٩٧٠م، ص ٢٣٧-٢٤١.

السياسى ، وينبغى أن تلاحظ التقاء مصالح وأهداف العباسيين ونور الدين محمود ، على نحو جعل مسارهما واحداً دون صدام ، وذلك على المستوى الخارجى ، أما داخلياً فتمتعت تلك الدولة بكيان سياسى واضح المعالم واستقلالية ارتضاها العباسيون طالما أنه لم يهدد كيان الخلافة ، وإذا كان الأيوبيون - كما يقرر القلقشندى - دانوا بالطاعة خلفاء بنى العباس ، ومع ذلك كانوا ملوكاً مستقلين^(١) ، فإن ذلك ينطبق بصورة أكبر على الدولة النورية التى أفرزت الدولة الأيوبية.

ويرى أحد المؤرخين أن نور الدين حرص على أن يعرض على الخليفة كل كبيرة وصغيرة تجرى من أمور دولته^(٢) ، غير أن ذلك لا يجد سنداً فعلياً من المصادر المعاصرة ، بل إن الاتصالات التى جرت بين الجانبين دبلوماسياً ، تؤكد تماماً مدى ما تمتعت به الدولة النورية من تقدير ، عكس استقلالية قرارها السياسى على الأرجح .

ويلاحظ أن العباسيين وجدوا فى الدولة النورية القوة المؤثرة ضد الوجود الصليبي فى بلاد الشام ، وأرادوا الظهور أمام رعاياهم بمظهر المدافع عن ديار الإسلام ، كأحد واجباتهم الشرعية ، ومن ثم دعموا الدولة النورية ، ونفذت الأخيرة أهدافهم ، وذلك من خلال تحقيق مصالحها الذاتية السياسية والاقتصادية .

وقد مرت العلاقات بين الجانبين بعدة أطوار على المستويات السياسية ، والعسكرية ، والاقتصادية ، والثقافية .

فعلى الصعيد السياسى ؛ يلاحظ أن كلاً من الطرفين ، وجدت لديه دوافع قوية لتوطيد علاقته السياسية بالآخر ، إذ احتاجت الدولة النورية من الخلافة تأييد حكمها للمناطق الخاضعة لها فى بلاد الشام والجزيرة ، إذ أن تأييد الخلافة لذلك يدعم حكم نور الدين ، ويكسبه صفة المشروعية أمام رعاياه فى تلك المناطق ، ولذا فقد حرص أشد الحرص على الحصول على تقاليد سيادته السياسية ، ومن جهة الخلافة العباسية رأت فى الدولة النورية قوة سياسية فعالة فى المنطقة ، من الممكن أن تحجى من ورائها الكثير بتوطيد علاقاتها معها ، وحيث إنها صارت الصليبيين ، فإن تأييد الخليفة العباسى لنور الدين كان يجعله محط تقدير بالغ لرعاياه فى العراق وخارجه .

١- القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج٣ ، ص ٤٣٢ .

٢- محمد الحاج لفل ، علاقة الأيوبيين فى مصر والشام ، ص ٥٩ .

وعملت الدولة النورية على توطيد علاقاتها السياسية بالخلافة العباسية عن طريق السفارات الدبلوماسية المتبادلة ، وقد حرص نور الدين على اختيار السفراء الذين توافرت فيهم بعض الشروط العقلية والجسمانية ^(١) ، خاصة من عناصر أرباب الأقلام من الفقهاء والعلماء ، ومنهم من كان من أصل عراقي ^(٢) ، لكى يدعم أكثر من غيره الصلات بين الجانبين.

حمل أولئك السفراء الرسائل والهدايا لمخاطبة ود خليفة بغداد ، واحتوت الرسائل على بعض المطالب أو إظهار الولاء ، أو التهنية بمناسبة تولية الخليفة إلى نحو ذلك ، ولدينا العديد من أسماء السفراء الذين ترددوا بين العراق والشام ، وهؤلاء جميعاً مثلوا عدداً من قيادات الدولة النورية لاسيما فى جهازها الإدارى ^(٣) .

ومن وراء تلك الاتصالات الدبلوماسية ، قام ديوان الإنشاء النورى بدور كبير فى إعداد الرسائل المناسبة لكل موقف ، ولانزاع أن ذلك الديوان تزايد دوره تعاضماً من خلال خدمته للسياسة الخارجية للدولة ، ووجود شخصية مثل العماد الكاتب الأصفهاني على رأسه يدل على مدى نشاطه .

ومن أمثلة الاتصالات الدبلوماسية بين الجانبين : أن نور الدين عندما أخضع دمشق لسيطرته عام ٥٤٩هـ / ١١٥٢م ، محققاً بذلك أحد أكبر انتصاراته العسكرية بعث الخليفة

١- عن ذلك :

ابن الفراء ، رسل الملوك ، تحقيق المنجد ، ط. القاهرة ١٩٤٧م ، ص ٧ ، ص ١٧-١٩ ؛ الخالدي ، المقصد الرفيع المنشأ ، مخطوط بجامعة القاهرة ، ورقة (١٠١) ، منى عبد الرحمن ، السفارات الأجنبية فى مصر على عصر سلاطين المماليك ، رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآداب - جامعة القاهرة لعام ١٩٧٥م ، ص ٨٤ ، يونس السامرائى ، السفارات فى التاريخ الإسلامى حتى قيام الدولة العباسية ، رسالة ماجستير ، غير منشورة ، كلية دار العلوم - جامعة القاهرة ١٩٧٦م ، ص ٤٣٢-٤٣٨ .

٢- العماد الأصفهاني ، سنا البرق الشامى ، ص ٢٥ .

٣- من أمثلتهم ، العماد الأصفهاني ، وكمال الدين الشهرزورى ، ومهذب الدين النقاش ، وابن أبى عصرون ، عنهم أنظر : سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ١ / ٨ ق ، ص ٢٥٣ ؛ الصدى ، الوافى بالوفيات ، ج ١ ، ص ١٢٣ ؛ ابن قاضى شهبه ، الكواكب الدرية ، ص ٢٢٠ .

إليه عهداً بالسلطة وإقراراً بسيادته السياسية عليها^(١) ، ولاشك أن العباسيين اعتقدوا أن الأسرة البورية السابقة لم تكن تفعل شيئاً معبراً عنهم، بفضل مهادنتها لمملكة بيت المقدس الصليبية .

كذلك حث الخليفة العباسي نور الدين على السير إلى مصر . لانتزاعها من الفاطميين^(٢) - أعداء العباسيين التقليديين- وذلك في وقت كانت فيه مصر في وهن بالغ من جراء سياسة الوزراء العظام الخرقاء، ويقرر البعض أن الخليفة المقتفى ووزيره ابن هيرة أرسل إليه عهداً بتولية مصر وأعمالها في وقت كانت فيه الخلافة الفاطمية لاتزال قائمة^(٣)، ومنطقي أن الخلافة العباسية أدركت أن سيطرة نور الدين على حلب ودمشق ، تمكنه من تحقيق أهدافها في القضاء على الفاطميين ، ومعنى ذلك أن بلاد الشام نفسها كانت ميداناً رحباً لاختبار قدرة الدولة النورية على التغيير السياسي في المنطقة ، خاصة في مصر ، ولامراء في أن النجاحات النورية هناك، أكدت للعباسيين أن تلك الدولة الفتية، بإمكانها أن تحقق طموحات خلفاء بغداد في تقويض حكم خلفاء القاهرة .

ومن بعد ذلك استمرت العلاقات السياسية قوية بين الجانبين ، واهتبل نور الدين فرصة انتصاره على الصليبيين في عام ٥٥٢هـ / ١١٥٧م، فأرسل إلى بغداد تحفاً وهداياً ورؤوس قتلى الصليبيين وأسلحتهم^(٤)، إشارة إلى تأديته دوره القتالي ضد أعداء المسلمين لكسب دعم العباسيين ، وفي أعقاب الظفر على أعدائه في حارم عام ٥٥٩هـ / ١١٦٤م، أرسل إلى الخليفة أخبار انتصاره^(٥)، وتكرر ذات الأمر عندما تهاوت الخلافة الفاطمية عام ٥٦٧هـ /

١- السيوطي، حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص ٣ : الذهبي، العبر ، ج٢ ، ص ١٣٦ : دول الإسلام ، ج٢ ، ص ٦٥ : العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج٤ ، ص ١٥٢ .

٢- الذهبي ، المصدر السابق، ج٤ ، ص ١٣٦ : العماد الحنبلي، المصدر السابق، ص ٤١١ .

٣- ظل الخلافة العباسية في الحركة الصليبية ، ضمن كتاب العلاقات بين الشرق والغرب ، ط. بيروت ١٩٧٦م، ص ٦٦ .

٤- ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٩ ، ص ١٧٦ .

٥- العماد الأصفهاني ، سنا البرق الشامي، ص ٧٥ .

١١٧١م^(١)، وقد عكس الإنجاز الأخير مدى نجاح التحالف النورى- العباسى فى تحقيق الإنجازات الكبرى ضد أعداء العباسيين .

وقد استفاد العباسيون من نور الدين محمود . عندما سعوا إلى إعلام دولته بأخبار تولية الخلفاء الجدد ، من أجل الحصول على مبايعته لهم ، فعندما تولى المستضى أرسل إلى نور الدين يخبره بذلك ويطلب مبايعته ففعل^(٢) ، وحرص نور الدين على الحصول على تقليد تولية على أملاك مصر والشام وبلاد الجزيرة وتم له ما أراد .

إن الوضع السابق دل على علاقة الدولة النورية الوثيقة بالعباسيين ، وتدعم ذلك من خلال النقوش ، إذ وردت على جدران الآثار التى شيدت فى عهد الدولة النورية، بعض التعبيرات الدالة على قوة الصلات بين الخلفين ، إذ وصف نور الدين فى نقش يرجع إلى شوال ٥٤٣هـ / فبراير - مارس ١١٤٩م فى المدرسة الحلاوية بحلب بأنه «رضى الخلافة»^(٣) ، وكذلك وصف بأنه «خليل أمير المؤمنين» فى نقش يرجع إلى عام ٥٥٩-٥٦٠هـ / ١١٦٣-١١٦٤م على باب شرق من أبواب مدينة دمشق^(٤) ، ووجه تعبير «نصير أمير المؤمنين» فى نقش على جامع بمدينة الرقة يرجع إلى عام ٥٦١هـ / ١١٦٥م^(٥) ، كذلك تعبير «ناصر أمير المؤمنين» فى نقش على قلعة حلب^(٦) ، وأيضاً فى المدرسة النورية بدمشق ، يرجع إلى عام ٥٦٩هـ / ١١٧٣م ، وفى قلعة جعبر^(٧).

١- أبو شامة ، الروضتين ، ج١ / ٢ ق ، ص ٥٠٢ : ابن قاضى شهبه ، الكواكب الدرية ، ص ٢٠٣ ، شاكراً أبو بدر ، الحروب الصليبية ، ص ٢٣١ .

٢- سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، ١ ق / ٨ ج ، ص ٥٨٣ .

٣- Van Berchem, Inscriptions Arabes de Syrie, P. 417, Elisseef, La titulature de Nur Al- Din, P. 157 .

٤- Ibid, P. 160 .

٥- Ibid, P. 162 .

٦- Ibid, P. 164 .

٧- Ibid, P. 165 .

إن ورود تعبير «رضى الخلافة» منذ عام ٥٤٣هـ / ١١٤٩م يدل على توطد العلاقات بين نور الدين والخلافة العباسية منذ ذلك الوقت المبكر وبعد قيام دولته بثلاث سنوات، وأكدت التعبيرات الأخرى «خصوصية» العلاقات بين الجانبين ، على نحو يدعم تصور التحالف السياسى بينهما، لتحقيق الأهداف المشتركة .

وعلى الرغم من ذلك ، فإن نور الدين لم يكن ليتنازل عن حقوق دولته لدى العباسيين ، إذ حرص على استعادة بعض المناطق الهامة التى ورثها عن والده عماد الدين زنكى فى العراق ، وظلت تحت سيادة العباسيين، فقد طالب من الخليفة العباسى بمناطق درب هارون وصريفين على نهر دجيل^(١) حيث النشاط الزراعى وحركة التجارة النشطة ووسائل النقل النهري الرخيصة والأمنة، كذلك رغب نور الدين فى الحصول على موضع قدم له فى قلب أملاك العباسيين تحسباً من أية تقلبات فى سياستهم نحوه ، وأمام دوره فى تنفيذ سياساتهم لم يجد الخليفة غضاضه فى التنازل له عن المنطقتين .

لقد وافق الخليفة على ذلك فى عام ٥٦٨هـ / ١١٧٣م^(٢)، والتاريخ المذكور له دلالتة سياسياً ، ففيه بلغت الدولة النورية أقصى حدود اتساعها إذ ضمت إليها وادى النيل ووصلت إلى النوبة جنوباً ، وإلى برقة وطرابلس غرباً ، وأدى ذلك إلى تقوية نفوذ نور الدين السياسى، على نحو دعم مطلبه لدى الخلافة .

وساهمت الدولة النورية بفضل ثقلها السياسى فى أحداث تعلقت بالخلافة العباسية، وإن كان ذلك دون الإيغال فى مستنقع المشرق وأحداثه الصاخبة، فعندما حدث النزاع بين الخليفة المقتفى لأمر الله والسلطان محمود السلجوقى كان جيش الموصل بقيادة زين الدين على كوجك يشارك السلاجقة عملياتهم الحربية ضد الخليفة ، فأرسل نور الدين إلى زين الدين يستحثه على أن يتخلى عن تحالفه مع السلطان السلجوقى^(٣)، ونهاه عن محاربة الخليفة، وأدى ذلك إلى استجابته فأوهم قوات السلاجقة ، ويلاحظ أن الجيش النورى لم يقحم نفسه فى تلك

١- أبو شامة ، الروضتين ، ج١ / ٢ ق ، ص٥٤٨؛ ابن قاضى شهاب ، الكواكب الدرية ، ص ٢٢ .

٢- أبو شامة ، المصدر السابق ، ص٥٤٩؛ ابن قاضى شهاب ، المصدر السابق، ص ٢٢ .

٣- أبو شامة ، المصدر السابق، ج١ / ٢ ق ، ص ٢١٠ .

الأحداث، على الرغم من قدرته ؛ إذ أن نور الدين أدرك أن مجال توسعه الحيوى فى بلاد الشام والجزيرة ومصر وفى مواجهة الوجود الصليبي .

واستمرت العلاقات السياسية بين الدولة النورية والخلافة العباسية نحو ثلاثين عاماً دون خصومة، بل توطدت باستمرار فأفاد كل طرف من الآخر، ولم تكن لنور الدين تطلعات إلى أملاك الخلافة ، ويلاحظ أن اتفاق الخابور الذى وقعه نور الدين مع أخيه سيف الدين غازى عام ٥٤١هـ / ١١٤٦ م^(١)، وتحددت فيه مناطق سيادة كل منها ظل محترماً لأمد طويل، ولم يخرقه نور الدين إلا باستيلائه على الموصل بشمال العراق عام ٥٦٦هـ / ١١٧٠ م^(٢)، لتأمين خطوط التجارة بين شمال العراق والشام، ودعم قوته الحربية وتعد تلك الحادثة بمشابة أكبر اقتراب للقوات النورية من مناطق سيادة الخلافة العباسية ، وينبغى أن نلاحظ أن نور الدين حرص على أن يوضح لبغداد؛ دوافع حملته على شمال العراق، خشية أن يسئ العباسيون فهم خطوته تلك، على نحو قد يهدد العلاقات بين الجانبين، إذ يذكر أبو شامة^(٣) أنه طلب من العماد الكاتب الأصفهاني - رئيس ديوان الانشاء- أن يسرع بالذهاب إلى بغداد حيث «الديوان العزيز» ليشرح للخليفة أنه اتجه للسيطرة على الموصل على اعتبار أنها من أملاك والده عماد الدين زنكى وبوصفه وريثاً له .

إن تحليل الموقف السابق ، أن الأحداث المتلاحقة فى الموصل جعلت الدولة النورية تلقى بثقلها هناك، دون أن تأخذ الموافقة من العباسيين ، ومن ثم كان لازماً عليها أن تضمن سلامة

١- ابن الأثير ، الباهر ، ص ٨٧- ٨٨ : ابن واصل ، مفرج الكروب، ج ١ ، ص ١١١ ؛ سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ١ / ٨ ، ص ١٩٢ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٧ ، ص ١٤٩- ١٥٠ ، رشيد الجميلى، دولة الأتابكة فى الموصل بعد عماد الدين زنكى، ط. بغداد ١٩٧٠م، ص ٧١ ، عبد القادر اليوسف، علاقات بين الشرق والغرب، ط. صيدا ١٩٦٩م، ص ١١٢ ، فايد عاشور ، جهاد المسلمين فى الحروب الصليبية ، ط. بيروت ١٩٨٥ م، ص ٢٠٨ .

٢- ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٦- ١٤٧ ، عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٧١٦ ، الديوجى ، الموصل فى العهد الأتابكى، ص ٣٣ ، Cahen ; La Syrie du nord à l'époque de croisades, Paris 1940, p. 413 .

٣- الروضتين ، ج ١ / ٢ ، ص ٤٧٨ .

العلاقات معهم، للحصول على الدعم السياسى أو تحييد الخلافة على الأقل ، وعدم وقوفها لنصرة طرف من الأطراف .

تبلورت العلاقات النورية- العباسية فى تحالف سياسى قوى، أكدته بصورة جلية توجيه الخلافة العباسية للسياسة الخارجية النورية، وهذا ما نجده ممثلاً فى اسقاط الخلافة الفاطمية ، إذ أرسل المستنجد بالله إلى نور الدين فى عام ٥٦٥هـ / ١١٦٩م، يستحثه على الإسراع فى القضاء عليها^(١)، وقد تكرر ذات الموقف من جانب المستضى^(٢)، ثم دعم العباسيون التوسعات النورية .

ويلاحظ أن ذلك التحالف بين القوتين كان أمراً ضرورياً ، ولم يحدث عشوائياً بل إن بغداد وجدت فى سلطان حلب أكبر قوة سياسية مسلحة مجاورة لها يمكن أن تحقق أهدافها، خاصة مع عدم تواجد تطلعات مشرقية له، وأفادت الدولة النورية من ذلك التحالف كما أفاد العباسيون. واستمر التحالف بين الجانبين على امتداد نحو الثلاثين عاماً مع تعدد الخلفاء العباسيين ، وذلك أمر لا يخلو من دلالة هامة ، وهى أنه كان حيويًا لهم وأن نور الدين لم يجد منهم ما يجعله ينقض ذلك التحالف بل عمل على دعمه طالما أن الخلافة ساعدته فى توسعاته الخارجية، وأنه صار رجل العباسيين فى المنطقة .

وعلى المستوى العسكرى أفاد نور الدين محمود من نفوذ العباسيين للضغط على أمراء المشرق الإسلامى لمعاونته ضد أعدائه الصليبيين ، فمعلوم أن الجيش النورى اعتمد أساساً على الدعم الحربى المقدم من أمراء المشرق^(٣)، لاسيما فى العراق ، ويلاحظ أن الثقل السياسى للخلافة أجبر أولئك الأمراء على المبادرة بتقديم عونهم الحربى ، كما أن نور الدين نفسه اتجه إلى مراسلة الفقهاء والمتصوفة فى تلك الأقاليم من أجل الدعاية السياسية وتوضيح حاجته إلى

١- أبو شامة ، المصدر السابق، ج١ ، ق٢ ، ص٤٦٥ .

٢- نفسه ، نفس المصدر ، ص٤٩٨ .

٣- عن دور جند المشرق فى الجيش النورى ، أنظر :

ابن الأثير ، الباهر ، ص١٣١-١٧١ ؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج٢ ، ص٣٢١ .

العون الحربى من أولئك الأمراء على نحو مثل «ضغط شعبى» عليهم^(١)، ونجد فى كافة المعارك الحربية الكبرى التى خاض غمارها الجيش النورى، أشارت المصادر إلى مقدم قوات المشرق، وعلى رأسها الأمراء حكام أربيل، وسنجار، ومنبج، وغيرهم.

ويقرر البعض، أنه قد ظهر جلياً أن الخلافة العباسية لا تستطيع القيام بدور جدى وفعال فى مساعدة نور الدين ضد الصليبيين، وأن نور الدين نفسه خشى أن يكون ذلك على حساب استقلالية دولته وسيادتها، والمكاسب الكبيرة التى حققها فى بلاد الشام^(٢)، وينبغى ألا تغفل أوضاع الخلافة العباسية السياسية، إذ أنها كانت تلك المرحلة فى أشد الإحتياج إلى قوتها الحربية من أجل دعم وجودها السياسى فى العراق، وصراعها مع سلاجقة العراق وإيران^(٣)، ومع ذلك فإن دورها فى استقدام جيوش المشرق وحث أمرائه على دعم نور الدين. يجعلنا لانستهين بالدور الكبير الذى قامت به فى هذا الصدد.

وعلى الصعيد الاقتصادى ارتبط الجانبان بعلاقات طيبة، فمعلوم أن العالم الإسلامى توقف ازدهاره على مدى سيطرته على محاور التجارة العالمية كذا منافذها، إذ شكلت التجارة معظم دخل العالم الإسلامى، ومن الثابت أن معابر التجارة العالمية بين الشرق والغرب وقعت فى مناطق خاضعة لسيادة العباسيين، إذ قدمت التجارة من الشرق الأقصى وتدفقت سلعها عبر الخليج العربى إلى شمال العراق ومنه إلى شمال الشام ثم الإمبراطورية البيزنطية^(٤) وأوروبا، كذلك ارتبط شمال الشام بشمال العراق بطرق تجارية^(٥) عديدة لاسيما بين حلب

١- ابن العديم، المصدر السابق، ج٢، ص ٣١٩.

٢- عاشور، ظل الخلافة العباسية فى الحركة الصليبية، ص ٦٨.

٣- نفسه، نفس المصدر والصفحة.

٤- ماركوپولو، رحلات ماركوپولو، ص ٣٨، نعيم زكى، طرق التجارة الدولية فى أواخر العصور الوسطى، ص ١١٧ - ١١٨، هايد، تاريخ التجارة فى الشرق الأوسط، ص ٤٣- ٥٩، عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب، ص ١٧٦، حاشية (٥٤)، إبراهيم الصبحى، «المواصلات عند العرب فى خدمة اقتصادهم»، مجلة الضياء، العدد (١٤)، السنة (٣) مايو ١٩٨٣ م، ص ٥٧.

٥- ابن جبیر، الرحلة، ص ٢١٠.

والموصل ، وعملت الدولة النورية على انعاش حركة التجارة بين العراق والشام، من خلال إزالة جانب من المكوس على التجار المسافرين بين الإقليمين لتشجيعهم على المتاجرة .

وبلاحظ هنا أن نقش باب شاغور الذي تم فيه إلغاء حق التسفير على التجار بين الإقليمين^(١)، لافجد له نظيراً بين نقوش الدولة النورية، على نحو عكس مدى اهتمامها بانعاش التجارة مع مناطق العباسيين ، والإفادة من ثراء التجار العراقيين ، وتشجيعهم على المتاجرة مع الأسواق الشامية ، ولأشك أنها جنت من وراء ذلك مكوساً وفيرة .

ولانغفل احتياج عمليات التصنيع فى الدولة النورية إلى مواد خام تواجدت بكثرة فى العراق، فالموصل احتوت على كميات كبيرة من معدن النحاس وكذلك الرخام^(٢)، بقدر فاق بلاد الشام وطبيعى أن توطد العلاقات السياسية بين الجانبين قد أدى إلى تدفق المواد الخام بين الإقليمين .

ويتمثل جانب آخر من أوجه العلاقات الاقتصادية فى الغنائم التى أرسلتها الدولة النورية إلى العباسيين^(٣)، معبرة عن حجم انتصاراتها على الصليبيين وذلك ما حدث عقب الانتصار فى معركة يفرى عام ٥٣٣هـ / ١١٤٩م^(٤)، حيث تم إرسال رأس ريموند صاحب أنطاكية وقسم

١- Compe, wiet, sauvaget , Repertoire Chronologie d'epigraphie Arabe, T. V, p. 10 ,
Sauvaget, "decrets Seljoukids IFD , Année 1967, P. 8-9 , E;isseff, Latitualiture de Nur Al -
Din, p. 158, Wiet, Note d'epigraphie syro- musulmane, Syria, T. VI , Paris Année 1925, P.
164 , Van Berchem, Inscriptions Arabes de Syrie , P. 453-454 .

٢- الديار بكري، الخميس فى أحوال أنفس نفيس ، ص ٣٦١ ، كرسى، تراث الإسلام فى الفنون الفرعية،
ص ٢٨ ، الديوجى، تاريخ الموصل، ج ١ ، ص ٢٢٣ .

٣- عاشور ، ظل الخلافة العباسية فى الحركة الصليبية، ص ٦٨ .

٤- ابن الأثير ، الكامل، ج ١ ، ص ٥٥ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٩٢ ؛ ابن واصل ،
مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١١٤ ؛ ابن الوردي ، تمة المختصر ، ص ١٤٥ ؛ النويرى، نهاية الأرب، ج ٧ ،
ص ١٥٤ .

Stevenson , The Crusaders, p. 165 . William of Tyre, vol. II, p. 199 .

من الغنائم إلى الخليفة في بغداد ، ويبدو أنها كانت من الأهمية بحيث بلغت مسامع الصليبيين ، وأورد ذكرها ولیم الصوري^(١) ، وتكرر نفس الموقف في عام ٥٥٢هـ / ١١٥٧م^(٢) . ومن جهة أخرى ، اتجهت الدولة النورية في بعض الأحيان إلى طلب المساعدة المالية من الخلافة العباسية للاتفاق على مرافق البلاد ، ونجد مثلاً دالاً على ذلك ، عندما وقعت أحداث زلزال عام ٥٦٥هـ / ١١٧٠م ، والذي اجتاحت بلاد الشام ، خاصة مدن حلب ، وعلبك ، وحمص وحماء ، وشيزر ، وبعرين ، وتهدمت أسوارها وقلاعها ، وتأثرت به مدينة حلب أكثر من غيرها بمظاهر الخراب والدمار^(٣) ، وعلى الرغم من أن نور الدين «أخرج من الأموال ما لا يقدر بقدر»^(٤) ، من أجل ترميم ما تهدم ، إلا أن ذلك لم يكف . فاتجه إلى طلب عون الخلافة ، ففي نص أورده ابن الفرات شرح نور الدين للخليفة المستنجد بالله ما حل بمناطق دولته من دمار

١- William of tyre, vol. II, p. 199 .

٢- ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٩ ، ص ١٧٦ .

٣- عن ذلك أنظر : ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٥٥ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج ١ / ق ٢ ، ص ٤٦٧ ؛ الذهبي ، دول الإسلام ، ج ١ ، ص ٧٨ ؛ ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ، م (٤) ، ج (١) ، ص ٩٤-٩٥ . محمد مؤنس أحمد عوض ، الزلازل في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية ط . القاهرة ١٩٩٦م ، ص ٩٥-١٠٩ ، وفي ذلك يقول العماد الأصفهاني :

سطوة زلزلت بسكانها الأرض

وهدت قواعد الأطوار

أخذتهم بالحق رجفة بأس

تركته صرعى صروف العوادي

خفضت في قلاعها كل عال

وأعادت قلاعها كالوهاد

أبرشامة ، نفس المصدر ، ص ٤٦٨ .

٤- نفسه ، الروضتين ، ص ٤٦٨ .

بالغ على نحو أثر على على دفاعاتها فى مواجهة الصليبيين ، واستصرخه أن يقدم له العون المالى اللازم^(١) .

ولاريب فى أن الخلافة العباسية كانت تحرص على دعم الدولة النورية مالياً ، لتواجه أعداءها من الصليبيين ، ولذلك فإنها بادرت بتقديم مساعدتها ، والمرجح أن ذلك تم بسرعة واضحة لتدارك خطر تهدم أسوار وقلاع مدن الدولة النورية ، خوفاً من هجوم صليبي مفاجئ عليها إغتناماً للموقف .

ومن جهة أخرى ، يبدو أن الدولة النورية قدمت للخلافة العباسية الأموال اللازمة التى كانت بدورها تطلبها كدليل على الولاء ونجد أنها عندما أقدمت فى بعض الأحيان على إنقاص المكوس المفروضة على النشاط التجارى ، راسل نور الدين محمود الخليفة ليوضح له الأمر ، وليطلب منه تقليل ما كان يحصل عليه من قبل^(٢) .

إن تلك العلاقات المالية تدل بوضوح على خصوصية علاقة الخلافة العباسية بالدولة النورية فى بلاد الشام والجزيرة ، وحرص الخلافة على دعمها وحمايتها من الخطر الخارجى بتوفير الدعم المالى لها عندما احتاجت إليه .

أما العلاقات المذهبية والثقافية فساهمت فى تقوية الصلات بينهما ، فمعلوم أن المذهب الأشعرى الوسطى نشأ وترعرع فى أحضان الخلافة العباسية ، وكذلك العداء المستمر تجاه الدعوة الشيعية الإسماعيلية ، وقد ورثت الدولة النورية عن العباسيين الاتجاهين السابقين ، ومن ثم التقت القوتان فى هدف مشترك وطبيعى أن كافة الإجراءات التى اتخذها الدولة النورية فى هذا الصدد فى بلاد الشام والجزيرة قد حظيت برضاء ودعم الخلافة العباسية .

ثم إن حركة الإحياء السنى التى تبنى أمرها نور الدين محمود ، قد لقيت الدعم العباسى الكامل ، وفى خلال ذلك تم إنشاء العديد من المدارس واستقدام العلماء والفقهاء من العراق وفارس ، واستمرت المرحلة فى طلب العلم بين العراق والشام ، ولا أدل على ذلك من أن مؤرخ

١- ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ، م (٤) ، ج (١) ، ص ٩٦-٩٧ ، أيضا انظر : ماهر حماده ،

الوثائق السياسية والإدارية للعهد الفاطمية والأتابكية والأيوبية ، ط. بيروت ١٩٨٤م ، ص ٢١٢-٢١٣ .

٢- ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ، ص ٩٧ .

دمشق الأكبر ابن عساكر^(١)، قدم إلى العراق ليدرس على أيدي المشايخ العراقيين، كذلك قدم من هناك عدد من الفقهاء إلى الشام، ومن أمثلتهم قطب الدين النيسابوري^(٢)، وابن أبي النجيب^(٣)، وشرف الدين عبد المؤمن بن شورو^(٤)، وكمال الدين الشهرزوري^(٥)، وقد قدم الأخير إلى دمشق في عهد نور الدين محمود في عام ٥٥٠هـ / ١١٥٥م، وتولى أمر عدة مناصب مهمة ارتبطت جميعها بالناحية الدينية، ودعم السنة ومحاربة التشيع مثل أمر المساجد، والمدارس، والخسبة إلى غير ذلك.

ولامراء في أن الخلافة العباسية أدركت خطورة انتشار الدعوة الاسماعيلية النزارية في بلاد الشام وكذلك في الجزيرة، أي في الأقاليم المجاورة لقلب تلك الخلافة على نحو يدعم نزارية العراق، ويهدد الخليفة العباسي في عقر داره، ومن ثم اتجهت إلى مساعدة الدولة النورية من أجل القضاء على انتشار الدعوة الشيعية في الشام، ليساعدها ذلك على مقاومتها في العراق وأقاليم المشرق الإسلامي الأخرى لاسيما فارس.

١- عنه أنظر : -

ياقوت، ارشاد الأريب، تحقيق. فريد رفاعي، ج٥، ص١٣٩-١٤٦، أحمد رمضان، «المسجد الأموي بدمشق بين الحقيقة والأسطورة كما جاء في تاريخ ابن عساكر»، مجلة الدارة، العدد (٤)، السنة (٥) لعام ١٩٨٠م، ص٩٣ - ص١١٤، المنجد، أعلام التاريخ والجغرافية عند العرب، ط. بيروت ١٩٦٠م، ص٨٨-١٥٧، مارجليوس، المؤرخين العرب، ت. حسين نصار، ط. بيروت ب-ت، ص١٦٦، كرد على «الشاميون والتاريخ»، مجلة المجمع العلمي بدمشق، م (١٧)، ج٣، ج٤، ص٩٩-١٠٠، Elisseeff،

La description de Damas d'Ibn Asakir, Damas 1959, pp. XVII - XXVIII.

٢- العماد الأصفيهاني، سنا البرق الشامي، ص٢٧.

٣- نفسه، نفس المصدر والصفحة.

٤- نفسه، نفس المصدر والصفحة.

٥- عنه أنظر :

ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٩٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٧٩؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤، ص٢٤٣، أحمد بدوي، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ط. القاهرة، ب-ت، ص١٥٩-١٦٠.

ومن الممكن تصور أن الإنجاز الذي حققته حركة الإحياء السنّي في عهد الدولة النورية لم يكن من الممكن أن يتحقق بتلك الصورة من النجاح ، بدون المساعدة الرسمية الكاملة من العباسيين .

ومن جهة الدولة النورية ، فقد حظيت بتقدير العباسيين ودعمهم ، طالما استمرت في سياستها الرامية إلى دعم السنة ومحاربة التشيع ، ولانغفل أن تلك السياسة المذهبية مثلت أحد العناصر المهمة في التحالف بين حلب وبغداد .

ومن الصلات التي وجدت بين الجانبين؛ استمرت اتصال المتصوفة العراقيين بالشاميين والعكس ، ومما ساعد على ذلك أنه لم توجد حواجز سياسية تفصل بين بلدان العالم الإسلامي بعامة وكذلك بلاد الشام والعراق ، الأمر الذي جعل الاتصال بين المتصوفة أمراً دائماً^(١) ، يضاف إلى ذلك أن السياحة نفسها كانت ضمن مقامات الطريق الصوفي مثل الغربة والعزلة والتوكل^(٢) ، وقد أشارت المؤلفات المتصوفة أنفسهم إلى أهمية السياحة والترحال بالنسبة للسالكين^(٣) في الطريق الصوفي ، وقد ارتحل العديد من أقطاب التصوف بين الاقليمين ، لينضم إليهم الأتباع والمريدون ، ووجدت الطرق الصوفية التي انتشرت في كل من بلاد الشام والعراق ، ومن أمثلة متصوفة العراق الذين قدموا إلى الدولة النورية الشيخ أبي النجيب السهروردي^(٤) ت ٥٦٣هـ / ١١٦٧م ، الذي كان من كبار متصوفة العراق وارتبطت به الطريقة السهروردية .

١- سليمان عطية، التعليم في فلسطين في عهد سلاطين المماليك ، رسالة دكتوراه -غير منشورة، كلية الآداب- جامعة القاهرة لعام ١٩٥٠م، ص ٢٩٢ .

٢- إبراهيم الدسوقي ، دور المتصوفة الإيرانيين في ميدان التصوف الإسلامي وسياحاتهم في مصر ، ضمن كتاب الصلات الثقافية بين مصر وإيران ، ط. القاهرة ١٩٧٥م، ص ٢٧٦ .

٣- النفرى، موقف المواقف، نشر بولس نوبا ، ضمن كتاب نصوص صوفية غير منشورة ، ط. بيروت ١٩٧٢م، ص ٢٢٧؛ السهروردي، آداب المريدن ، تحقيق شلتوت ، ط. القاهرة ، ب-ت ، ص ٨٤-٩٠ .

٤- عنه أنظر :

الذهبي ، العبر ، ج٤ ، ص ١٨١-١٨٢ .

ويتصل بالصلات المذهبية الاهتمام المشترك من جانب الخلافة العباسية والدولة النورية بالحج ، والإعداد لموكبه وتأمين خطوط سيره ، وقد كان هناك موكب الحجاج الشاميين^(١) ، وآخر للعراقيين^(٢) ، اتخذ كل طريقه الخاص إلى المحارم الإسلامية المقدسة ، وحرص نور الدين محمود على أن يظهر أمام خلفاء بغداد بمظهر الراعى لتلك الأماكن ، إذ عمل على تأمين طريق الحجاج الشاميين عن طريق تقديم الإقطاعات للقبائل العربية^(٣) ، التي سكنت نواحي الأردن وشمال جزيرة العرب حتى لا تتعرض للحجاج^(٤) ، كذلك ساهم في تعمير المسجد النبوي ، حيث عمل خندقاً حول الحجرة النبوية مملوءاً بالرصاص ، وذلك في عام ٥٥٧هـ / ١١٦٢م^(٥) ، وأظهر اهتماماً بأمر الحج ، حتى خرجت زوجته عصمت الدين خاتون بنت معين الدين انر عام ٥٦٣هـ / ١١٦٨م^(٦) على رأس الموكب الشامي .

وهكذا مثلت الجوانب المذهبية سواء في الاتجاه الرسمي نحو دعم السنة ، ومحاربة التشيع ثم الاهتمام بالمحارم الإسلامية المقدسة ورعايتها - مثلت هدفاً مشتركاً لكل من الخلافة العباسية والدولة النورية وعنصرًا مدعماً لتحالفهما .

تلك سياسة الدولة النورية تجاه الخلافة العباسية ، اتضح منها مدى توطد العلاقات بين الجانبين وأن الأهداف المشتركة جعلت بينهما تحالفًا سياسيًا وثيقًا ، احتفظت فيه الدولة النورية

١- عن طريق الحجاج الشاميين أنظر :

سليمان مالكي ، « طريق حجاج الشام ومصر منذ الفتح الإسلامي إلى منتصف القرن السابع الهجري » ، العدد (١) ، السنة (١١) يونيو ١٩٨٤م ، ص ٩ .

٢- عن طريق الحجاج العراقيين أنظر :

سليمان المالكي ، طريق ركب الحاج العراقي من الكوفة إلى مكة ، الدارة ، العدد (٢) السنة (١١) ، أكتوبر ١٩٨٣م ، ص ١٠ - ص ١١ .

٣- ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ .

٤- حسين مؤنس ، نور الدين محمود ، ص ٣٨٤ ، من أمثلة هجماتهم على الحجاج ، أنظر :

أبو الفدا ، المختصر ، م (٢) ، ج (٥) ، ص ٣٣ .

٥- الديار بكري ، الخميس ، ص ٣٦٣ .

٦- ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ .

بكيانها واستقلالها السياسى دون مساس ، وإن قدمت للعباسيين الولاء ، وقد اختلفت سياستها عن سياسة الدولة الزنكية فى هذا المجال ، فعلى حين اصطدم عماد الدين زنكى بالعباسيين ، فإن نور الدين محمود تحالف معهم ، واتسمت سياسته تجاههم بالرغبة فى الإفادة منهم لا إثارة المشكلات من خلال معاداتهم ، ويلاحظ وجود العديد من المجالات السياسية، والعسكرية، والاقتصادية، والمذهبية، والثقافية التى تدعمت من خلالها العلاقات بين الجانبين، وبصفة عامة : أفاد نور الدين من العباسيين فى دعم مشروعية حكمه ، ومن دعمهم له فى صراعه مع الوجود الصليبي فى بلاد الشام.

أما السياسة الخارجية النورية حيال الخلافة الفاطمية : فهذا ما سنخصص له الفصل التالى.

الفصل الثانى

العلاقات النورية - الفاطمية

مثلت العلاقات تجاه الخلافة الفاطمية جانباً مهماً فى نشاط السياسة الخارجية النورية. وقد توجهت إلى مصر الفاطمية من خلال جملة دوافع اقتصادية وسياسية واستراتيجية ومذهبية ، كما مرت العلاقات بين الجانبين ببعض المراحل المهمة، منها محاولة التنسيق العسكرى المشترك ضد الوجود الصليبي فى بلاد الشام ثم الاتصالات الدبلوماسية وأخيراً التدخل العسكرى النورى المباشر فى الشئون المصرية ؛ نتيجة الصراعات السياسية بين الوزراء الفاطميين العظام

وفى هذا المجال ؛ حققت السياسة الخارجية النورية نجاحاً كبيراً ، من خلال إسقاط الخلافة الفاطمية نفسها، وإعادة مصر مرة أخرى إلى المعسكر السنى .

تحدد جانب من دوافع تلك السياسة نحو مصر الفاطمية من خلال الرغبة القوية فى الإفادة من ثرائها المتمثل فى سهل النيل الفيضى، وكشافته السكانية المرتفعة نسبياً ، التى يمكن الإفادة منها فى مشروعات الدولة النورية العسكرية التوسعية وكذلك الرغبة فى الهيمنة على خطوط التجارة العالمية المارة بمصر والسيطرة على التجارة الكارمية^(١)، التى ازدهرت بشكل واضح خلال العصر الفاطمى ؛ وهى تجارة اختصت بالتوابل واستيرادها من الهند إلى مناطق طلبها خاصة فى القارة الأوربية .

١- عن التجارة الكارمية بالتفصيل أنظر : القلقشندي، صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٥٢٤ ، صبحى لبيب ، «التجارة الكارمية فى تجارة مصر فى العصور الوسطى» ، المجلة التاريخية المصرية ، م (٤) ، العدد (٢) لعام ١٩٥٤م، ص٥- ص٥٣ ، «سياسة مصر التجارية فى عهدى الأيوبيين والمماليك» ، المجلة التاريخية المصرية ، م (٢٨) ، (٢٩) لعام ١٩٨١م - ١٩٨٢م ، ص١٣٥ - ص١٣٩ ، عطية القوصى ، «أضواء جديدة على تجارة الكارمية» ، المجلة التاريخية المصرية ، م (٢) ، لعام ١٩٧٥م، ص١٧ - ص٣٣ ، الشاطر بصليلى، «الكارمية» ، المجلة التاريخية المصرية ، م (١٣) لعام ١٩٧٥م، حسنين ربيع ، «البحر الأحمر فى العصر الأيوبي» ، ندوة البحر الأحمر ، ط١. القاهرة ١٩٨٠م، ص١١٥ - ص١١٧ ، محمد عبد الغنى الأشقر، تجارة الكارم والكارمية فى مصر زمن سلاطين المماليك ٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م ، رسالة دكتوراه كلية الآداب - جامعة عين شمس عام ١٩٩٧ م .

وينبغي أن نلاحظ أن عصر الخلافة الفاطمية في مصر شهد تطورات مهمة على المستوى الاقتصادي وارتبط تأثيرها بالناحيتين السياسية والمذهبية، فقد حاول الفاطميون إضعاف أعدائهم العباسيين اقتصادياً وبالتالي سياسياً عن طريق توجيه ضربة قوية لطريق التجارة مع جنوبى شرق آسيا من الخليج العربى إلى البحر الأحمر^(١)، وذلك بالعناية بميناء عيذاب^(٢) على البحر الأحمر وتسهيل حركة التجارة الصادرة والواردة عبره، وسرعان ما ازدهر ذلك الميناء على نحو جعله يثقل ثقلًا اقتصاديًا واضحًا .

حدث ذلك لعيذاب وفى نفس الحين ازدهرت قوص على شاطئ النيل، حيث وصلت إليها القوافل التجارية من ساحل البحر الأحمر، وتم استغلال النيل لنقلها ، وساعد على التطورات الهامة فى عيذاب ما حل بسيراف - الميناء التجارى الكبير على الخليج العربى- إذ دمرتها الزلازل فى عام ٣٦٦- ٣٦٧هـ / ٩٧٧م^(٣)، ومن جهة أخرى نشطت عمليات القرصنة فى

١- فاروق عمر، الجذور التاريخية للوزارة العباسية، ط. بغداد ١٩٨٦م، ص ١٩٨ .

٢- وقعت عيذاب على ساحل البحر الأحمر شمال قرية حلايب بنحو ١٨ كم وحدد موقعها الجغرافى بخط عرض ٤٧ ١٦ ٢٢ شمالاً وخط طول ٣٢ ٦ ٣٦ شرقاً ، عن موقعها ودورها التجارى أنظر : أحمد دراج ، « عيذاب »، مجلة نهضة أفريقيا ، العدد (٩) ، يوليو ١٩٥٥م، ص ٥٧ - ص ٥٨ ، راشد البراوى ، حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين، ص ٢٤٢ ، أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحر عند العرب ، ط. الكويت ١٩٧٩م، ص ٨٠ ، محمد عبد الغنى الأشقر، تجارة الكارم والكارمية، ص ٢٢٨ - ص ٢٣٢ .

وجانب ولیم الصورى الصواب- على ما يبدو - عندما حدد موقع عيذاب على أنه بالقرب من السوس ، أنظر :

William of Tyre, vol . II, p. 336 .

٣- عادل الألوسى ، تجارة العراق البحرية مع أندونيسيا ، ط. بغداد ١٩٨٤م، ص ٧٦ ، اشتور ، التاريخ الاقتصادى والاجتماعى ، ص ٢٤٥ .

وعن سيراف أنظر : ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٩٣ .

عطيه القوصى ، « سيراف وكيس (قيس) وعدن من القرن الثالث الهجرى حتى السادس »، المجلة التاريخية المصرية ، م (٢٣) ، لعام ١٩٧٦م، ص ٧٨ .

ويذهب هايد إلى القول بأن سيراف تدهورت كمركز تجارى هام على الخليج العربى منذ بداية القرن ١٣م ، ومن الواضح أن ذلك يعد متأخرًا للغاية، انظر ، هايد ، تاريخ التجارة ، ص ١٧٧ .

المناطق المجاورة لها . وقامت الجمهوريات الإيطالية بدورها فى حركة تجارة عالم البحر المتوسط كوسيط تجارى بين الشرق والغرب ، وعملت على الحصول على المنتجات الهندية من مصر والشام وذلك بدلاً من ارتياد الخليج العربى وموانيه البعيدة الخطرة ^(١) .

كذلك حدث تطور مهم على المستوى التجارى عندما وجد الاهتمام بالتوابل ، وهى التى تؤدى إلى الاستهلاك الجماهيرى بدلاً من العطور الثمينة والسلع الكمالية ^(٢) ، ونشطت تجارة التوابل الهندية عن طريق التجار الكارمية ، ولا مراى فى أن الخلافة الفاطمية حظيت بشراء عريض من خلال المكوس المفروضة عليها ، وقد أسس التجار الكارمية مراكز لهم فى مصر صارت هدفاً لأية قوة خارجية تريد الهيمنة السياسية والاقتصادية على مقدرات المنطقة . وينبغى ألا نغفل نقطة مهمة ، ساعدت على التطورات التجارية الهامة التى مرت بها مصر الفاطمية ؛ إذ أن التجارة مع الهند ارتبطت باستعمال الإبرة المغناطيسية ، ويرى بعض الدارسين أن استعمالها من جانب البحارة العرب بدأ فى القرن الخامس هـ / الحادى عشر م ^(٣) .

أما ارتباط الناحية الاقتصادية بالمذهبية فتمثل فى رغبة الفواطم فى نشر المذهب الشيعى فى كافة البقاع الإسلامية ، إذ أنهم آمنوا بالسيادة العالمية للمذهب الشيعى الإسماعيلى ، ومن ثم سار الدعاة وراء التجار كما يقرر أشتور ^(٤) .

يضاف إلى ذلك ؛ أن الفاطميين أفادوا من موقع مصر المتوسط بين قارات آسيا وأفريقيا وأوروبا ، ووقعها على البحر المتوسط ^(٥) ، فازدهرت الموانئ والبحرية التجارية فى عهدهم ، وهذا ما حدث بالنسبة لاسكندرية ^(٦) ، التى نافست القسطنطينية فى نشاطها التجارى .

١- أشتور ، التاريخ الاقتصادى والاجتماعى ، ص ٢٤٥ .

٢- نفسه ، نفس المرجع والصفحة .

٣- نفسه ، نفس المرجع والصفحة .

٤- أشتور ، نفس المرجع ، ص ٢٤٥ .

٥- أرشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارة فى حوض البحر المتوسط ، ت . أحمد عيسى ، ط . القاهرة

١٩٦٠م ، ص ٣٢٨ ، ماجد ، المستنصر بالله الفاطمى ، ص ١٥٢ .

William of Tyre , vol . II , p. 336 .

وإلى جانب الرغبة فى السيطرة على طريق عيذاب والموانئ المهمة كالإسكندرية أرادت الدولة النورية فتح أسواق تجارية جديدة فى مصر ولا أدل على ذلك من أنه بعد حملات أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبي على مصر أرسل نور الدين محمود إلى الأخير والده نجم الدين أيوب ومعه «من التجار خلق عظيم»^(١)، وفى هذا دليل وضاح على أهمية البعد التجارى فى تطلعات السياسة الخارجية النورية نحو مصر .

ومن زاوية أخرى أدرك نور الدين أن الهجوم خير وسيلة للدفاع ، وأنه لكى يؤمن المكاسب السياسية والعسكرية التى حققها باستيلائه على دمشق ، فإن السبيل إلى ذلك منع القوى الصليبية من ضم مصر^(٢)، وأراد أن يضع تلك القوى بين شقى الرحى، جبهة فى الشمال وأخرى فى الجنوب ، كما عمل على دعم قوته العسكرية فى الشام بعد أن توطدت على مدى عشرين عاماً من ٥٤٠-٥٦٠هـ / ١١٤٦-١١٦٥م^(٣).

وبالإمكان أن نجد دافعاً للسياسة الخارجية النورية فى صورة الجوانب المذهبية وتمثلت فى الرغبة فى تصدير المذهب الأشعرى بعد أن توطد فى الشام فى ظل الدعم الرسمى غير المحدود ، لقد أرادت الدولة النورية القضاء على المذهب الشيعى الإسماعيلى وإحلال مذهبها الرسمى بدلا منه ، غير أننا ينبغى ألا نبالغ فى حجم تلك الدوافع المذهبية ونعدها هدفاً أساسياً محركا كما رأى أحد المؤرخين^(٤).

ومن الجدير بالتناول ؛ أوضاع الخلافة الفاطمية سياسياً وكيف أن التدهور الذى لحق بها مهد السبيل للتوغل النورى فى الشئون الفاطمية .

لقد أدت الأزمة الاقتصادية الطاحنة التى حلت بمصر فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر بالله ، والتى امتدت من ٤٥٧-٤٦٤هـ / ١٠٦٥-١٠٧١م^(٥) إلى إحداث تغييرات سياسية

١- ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ ، ص ٣٢٩ ؛ المقرئى ، اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص ٣١١ .

٢- حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية ، ج٢ ، ص ٢٠ .

٣- Riley - Smith , The Knights of St . John , P. 70 .

حسين مؤنس ، نور الدين محمود ، ص ٢٧٧ .

٤- إرنست باركر ، الحروب الصليبية ، ت. السيد الباز العرنى ، ط. القاهرة ١٩٦ م ، ص ٩٩ .

٥- عن ذلك أنظر :

المقرئى ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ، ط. القاهرة ١٩٥٧م ، =

مهمة لم تشهدها الخلافة الفاطمية من قبل : إذ طلب الخليفة عون بدر الجمالي^(١)، حاكم عكا الذى قدم إلى مصر وتمكن من اتخاذ إجراءات ناجحة ، ومع نجاحه تزايد نفوذه بعد أن فوض له الخليفة أمر الوزارة ، فصار صاحب السلطة المطلقة والحقيقية فى البلاد^(٢) ، وكان ذلك إيذاناً بافتتاح النصف الثانى من عهد الفاطميين ، فبعد أن وجدنا خلفاء أقوياء مثل المعز لدين الله والعزیز والحاكم تبدل الأمر إلى وجود خلفاء لا يملكون من الخلافة إلا اسمها وحق للبعض أن يرى فى تاريخ مصر خلال ذلك الحين تاريخ سيطرة الوزراء العظام^(٣) ، وتزايد خلال ذلك الصراع على السلطة ومع الإضمحلال وسفك الدماء^(٤).

فى عام ٥٤٤هـ / ١١٤٩م توفى الخليفة الحافظ فخلفه ابنه الظافر، واستبد فى عهده بالسلطة الوزير العادل بن السلال^(٥)، وقد قتل الظافر فى عام ٥٤٩هـ / ١١٥٤م^(٦)، سرّاً وهو لا يزال شاباً فتولى من بعده الفائز وقتل الأخير فى عام ٥٥٥هـ / ١١٦٠م^(٧)، وقد سيطر على

= ص ٢٤ - ص ٢٧ ، ماجد ، الإمام المستنصر بالله الفاطمى ، ص ١٥٦ - ص ١٥٧ ، أحمد عبد الرزاق ، «عقد مراجعة من العصر الفاطمى» ، ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، (٢) لعام ١٩٨٣م ، ص ٢٨ - ص ٣١ .
١- عنه أنظر : المقرئى ، اتعاظ الخنفا ، ج ٢ ، ص ٢٦٨ ، ص ٢٧٠ ، ص ٢٧٢ ، يوسف غوانم ، «الأفضل بن بدر الجمالى وموقفه من الحملة الصليبية الأولى» ، مجلة كلية الآداب - جامعة الملك سعود ، م (١٠) لعام ١٩٨٣م ، ص ٧٢ - ص ٧٣ .

٢- السجلات المستنصرية ، تحقيق ماجد ، ط. القاهرة ١٩٥٤م ، ص ١١١ .

٣- الشيال ، نظام الوزارة فى العصر الفاطمى ، ضمن كتاب دراسات فى التاريخ الإسلامى ، ط. بيروت ١٩٦١م ، ص ١٠ .

٤- Archer , The Crusades, London 1894, P. 282 .

٥- عاشور ، الناصر صلاح الدين ، ط. القاهرة ١٩٦٥م ، ص ٦١ ، «شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية» ، المجلة التاريخية المصرية ، م (١٦) لعام ١٩٦٩م ، ص ٤٤ .

٦- أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٢٠ ؛ السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ط. القاهرة ب-ت ، ص ١٧٦ ؛ الذهبى ، دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ٦٥ .

٧- ابن الجوزى ، المنتظم ، ج ١٠ ، ص ١٩٦ ؛ الذهبى ، دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ٧١ .

Lane- Poole, Hist. of Egypt in the middle ages, p. 175 - 176 .

دولته الوزير الصالح بن رزيك الذى وصف بأنه كان «صاحب مصر»^(١)، ومن بعده تولى العاضد الذى صار مجرد واجهة بينما السلطة الفعلية فى يد الوزير الصالح الذى زوج العاضد ابنته^(٢)، ليدعم نفوذه السياسى غير أن الخليفة تمكن من قتل وزيره^(٣)، وهكذا نافست الخلافة الفاطمية فى عهد الوزراء العظام الإمبراطورية البيزنطية فى الصراع الدموى على السلطة السياسية، فإذا أضفنا إلى ذلك كله التنافر بين فئات الجيش الفاطمى المختلفة^(٤)، أدركنا ما آلت إليه تلك الخلافة من وهن بالغ .

مرت السياسة الخارجية النورية تجاه الفاطميين فى مصر بعدة مراحل ؛ أملت المصلحة المشتركة ؛ وساعد عليها ضعف الفواطم ورغبتهم فى البحث عن قوة سياسية ، وعسكرية معاونة فى المنطقة .

أما المرحلة الأولى من العلاقات بين الجانبين فتمثلت فى محاولة التنسيق العسكرى ضد الوجود الصليبي فى بلاد الشام ؛ إذ أن الفاطميين رغبوا فى استعادة أملاكهم التى فقدوها من جراء الغزو الصليبي، وأرادوا أن يظهروا أمام رعاياهم على أنهم يدافعون عن ديار الإسلام، ووجدوا فى الدولة النورية قوة يمكن الارتباط بها، لتساعدهم على تحقيق أهدافهم .

وفى تلك المرحلة قام الوزير الفاطمى ابن السلال السنى المذهب بمحاولة الاتصال بنور الدين من أجل شن عمليات حربية مشتركة على أساس أن يتقدم نور الدين بقواته من الشمال ، ويقوم الأسطول الفاطمى بمهاجمة المدن الساحلية الشامية الصليبية، وتوسط أسامة بن منقذ بين الجانبين وعرض عليه ابن السلال أن يأخذ الأموال والهدايا لسلطان حلب عارضاً عليه القيام بمنازلة طبرية، وفى نفس الحين يقوم الأسطول الفاطمى بمهاجمة غزة ، وفى حالة موافقة نور الدين على ذلك يقدم له ابن منقذ الأموال لمساعدته ، فإن رفض فعلى الأخير أن يجند بالأموال عدداً من الفرسان لقتال الصليبيين عند عسقلان ، غير أنه عندما بلغ بصرى وقابل نور الدين

١- أبو شامة الروضتين ، ج١ / ٢ ق ، ص ٣٦٦ ؛ المقرئى ، اتعاظ الخنفا ، ج٣ ، ص ٢٢٤ .

٢- ابن ظافر الأزدى ، أخبار الدول المنقطعة ، تحقيق أندريه فريبه ، ط. القاهرة ١٩٧٢م ، ص ١١٢ .

٣- ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص ٣٤٥ .

٤- ابن ميسر ، أخبار مصر ، تحقيق هنرى ماسيه ، ط. القاهرة ١٩١٩ م ، ج١ ، ص ٨٨ .

أوضح له مدى إنشغاله بأمر دمشق وأنها تقف سداً منيعاً دون التعاون المشترك مع الفواطم، إذ أنها لم تكن حينذاك قد سقطت بعد في قبضته (١).

وينبغي أن نلاحظ أن رفض نور الدين لم يكن يهدف تجنب التحالف العسكري مع الفاطميين ، بل إن واقع الأحداث نفسه عاقه عن التعاون معهم، إذ أنه كان من المستحيل عليه أن يهدد إقليم الجليل وعاصمته طبرية دون الاستيلاء على دمشق، ومن ثم ظلت مملكة بيت المقدس الصليبية في مأمن من هجماته على ذلك الإقليم طالما تحالفت مع حكام دمشق .

ويلاحظ أن ابن السلار استمر في صراعه مع الصليبيين فجhez في عام ٥٤٦هـ / ١١٥١م أسطولاً أنفق عليه مالاً وفيراً وهاجم به المدن الساحلية الصليبية وبلغ ذلك مسامع نور الدين، ومرة أخرى شغلته أحداث دمشق (٢).

ولا مراء في أن الاتصالات التي جرت بين الجانبين دلت على أن الوزير الفاطمي ابن السلار السنّي المذهب عمل على التحلل من القيود المذهبية الاسماعيلية (٣)، واتجه إلى طلب عون نور الدين السنّي أيضاً ، إذ أن الشعور بالخطر المشترك دفعه إلى ذلك ؛ ودل ذلك على اعتراف الفاطميين ضمناً ولأول مرة بالقوة السياسية والعسكرية للدولة النورية .

وتجددت المحاولات السابقة في عهد وزارة طلائع بن زريك الذي اتصل بنور الدين محمود عن طريق ابن منقذ غير أن نور الدين لم يتمكن من الاتفاق معه (٤)، ويبدو أنه اعتقد أن هذا المسلك مجرد مسلك شخصي من جانب ابن زريك ، ولا يعبر عن موقف معضد بصورة كاملة

١- عن الاتصالات بين ابن السلار ونور الدين أنظر :

أسامه بن منقذ ، الاعتبار ، ص ١٠ - ص ١٤ ، حمدي المناوي ، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، ط. القاهرة ١٩٧٠م ، ص ٢٢٨ ، محمد حلمي محمد، مصر والشام والصليبيون ، ط. القاهرة ١٩٧٩م ، ص ٩١ ، عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية، ص ٤٤ .

٢- المقرئزي، اتعاظ الخنفا ، ج ٣ ، ص ٢٠٢ .

٣- محمد حلمي محمد، مصر والشام والصليبيون ، ص ٩١ .

٤- نفسه ، نفس المرجع ، ص ٩٢ ، العريني ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، ص ٦٥٨ - ٦٥٩ .

Elisseff, L'Orient, musulman, P. 257, Lane- Poole, Hist. of Egypt, p. 175 .

من الخلافة الفاطمية ، وأثبتت الأحداث صدق مخاوف نور الدين إذ لم يلبث ابن رزيك أن اغتيل بمؤامرة من رجال القصر^(١) ، وليس صائبا رأى أحد المؤرخين عندما تصور أن نور الدين أراد أن ينفرد بأمر قتال الصليبيين^(٢) ، إذ أنه كانت لديه رغبة فى التعاون المشترك وتعاون مع القوى المحلية الشامية والجزرية ولكن هنا خشى من مغبة التورط فى تعاون عسكري مشترك لا يعبر بالضرورة عن الفاطميين .

أما المرحلة الثانية من العلاقات بين الجانبين : فتجسدت فى سلسلة من الاتصالات الدبلوماسية استمرت لتوطيد العلاقات السياسية بينهما ، وقد وصلت إلى القاهرة فى عام ٥٢٢هـ / ١١٥٧م سفارة من جانب نور الدين^(٣) ، وتكرر ذات الأمر فى العام التالى أى ٥٥٣هـ / ١١٥٨م^(٤) ، وردت الخلافة الفاطمية على تلك السفارة بأن تم إعادة السفير النورى إلى بلاده ، ومعه هدايا وأسلحة تقدر بثلاثين ألفاً من الدنانير ، وعينيات تقدر بسبعين ألفاً ، من أجل دعم صراع نور الدين مع الصليبيين^(٥) ، ونجد سفارة أخرى من نور الدين فى عام ٥٥٤هـ / ١١٥٩م^(٦) ، ومن جهة أخرى أظهرت الخلافة الفاطمية ودها له ، فأرسل العاضد فى عام ٥٥٥هـ / ١١٦٠م بالخلع إليه ، والواقع أن التعليل المنطقي لذلك أن الفاطميين بعد أن فقدوا عسقلان عام ٥٤٨هـ / ١١٥٣م أدركوا أكثر من ذى قبل : ضرورة الاستفادة من قوة الدولة النورية وثقلها السياسى والعسكرى ، ويلاحظ أنه مع تلك السفارات قدم الفاطميون دعماً مالياً كبيراً مثلما حدث فى عامى ٥٥٨هـ / ١١٦٣م^(٧) ، ٥٦٢هـ / ١١٦٧م^(٨) .

١- محمد حلمى محمد، المرجع السابق، ص ٩٢ .

٢- العرينى، المرجع السابق، ص ٦٥٨-٦٥٩ .

٣- ابن ميسر ، أخبار مصر ، ص ٩٦ : المقرئى، اتعاظ الخنفا ، ج ٣ ، ص ٢٣ .

٤- ابن ميسر ، أخبار مصر ، ص ٩٧ : المقرئى، اتعاظ الخنفا ، ج ٣ ، ص ٢٣٣ .

٥- ابن القلاسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٥٣؛ ابن ميسر ، المصدر السابق، ص ٩٨ .

٦- نفسه ، نفس المصدر، ص ٣٥٦ .

٧- المقرئى، المصدر السابق، ج ٣ ، ص ٢٦٠ .

٨- نفسه ، نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ٢٨٧ .

وبالنسبة للمرحلة الثالثة من مراحل العلاقات بين الجانبين ، فتمثلت فى اتباع نور الدين محمود لسياسة التدخل العسكرى المباشر فى مصر لحسم الصراعات السياسية الداخلية فيها لصالح دولته وجاء ذلك من خلال مرحلة جديدة من مراحل صراعه مع الوجود الصليبي لذا حتم ولوج هذه المرحلة تناول حجم القوى الصليبية فى بلاد الشام وتدخلها فى تحديد مصير الدولة الفاطمية بمصر .

تولى عرش مملكة بيت المقدس الصليبية الملك عمورى ^(١) ، الذى وصفه ابن الأثير بأنه لم يكن للصليبيين « منذ خرجوا إلى الشام مثله شجاعة ومكرًا ودهاءً » ^(٢) ، وأثرت مقوماته الشخصية على مجريات الأحداث ^(٣) ؛ إذ كان شابًا طموحًا ولم يكن راضيًا عن أوضاع الإمارات اللاتينية فى بلاد الشام وهدف إلى تدعيم ملكه وتحقيق أحلام التوسع الإقليمي على حساب مناطق المسلمين وعلق الآمال الكبار على الدعم العسكرى الأوربي والبيزنطى لمشاريعه المرتقبه تجاه مصر ^(٤) ، وما ساعده على إدراك أهميتها وتوجيه نشاطه صوبها أنه عمل كونه على يافا وعسقلان ^(٥) ، ومن ثم ادرك عن كثب أهمية تأمين الحدود الجنوبية للمملكة .

ويلاحظ أن مصر حينذاك غدت المجال الحيوى الطبيعى لتوسع مملكة بيت المقدس الصليبية إذ حد البحر المتوسط حدود المملكة من الغرب ونهر الأردن وبحيرتى الحولة وطبرية من الشرق وإقليم الجليل فى الشمال ومن الجنوب صحراء النقب وأدرك الصليبيون أن قيام الدولة النورية فى بلاد الشام ، وتوحيدها لمناطق حلب، وحماه، وحمص، ودمشق ، أغلق الطريق أمام

١- يسميه المقرئى «مرى» انظر :

المقرئى ، المقفى ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، ج (١) ، ورقة (٢٩١) .

٢- ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٣٧ .

٣- عن شخصية الملك عمورى انظر :

William of Tyre, vol . II , pp. 296-298 .

Stevenson , The Crusaders in the East, p. 185 .

-٤

William of Tyre , vol . II , p. 279, Baldwin , I , Elisseff, Nur Al - Din , T . II , p. -٥

569- 570 .

اتجاهاتهم التوسعية صوب الشمال الشرقى، ومن ثم لم يبق أمامهم إلا التوسع نحو الجنوب الغربى^(١)، أى نحو مصر الفاطمية .

ويلاحظ أن الأطماع الصليبية نحو مصر فى عهد الملك عمورى مثلت مرحلة جديدة من مراحل المطامع الصليبية حيالها^(٢)، فمن قبل هاجم الصليبيون الأملاك الفاطمية فى بلاد الشام، أما الآن فهم يتوغلون فى مصر حتى أن القاهرة نفسها لم تسلم من تهديداتهم^(٣)، على نحو لم تكن له سابقة من قبل .

ومن قبل احتدم الصراع الزارى فى مصر الفاطمية فأظهرت مملكة بيت المقدس أطماعها سافرة ، وهدد الملك بلدوين الثالث فى عام ٥٥٥هـ / ١١٦٠ م بغزوها منتهزاً اضطراب أوضاعها و وفاة الخليفة الفائز ، ولكنه عاد عن ذلك بعد وعد الوزير طلائع بن رزك نيابة عن العاضد (٥٥٥ - ٥٦٧هـ / ١١٦٠ - ١١٧٠ م) تقديم إتاوة سنوية قدرها مائة وستون ألف دينار ولكن يبدو أن تلك الإتاوة لم تدفعها الخزانة الفاطمية إذ أن وليم الصورى يؤكد أنها لم تدفع أبداً^(٤)، واتخذ عمورى من ذلك ذريعة لمهاجمة مصر عام ٥٥٨هـ / ١١٦٣ م ، فقام الوزير ضرغام بفتح قنوات النيل على الجيش الصليبي ، فأغرق قسماً من الدلتا ، واضطر الصليبيون إلى الانسحاب دون تحقيق مكاسب عسكرية أو سياسية حقيقية^(٥).

١- عاشور ، الحركة الصليبية، ج٢ ، ص ٦٨ ، وأيضاً : Kingsford, "The Kingdom of Jerusalem :
" in C. M. H , Cambridge 1948 , vol . V , p.

٢- عن مطامع الصليبيين فى مصر :

ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٣ ، ص ٢٥٨ ، زيادة ، مصر والحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٤٢م، ص ٧ - ٨ ، عاشور ، أضواء جديدة على الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٦٤ م، ص ٦٨ ، مختار العبادى، قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام، ط. القاهرة ١٩٦٩م، ص ١٠١ ، حامد زيان، العلاقات بين صقلية ومصر والشام إبان الحروب الصليبية ، رسالة دكتوراه غير منشورة - كلية الآداب جامعة القاهرة، العام ١٩٧٣م، ص ١٠٦ ، الحويرى، العادل الأيوبي ، ط. القاهرة ١٩٨٠م، ص ٩٠ - ٩١ .

٣- عمران ، الحملة الصليبية الخامسة ، ط. اسكندرية ١٩٧٨م، ص ٤٩ .

٤-

William of Tyre , vol . II , p. 302 .

=William of Tyre , vol . II , p. 302

٥- عن حملة عمورى أنظر :

ويبدو أن الإنقسام الداخلي والصراع الوزاري العنيف ساعد الدولة النورية على التدخل العسكرى فى شئون مصر، فقد تولى الوزارة الفاطمية شاور بن مجير السعدى^(١)، وساءت أوضاع البلاد فى ظل وزارته ، فخرج عليه ضرغام بن عامر بن سوار وهو أحد القادة العسكريين وطرده من السلطة^(٢).

وإزاء الوضع السابق : بحث شاور عن حليف قوى فلم يجد سوى نور الدين محمود فى بلاد الشام المجاورة فقدم إليه عام ٥٥٨هـ / ١١٦٣م^(٣)، مرغباً إياه فى التدخل العسكرى فى مصر

Schlumberger , Les Campagnes de Roi Amaury I en Egypte, Paris 1906 , p. 38 , = Kingsford, the Kingdom of Jerusalem, CMH , V , p. 308, Richard, Le Royaume latin, p. 52, Archer, The Crusades, p. 237 .

حسن ابراهيم ، الفاطميون فى مصر ، ط. القاهرة ١٩٣٢م، ص ٣٠١ - ص ٣٠٢، براور، عالم الصليبيين، ص ٧٢ .

١- عينه من قبل الصالح طلائع بن رزيك والياً على قوص وعندما عزله ابنه رزيك ثار عليه وزحف على القاهرة وقتله واستولى على السلطة فى عام ٥٥٨هـ / ١١٦٣م .

عن ذلك أنظر : جارسان ، ازدهار وانهيار حاضرة مصرية قوص، ت . بشير الشباعى، ط . القاهرة ١٩٩٧م، ص ٧٦ .

٢- اشترك من قبل فى معارك مظفرة عند الصليبيين وصار رئيساً للجند البرقية فى الجيش الفاطمى وتمكن من السيطرة على السلطة، عن الصراع بين شاور وضرغام أنظر : عمارة اليمنى ، النكت العصرية فى الوزارة المصرية، ط. باريس ١٨٩٧م، ص ٦٧، ص ٧٨ : ابن شداد ، النوادر السلطانية، تحقيق الشيبال ، ط. القاهرة ١٩٦٤م، ص ٣٦ : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٦ ، ص ١٤٥ : ابن كثير ، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢٤٧ : المقرئى ، اتعاظ الخنفا ، ج ٣ ، ص ٢٦١ : رشيد الدين الهمذانى ، جامع التواريخ ، ط. تهران ، ص ٩٢ ٣٧٩ Zoe Oldenberg, Les Croisades, Paris 1975 , p. ٣٧٩ ، مصر فى عصر الدولة الفاطمية ، ط. القاهرة ١٩٦٠م ، ص ١٠٤ ، أحمد بيلى، حياة صلاح الدين الأيوبي، ط. القاهرة ١٩٤٦م، ص ٨٢ ، سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها، ط. الاسكندرية ١٩٦١ ، ص ١٩٦ .

٣- اختلف المؤرخون فى تحديد عام لجؤ شاور إلى نور الدين وأنحصر الخلاف بين عامى ٥٨٨هـ / ١١٦٣م، و ٥٥٩هـ / ١١٦٤م ، ومن القائلين بالتاريخ الأول ابن الأثير، الباهر، ص ١٢٠ : ابن شداد، المصدر السابق ، ص ٣٦ : العماد الأصفهانى، سنا البرق الشامى، ص ١٩ : المقرئى المصدر السابق، ج ٣ ، ص ٢٦٤ : ابن قاضى شعبة، المصدر السابق، ص ١٦٣ ، ومن المؤرخين المحدثين . =Elseeff, Nur Al- Din, T. II, p. 579 .

لإعادته إلى الوزارة بأن قدم له عرضاً سخياً احتوى على تعهده بتكاليف الحملة النورية وأن يقدم لنور الدين ثلث دخل مصر في صورة إتاوة سنوية وأن يحكم نيابة عنه ووفق مشيئته وأن يجعل بمصر حامية عسكرية من جيش نور الدين^(١) وكان ذلك يعنى أن تصير مصر ولاية تابعة للدولة النورية .

ويذكر ابن الأثير رواية مفادها تردد نور الدين في قبول طلب شاور بالتدخل نظراً لوجود الصليبيين في الطريق الذي ترم منه القوات النورية في حالة تدخلها^(٢)، واتجه جمع من المؤرخين القدامى والمحدثين إلى تأييد ذلك ، غير أن الأقرب إلى المنطق أن طلب شاور لم يلق أدنى تردد من جانب نور الدين إذ جاء بالمبرر السياسى للتدخل في مصر، وهو الذى أدرك مدى ثرائها وضعفها السياسى فى ذات الوقت ، والأرجح أن المدة التى أمضاها الوزير الفاطمى المخلوع فى بلاط نور الدين أنفقت فى إعداد القوات اللازمة للمشروع العسكرى فى مصر، والغالب أن ابن الأثير- ربيب البيت الزنكى- حرص أشد الحرص على إظهار نور الدين بمظهر الزاهد فى ضم مناطق إسلامية أخرى ومن ثم أظهره على أنه متردد فى قبول عرض شاور البالغ الإغراء ، والواقع أن الحملات الثلاث التى وجهها نور الدين صوب مصر بعد ذلك وما أنفقه فى سبيل إعدادها دلت على نحو يقطع الشك باليقين على مدى أطماعه السافرة فيها .

= وعلى حين ذكر ذلك نجد يناقض نفسه حيث يورد تاريخ عام ٥٥٩هـ / ١١٦٤م فى كتابه L'Orient musulman ، ومن القائلين بالعام الأخير ماجد، ظهور خلافة الفاطميين ، ص ٢٦٢ ، زكى نقاش العلاقات الاجتماعية والثقافية، ص ٤٤ والمرجع تاريخ عام ٥٥٨هـ / ١١٦٣م فصراع شاور مع ضرغام وقرء الأخير عليه وقع فى العام المذكور والمنطقتى أنه بعد طرده مباشرة سارع يطلب عون نور الدين ولم يطل انتظاره فى القاهرة لأنه لو حدث ذلك لقاوم ضرغام ولذكرت المصادر مقاومته ، أنظر : ابن طافر الأزدي، أخبار الدول المتقطعة، ص ١١٣- ص ١١٤ ؛ المقرئى ، اتعاظ الخنفا، ج ٣ ، ص ٢٦١ ، ويدعم رأينا أن العباد الأصفهاني ذكر بدقه تاريخ لجوء شاور إلى نور الدين وهو ١٦ ربيع الأول عام ٥٥٨هـ أنظر سنا البرق الشامى، ص ٤٩ .

١- ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٢٠ ، الحريرى، الأخبار السنوية، ص ١١٧ ، ذكر دوجان أنه عرض على نور الدين السيطرة على بعض القلاع والحصون Duggan, The Crusades, p. 130 غير أن ذلك لاتدعمه المصادر العربية .

٢- ابن الأثير ، المصدر السابق، ص ١٢٠ .

وفى نفس الحين وجد عامل هام دعم الخيار العسكري أمام الدولة النورية، ألا وهو قيادة عسكرية بالجيش النورى ، ذات طموحات واسعة متمثلة فى أسد الدين شيركوه ، الذى طمع فى أن يسيطر على مصر وأن يجعلها أساساً لإمبراطورية له ولآل بيته من بعده ولا مراء فى أنه عمل على تحريض سيده على الإقدام على غزو مصر^(١) ، واهتبال الفرصة السانحة وفطن أحد المؤرخين إلى أن شيركوه كان بمثابة الروح المحركة فى كل مرحلة من مراحل الهجوم على مصر^(٢) .

تقدم الجيش النورى وعلى رأسه شيركوه وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن شادى وبنبغى ألا نقبل ما يذهب إليه بعض المؤرخين القدامى من أن صلاح الدين قدم إلى مصر وهو كاره^(٣) ، إذ أن ذلك لا يستقيم البتة مع طموحاته التى أسفرت عنها الأحداث بجلاء ، ولارىب فى أنه أدرك فى مقدمه إليها ؛ فرصة سانحة لتحقيق أطماعه العريضة . وقد سلك الجيش طريق شرق الشوبك ثم إلى أيله وسار إلى السويس^(٤) ، كذلك اتجه نور الدين لتأمين مرور قواته بمهاجمة الأعمال الصليبية ليشغل أعداءه عن مهاجمتها^(٥) ، وعندما بلغ شيركوه وجنده مدينة بلبيس اصطدم مع ناصر الدين الذى كان أخا لضرغام ومعه الجنود المصريون وألحق به الهزيمة فعاد أدراجه إلى القاهرة^(٦) ، وفيها اصطدم الجيش الغازى مع ضرغام وقواته وتم إلحاق الهزيمة

١- ابن الأثير ، الكامل ، ج١ ، ص١٢١ ، ماجد ، ظهور خلافة الفاطميين ، ص١٦٥ ، على بيلى ، حياة صلاح الدين الأيوبي ، ص٨٤ ، حسن ابراهيم ، الفاطميون فى مصر ، ص٣٠٣ .

٢- Stevenson, The Crusaders, p. 187 .

٣- أبو شامة ، الروضتين ، ج١ / ق٢ ، ص٣٩٣ .

٤- ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج١ ، ص١٣٨ ؛ المقرئى ، اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص٢٦٦ .

٥- ابن الأثير ، الباهر ، ص١٢١ ، الكامل ، ج١١ ، ص١٢١ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ ، ص٣١٦ ؛ ابن واصل ، المصدر السابق ، ج١ ، ص١٣٨ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج١ / ق٢ ، ص٣٣٣ ؛ ابن قاضى شهبه ، الكواكب الدرية ، ص١٦٤ ؛ المقرئى ، المصدر السابق ، ج٣ ، ص٢٦٦ ، Baldwin, The Lat- in States, p. 550 .

٦- ابن الأثير ، الكامل ، ج١١ ، ص١٢١ ؛ ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص٣٦٨ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ ، ص٣١٦ ؛ المقرئى ، اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص٢٦٧ .

بهم^(١)، أيضاً وقتل ضرغام فى جمادى الآخرة ٥٥٩هـ / ١١٦٤م^(٢) واستتبع ذلك أن تولى شاور الوزارة للخليفة الفاطمى العاضد مرة أخرى ولقب بالملك المنصور^(٣).

مهما يكن من أمر ؛ قلب شاور ظهر المجن لشيركوه وسيده نور الدين ، إذ رفض تنفيذ ما قطعه على نفسه أمام الأخير، وطلب من شيركوه الانسحاب من مصر والعودة إلى الشام^(٤)، ولما كان شيركوه قد كلف بمهمة محددة فإنه رفض العودة ، ولم يقبل أن يكون مقدمه إلى البلاد ليكون أداة تغيير سياسى فقط دون توطيد عسكرى لأقدام الدولة النورية فى مصر ، حينذاك اتجه شيركوه إلى احتلال المنافذ الشرقية للبلاد لتكون تحت سيطرة قواته فأرسل صلاح الدين إلى بلبيس واستولى عليها^(٥)، وجبى خراجها فكان ذلك بمثابة أول سفور حقيقى للأطماع فى

William of Tyre, vol. II, p. 305 .

-١

ابن ظافر الأزدى ، أخبار الدول المنقطعة ، ص ١١٤ ؛ ابن قاضى شعبة، الكواكب الدرية، ص ١٦٤ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٥ ، ص ٣٤٧ .

William of Tyre, vol . II, p. 309 .

-٢

ابن الأثير ، المصدر السابق، ج ١١ ، ص ١٢١ ؛ ابن العديم ، المصدر السابق، ج ٢ ، ص ٣١٧ ؛ ابن واصل، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٣٩ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٤٨ ؛ ابن تغرى بردى ، المصدر السابق، ص ١٦٤ ؛ المقرئى ، المصدر السابق، ج ٣ ، ص ٢٧٠ ، ويلاحظ أن ماجد لا يذكر مصير ضرغام على أنه قتل بل ذكر هزيمته وقتل أخويه، أنظر : ماجد ، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٤٦٣ .

William of Tyre, vol . II, p. 305 .

-٣

ابن شداد ، المصدر السابق ، ص ٣٦ .

-٤ ابن شداد ، المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ١٢١ ؛ الباهر ، ص ١٥١ ؛ ابن العبرى ، المصدر السابق، ص ٣٦٨؛ العماد الأصفهانى ، سنا البرق الشامى، ص ١٣٩ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج ١ / ق ٢ ، ص ٢٣٥ ؛ الذهبى، دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ٧٣ ،

Elisseeff, Nur Al- Din , T. II , p. 585 , Baldwin, The latin States, p. 550, Stevenson, The Crusaders, p. 188 .

-٥ ابن الأثير ، الباهر، ص ١٢١ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٣١٧ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج ١ / ق ٢ ، ص ٢٣٥ ، انتونى بروج ، الحروب الصليبية ، ص ١٧١ ويحدد الأخير موقعها على أنه شمال القاهرة والأصوب أنه إلى الشمال الشرقى منها، أنظر تحديده، ص ١٧١ .

اقتصاديات مصر، ولاغرو في أن الجيش النورى لم يكن بإمكانه أن يغادرها دون تحقيق مكاسب اقتصادية فعالة، كما أنه رغب من وراء الاستيلاء على بلبس بالذات أن تكون بمثابة ورقة رابحة للمساومة السياسية بها، ففى حالة تراجع شاور عن موقفه المتعنت يتم الانسحاب منها لتحقيق خطوة أكبر فى طريق السيطرة على البلاد، وأيضاً لدوافع استراتيجية إذ أنها مثلت المدخل الشرقى لعاصمة الخلافة الفاطمية.

وأمام ذلك التحرك العسكرى للجيش النورى؛ بحث شاور عن قوة أخرى تخلصه من جيش نور الدين، واتجه إلى القضاء على تحالفه القديم معه بأن جعله تحالفاً مع الصليبيين أنفسهم، فاتصل بالملك عمورى وطلب منه الوقوف ضد قوات نور الدين^(١)، مقابل الالتزام بنفقات الحملة الصليبية المرتقبة، فقدم له ألف دينار عن كل مرحلة من مراحل الطريق من القدس إلى النيل وعددها سبع وعشرون، وقام الجيش الصليبي وعاونيه الجيش الفاطمي بقيادة شاور بحاصرة بلبس وبها قوات شيركوه لمدة ثلاثة أشهر على الأرجح^(٢).

وفى خلال الحصار الصليبي الفاطمي المشترك للمدينة أثرت الأحداث العسكرية فى الجبهة الشمالية على وقائع الجبهة الجنوبية، فقد تمكن الجيش النورى فى الشام من تحقيق انتصار كبير على الصليبيين فى معركة حارم عام ٥٥٩هـ / ١١٦٤م، وكذلك فى بانياس^(٣)، ويعلق أحد

William of Tyre, vol II, p. 305 .

ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٣٦٨؛ ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ١٢١؛ أبو شامة، المصدر السابق، ج ١ / ق ٢، ص ٢٣٥.

٢- اختلفت المصادر فى تقدير مدة الحصار فوصفه وليم الصوري بأنه حصار طويل William of Tyre, vol. II, p. 309 وقدره ابن العديم والفتح البندارى وابن ظافر الأزدى والمقريزى بثلاثة أشهر، أنظر، زبدة الحلب، ج ٢، ص ٣١٧؛ سنا البرق الشامى، ص ١٩؛ أخبار الدول المنقطعة، ص ١١٥؛ اتعاض الحنفا، ج ٣، ص ٢٧٧، أما ابن تغرى بردى فقدره بنحو الشهرين، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٣٤٧، والأرجح أنه دام ثلاثة أشهر لإجماع غالبية المصادر على ذلك دون إمكانية التأكد منه.

٣- ابن الأثير، الباهر، ص ١٢٢، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ١، ص ١٤٠، ابن العديم، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٧، سعداوى، التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين ط. القاهرة ١٩٥٧م، ص ٨ Schlumberger, Campagnes, P. 86-87, Balwin, The Latin states, p. 551, Richard, Le Roy-aume latin, p. 52, Praver, Hist. de royaume latin, T. II, p. 433 .

المؤرخين على الموقف قائلاً إن المعركة الحقيقية لم تحدث في مصر في هذه السنة بل في الشام^(١).

وحيث أن الأمر في بلبس لم يحسم عسكرياً ، فقد تم طرق بوابة الدبلوماسية ، واختلفت المصادر فيمن بدأ بالمراسلة في طلب الصلح وتؤكد المصادر العربية أنه عقب انتصارات حارم ويانياس ؛ أسقط في إيدي الصليبيين ، وسعوا ما وسعهم السعى إلى مراسلة شيركوه^(٢) ، بينما ذكر وليم الصوري أن الإجهاد ونقص المؤن ، جعلاً شيركوه يسلم المكان وسمح له بمغادرة بلبس ومعه قواته^(٣) ، وعند مقارنة الوضع العسكري للجانيين ، نجد أن الصليبيين رغبوا في العودة سريعاً لتدارك الموقف المدهور على الجبهة الشمالية ، أما شيركوه فقد أنهكه الحصار الطويل ومن المرجح أن وضع نور الدين العسكري لم يكن سيئاً على نحو يطلب فيه استقدام باقى قواته من مصر لمواجهة أعدائه ، خاصة أنه حقق انتصاراً كبيراً عليهم ، ويبدو أن الصليبيين سعوا إلى الصلح ، لأن وضعهم في الشمال كان أكثر خطورة من وضع شيركوه ، خاصة أنهم واجهوا جبهتين معاديتين في الشمال والجنوب .

مهما يكن من أمر ، فقد تم الاتفاق على انسحاب قوات شيركوه من مصر ، وكذلك القوات الصليبية ، وأن يتسلم شيركوه ثلاثين ألف دينار^(٤) ، ولاشك أن تلك الأموال قد عوضت بعض نفقات الجيش النوري في حملته الأولى على مصر ، كما زادت من أطماع شيركوه في

Stevenson, The Crusaders, p. 188 .

-١

ويلاحظ أن ابن العبري لا يشير البتة إلى أحداث حارم ويانياس وأثرها في أحداث الوضع العسكري في بلبس ، أنظر ، ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٦٨ - ص ٣٦٩ .

٢- ابن العبري ، المصدر السابق ، ص ٣٦٨ - ص ٣٦٩ ؛ أبو شامة الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ ؛ المقرئ ، اتعاظ الخنفا ، ج ٣ ، ص ٢٧٧ ؛ ابن قاضي شهاب ، الكواكب الدرية ، ص ١٦٦ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٢٤٧ .

-٣

William of Tyre, vol. II, p. 309 .

٤- ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٣٢١ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٤٧ ، شاعر أبو بدر ، الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ، ص ٣١٧ .

خيراتها ، كما أن ذلك المبلغ دل بوضوح على حرص شاور على إبعاد الخطر النورى عن البلاد بأى ثمن .

وعلى الرغم من انسحاب الجيش النورى من الجبهة الجنوبية إلا أنه حقق بعض المكاسب المهمة، قثلت فى استطلاعه لأوضاع مصر السياسية^(١) والعسكرية والأهم الاقتصادية ، كما درس عن كثب المواقع التى مر بها والتى سيتكرر الصراع حولها ، كما أن ذلك الجيش برهن على قدرته على التغيير السياسى فى مصر الفاطمية وهذا الناحية لازمت التطور السياسى للدخالة الفاطمية فى مصر حينذاك، ومثلت عاملاً حاسماً فى اسقاطها فى نهاية المطاف .

وإذا كان نور الدين محمود قد وجد ذريعة للتدخل العسكرى فى مصر فى حملته الأولى فى صورة الصراع الوزارى واستنجد شاور إلا أنه فى حملته الثانية أبان بوضوح عن أطماعه فيها، فلم يكن قدوم قواته إليها ناجماً عن أى دعوة من جانب أى من القيادات السياسية فى مصر، ويحاول المؤرخون الرسميون مثل العماد الأصفهاني ومن لف لفه إظهار أسد الدين شيركوه على أنه المحرك الرئيسى للحملة النورية الثانية، ومع تسليحنا بدوره الفعال فى كافة الأنشطة العسكرية القادمة ، إلا أنهم بذلك أرادوا إبعاد نور الدين عن دائرة المطامع المحيطة بمصر، والمنطق يدعونا إلى تصور دور أكبر لنور الدين فبديهي أن شيركوه ما كان ليفعل شيئاً دون موافقة سيده على تحركاته العسكرية ويلاحظ أنه أدرك مدى ثراء البلاد وضعفها ، كما أنه حقق على شاور وغدره به فى الحملة الأولى وأقنع نور الدين بأهمية توجيه حملة جديدة على مصر فى عام ٥٦٢هـ / ١١٦٧م وقدم ومعه صلاح الدين الأيوبي^(٢)، وسار الجيش النورى

١- ابن خلكان ، وفیات الأعيان ، ج٦ ، ص١٤٥ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب، ج٢ ، ص٣٢٢ ، حسن

ابراهيم، الفاطميون فى مصر، ص٣٠٣ .

٢- ابن الأثير ، الباهر ، ص١٣٢ ؛ ابن العديم، المصدر السابق، ج٢ ، ص١٣٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، ج١ ، ص١٤٨؛ أبو شامة، الروضتين ، ج١ / ق ٢ ، ص٣٦٣ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٥٢ .

حتى بلغ مصر وعبر النيل عند أطفيح^(١)، وسيطر على المناطق الغربية ونزل بالجيزة قبالة الفسطاط حيث أقام بها نيئاً وخمسين يوماً^(٢).

وأمام تلك التطورات الخطيرة التي أوصلت الجيش النوري إلى الفسطاط نفسها على نحو لم يحدث من قبل ، سارع شاور إلى الاستنجد بالصليبيين طالباً دعمهم الحربي ويقرر المؤرخون أن الصليبيين «أتوه على الصعب والذلول»^(٣) وهكذا تكرر أمر تحالفه مع العدو المشترك للدولة النورية والفاطميين من أجل مصالحه السياسية الشخصية .

تقدم شيركوه وقواته إلى الصعيد في جمادى الآخر ٥٦٢هـ / أبريل ١١٦٧م^(٤) وعند المنيا

١- قرية من قرى الجيزة تعد الآن تابعة لمركز الصف، عنها أنظر :

أبو شامة، الروستين ، ج١ / ٢ ق ، ص ٣٦١ ، حاشية (١) ، ويذكر د. ماجد عن خط سير الحملة النورية الثانية أن شيركوه دخل مصر عن طريق ساحل البحر الأحمر من ناحية الصعيد ثم نزل الجيزة ، أنظر : ظهور خلافة الفاطميين ، ص ١٦٦ ، غير أن ذلك الرأي لا يجد دعماً من المصادر العربية فهي توضح اتجاهها إلى تجاوز سيناء ودخول مصر ووصولها إلى النيل وعبورها إياه ولا ترد أية إشارة إلى ساحل البحر الأحمر في خط سيرها .

٢- ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ ، ص ٣٢٢-٣٢٣ ؛ أبو شامة ، المصدر السابق ج١ / ٢ ق ، ص ٣٦٤ .

٣- ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٣٧ ؛ أبو شامة ، المصدر السابق ، ج١ / ٢ ق ، ص ٣٦٤ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج١ ، ص ١٤٩ .

٤- اختلف المؤرخون المحدثون في تاريخ معركة البابين فاعتقد البعض أنها جرت في ٢٥ جمادى الأول عام

٥٦٢هـ / ١٨ مارس ١١٦٧م أنظر : Runciman , vol. II, p. 374, Baldwin, The latin States, p. 553

زيادة ، حملة لويس التاسع ، ص ١٧ ، عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ٦٩٠ ، الناصر صلاح الدين ، ص ٧٤ ، العربي ، الشرق الأوسط ، ص ٦٨١ ، حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية ، ج٢ ، ص ٢٨ ، وهناك من اعتقد أنها جرت في ٢٥ جمادى الآخر سنة ٥٦٢هـ / ١٨ أبريل ١١٦٧م ، أنظر : كريزويل ، وصف قلعة الجبل ، جمال محرز ، ط. القاهرة ١٩٧٤م ، ص ٨ ، سعداوي ، التاريخ الحربي المصري ، ص ١٠-١١ ، ولم يجهد براور نفسه فذكر أنها وقعت في مارس أو أبريل من عام ١١٦٧م ، أنظر : Praver, Hist. de Royaume = Latin, II , p. 435 .

التقت قواته بالجيش الصليبي ، ووقعت معركة البابين^(١) ، ولحققت الهزيمة بالأخير وفيها أبلى صلاح الدين بلاءً حسناً ، وكثر القتلى والجرحى فى صفوف الأعداء .

= ويمكن الاختلاف أن ابن الأثير ذكر فى الباهر التاريخ الأول ، أنظر ، ص ١٣٢ بينما ذكر فى الكامل التاريخ الثانى ، أنظر الكامل ، ج ٩ ، ص ٩٧ ومما يجعلنا نرجع ٢٥ جمادى الأول أنه ذكر أن شيركوه أقام فى المناطق التى استولى عليها نيما وخمسين يوماً ثم أنه ذكر تحركات الصليبيين العسكرية قبل البابين على نحو يجعلنا ندرك استهلاكهم لمدة من الوقت لذلك .

١- البابين ، قرية تقع إلى الجنوب من مدينة المنيا بعشرة أميال وهى عند أطلال مدينة هرمبوليس Hermopolis القديمة وهى من أعمال منية بنى خصيب أنظر : ابن ظافر الأزدي ، أخبار الدول المتقطعة ، ص ١١٥ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥٠ ، حاشية (١) . Lane- Poole, Hist of Egypt, p. 181, Runciman, vol. II, p. 374 .

عبد الرحمن سيد الأهل ، أيام صلاح الدين ، ط. بيروت ١٩٦١م ، ص ١٨١ . وعن المعركة أنظر : ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٣١-١٣٢ ؛ الباهر ، ص ١٣٢-١٣٣ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ١٢٣ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٦ ، ص ١٤ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج ١ / ق ٢ ، ص ٣٦٥ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٤٩ ؛ ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٥٠-١٥١ .

Schlumberger, Campagnes, pp. 142-143 , Crousset, Hist. des Croisades, p. 489 ,

سعداوى ، التاريخ الحروبى المصرى ، ص ١٠ ، العرينى ، الشرق الأوسط ، ص ١٨١ .

ويذهب ماجد إلى القول بأن أهل الصعيد قدموا العون لشيركوه ضد عمورى وإن ذلك كان وراء انتصاره ضد الصليبيين ، ظهور خلافة الفاطميين ص ١٦٩ ، والواقع أن هذا القول لا يجد سنداً من أية مصادر عربية إذ أن المعركة كانت على أرض مصر فقط ولم يشارك فيها المصريون بأية مساعدات لقوات شيركوه بل إن ابن الأثير يورد نصاً مهماً على لسان أحد كبار قادة الجيش النورى يقول ، « كل من فى هذه الديار من جندى وعامى وفلاح عدو لنا ويودون لو شربوا دماءنا » ، أنظر : الباهر ، ص ١٣٢ ، فكيف يتأتى لهم مساعدة شيركوه ؟ !!

ويذكر عصام عبد الرؤف أنه جرت بين الصليبيين وشيركوه عدة معارك وفى الواقع أن المصادر لاتشير إلا إلى معركة واحدة هى معركة البابين ، أنظر رأيه : « الأيام الأخيرة فى حياة مصر الفاطمية » ، الكتاب الذهبى للاحتفال الخمسينى لكلية الآثار - جامعة القاهرة ١٩٧٨م ، ج ٢ ، ص ١٨٢ .

تقدم شيركوه ومعه صلاح الدين صوب الفيوم، ومنها إلى الاسكندرية للاستيلاء عليها، بهدف السيطرة على أكبر مركز بحرى تجارى فاطمى على ساحل البحر المتوسط، لكى يساوم به الصليبيين وشارور وقواته، ونجح فى تحقيق مأربه بمعاونة أهلها، وترك صلاح الدين بها واتجه إلى الصعيد ليجبى خراجه، واغتنم الصليبيون خروج معظم الجيش معه وتقدموا صوب الاسكندرية وضربوا حولها الحصار حتى قلت الأتوات^(١).

وجرت الاتصالات الدبلوماسية من أجل التوصل إلى اتفاق وتقرر أن يحصل شيركوه على خمسين ألف دينار مقابل انسحاب قواته من البلاد، وخاصة الاسكندرية، وكذلك الصليبيين شريطة ألا يسيطروا على أية منطقة فى مصر^(٢)، ومع ذلك فيبدو أن شاوراً لجأ إلى التضليل، إذ لم يحترم تنفيذ الاتفاق المذكور ودليلنا على ذلك أنه جعل للصليبيين وجوداً عسكرياً^(٣) فى مصر بترك حامياتهم على أبواب القاهرة، ولا مراة فى أنه هدف من وراء ذلك الاحتماء بالوجود الصليبي فى مواجهة مطامع نور الدين محمود فى مصر، ولاشك أنه أدرك أن مطامع الأخير لن تتوقف عند حد تلك الجولة بل ستستمر حتى يستولى على مصر ولم يكن هناك ما يحميه سوى تلك القوات الصليبية وأدى ذلك إلى أن صارت الفسطاط والقاهرة قاب قوسين من الاحتلال الصليبي.

أما الحملة النورية الثالثة؛ فقد وجدت دوافعها الرسمية المعلنة فى وجود الجيوش الصليبية على أرض مصر، وعلى الرغم من أن الجيش النورى انسحب محترماً الموائيق والعهود وتفصيل ذلك أن الفرسان الصليبيين أرسلوا إلى ملكهم عمورى فى بيت المقدس يلحون عليه أن يتقدم إلى البلاد المصرية ليستولى عليها^(٤)، وتقدم الجيش الصليبي وعلى رأسه عمورى

١- عن الموقف بعد البابين أنظر:

William of Tyre, vol. II, p. 334-335. العماد الأصفهاني، سنا البرق الشامى، ص ٢.

٢- ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٢، ص ٣٢٤، William of Tyre, vol. II, p. 341.

٣- مجموعة الوثائق الفاطمية، م (١)، نشر الشيال، ط. القاهرة ١٩٥٨م، ص ١٦١؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ١، ص ١٥٦-١٥٧؛ المقرئى، اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٨٧.

٤- ابن الأثير، الباهر، ص ١٣٧؛ الكامل، ج ١١، ص ١٣٥؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ١، ص ١٥٦-١٥٧.

فى بيت المقدس يلحون عليه أن يتقدم إلى البلاد المصرية ليستولى عليها^(١) ، وتقدم الجيش الصليبي وعلى رأسه عمورى نحو مصر فى عام ٥٦٤هـ / ١١٦٨م^(٢) ، واستولى على بلبس لاعتبارات عدة، فهناك أهميتها الاستراتيجية بوصفها المدخل الشرقى للقاهرة والفسطاط وكذلك دورها فى حركة التجارة من القاهرة إلى الشام مروراً بشرق الدلتا^(٣) ، وللضغط السياسى بها على الخلافة الفاطمية، وقد أحدث بها الصليبيون مذبة مروعة اعترف بها وليم الصورى^(٤) ، وأعادت إلى الأذهان سلسلة المذابح التى أحدثها الصليبيون الغزاة عندما حلوا ببلاد الشام فى أخريات القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى^(٥).

أدى سقوط بلبس على ذلك النحر إلى أن أسرع شاور إلى تحصين القاهرة وعمل على اخلاء الفسطاط وإحراقها حتى لاتقع فى قبضة الصليبيين ويبدو أنها مثلت مركزاً حضارياً

١- ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٣٧ : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٣٥ : ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥٦-١٥٧ .

٢- William of Tyre, vol. II, p. 351 .

ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٣٩ : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٣٦ : ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٣٢٦ : ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٥٧ : المقرئى ، اتعاظ الخنفا ، ج ٣ ، ص ٢٩٢-٢٩٣ : السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٤ : ابن قاضى شعبة ، الكواكب الدرية ، ص ١٧٥ .

Stevenson, The Crusaders, p. 193 , Runciman, vol. II, p. 351 .

٣- عن أهمية بلبس تجارياً والطرق التجارية المارة بالشرقية انظر :

فتحى الشاعر ، إقليم الشرقية فى عصر سلاطين الأيوبيين والمماليك ، رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآداب جامعة القاهرة لعام ١٩٧٦م ، ص ٨٢ .

٤- William of Tyre, vol. II, p. 351 .

٥- Anonymous, The deeds of The Franks and other Pilgrims , Trans . by Hill, New York 1962, p. 74, Fulcher of Chartres, Hist. of The expedition to Jerusalem, Trans . by Rita Rian, Tennessee, U. S.A, 1969, p. 122 . Albert d'Aix, R.H.C., Hist. Occ., T. IV, p. 479, Hagenmayer, chronologie de la premiere croisade, ROL, VII, Année 1899, p. 477-478 .

مهماً بدليل ما ذكره ابن أبى طى من أنه استخدم فى إحراقها عشرة آلاف قارورة نפט، وفرقت فيها عشرة آلاف مشعل ، وظلت النيران مستعرة فيها مدة أربعة وخمسين يوماً^(١).

وأمام تلك الأحداث استنجد الخليفة الفاطمى العاضد بنور الدين محمود ، وذكر له إشارات مغرية هى عروض لإغرائه بالتدخل العسكرى ضد القوات الصليبية ، واستغاثة الخليفة مثلت مقايضة واضحة؛ التدخل مقابل الثروة والسلطة إذ عرض ثلث بلاد مصر وأن يكون شيركوه مقيماً عنده فى عسكر واقطاعهم عليه خارجاً عن الثلث الذى لنور الدين^(٢) ، ويذكر أحد المؤرخين أن نور الدين انزعج لما حل بمصر ولاستغاثة الخليفة «وقام لذلك وقعد»^(٣) ، بينما تحرك فى الواقع من خلال ما احتوته رسالة العاضد من مغريات .

أرسل نور الدين أسد الدين شيركوه عام ٥٦٤هـ / ١١٦٩م^(٤) إلى مصر ولا مرأى فى أنه صار خبيراً بمسالكها ودرونها وأوضاعها ، وصحبه ابن أخيه صلاح الدين على رأس جيش قوامه نحو ثمانية آلاف فارس مجهزين ومسلحين .

١- أبو شامة ، الروضتين، ج١ / ق ٢ ، ص ٤٣٢ .

وعن إحراق الفسطاط أنظر : سعداوى، التاريخ الحربى، ص ١٤ ، العرينى ، الشرق الأوسط، ص ٦٩٧ ، ماجد ، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٤٦٩ .

٢- ابن الأثير ، الباهر، ص ١٣٨ ؛ الكامل ، ج ١١ ، ص ١٣٦ ؛ أبو شامة، المصدر السابق ، ج ١ / ق ٢ ، ص ٣٩١ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، ج ١ ، ص ١٥٨ ؛ ابن قاضى شهبه ، الكواكب الدرية، ص ١٧٦ ؛ المقرئى، اتعاظ الخنفا، ج ٣ ، ص ٢٩٣ ؛ السيوطى، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٤ .

٣- ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٣٨ .

٤- نفسه، نفس المصدر ، ص ١٣٩ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب، ج ٢ ، ص ٣٢٦-٣٢٧ ؛ أبو شامة ، المصدر السابق، ج ١ / ق ٢ ، ص ٣٩٢ ؛ ابن واصل ، المصدر السابق، ج ١ ، ص ١٥٦ .

Runciman, vol. II, p. 382 .

ويبالغ ابن قاضى شهبه فى عدد قوات الجيش النورى القادمة إلى مصر فقدره بسبعين ألف فارس، أنظر : الكواكب الدرية ، ص ١٧٧ . وتتصور أن إمكانيات الدولة النورية كانت أقل من ذلك بكثير وليس من المنطقى أن يخصص نور الدين هذا العدد الضخم لحملة موجهة إلى مصر محفوفة بالمخاطر .

ومن بعد بلبيس؛ توجه عموري صوب القاهرة لإسقاطها طامعاً فى تحقيق أكبر انتصاراته، غير أن مذبحة بلبيس جعلت الأهلى من سكان العاصمة الفاطمية يشمرون عن ساعد الجدى فى الدفاع عنها فى وجه العدو الغازى^(١)، وأمام مقدم القوات النورية إلى مصر، اتجه الصليبيون إلى التفاوض مع شاور للتسحاب بعد أن أدركوا خطورة الموقف وبالفعل تم الاتفاق على أن تقدم مصر للصليبيين ألف ألف دينار ويتم تعجيل دفع مبلغ مائة ألف دينار والباقى فى صورة قطيعة سنوية بالإضافة إلى كميات ضخمة من الغلال^(٢)، وهنا نلاحظ أن الاتفاقيات التى عقدها كل من عموري وشيركوه مع شاور دارت حول الأموال المدفوعة والحبوب .

أدرك شيركوه - بعد الانسحاب الصليبي- أن الغصة القائمة أمام تدعيم الوجود العسكرى النورى متمثلة فى شاور ، فعمل على التخلص منه وبالفعل قتله صلاح الدين عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٩م^(٣)، ومنطقى أن ذلك تم بموافقة نور الدين ورضاه .

تولى أسد الدين شيركوه الوزارة للمعاوض نحو شهرين، ولم يلبث أن قضى نحبه فى ٢٢ جمادى الآخر ٥٦٤هـ/ ٢٣ مارس ١١٦٩م^(٤)، وربما قتل بالسم^(٥)، وبذلك انتهى ذلك الدور التاريخى الذى قام به القائد ليظهر فى الأفق دور بارز لابن أخيه صلاح الدين الأيوبي. بذلك بدأت السياسة الخارجية النورية خطواتها الفعلية للسيطرة على مصر عن طريق صلاح

١- المقرئى ، اتعاظ الحنفى، ج٣ ، ص٢٩٦ .

٢- ابن الأثير ، الباهر ، ص١٣٨ ؛ المقرئى، المصدر السابق، ج٣ ، ص٢٩٨ .

٣- ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٤٠ ؛ ابن ظافر الأزدى، أخبار الدول المنقطعة ، ص١١٦ ؛ ابن حماد ، أخبار ملوك بنى عبيد، ص٦٣ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، ج١ ، ص١٦١- ص١٦٣ .

William of Tyre, vol . II, p. 357 .

حتى، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ت. البازجى، ط. بيروت ١٩٥٩م، ص٣٣٥ ، كازانوف ، تاريخ ووصف قلعة الجبل، ت. دراج، ط. القاهرة ١٩٧٤م، ص٢٩ .

٤- ابن حماد ، المصدر السابق، ص٦٣ .

٥- ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ، ص٤٧ .

الدين، وبات لزاماً عليها أن تدفع الأطماع الصليبية التى أحاطت بمصر، وأضحى لصالح الدين دور بارز فى ذلك . وقد واجه حملة صليبية على دمياط عام ٥٦٥هـ / ١١٧٠م^(١)، حيث هاجمها الملك عمورى ولاشك أن الصليبيين دفعتهم إليها بعض الدوافع ، فدمياط مثلت مركزاً تجارياً مهماً على الساحل الشمالى الشرقى لمصر^(٢)، وحظيت بجانب من الازدهار التجارى فى العصر الفاطمى بالإضافة إلى كونها أقرب الموانئ المصرية إلى الموانئ الصليبية على الساحل الشامى وأدرك الصليبيون أن بإمكانهم تنشيطها لتساهم فى سيطرتهم على تجارة شرق البحر المتوسط إلى جانب الإسكندرية فى حالة الاستيلاء عليها، ويضاف إلى ذلك اشتهاار دمياط بأنها من مراكز الصناعة المصرية خاصة صناعة الثياب^(٣)، فضلاً عن رغبة الصليبيين فى اكتساب موضع قدم استراتيجى^(٤)، يسهل لهم عملياتهم الحربية ضد مصر الفاطمية ويمكنهم من خلاله اكتساب الدعم الحربى بسهولة من خلال موانئهم الشامية .

وفى خلال أحداث الحصار عمل نور الدين محمود على مهاجمة الأعمال الصليبية فى الشام ليخفف الضغط الصليبي عن الجبهة الجنوبية^(٥)، وأرسل دعماً عسكرياً لصالح الدين^(٦)،

١- على الرغم من اتفاق المصادر على أن أحداث حصار دمياط تمت فى عام ٥٦٥هـ / ١١٧٠م، فإن الحريرى ذكر أن ذلك وقع عام ٥٦١هـ / ١١٦٦م والواضح أن تحديده يعد مبكراً بنحو أربعة أعوام ، أنظر : الحريرى ، الأعلام والتبيين، ص ٧٨ .

٢- صفاء عبد الفتاح ، الموانئ والشعور المصرية من الفتح الإسلامى حتى نهاية العصر الفاطمى، ط. القاهرة ١٩٨٦م، ص ١٨٣- ١٨٤ .

٣- ابن حوقل ، صورة الأرض، ص ١٠٢ ؛ الخزرجى ، المنهاج فى علم خراج مصر ، ص ٣٢ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٥٤٦ . Lombard, The Golden Age of Islam, P. 165 .

٤- ابن الأثير ، الباهر، ص ١٤٣ ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية، ص ٤١ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج ١ / ق ٢ ، ص ٤٥٧ .

٥- ابن شداد ، المصدر السابق ، ص ٤٢- ٤٣ ؛ الذهبى، دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ٧٨ ؛ ابن قاضى شعبة ، الكواكب الدرية ، ص ١٨٦ ؛ الحريرى ، الاعلام والتبيين ، ص ٧٨ .

٦- ابن الأثير ، المصدر السابق، ص ١٤٣ ؛ أبو شامة ، المصدر السابق، ج ١ / ق ٢ ، ص ٤٥٧ ؛ ابن قاضى شعبة ، المصدر السابق، ص ١٨٥- ١٨٦ .

كذلك أمد الخليفة العاضد صلاح الدين بالمال^(١)، وباء المشروع الصليبي فى النهاية بالفشل المبين للمقاومة الباسلة وخشية الصليبيين من تدهور الوضع العسكرى فى الجبهة الشمالية .

وقام صلاح الدين الأيوبي- المنفذ للسياسة الخارجية للدولة النورية فى مصر- بدور فعال للقضاء على مظاهر النفوذ الشيعى فى الخلافة الفاطمية، تمهيداً للقضاء عليها فعمل على إنشاء المدارس السنية ولا مرأ فى أن من أهداف نور الدين فى تلك المرحلة دعم المذهب الأشعرى وتصديره إلى عقر دار الخلافة الفاطمية الاسماعيلية المذهب، وتمكن صلاح الدين من إعلان الخطبة للعباسيين والقضاء على الخلافة الفاطمية فى أول جمعة من المحرم من عام ٥٦٧هـ / ١٠ سبتمبر عام ١١٧١م^(٢)، وبعد إعلان الخطبة لبنى العباس قضى الخليفة العاضد نجه، ولا مرأ فى أن نجاح الدولة النورية من خلال صلاح الدين الأيوبي فى اسقاط الخلافة الفاطمية مثل أحد النجاحات الكبرى للسياسة الخارجية للدولة النورية، وأدرك الصليبيون أنهم وقعوا بين شقى الرحى، وأن القوات الإسلامية أحاطت بملكة بيت المقدس من الشمال الشرقى والجنوب الغربى^(٣)، وجاء ذلك دعماً لقضية الوحدة التى افتقدتها بلاد الشام ومصر فى أواخر القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى على نحو ساعد جوهرياً على نجاح الغزو الصليبي لبلاد الشام^(٤).

١- أبر شامة، الروضتين، ج١ / ٢ ق، ص ٤٥٧؛ الذهبى، دول الإسلام، ج٢، ص ٧٨؛ الحريرى، الاعلام والتبيين، ص ٧٨.

٢- ابن حماد، أخبار ملوك بنى عبید، ص ٦٣؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٥، ص ٣٤١؛ السيوطى، تاريخ الخلفاء، ص ١٧٩؛ ابن الطقطقى، الفخرى فى الآداب السلطانية، تحقيق ديرنيرغ، ط. شالون ١٨٩٤م، ص ٤٢٥؛ الذهبى، دول الإسلام، ج٢، ص ٧٩ - ٨٠، خاشع المعاضيدى، الحياة السياسية فى بلاد الشام خلال العصر الفاطمى، ص ٢٠٥، باركر، الحروب الصليبية، ص ١٦٠.

Delacy O'leary, Short Hist. of The Fatimid Khalifate, London 1923, p. 243.

٣- عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ٧١٠.

٤- حامد غنيم، الجبهة الإسلامية، ج٢، ص ٥.

ويرى البعض أن غزو مصر تسبب في الحد من قوة نور الدين محمود العسكرية : إذ أن ذلك لم يتحقق إلا بعد أن أرسل قسماً كبيراً من جيشه^(١)، والواقع أن ذلك لم يضعف قوته العسكرية بل زادها دعماً ، إذ أنه بعد صراع مرير مع الوجود الصليبي في بلاد الشام أدركت السياسة الخارجية النورية أن حسم القضية على الصعيد العسكري لم يكون باسقاط أنطاكية ، بل بالاستيلاء على القاهرة ، حيث سهل النيل الفيضى وموارد مصر الاقتصادية والبشرية ، ولم تلحق أية هزائم عسكرية فادحة بالجيش النورى في ميادين قتاله بالشام ، على نحو يجعلنا نتصور أن غزو مصر قد أضر بقدراته القتالية، بل أن غزوها فتحت جبهة جديدة وخفف من العبء العسكري الملحق على عاتق القوات النورية في الجبهة الشمالية .

وبالإضافة إلى ذلك اتجه بصر السياسة الخارجية النورية صوب حدود مصر الغربية لتأمينها ، إذ قام صلاح الدين بفتح برقة وجبل نفوسة عام ٥٦٨هـ / ١١٧٢م^(٢) ، أى فى العام التالى مباشرة لإسقاط الخلافة الفاطمية، ويلاحظ أن السيطرة على برقة غدت أمراً تقليدياً من الناحية العسكرية لكافة المتغلبين على مصر منذ الفتح العربى لها وحتى ذلك الحين .

١- عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس، ص ١٧٦ .

٢- الأصفهاني ، البستان الجامع، ص ١٣٩- ١٤٠ : أبو شامة الروضتين، ج ١ / ٢ ، ص ٥٤٧ ؛ ابن واصل ، مفرج الكرب ، ج ١ ، ص ٢٣٥ : الذهبى، دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ٨١ .
وعن الأهمية التجارية لبرقة أنظر :

ابن حوقل ، صورة الأرض، ص ٦٩ وأيضاً ، صالح مفتاح ، برقة وطرابلس من الفتح العربى حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآداب- جامعة القاهرة ، لعام ١٩٧٦ ، ص ١٨٦- ١٨٩ ، إحسان عباس ونجم ، ليبيا فى كتب الجغرافيا والرحالة ، ط. بنى غازى ١٩٦٨م ، ص ٢٠ .

وعن جبل نفوسة أنظر :

ابن عبد الحق البغدادي ، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق البنجارى، ج ٣ ، ط. القاهرة ١٩٥٤م ، ص ١٣٨٢ .

ومنطقتي أن من أهداف تلك الحملة التي قادها قراقوش السيطرة على منافذ خطوط التجارة التجارية الدولية المارة بالشمال الأفريقي ، سواء القادمة من أوروبا ، وكذلك تلك القادمة من السودان الغربي عبر الصحراء ، حيث ازدهرت تجارة الرقيق والذهب عصب التجارة في العصور الوسطى .

لكن على الرغم من أن نور الدين أرسل صلاح الدين إلى مصر لينفذ مخططات سياسته الخارجية حيال الفاطميين ، إلا أن صلاح الدين راودته أحلام الهيمنة على البلاد ، اعتماداً على مواردها الثرية ، ومن ثم توترت العلاقات السياسية بين الطرفين ويبدو أن نور الدين بعد أن أرسل شيركوه وابن أخيه إلى مصر وبعد أن قوى نفوذهما وتوطدت أقدامهما في مصر ، عاد عن ذلك ، وأراد أن يعيدهما إلى الشام ، بعد أن أدرك طموحاتهم ، وطلب من العاضد ذلك غير أنه رفض ^(١) ، على اعتبار ثقته فيهما وتصوره أن بإمكانهما إدارة البلاد بنجاح .

وربما نجد بوادر الخلاف عندما استهان نور الدين بالهدية التي أرسلها إليه صلاح الدين من خزانة العاضد ^(٢) ، واستقلاله لما أرسله من أموال ورغبته في محاسبته على ما في مصر من خراج ^(٣) ، بينما كان صلاح الدين قد وطد سيطرته بها على نحو لم يكن معه ليقبل أن يعامل من سيده ، بمثل ذلك الأسلوب ، ويذهب ابن أبي طي إلى أن من عوامل الخلاف بين الرجلين ، أن صلاح الدين تولى الوزارة للعاضد دون علم سيده ^(٤) ، غير أن ذلك مردود إذ أنه خلال ذلك الحين ما كان صلاح الدين يفعل شيئاً دون علم ومشورة نور الدين محمود ، غير أن الحادثة التي ربما أشعلت الصراع بين الطرفين تمثلت في طلب نور الدين من صلاح الدين أن يقوم بمحاصرة حصن الكرك الاستراتيجي على الحدود الجنوبية لمملكة بيت المقدس بالاشتراك معه غير أنه لم يلق منه سوى المعاملة وقد أدى ذلك إلى أن فكر نور الدين جدياً في غزو مصر إلا أن المنية فاجأته.

١- ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ، م (٤) ، ج (١) ، ص ٤٧ .

٢- ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية ، ص ٢٢٠ .

٣- الذهبي ، دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ٨٢ .

٤- نقلاً عن : ابن قاضي شهبة ، المصدر السابق ، ص ١٨١ .

إن التعليل المنطقي لمحاولة صلاح الدين ترجع إلى إدراكه أن حملة الكرك لن يكون الهدف من ورائها إسقاط حصن صليبي بل إسقاطه هو عن مصر، ويحاول ابن شداد عدم إظهار سيده بمظهر المتمرد على نور الدين، وأوضح أنه رفض أن يشق عصا الطاعة ويحاربه عندهما علم بقصده الديار المصرية^(١)، ويلاحظ أنه أدرك احتمال قيام نور الدين بمثل تلك المشاريع العسكرية ضده في مصر ولذا فإنه حرص على أن يضم اليمن إلى ملك بنى أيوب استعداداً لما قد يستجد من عدا .

ويقرر ابن الأثير أن صلاح الدين كان يعتقد أن نور الدين متى زال الفرنج عن طريقه أخذ البلاد منه فكان يحتسب بهم عليه ولا يؤثر استئصالهم^(٢)، ومع إدراكنا الكامل لتحامل ابن الأثير - ربيب البيت الزنكي - على صلاح الدين الأيوبي إلا أنه من الممكن تصور أن ذلك كان حقيقياً في تلك المرحلة ، إذ أن رغبة صلاح الدين في الاستقلال بمصر ، جعلته يستفيد من الوجود الصليبي بينه وبين سيده الذي مثل حاجزاً بينهما غير أنه بعد أن انتهى خطر نور الدين بموته عام ٥٦٩هـ / ١١٧٤م قام بالجانب الأكبر في الجهاد ضدهم وأبلى في ذلك أعظم البلاء على نحو ضمن له أعظم مكانة في تاريخ الحروب الصليبية .

ويميل أحد كبار الباحثين إلى الاعتقاد ، بأنه في حالة تعاون صلاح الدين تعاوناً صادقاً مع سيده ضد الصليبيين ، لسقطت الممتلكات الصليبية في عهد نور الدين^(٣) ، ولكنه بدلاً من

١- ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٤٧ .

٢- عن ذلك بالتفصيل :

يدر الدين بن محمد ، السمط الغالى الثمن في أخبار الغز باليمن، تحقيق ركس سميث ، ط. كمبريدج ١٩٧٤م ، وحقق قسمًا منه محمد عبد العال في مجلة معهد المخطوطات العربية ، م (١٠) ، ج (١) مايو ١٩٦٤م، ص ١٣٧-١٦٧ ، محمد عبد العال، الأيوبيون في اليمن، وتاريخهم السياسى، آداب الوافدين، العدد (١٢) لعام ١٩٨٤م ، ص ١١٥-١٥٠ ، نصارى فهمى، الأهمية العسكرية لليمن فى العهد الأيوبي، ندوة التاريخ الإسلامى، م (٦) كلية دار العلوم- جامعة القاهرة لعام ١٩٨٧م، ص ٢٢٩-٢٦٨ .

٣- ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٦١ .

٤- جب، «هكذا انتصر صلاح الدين» ، من كتاب دراسات في حضارة الإسلام ، مجلة الجليل، م (٨) ، العدد (٩) لعام ١٩٨٧م، ص ٨٠ .

ذلك فإن صلاح الدين اهتم بتحقيق مصالحه الشخصية حيث هدف إلى إقامة حكم وراثي للبيت الأيوبي في مصر^(١). غير أنه من المستبعد أن يتم إسقاط الممتلكات الصليبية خلال السنوات القليلة للغاية التي أعقبت سقوط الدولة الفاطمية و وفاة نور الدين محمود (٥٦٧-٥٦٩هـ/ ١١٧١-١١٧٤م) وعلى المستوى التاريخي من الملاحظ إن ذلك الهدف الضخم تحقق بعد إعداد طويل (٥٦٧-٥٨٣ / ١١٧١-١١٨٧م) ثم أننا من الممكن أن نقرر إن إقامة الحكم الوراثي في فكر صلاح الدين لم يكن منفصلاً مطلقاً عن الجهاد ضد الوجود الصليبي في بلاد الشام وليس في الإمكان أن نعيب على صلاح الدين إقامة دولة له في مصر طالما أن طموحه السياسي هذا سيفجر في الجهاد ضد الصليبيين بصورة غير مسبقة .

ومن ناحية أخرى، ينبغي ألا نأخذ على السياسة الخارجية النورية اعتمادها على شخصيات طموحة في تنفيذ المشروع الحربي في مصر على نحو جعل أزمة الأمور تفلت من يديها في نهاية المطاف، إذ أن صلاح الدين الأيوبي على نحو خاص حرص على عدم إظهار أية طموحات له قبل مقدمه إلى مصر، وتمكن بدهاء سياسي بالغ من إخفاء طموحاته في تكوين ملك وراثي بها، حتى صارت ثمار الظفر دانية القطف .

أما فيما يتصل بالعلاقات الثقافية بين الدولة النورية والخلافة الفاطمية ، فإن المصادر تضمن علينا في هذا الصدد ولا تلقى أضواء عليها، ويبدو أن مثل تلك العلاقات لم تتواجد بصورة واضحة بحكم العداء المذهبي بين الدولة النورية السنية والفاطميين الشيعة ، ومع ذلك فمن المحتمل أن نشاط العلماء والمتصوفة بين مصر والشام استمر متواجداً حيث لم تعرف عناصرهم العداء السياسي بين الدول .

تلك كانت السياسة الخارجية النورية حيال الخلافة الفاطمية ولقد مرت بعدة مراحل ، فهناك الاتصالات الدبلوماسية ثم محاولة التعاون العسكري المشترك وأخيراً انتهز تدهور الأوضاع السياسية وصراع الوزراء للتدخل المباشر لحسم الموقف لصالح الدولة النورية ، والتقت الجيوش الصليبية بالجيوش النورية في صراع مرير للسيطرة على مصر ، وأنفقت الدولة النورية أموالاً وفيرة لإنجاح سياستها هناك وعملت على القضاء على القيادات السياسية المناوئة ، وعاونها

فى تحقيق أهدافها توافر جبهة شمالية أمكن استغلالها لتخفيف ضغط الصليبيين على أرض مصر، ثم أن الخلافة الفاطمية نفسها كانت حينذاك تمر بمرحلة من الضعف العام وجاءت السياسة الخارجية النورية لتجهز على ذلك الكيان المتهاون ، وهكذا فإن ضعف الدولة الفاطمية فى حينذاك أثبت لنا أن سقوطها كان من الداخل قبل أن يكون من الخارج .

ذلك عرض للسياسة الخارجية للدولة النورية تجاه الفاطميين فى مصر ، أما الفصل التالى فإنه يتناول العلاقات مع القوى الإسلامية المحلية فى بلاد الشام والجزيرة .

الفصل الثالث

العلاقات مع القوى الإسلامية المحلية فى بلاد الشام والجزيرة والأناضول

تحتل دراسة سياسة الدولة النورية الخارجية نحو القوى الإسلامية المحلية الشامية والجزرية وكذلك بالأناضول قسماً فعالاً من جهودها ، إذ تشكلت تلك القوى فى صورة كيانات سياسية متناثرة ومتباينة فى مصالحها ، وبالتالى مواقفها من المعسكرين الإسلامى والصليبي بين التحالف تارة والتصارع تارة أخرى ، من أجل الحفاظ على وجودها وسط الكيانات السياسية الأكبر ، على نحو مثل ميداناً شاقاً خاضت غماره تلك السياسة .

وطبيعى أن تتشكل سياسة الدولة النورية الخارجية نحو تلك القوى الشامية والجزرية من خلال جملة دوافع ومحركات ، كما هو الحال مع كافة القوى المجاورة سواء الإسلامية أو المسيحية .

وفى مجال العلاقات مع تلك القوى اتجهت سياسة الدولة النورية الخارجية إلى فرض الهيمنة بالقوة المسلحة أو بعقد الاتفاقيات والمعاهدات الملزمة لإقامة تحالفات وطيدة ونلاحظ اتساع نطاق نشاطها فى جبهة امتدت من الموصل فى الشمال الشرقى إلى قونية فى الشمال الغربى إلى دمشق جنوباً .

وتطالعنا صورة المناطق التى سيطرت عليها القوى الإسلامية المحلية والتى توسعت على حسابها الدولة النورية بظاهرة التشرذم والتفكك السياسى ، حيث تراوحت بين بقايا النظام الأتابكى كما نجده فى دمشق أو أسرات حاكمة مثلما الأمر فى شيزر ومنبج وجعبر وقونية .

ففى دمشق سيطرت الأسرة البورية^(١) والتى أفرزها النظام الأتابكى منذ حوالى أوائل القرن السادس هـ/ الثانى عشر م ، فمعلوم أن الذى أسسها الأتابك ظهير الدين طغتكين (٤٩٨-٥٠٠ هـ)

١- عنها أنظر :

ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص ٢٧١ ؛ الذهبى ، العبره ، ج٤ ، ص ١٣٥- ص ١٣٦ ، =

٥٢٣ هـ / ١١٠٤-١١٢٨م) وهو من ممالك تاج الدولة نتش بن ملكشاه وقد سعى إلى وقف التوسع الصليبي بعيداً عن أتابكيته وشارك في حملات السلاجقة ضد مملكة بيت المقدس ومن بعده تولى ابنه تاج الملوك بوري (٥٢٣-٥٢٧ هـ / ١١٢٨-١١٣٢م) كذلك تولى أمرها عدد من الأتابكة الآخرين مثل معين الدين أنر (ت ٥٤٤ هـ / ١١٤٩م) ومن بعده انفرد بمقاليد السلطة بها مجير الدين ابق فيما بين ٥٤٥-٥٤٩ هـ / ١١٥٠-١١٥٤م ومن الملاحظ أن أتابكية دمشق حرصت على أن توازن في سياستها بين المسلمين والصليبيين حتى أنها دخلت في تحالفات مع الآخرين من أجل الحفاظ على مصالحها لحمايتها من مطامع جيرانها المسلمين، أما شيزر؛ فسيطرت عليها أسرة بنى منقذ^(١) (٤٧٤-٥٥٢ هـ / ١٠٨١-١١٥٧م) التي أسسها الأمير على بن منقذ عندما سيطر على المدينة وقلعتها في عام ٤٧٤ هـ / ١٠٨١م واتجهت شيزر إلى المحافظة على استقلالها وسط الصراعات بين السلاجقة عقب وفاة ملكشاه، وعندما قدم الصليبيون إلى بلاد الشام؛ سعت أسرة بنى منقذ إلى مهادنتهم من أجل الحفاظ على بقائها^(٢). وفي ظل عدد من أمرائها مثل نصر بن منقذ، وعز الدين بن منقذ تحددت

Jamal M. H. Al- Zanki, The Emirate of Damascus in The Early Crusading Period (488-549 / 1095-1154), ph . D. Thesis, st . Andrews University 1989 .

وفاء محمد على، الدولة البورية ودورها في عصر الحروب الصليبية، ط. القاهرة، ١٩٨٤م، شاكرو مصطفى، طفتكين رأس الأسرة البورية مجلة كلية الآداب - جامعة الكويت عدد (١) لعام ١٩٧٤م، العرينى الشرق الأوسط، ص ٥٩٥، لين بول، تاريخ الدول الإسلامية، ت. أحمد السعيد سليمان، ط. القاهرة ١٩٧٢م، ج ٢، ص ٥٤٠، زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامى، ت. زكى حسن وحسن محمود وآخرون، ط. القاهرة ١٩٥١م، ج ١، ص ٤٦.

Oman, Hist. of the art of war in the Middle Ages, London 1924, vol . I, p. 256, note (1) .

١- عنها أنظر :

أسامه بن منقذ، الاعتبار، مواضع متفرقة، محمد الشيخ، الإمارات العربية في بلاد الشام في القرنين ١١، ١٢ م، ط. الاسكندرية ١٩٨٠م، ص ٢٦٣-٣٦٩.

٢- أسامه بن منقذ، الاعتبار، ص ١٥٤-١٥٥.

أشكال العلاقة مع جيران شيزر من الأمراء المسلمين بين المسالمة تارة، كما هو الحال مع الأسرة البورية فى دمشق، والمعاداة تارة أخرى، مثلما الأمر مع خلف بن ملاعب أمير أقمية^(١).

أما القوى الصليبية والبيزنطية فنجد أن إمارتى أنطاكية وطرابلس هاجمتا شيزر ومن أمثلة ذلك مهاجمة تانكرد لأعمالها عام ٥٠٢هـ / ١١٠٨م ومهاجمة إمارة طرابلس لها عام ٥٠٤هـ / ١١١٠م^(٢). كذلك تعرضت شيزر للغزو عندما حاولت الإمبراطورية البيزنطية استعادة أملاكها فى آسيا الصغرى وبلاد الشام فى عهد الإمبراطور حنا كومنين عام ٥٣٢هـ / ١١٣٨م^(٣). غير أن تلك المحاولات من جانب الإمارات الصليبية والإمبراطورية البيزنطية باءت بالفشل ، وحافظت أسرة بنى منقذ على استقلالها حتى منتصف القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى .

وفى منيج التى وقعت بين نهر الفرات وحلب وجدت أسرة حسام المنبجى الذى سيطر عليها بوصفها إقطاعاً له، كذلك سيطرت الأسرة العقيلية على جعبر، أما الأسرة الجندلة فخضعت لها مدينة بعلبك بسهل البقاع فى موقع مقارب نسبياً من إمارة طرابلس الصليبية ، وهيمن سلاجقة الروم على قونية حيث جاؤوا حدود الإمبراطورية البيزنطية ، أما الموصل بشمال العراق فإنها مثلت ميراثاً من أملاك أتابكية عماد الدين زنكى .

ويلاحظ أن دوافع السياسة الخارجية النورية لضم تلك المراكز والمواقع المهمة تعددت ، فهناك الرغبة فى السيطرة على خطوط التجارة التى ربطت شمال الشام بجنوبه وشمال العراق بالشام^(٤) وكذلك الاستيلاء على مراكز الصناعة خاصة فى المدن الكبرى كما هو الحال فى دمشق والموصل ، والافادة من تواجد المواد الخام اللازمة للتصنيع مثلما الأمر فى الموصل ، وهناك اعتبارات استراتيجية تتعلق بالرغبة فى السيطرة على مراكز التكتل السكانى فى السهول الفيضية لأنهار الفرات والعاصى وغيرها، وكذلك الهيمنة على المواقع الفعالة فى

١- أحمد رمضان ، المجتمع الإسلامى ، ص٤٦ .

٢- نفسه، نفس المرجع ، ص٤٧ .

٣- أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص٢ - ص٣ ، ص١٤٥ - ص١٤٧ .

٤- عن ذلك أنظر المدخل .

المواجهة مع الصليبيين لتأمين المراكز التجارية والصناعية ضد خطر الهجمات المفاجئة بغرض السلب والنهب، وينبغي ألا تغفل أهمية الدوافع السياسية، إذ شهد المشرق الإسلامى خلال تلك المرحلة تواجد ظاهرة القوى السياسية الكبرى وصراع الكيانات الصغرى للحاق بها، فقد كانت هناك الخلافة العباسية فى بغداد، والخلافة الفاطمية فى القاهرة والإمبراطورية البيزنطية فى القسطنطينية، ومملكة بيت المقدس وتوابعها، وتلك الكيانات السياسية الكبرى سيطرت على مساحات شاسعة وموارد اقتصادية كبيرة مكنتها من التأثير السياسى من حولها، وأدركت الدولة النورية عشية قيامها ضرورة اللحاق بالقوى الكبرى فى المنطقة، وإنهاء ظاهرة التشرذم فى البناء السياسى الشامى حينذاك، ولم يكن ذلك ليتأتى إلا بضم تلك الكيانات المحلية وتوحيدها لسيادتها، وفى هذا المجال أمكن استغلال شعارات الجهاد ضد الصليبيين لتبرير التوسع على حساب جيرانها من القوى المحلية الشامية والجزرية، وبالتالي أمكنها تغيير خريطة بلاد الشام وما وجدت عليه من تفكك فى أخريات القرن الخامس هـ/ الحادى عشر م، والذي كان عاملاً جوهرياً هياً للغزاة الصليبيين لتوطيد أقدامهم فى شرق البحر المتوسط وأعلى الفرات.

وأهم هذه الكيانات السياسية : أتابكية دمشق التى تطلع نور الدين محمود إلى ضمها لتوطيد أقدام دولته فى حلب، ومن غير المنطقى أن تكون بمنأى عن طموحاته السياسية الكبيرة، إذ غدت حينذاك من أهم مراكز الشام والجزيرة فى الأنشطة الزراعية والصناعية والأهم التجارية ومثلت إمتداداً طبيعياً للطرق التجارية المارة بحلب وكذلك تلك القادمة من مصر، ومن جهة أخرى لم تشأ الدولة النورية أن تقع فى جنوبها قوة سياسة مناوئة ومنافسة، وعلى المستوى العسكرى صار الدفاع عن خط حلب- الموصل يبدأ من دمشق نفسها، ثم إذا أضفنا إلى ذلك مدى الثقل الحضارى والسياسى الذى تمتعت به تلك المدينة منذ أن كانت حاضرة ملك الأمويين^(١)، إدركنا كم كان إخضاعها لسيطرة الدولة النورية يشكل أمراً ملحاً.

Sourdel, " Nouveaux documen sur l'histoire sociale, et religieuse de Damas au Moy-
en Ages" REL, XXXII, Année 1966, p. 1.

ولإيجاد مبرر لإقحام نفسه فى الشئون الدمشقية ، اتجه نور الدين إلى المصاهرة من أتابك دمشق معين الدين أنر، فتزوج ابنته فى عام ٥٤١هـ / ١١٤٦م^(١)، وعد ذلك من أهم الزيجات السياسية المؤثرة فى تطور الأحداث فى بلاد الشام خلال ذلك الحين .

وواجهت الدولة النورية- آنذاك- مشكلة التحالف السياسى القائم بين الأسرة البورية ومملكة بيت المقدس الصليبية ولاشك فى أن الأسرة البورية حرصت على هذا التحالف من أجل كبح جماح نور الدين محمود، والتصدى له إذا ما حاول التوسع السياسى صوب الجنوب ، وعمد نور الدين إلى إيجاد المبرر الكافى لصراعه المرتقب مع دمشق فوجده- فى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المتدهورة للقطاع الفلاحى فى المدينة والذى عانى بشدة من جراء غارات الصليبيين وعجز الأتابكة عن تقديم دعم ناجح لوقف الاعتداء الخارجى .

طلب نور الدين محمود من أتابك دمشق مجير الدين أبى أن يقدم له مساعدة حربية قدرها ألف من الفرسان لمساعدته فى قتال الصليبيين ، ولما كان ذلك يعنى تهديداً لمركز الأتابكية وعلاقاتها السياسية معهم فقد رفضت طلب نور الدين فى عام ٥٤٤هـ / ١١٤٩م^(٢)، وتقدم بقواته صوب دمشق وفى خلال ذلك أرسل برسالة إلى مجير الدين أبى - أورد جانباً منها ابن القلائسى- ذكر فيها أن سبب مقدمه سوء أوضاع أهل حوران من الفلاحين وانتهاك الصليبيين لأموالهم^(٣).

وطبيعى أن يحرص نور الدين على ذلك المبرر السياسى لعمله العسكرى، وأن يركز المؤرخون الرسميون عليه لتبرير اعتدائه على أملاك الأسرة البورية، وما لا يذكرونه أن أطماعه فى دمشق مثلت واقعاً حقيقياً وأن قدراتها الاقتصادية والبشرية والاستراتيجية اللازمة

١- ابن القلائسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٨- ص ٢٨٩ ؛ أبو شامة الروضتين ، ج ١ / ق ١ ، ص ١٢٩ ، William of Tyre, vol . II , p. 148 عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٦١٧ ، حسن حبشى ، نور الدين والصليبيون ، ص ٤٢- ص ٤٣ ، زامباور ، معجم الانساب والأسرات الحاكمة ، ص ٤٦ ، ويذكر الأخير أن المصاهرة جرت عام ٥٤٥هـ / ١١٥٠م ولكن بالاعتماد على ابن القلائسى يعد ذلك التاريخ متأخراً ، أنظر أيضاً ، Stevenson, The Crusaders, p. 158 , Gibb, The Damascus chronicle, p. 275-276 .

٢- ابن القلائسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠٨ .

٣- نفسه ، نفس المصدر ، ص ٣٠٩ .

لتدعيم أركان دولته كانت هي الحافز الأول له وليست أوضاع القطاع الفلاحي كما زعموا ، وأمام ذلك الموقف قررت قيادة دمشق أن تشهر سيفها في وجهه وفي نفس الحين حالت الأمطار دون عمليات جيشه الحربية^(١).

وأمام إخفاق الجهد العسكري لم يكن هناك مناص من الخيار الدبلوماسي وإن دعم الوضع الحربي السابق، إذ تبين لدمشق أن بإمكان نور الدين أن يتقدم بقواته نحوها حيث يريد دون حائل ، وأن عليها أن تقبل الوضع القائم وصار عليها أن تقدم التنازلات السياسية ، فدانت بالطاعة له وتم الاتفاق على إقامة الخطبة له على منابر المدينة بعد الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي ، وأن يتم نقش اسمه على السكة^(٢) - وإن لم تصل إلينا - وبعد ذلك بمثابة أكبر انجاز أمكنه تحقيقه خلال تلك المرحلة من مخططاته نحو دمشق . ويلاحظ هنا أن تلك التنازلات أقرت ضمناً بالوجود النوري سياسياً وعسكرياً وأنها مدت نفوذ نور الدين نحوها على نحو جعل سقوطها في قبضته أمراً محتملاً .

وعلى الرغم من الاتفاق السابق فإنه عاود الضغط على دمشق مرة أخرى وذلك عام ٥٤٦هـ / ١١٥١م بهدف استمرار إلحاق الخسائر بها، وتضييق الخناق عليها لتدين له في النهاية بالسيادة الكاملة ، وفي خلال ذلك حاول الجيش الدمشقي نصب كمين لقوات حلب غير أنه أخفق^(٣) ، وأدى الوضع السابق إلى اضطراب الأوضاع في المدينة وانتشار عمليات السلب والنهب على المستويين الزراعي والتجاري^(٤) ، ومرة أخرى اتجهت حلب إلى الدبلوماسية للتوصل إلى اتفاق فتم إيفاد برهان الدين البلخي ، وأسد الدين شيركوه ، ونجم الدين أيوب إلى مجير الدين أبق، وتم الاتفاق على وقف العمليات الحربية^(٥) ، ويبدو أن الوضع الحربي في الشمال والصراع مع الصليبيين في إمارة أنطاكية احتاج عودة القوات النورية بدليل أن نور الدين نفسه سعى إلى ذلك الاتفاق .

١- ابن القلاص ، ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٠٩ .

٢- نفسه، نفس المصدر والصفحة .

٣- نفسه، نفس المصدر .

٤- نفسه، نفس المصدر والصفحة .

وفى خلال تلك الأثناء اتجهت دمشق إلى تخفيف حدة التوتر بأن قام مجير الدين أبق شخصيا بزيارة لحلب حيث أكرم نور الدين وفادته^(١) ، ومن المحتمل أنه هدف من وراء ذلك إلى تأخير مشروع نور الدين الحربى لضم دمشق غير أن الأحداث أثبتت فشله فى تحقيق ذلك. وأمام تجارب نور الدين السابقة مع دمشق وعجزه العسكرى عن إسقاطها فإنه أيقن بجلاء ضرورة تجنب الزج بجيشه فى معركة حاسمة معها لإلحاق الخسائر الفادحة بقواته ، ومن ثم اتجه إلى سياسة الحصار الاقتصادى ، فمنع وصول الغلال إليها من حلب والمناطق الشمالية^(٢) ، وقد نتج عن ذلك ارتفاع الأسعار الأمر الذى أدى إلى رحيل معظم سكان المدينة عنها ، وينص ابن القلائسى على أنه « خلا من البلد الخلق الكثير »^(٣) ، وفى نفس الحين أوقع نور الدين الانقسام فى معسكر خصمه فأرسل إلى مجير الدين أبق يخبره بأن أعداءه يرسلونه سرا لتسليم المدينة والقضاء على حكمه ، على نحو أثار حفيظته عليهم ، فبادر إلى مصادرة أملاكهم وإقطاعاتهم^(٤) ، كذلك سعى إلى التحالف مع عناصر الأحداث الدماشقة^(٥) ، الذين كان لهم نفوذهم الواسع على عامة أهل دمشق ، وكونوا أسرات نشطة تزايد نفوذها خلال القرن ٦هـ / ١٢م لعبت دورا مؤثرا فى المجال السياسى وحيث إنها اختصت بالمحافظة على الأمن والنظام فى المدينة؛ فلاشك أن تحالفها مع نور الدين حسم معركة دمشق لصالحه بالإضافة إلى إثارة الأمراء الذين صودرت إقطاعاتهم وأملاكهم ، فسقطت بذلك مكائتهم السياسية ، فحنقوا على النظام القائم .

١- ابن القلائسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣١٧ .

٢- نفسه ، نفس المصدر ، ص ٣٢٥ .

٣- نفسه ، نفس المصدر ، ص ٣٢٥ .

٤- سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٢٢١ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٣٠٤ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٧ ، ص ١٦١ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣١٨ ؛ القرماني ، أخبار الدول وآثار الأول ، ص ٢٧٩ .

٥- الأحداث ، عناصر مسلحة من سكان المدن وجدت فى بلاد الشام وقامت بدور هام فى أحداثها السياسية خلال القرن ٦هـ / ١٢ م ، وظهرت بعض الأسرات التى قادت نشاط الأحداث مثل أسرة ابن البديع =

وأمام الحصار الاقتصادي الشديد الرطوة على دمشق واتفاق الأحداث على تسليمها للجيش الغازي، تمكن نور الدين وقواته من إسقاطها في صفر عام ٥٤٩هـ / أبريل ١١٥٤م^(١). ولا نزاع أن إسقاط دمشق يعد وبحق أحد أهم إنجازات السياسة الخارجية النورية، وبذلك تحقق حلم طالما راود الزنكيين ، وقد عده البعض «أعظم إنجازاته على الإطلاق»^(٢)، وأنه نقطة

= في حلب، ومن أمثلة أدوارها منبحة دمشق ومنبحة حلب ضد الاسماعيلية النزارية في النصف الأول من القرن المذكور . عن الأحداث أنظر :

ابن العديم ، زبدة الحلب، ج١ ، ص٢٢٧-٢٤٩ عماد الدين خليل، «نظم ديار بكر الادارية في عهد الأرتاقة»، آداب الوافدين، العدد (٦) لعام ١٩٧٥م ، ص٤٣-٤٤ ، إمارة ابن أرتق، رسالة دكتوراه - كلية الآداب- جامعة عين شمس لعام ١٩٦٨م، ص٣١٠، رجب النجار ، حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي، ط. الكويت ١٩٨١م، ص١٦١-١٦٧ .

وعن اتفاق نور الدين مع الأحداث أنظر :

ابن الأثير ، الباهر ، ص١٠٦ : ابن واصل ، مفرج الكروب، ج١ ، ص١٢٧ : الذهبي، العبر ، ج٢ ، ص١٣٦ : النويري، المصدر السابق، ج٢٧ ، ص١٦١ : ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٢ ، ص١٥٢ .
١- ابن الأثير ، الباهر ، ص١٠٦ : سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج٨ / ق١ ، ص٢٢٠-٢٢١ : ابن العديم ، زبدة الحلب، ج٢ ص٣٠٤-٣٠٥ : ابن الشحنة ، روضة المناظر ، ص٢٣٣-٢٣٤ : الصفدي، الوافي بالوفيات ، تحقيق ديدر ينغ ، ط. فيسبادن ١٩٧٢م، ج٦ ، ص١٨٨ : خواندمير ، حبيب السير، ط. تهران ١٣٣٣هـ، جلد دوم ، ص٥٥٢-٥٥٣ : ميرخوند، تاريخ روضة الصفا، ط. تهران ١٣٣٩هـ، جلد و هارم ، ص٥٩٥ .

وعلى الرغم من أن المصادر تجمع على التحديد الزمني السابق فإن ابن أيبك الدوادري يذكر سقوط دمشق ضمن حوادث عام ٥٤٧هـ / ١١٥٢م والواقع أن دمشق كانت حينذاك لاتزال خاضعة للأسرة البورية، أنظر : الدرة المضئفة ، ص٥٦١، أنظر :

Gibb, The Career of Nur Al- Din , p. 518 , Elisseeff, Nur Al - Din, T. II, p. 481-482,

L'orient musulman, p. 251, Stevenson, The Crusaders, p. 166 , Duggan, The Crusades, p.

157, Smail , The Crusaders, p. 20 , Boase, Kingdoms and Strongholds, p. 112 .

٢- لامونت ، «الحروب الصليبية والجهاد» ، ضمن كتاب دراسات إسلامية، ت. مجموعة من الباحثين،

ط. بيروت ١٩٦٨م، ص١١٩ .

تحول فى تاريخ الحروب الصليبية^(١)، حيث غدت بلاد الشام والجزيرة تحت سيطرته وصار الصليبيون بذلك يواجهون عدواً خطيراً^(٢) وإذا كان بلدوين الثالث بإسقاطه عسقلان عام ١١٥٣م / ٥٤٨هـ أكمل مد النفوذ الصليبي على كافة أنحاء الساحل الشامى من الإسكندرونة شمالاً إلى غزة جنوباً ؛ فإن استيلاء نور الدين على دمشق جعل داخلية بلاد الشام من الفرات حتى بردى فى قبضة قوة إسلامية موحدة^(٣)، وتلك هى المرة الأولى التى توحدت فيها البلاد الشام منذ الغزو السلجوقي^(٤)، وصار خسرت مملكة بيت المقدس الصليبية أهم وأقوى حليف لها^(٥)، وبذلك صار بإمكان نور الدين محمود أن يوجه ضرباته لأعدائه فى الشمال صوب أنطاكية وفى الجنوب صوب منطقة الجليل الأعلى والحدود الشمالية للمملكة اللاتينية^(٦)، كذلك أدى إسقاط دمشق إلى فتح الطريق نحو القاهرة^(٧) التى غدت محط أطماع متبادلة من جانب نور الدين والصليبيين على حد سواء .

وجدير بالإشارة ، أن حرص الدولة النورية على ضم وسط الشام إلى حلب لم يجعلها تتناسى أهمية إسقاط نفوذ الأسرات الحاكمة المسلمة فى المدن والبقاع الشمالية، إذ أن ذلك عد تدعيماً حقيقياً لسلطانها فى حلب ذاتها، ففى عام ١١٥٢م / ٥٥٧هـ اتجه نور الدين محمود إلى اهتبال فرصة الزلازل المدمرة التى اجتاحت بلاد الشام حينذاك وتأثرت بها مدينة شيزر^(٨) ،

١- العرنى، الشرق الأوسط، ص ٢٩٩، مسفر الخالدي، الجهاد ضد الصليبيين، ص ٢٨٠ .

٢- William of Tyre, vol . II, p. 225 .

٣- Runciman , vol . II, p. 342 .

٤- عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ٦٦٥ - ٦٦٦ ، عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس ، ص ١٥٤ ، حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية ، ج٢ ، ص ١٩ .

٥- باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٩٨ .

٦- Stevenson, The Crusaders, p. 173 .

٧- زكى نقاش ، العلاقات الاجتماعية والثقافية ، ص ٤٣ .

٨- وقعت شيزر على بعد ٦٣ كم من حماء وجنوب حلب بمسافة ٥٢ كم عنها أنظر :

William of Tyre, vol . II, p. 266 .

ياقوت ، معجم البلدان ، ط. ليسك ١٨٦٦م، ج٤ ، ص ٥٧٤ - ٥٧٥ ؛ ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك، ص ٤٩ ، الشكعة ، سيف الدولة الحمدانى، ط. القاهرة ١٩٥٩م، ص ٨٥ ، شيخو ، «من حماء إلى حلب» ، المشرق ، العدد (٢٠) السنة (٨) لعام ١٩٠٥م ، ص ٩١٨ - ٩١٩ .

وعمل على إسقاطها ^(١)، ودفعته إلى ذلك دوافع تجارية واستراتيجية وسياسية حيث عدت من أهم المراكز التجارية في بلاد الشام وعرف عن أهلها اشتهاهم بالنشاط التجاري ^(٢)، ووقعت على خطوط التجارة بين حلب، ودمشق وحمص على نحو جعل لمن يحكم قبضته عليها حق جباية المكوس، ومن جهة أخرى، صار إخضاعها أمراً قليده الأحداث بعد أن طمع الصليبيون في الاستيلاء عليها حيث أنهم يادروا إلى ذلك في نفس العام ^(٣)، وقد قاومتهم عناصر الاسماعيلية النزارية ويبدو أن دفاعهم عنها كان بطولياً على نحو جعل مؤرخاً شيئاً رسمياً مثل ابن القلائسي يعترف بذلك ^(٤)، ولاشك في أن محاولة الصليبيين قد جعلت الدولة النورية تدرك أكثر من أى وقت مضى أهمية إخضاع شيزر لأن استيلائهم عليها يشكل خطراً داهماً خاصة على مدينة حلب قلب الدولة النورية في مرحلتها الباكورة.

إن نجاح الدولة النورية في السيطرة على شيزر، يمثل تلك السهولة التي توردها المصادر دلالة واضحة على أن النفوذ السياسى لبنى منقذ حينذاك، انتهى بصورة فعلية على نحو لم يشكلوا معه أية معارضة حقيقية للسياسة الخارجية النورية، ولذا جاءت أحداث الزلازل المذكورة لتعطى لنور الدين الحافظ القوى للإجهاز على كيان سياسى محلى متلاشٍ.

وعن زلازل عام ٥٥٢هـ / ١١٥٧م في بلاد الشام أنظر :

ابن القلائسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٤٣-٣٤٤؛ بنيامين التطيلي، الرحلة، ص ١٢٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٨٨؛ الباهر، ص ١١٠؛ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨ / ق ١، ص ٢٢٨؛ أبو الفداء، المختصر، م (٢)، ج (٥)، ص ٤٤، محمد مؤنس أحمد، الزلازل في بلاد الشام، ص ٨١-٨٤.

١- ابن الأثير، الباهر، ص ١١٠؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٢، ص ٣٠٧؛ سبط بن الجوزي، المصدر السابق، ج ٨ / ق ١، ص ٢٢٩؛ ابن أبيك الدوادري، الدرة المضيئة، ص ٥٦٩؛ ابن قاضي شهبه، الكواكب الدرية، ص ١٥٣؛ النويري، نهاية الأرب، ج ٢٧، ص ١٦١.

٢- William of Tyre, vol . II, p. 267 .

٣- ابن القلائسي، المصدر السابق، ص ٣٤٩، Gibb, The Damasous Chronicle of the Crusades, p. 340 .

محمد الشيخ، الإمارات العربية في بلاد الشام، ص ٣٧٢، خاشع المعاضيدى، الحياة السياسية في بلاد الشام، ص ٢٠٢.

٤- المصدر السابق، ص ٣٤٩.

وامتداداً لسياسة تحجيم الأسرار المحلية وإضعافها حتى لا تتنافس الدولة النورية في حلب ودمشق سعت الأخيرة إلى مواجهة الأسرة الجندلية التي سيطرت على بعلبك^(١)، وترأسها الضحاك بن جندل البقاعي، ودانت بالمذهب الدرزي، ولا شك أن الأقليات الدينية خاصة الدرزية شعرت بصفة مستمرة برغبة في التكتل من خلال تواجدها وسط محيط سني متحمس ضد المخالفين من الفرق الشيعية، وكان الضحاك بن جندل تابعاً لأتابكية دمشق^(٢)، وأدرك خطورة سيطرة الدولة النورية على دمشق عام ٥٤٩هـ / ١١٥٤م^(٣)، وأعلن عصيانه على نور الدين، وقد خشي الأخير أن يصطدم به حتى لا يطلب عون الصليبيين، خاصة ما عرف عنه من مناورات سياسية حيث تأرجح بين الولاء للمسلمين السنة تارة والصليبيين تارة أخرى^(٤)، ليضمن بقاء كيانه السياسي بمنأى عن الاندحار وسط كيانات أكبر من أن يواجهها منفرداً.

ومع ذلك فليس من اليسير تحديد سياسته بجلاء نظراً لعداء المصادر التاريخية السنية تجاه الدرروز بصفة خاصة، ولا مرأى في أن الدولة النورية بصفة عامة باعتبارها دولة سنية المذهب؛ نظرت بارتياح إلى وجود كيان محلي درزي في تلك المنطقة المهمة في سهل البقاع بالقرب من الوجود الصليبي.

وعلى الرغم من أن الأسرة الجندلية لم تكن تمثل قوة سياسية كبيرة، فإن نور الدين محمود

١- وقعت إلى الشمال الشرقي من بيروت في سهل البقاع بالقرب من جبال لبنان الشرقية، أنظر: ابن شداد الحلبي، الأعلام الخفية في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق سامي الدهان، ط. دمشق ١٩٥٦م، ج ٢، ص ٤٢-٤٥؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٥٤-٢٥٥.

Fetellus, Description of Jerusalem and The Holy Land, Trans. Macpherson, PPTS, vol. V, London 1896, p. 24.

وديع نقولا، قاموس لبنان، ط. بيروت ١٩٢٧م، ص ٢٣.

٢- أبوشامة، الروضتين، ج ١ / ق ١، ص ٢٥٠.

٣- ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٢٢٧-٢٢٨؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٢، ص ٣٠٨؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ١، ص ١٢١، البعلبكي، تاريخ بعلبك، ط. بيروت ١٩٠٨م، ص ٦٠.

٤- ابن الأثير، المصدر السابق، ص ٢٢٧.

حاذر من تصعيد الصدام مع الضحاك البقاعى، ولا أدل على ذلك من أنه أخذه بالملاينة لنحو ثلاث سنوات حتى تمكن من إخضاع بعلبك لسيطرته عام ١١٥٢هـ / ١١٥٧م^(١).

ويبدو أن القضاء على نفوذ الضحاك فى بعلبك قد تم من خلال اتفاق بين نور الدين والصليبيين ، إذ يقرر ابن القلاسى^(٢) أن نور الدين ترأس مع الملك الصليبي وتم الاتفاق على تجديد المودعة بين الطرفين ، وبعد ذلك مباشرة يشير إلى أنه بعد ذلك بأيام قلائل صدر الأمر الملكى بالقاء القبض على والى بعلبك ، ومنطقتى أن إنهاء الأمر بمثل تلك السهولة لا يمكن أن يحدث دون تأمين خطر ارتباط الضحاك بالصليبيين، ولا شك أن الأخيرين أدركوا أنه لا يمثل أهمية كبيرة بالنسبة لهم إذا ما قورن باستمرار الاتفاقيات مع نور الدين ، ويدعم هذا التصور أن الضحاك نفسه لم يظهر مقاومة - على ما يبدو- إذ أنه أجاب أمر نور الدين وتم إرسال من تسلم بعلبك وتم وضع الجند بها .

وهكذا شهد عام ١١٥٢هـ / ١١٥٧م تأميناً لحلب فى شمال الشام باخضاع شيزر ، ثم بتسليم السيادة النورية فى سهل البقاع بانتزاع بعلبك من السيطرة الدرزية ، وبالتالي صار الطريق من دمشق إلى بعلبك مهياً أكثر من ذى قبل لشن هجمات حربية تجاه المناطق الصليبية ، ولم يعد سهل البقاع يحوى قوة تمثل موضع مضاد للنفوذ النورى .

وبالإضافة إلى ذلك اتجهت السياسة الخارجية النورية إلى ضم حران بعد أن خضعت للأخ الأصغر لنور الدين نصرة الدين أمير ميران^(٣)، ومن المعروف أنه اتخذها مقراً له وقد اتسمت

١- ابن القلاسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٣١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٢٨ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٣٠٨ ؛ ابن واصل ، منبرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٢٩ ؛ ابن قاضى شهبه ، الكواكب الدرية ، ص ١٤٧ ؛ الشهابى ، الغررالحسان ، ط. القاهرة ١٩٠٠م ، ج ١ ، ص ٣٤٦ .

٢- ابن القلاسى ، المصدر السابق ، ص ٣٣١ .

٣- أشارت فتحية النراوى إلى أن مركز نصرة الدين كان فى حماه ، أنظر ، العلاقات السياسية وصراع القوى الدولية فى العصر الوسيط ، ط. القاهرة ١٩٨٢م ، ص ٤٨٥ ، غير أن ذلك القول لا يجد دعماً من المصادر والمراجع ، إذ أن ابن القلاسى يصفه بأنه «نصرة الدين أمير ميران صاحب حران» ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٥٥ ؛ وأيضاً ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٣١٠ .

العلاقات بين الجانبين بالود في بادئ الأمر ؛ حتى أن نور الدين عندما وقع فريسة للمرض عام ٥٥٢هـ / ١١٥٧م، أوصى بأن يكون نصره الدين خليفته على عرش الدولة النورية ، غير أن العلاقات تدهورت بعد أن غدت حران أقل من الطموحات السياسية الجامعة لنصرة الدين الذي تطلع إلى جلب ذات الشراء التجارى العريض، ولذا اغتنم فرصة مرض أخيه ليستولى على السلطة ويبدو أنه استمال عناصر الاسماعيلية النزارية وأنهم عاونوه على تحقيق مراميه ، وطبعاً أن سبب دعمهم لحركته عدااء الدولة النورية لهم وحرمانهم من النفوذ السياسى الذى تمتع به السنة ، ويبدو أنهم وجدوا فيه ورقة رابحة لضمان حقوقهم ، خاصة ما عرف عنه من ميل إلى التشيع .

تمكن نصره الدين من الاستيلاء على المدينة غير أن قلعته استعصت عليه، ويبدو أن ذلك مثل أهم عوامل فشل المحاولة ، على الرغم من وجود تنسيق بين المتآمرين فى كل من حلب ودمشق من أجل السيطرة على المركزين الرئيسيين للدولة سياسياً واقتصادياً وضمان إخضاع باقى الأقاليم بلا عناء كبير.

ومن الواضح أن شرطة الدولة النورية قمت ببقطة كبيرة ، إذ أن المتآمرين سعوا إلى الاتصال وتنظيم المحاولة بالرسائل ، غير أنها سقطت فى أيدي الشحنةجية وأدى ذلك إلى إلقاء القبض عليهم وقد مثلوا عناصر فعالة فى الجهاز الإدارى للدولة، ومن أمثلتهم متولى الديوان ، ومتولى القلعة، وأحد حجاب نور الدين محمود نفسه، وإقرار ابن القلانسى^(١) بتجنيد هؤلاء يدل بوضوح على دقة تخطيط نصره الدين لإسقاط حكم نور الدين .

وأمام تلك الأحداث السافرة ؛ قرر نور الدين إخضاع حران لسيادته نهائياً وإقصاء أخيه عنها، وحاصرها بالفعل لمدة الشهرين ، وأسقطها عام ٥٥٤هـ / ١١٥٩م^(٢)، ولذا نصره الدين بالفرار .

ولانزاع فى أن الاستيلاء على حران؛ دعم قبضة الدولة النورية فى مناطق الجزيرة، وأفادها داخلياً بتحجيم خطر الإسماعيلية النزارية بالقضاء على نفوذ نصره الدين وإيقاف دعمه لهم، ومع ذلك فإن نور الدين أدرك بشاقب بصره إمكانية الإفادة من مهارات أخيه الحربية على

١- ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٥٨ .

الرغم مما حدث ، فتحسنت العلاقات بينهما^(١) بعد انقشاع سحب النزاع السابق واشترك معه فى بعض المعارك المهمة ضد الصليبيين فى حارم عام ٥٥٩هـ / ١١٦٤م^(٢) ، وبانياس عام ٥٦٠هـ / ١١٦٥م^(٣) . وإن تخلص نور الدين من أية احتمالات لعودة مطامع أخيه ثانية بموته فى نفس العام .

أما منبج فمثلت أهمية خاصة من خلال موقعها الجغرافى ، حيث وقعت فيما بين نهر الفرات ووادى بطنان فى شمال شرق حلب ، وأدى ذلك إلى وقوعها فى منطقة ذات نشاط تجارى مزدهر فيما بين شمالى الشام والعراق ، ومثل تلك المناطق ذات الأهمية التجارية وواقعة على الأطراف؛ لم يكن من الممكن أن تقبل السياسة الخارجية النورية قوة مناوئة فيها .

ويبدو أن الأمير غازى بن حسان المنبجى حاول الاستقلال بمنبج ، وهى التى آلت إليه كميراث عن والده^(٤) ، وأمام ذلك لم يكن بوسع نور الدين محمود إلا إرجاع الأمور إلى نصابها بالتدخل العسكرى ، لقمع حركته حتى لاتستشرى عدوى الاستقلال لدى الأمراء المقطعين على حدود الدولة النورية ، وفى مناطق الحدود والأطراف بين العراق وشمال الشام ، وبالفعل أخذ حركته فى عام ٥٦٢هـ / ١١٦٧م^(٥) وأقطع منبج لأخيه قطب الدين ينال بن حسان ، ويبدو أنه وجد أن الأخير أساس قياداً ويدين بالولاء له إذ أنه استمر فى سيطرته على الإقطاع المذكور ما يقرب من اثنى عشر عاماً ، حتى افتقده عام ٥٧٢هـ / ١١٧٦م نتيجة لاستيلاء صلاح الدين عليها^(٦) .

١- ابن العديم ، زبدة الحلب، ج٢ ، ص٣٢١ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة، ج٥ ، ص٣٦٧ ؛ ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب، ج٤ ، ص١٨٨ .

٢- الأصفهاني ، البستان الجامع، ص١٤٥ .

٣- أبو شامة ، الروضتين ، ج١ / ٢ ، ص٣٥٦ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة، ص٣٦٧ ؛ ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، ج٤ ، ص١٨٨ .

٤- ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ ، ص٣٢٤-٣٢٥ .

٥- نفسه ، نفس المصدر والصفحات ؛ ابن الأثير ، الباهر ، ص١٣٤-١٣٥ ؛ أبو شامة ، المصدر السابق، ج١ / ٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج١ ، ص١٥٣ ؛ العماد الأصفهاني ، سنا البرق الشامى، ص٢٣ .

٦- ابن الأثير ، المصدر السابق، ص١٣٥ .

وتدل سياسة نور الدين تجاه منبج ، ومن قبل حران ، على أن الاهتمام بالتوسع والسيطرة لم يكن يقتصر على مناطق وسط الشام وشماله بل أيضاً الجزيرة الفراتية والمنطقة الواقعة فيما بين العراق وشمال الشام وقد دفعه إلى الاهتمام بتلك المناطق بعض الدوافع ، فهو بالإضافة إلى رغبته في تجنب امتداد مثل ذلك الصراع إلى عقر داره في داخل بلاد الشام ، فإنه أيضاً لم يشأ أن يجعل نفوذاً لبعض القوى السياسية المحلية المسلمة بجوار الخلافة العباسية في العراق ، على نحو يشير له المتاعب من جهة ، ويضعف من هيبة حكمه لدى بغداد من جهة أخرى ، وطبيعي أنه سار وفق خطة قائمة على إخضاع تلك القوى ، ولم تكن مجهوداته في هذا الصدد بصورة عشوائية .

أما علاقات الدولة النورية تجاه جعبر وسيدها شهاب الدين العقيلي ، فعلى الرغم من المصادر أشارت في بعض الأحيان إلى رغبة بعض القوى المسلمة المحلية في الاستقلال وقمع ذلك ، إلا أنها عند شهاب الدين لاتسند إليه محاولة للخروج والاستقلال ، وإنما تذكر مباشرة ميراثاً لشهاب الدين وآبائه من قبل منذ عهد السلطان ملكشاه^(١) ، ومن ثم توجد دوافع أكثر إلحاحاً من مجرد قمع حركة مناوئة في جعبر دفعت بالدولة النورية إلى ضمها ، فقلعة جعبر وقعت على نهر الفرات وامتازت بحصانتها المنبوعة^(٢) ، وأغلب الاحتمال أنه لم يشأ أن يجعل من مناطق الحدود بين العراق والشام ، مراكز قوية قد تعاديه يوماً ، ولانغفل أن والده عماد الدين زنكي قتل وهو يحاصرها عام ٥٤٤هـ / ١١٤٦م^(٣) ، على نحو حفز همة نور الدين للاستيلاء عليها انتقاماً له ، وفي سبيل ذلك اتبع الطريق السلمى مع شهاب الدين فبعد أن أسره على أيدي أعراب بنى كلاب^(٤) ، عمل على إكرامه في أسره وملاينته لتسليم القلعة

١- ابن الأثير ، الباهر ، ص ٦٣٦ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج ١ / ٢ ق ، ص ٣٨٦ .

٢- ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص ١٣٦ ؛ أبو شامة ، المصدر السابق ، ص ٣٨٦ .

٣- ابن القلاطسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٤ ؛ ابن الأثير ، الباهر ، ص ٧٤ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٩٩- ١٠٠ .

٤- الأصفهاني ، البستان الجامع ، ص ١٣٨ ؛ ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية ، ص ١٧٣- ١٧٤ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٧ ، ص ١٦٢ .

غير أنه رفض^(١)، وعندما أدرك عدم جدوى الملاينة، سعى إلى حصارها بيد أنه عجز عن ذلك^(٢)، فعاد مرة أخرى للملاطفته وعوضه عنها بمناطق سروج وأعمالها ومنطقة الملاحه من أعمال حلب وباب بزاغة^(٣)، وهى مناطق ثرية بمواردها الزراعية، كذلك أسال لعبابه عندما وهبه عشرين ألف دينار وهكذا تمكن من الاستيلاء عليها عام ٥٦٤هـ / ١١٦٨م .

والملاحظ أن نور الدين محمود سعى إلى تسييس مسألة جعبر ، ولا أدل على ذلك من إنتظاره أكثر من عشرين عاماً من أجل أن يجعلها فى قبضته فى النهاية ، وطبيعى أن بما دفعه إلى الانتظار منعتها وحصانتها وقوة العقيليين ، وتقديمه لتلك العروض لشهاب الدين لا يخلو من دلالة، وهى رغبته الأكيدة فى الاستيلاء على جعبر طالما جنب قواته عناء الحصار دون طائل ، ويلاحظ أيضاً أن أسره لشهاب الدين يكرر نفس سياسة نور الدين تجاه كبار الأمراء الصليبيين عندما سعى إلى أسرهم ليثبت الفوضى والاضطراب فى إماراتهم على نحو يمهّد بسقوطها ، ويبدو أن نور الدين قد خرج من مسألة جعبر مكللاً بالنجاح أكثر من العقيليين، دليلنا على ذلك ، أن المناطق التى عرضها كبديل لجعبر لم تكن توجد بها قلاع تحميها^(٥)، وعد ذلك من جوانب الضعف فيها، ولاشك فى أنه لم يشأ أن يستبدل حصانة جعبر منطقة أخرى من قوة العقيليين على حساب دولته ، ولانغفل أن الملاحه وقعت بالقرب من حلب حيث قوة السلطة المركزية التى بإمكانها قمع حركات العقيليين المناوئة أكثر من ذى قبل.

أما الموصل ؛ فإن السياسة النورية اتبعت حيالها العديد من الأساليب، فهناك أسلوب التحالفات واصطناع الأتباع والعملاء ، وأيضاً الاتجاه الدبلوماسى عندما تعجز القوة العسكرية عن الحسم السياسى ، ويتطلب تناول الصراع حولها بحث تطور علاقات نور الدين

١- النويرى ، نهاية الأرب ، ص١٦٢ .

٢- ابن قاضى شهية، الكواكب الدرية ، ص١٣٤ ؛ النويرى، المصدر السابق، ص١٦٢ .

٣- الأصفهاني، البستان الجامع، ص١٣٨ ؛ ابن قاضى شهية ، المصدر السابق، ص١٧٤ ؛ ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ، م (٤) ، ج١ ، ص٤ ؛ النويرى، المصدر السابق، ج٢٧ ، ص١٦٢ .

٤- ابن الأثير ، الباهر ، ص١٣٦ .

٥- نفس المصدر ، ص١٣٦ .

محمود مع إخوته ، لاسيما أخيه الأكبر سيف الدين غازي^(١) (٥٤١ - ٥٤٤ هـ / ١١٤٤ - ١١٤٩ م)^(٢).

اتسمت العلاقات السياسية بين الجانبين بالتصارع والتنافس إذ اعتبر سيف الدين غازي نفسه الورث الشرعي لأملاك والده عماد الدين زنكي نظراً لأنه الابن الأكبر ، وأقرت التقاليد التركية أن تكون زعامة البيت الحاكم له^(٣) ، ورأى أن استيلاء نور الدين على حلب وجعلها مركزاً لدولته الناشئة يعد عصياناً وقرراً عليه^(٤) ، وربما تطلع إلى أن يكون خليفته خلال حياته^(٥) ، وطبيعي أن المناطق التي خضعت لسيطرته لم تكن تنافس ما سيطر عليها أخوه ، فشمال الشام من المحتمل أنه تفوق بتجارته المزدهرة على شمال العراق ، ومن ناحية نور الدين فإنه تطلع إلى ضم مناطق شمال العراق لاعتبارات تجارية واستراتيجية ، فهناك الرغبة في تأمين الطرق والخطوط بين الشام والعراق وتأمين القوافل التجارية بينهما والسيطرة على عائد المكوس الضخم ، كذلك فإن خط الموصل - حلب توافرت له أهمية استراتيجية بالغة^(٦) ، لقد كان الدفاع عن حلب يبدأ من الموصل ، وهكذا غدت المدينة الأخيرة من مراكز الدفاع عن شمال الشام وخط تراجع لنور الدين في حالة استيلاء الصليبيين على حلب .

١- عن ترجمته : ابن الأثير ، الباهر ، ص ٩٢- ص ٩٣ ؛ سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان، ج ٨ / ق ١ ، ص ٢٠٣- ص ٢٠٤ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ١١٦ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، ج ١ ، ص ١١٦ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٢٧- ص ٢٢٨ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٢٨٦ .

٢- ناصر النقشبندی ، الدينار الأتابكي، ص ٢٣٤ ، باقر الحسيني ، العملة الإسلامية في العهد الأتابكي، ص ٣٩ ، لين بول ، طبقات سلاطين الإسلام ، ت. طاهر مكي، ط. بغداد ١٩٦٨ م ، ص ١٥٢ .

٣- ابن الأثير ، المصدر السابق، ص ١٩٧ ، حاشية (٥) .

٤- تيسير موسى ، غزوات الافرنج ، ص ١٢٥ .

Gibb, The Career of Nur Al - Din , p. 514 .

-٥

٦- عن ذلك أنظر بالتفصيل هذه الدراسة المهمة: كمال بن مارس ، العلاقة بين الموصل وحلب وأثرها على الحروب الصليبية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة عين شمس عام ١٩٩١ م.

ويبدو أن قوى الجانبين توازنت على نحو خشى كل طرف الدخول في صراع حربي لحسم الأمر بينهما، وانتظر كل الفرصة لترجيح كفته وتمثل الحل الدبلوماسي المؤقت في اتفاق الخابور عام ٥٤١هـ / ١١٤٦م^(١). وفيه تم تحديد مناطق النفوذ بينهما، فشرق نهر الخابور لسيف الدين غازي، وغربه لنور الدين محمود، أي أن النهر المذكور صار الحد الفاصل بين مملكتيهما^(٢).

وتجدر الإشارة إلى أن ذلك الاتفاق وقع بعد إخفاق محاولة جوسلين الثاني كونت الرها استردادها عام ٥٤٢هـ / ١١٤٧م^(٣)، وفي خلال ذلك اخترقت القوات النورية مناطق نفوذ سيف الدين غازي دون استئذان من أجل مواجهة الأحداث العصبية في الرها؛ وتمكنت من فرض سيطرتها عليها على الرغم من أنها من أملاك سيف الدين ولم يعارض ذلك، لقد جاء ذلك التدخل العسكري من جانب نور الدين في مناطق أخيه بمثابة استعراض للقوة وفرصة سانحة لفرض سيطرته على تلك الإمارة الصليبية الحيوية التي وقعت على الطريق بين الشام والعراق.

ومن المحقق أن اتفاق الخابور قد حظى باحترام من الجانبين^(٤)، ولم يظهر أي طرف أطماعه في مناطق الآخر، على الأقل خلال السنوات الثلاث التي حكم فيها سيف الدين غازي الموصل.

١- ابن الأثير، الباهر، ص ٨٧-٨٨؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ١، ص ١١١؛ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨ / ق ١، ص ١٩٢؛ النويري، نهاية الأرب، ج ٢٧، ص ١٤٩-١٥٠، رشيد الجسيلي، دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي، ط. بغداد ١٩٧٠م، ص ٧١، عبد القادر اليوسف، علاقات بين الشرق والغرب، ط. صيدا ١٩٦٩م، ص ١١٢، فايد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، ط. بيروت ١٩٨٥م، ص ٢٠٨، تيسير بن موسى، غزوات الأفرنج، ص ١٢٦-١٢٧.

-٢

Stevenson, The Crusaders, p. 154.

-٣

William of Tyre, vol. II, p. 158.

سبط بن الجوزي، المصدر السابق، ج ٨ / ق ١، ص ١٩١؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٢، ص ٢٩٠؛ ابن خلدون، العبر، ج ٥، ص ٢٣٨؛ النويري، المصدر السابق، ج ٢٧، ص ١٥٢، Elisseeff, Nur Al- Din, T ١٥٢، ص ٢٧٧، Mayer, The Crusades, p. 110, Smail, The Crusaders, p. 20, II, pp. 396-401.

-٤

Stevenson, The Crusaders, p. 134.

رنسيमान، الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٣٩٣، فايد عاشور، المرجع السابق، ص ٢١٨، ويلاحظ أن الأخوين رغبا في إخبار الصليبيين بأخبار اتفاقهما لإعلامهم بعدم صراعات سياسية بينهما، أنظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج ١، ص ١١٢.

ويبدو أن مواجهة الأمور بعد اتفاق الخابور ، مثلت جانباً فعالاً من أدوار السياسة الخارجية النورية، إذ أنها هدفت إلى الحفاظ على العلاقات السياسية الوطيدة مع الموصل حتى تحين الفرصة المناسبة لضمها لحلب .

حرص نور الدين على إيجاد سبل للتعاون مع أخيه ضد الصليبيين ، ولاشك أنه احتاج إلى الدعم البشرى من شمال العراق سواء من العناصر الكردية أو التركية ولكى يستثمر طاقات أخيه الحربية ضد أعدائه وليس ضده شخصياً نجد أنه استعان بدعمه الحرسى لمواجهة الهجوم الصليبي على دمشق عام ٥٤٣هـ / ١١٤٨م خلال الحملة الصليبية الثانية^(١)، وكذلك عندما عمل على مهاجمة حصن العريمة فى ذات العام، وصحبه معين الدين أتر صاحب دمشق ، فقدم له سيف الدين غازى مساعداته اللازمة^(٢).

كذلك سعى نور الدين إلى الحفاظ على علاقات ودية مع أخيه^(٣)، من خلال إرسال قسم من الغنائم والأسرى الصليبيين له مثلما حدث بعد إنتصاره على إمارة أنطاكية فى معركة يغرى عام ٥٤٣هـ / ١١٤٨م^(٤)، غير أن سيف الدين لم يدم عهده طويلاً إذ سرعان ما أدركته منيته عام ٥٤٤هـ / ١١٤٩م^(٥). فذهب بذلك خصم قوى لنور الدين ، وجاء رحيله مؤثراً على زيادة التدخل النورى فى شمال العراق ، وساعده على ذلك أن طموحاته الجنوبية نحو دمشق لم تكن اتسعت على نحو يشغله عن الجبهة العراقية .

١- الديوجى، الموصل فى العهد الأتابكى، ص ٢٩ .

٢- النورى، نهاية الأرب، ج٢٧، ص ١٥٣ .

٣- فتحة النبروى ، العلاقات السياسية الإسلامية ، ص ١٨٥ .

٤- النورى ، نهاية الأرب، ج٢٧، ص ١٢٤ ، حسين عطية ، إمارة أنطاكية الصليبية ، رسالة ماجستير

غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة الاسكندرية لعام ١٩٨١م ، ص ٢٣٣ .

٥- العماد الأصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٠٧ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٣ ،

ص ١٧٧ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١١٦ ؛ ابن قاضى شهاب ، الكواكب الدرية ، ص ١٣١ ؛ ابن

أبيك الدوادراى ، الدرة المضيئة ، ص ٥٥٨ ؛ ابن الشحنة ، روضة المناظر ، ص ٢٢٥ .

وبعد وفاته تولى حكم الموصل وغيرها من أملاكه أخوه قطب الدين مودود^(١) (٥٤٤-٥٦٥هـ / ١١٦٩-١١٤٩م)^(٢)، ومن جديد ثارت مطامع نور الدين التوسعية ومعها عادت مشاكل الحدود تظهر من جديد، واتجه إلى الاستيلاء على سنجار^(٣)، الواقعة على الحدود العراقية الشامية، ويبدو أن الهدف من الاستيلاء عليها هو إكمال سيطرته على أملاكه، بما فيها حمص التي كانت في حوزة سيف الدين غازي، واستغل نور الدين اجتياح قواته لسنجار لاتخاذها ورقة رابحة للمساومة بها على حمص، والدليل على أن سنجار لم تكن هدفاً مستمراً له بل للمساومة فقط أنها لم تكن ذات فائدة كبيرة له بالمقارنة بـحمص^(٤)، حيث وقعت جنوب منطقة الخطوط التجارية بين حلب والموصل وفي منطقة جبلية، أما حمص فإلى جانب أهميتها التجارية ووقوعها في قلب الدولة النورية، فإنها وقعت على خطوط التجارة بينها وبين حلب في الشمال، ويبدو أن اتجاه نور الدين للاستيلاء عليها يرجع إلى أنها أول منطقة بعد نهر الخابور الذي كان حيداً فاصلاً بين أملاكه وأملاك سيف الدين غازي من قبل، وقد حدث بالفعل ما خطط له حيث تفاوض الطرفان واصطلحا^(٥)، وتم الاتفاق على أن يسلم نور الدين سنجار إلى قطب الدين ويسلم الأخير حمص له^(٦)، وربما أعان نور الدين في تنفيذ أهدافه

١- عن ترجمته أنظر :

سبط بن الجوزي مرآة الزمان، ج٨ / ١ ق ١، ص ٢٨١؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص ١٨٩-١٩٠؛ ابن الوردي، تمة المختصر، ص ٧٨؛ الذهبي، العبر، ج٤، ص ١٩١.

٢- باقر الحسيني، العملة الإسلامية في العهد الأتابكي، ص ٤١، ناصر النقشبندی، الدينار الأتابكي، ص ٢٣٥.

٣- ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٠٧؛ ابن واصل، المصدر السابق، ج١، ص ١١٨-١١٩.

٤- ابن واصل، المصدر السابق، ص ١٢٠؛ ابن قاضي شهبه، الكواكب الدرية، ص ١٣٤، وقد ذكر الوزير جمال الدين وزير قطب الدين ما نصه «لنا بالشام حمص وله (أي نور الدين) عندنا سنجار وهذه أنفع لنا من تلك وتلك أنفع له من هذه والرأي تسليم حمص وأخذ سنجار».

٥- ابن العبري، المصدر السابق، ص ٢٠٧.

٦- نفسه، نفس المصدر والصفحة؛ ابن واصل، المصدر السابق، ج١، ص ١٢٠، ابن العديم، زبدة الحلب، ج٢، ص ٢٩٧-٢٩٨، فايد عاشور، جهاد المسلمين، ص ٢١٧، شاکر أبویدر، الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص ٢٤٤. Stevenson, The Crusaders, p. 166.

شخصية أخيه الذي وصف بأنه «لين الجانب»^(١)، ثم دعم أمراء الموصل وما جاورها من أعمال له^(٢).

ثم دخلت العلاقات بين حلب الموصل في مرحلة سلمية متعاونة ، ومن ملامح تحسن العلاقات بينهما ، أن نور الدين عندما وقع فريسة المرض عام ٥٥٤هـ / ١١٥٩م ، في وقت خشي فيه مخاطر التدخل العسكرى الصليبي استغلالاً للموقف ، أوصى بأن يكون قطب الدين مودود خليفته في حكم الدولة النورية^(٣) ، أما التعاون العسكرى بينهما فنجد صورته في اشتراك قطب الدين في معركة حارم عام ٥٥٩هـ / ١١٦٤م^(٤) ، وفي الإغارة على أعمال حصن الأكراد التابع لإمارة طرابلس الصليبية ، ومحاصرة عرقه والسيطرة على جبلة والعريمة وصافينا ومهاجمته هونين عام ٥٦٢هـ / ١١٦٦م^(٥) ، واستمرت العلاقات على هذا النحو حتى وفاة قطب الدين في عام ٥٦٥هـ / ١١٦٩م^(٦).

وتعد وفاة قطب الدين مودود بمثابة الحافز لنور الدين للتدخل العسكرى في الموصل ، وحسم الصراع لصالح حلب وتعيين من يقدم له الولاء ، وفي ذلك الحين تولى الحكم فيها سيف

١- سبط الجوزي ، مرآة الزمان ، ج٨ / ١ ق ، ص ٢٠٤ .

٢- عصام الدين عبد الرؤف ، بلاد الجزيرة ، ص ٩٧ .

٣- الديرجي ، تاريخ الموصل ، ج١ ، ص ٢٨٩ ، شاكراً أبو بدر ، الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ، ص ٢٢٥ ، محمد أحمد حسين ، أسامة بن منقذ صفحة من تاريخ الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٤٦م ، ص ٧٢ . Stevenson The Crusaders, 180 .

٤- ابن عساكر ، ترجمة محمود بن زنكى ، ص ١٣٨ ؛ ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٢٣ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ص ٣٤٠ ؛ النويري ، نهاية الأرب ، الديوجي ، المرجع السابق ، ص ٣٩٠ ، عبد القادر طليعات ، مظفر الدين كوكبورى ، ص ٣٧ .

٥- ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٣٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٣٢ ؛ أبو شامة ، المصدر السابق ، ص ٣٦٨ ؛ الذهبي ، دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ٧٥ .

٦- ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢١٣ ؛ ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ١٤٣-١٤٤ ؛ ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية ، ص ١٨٩ ، فيصل السامر ، ابن الأثير ، ط. بغداد ، ١٩٨٦م ، ص ٢٦ ، Gibb, The Career of Nur Al- Din , p. 526 .

الدين بن غازي بن قطب الدين مودود (٥٦٤ - ٥٧٢هـ / ١١٦٨ - ١١٧٦م^(١))، والذي خضع لسيطرة الوزير فخر الدين بن عبد المسيح^(٢)، ووجد نور الدين ذريعة للتدخل لتحقيق أطماعه في صورة سياسة عبد المسيح الخرقاء وكرهية الأهلين له. ويلاحظ هنا أن المؤرخين الرسميين يحرصون على التركيز على سوء أوضاع الموصل لتقديم المبرر السياسي للتدخل النوري، على الرغم من أنها تعد مسألة داخلية، ولم يكن له أن يقحم نفسه في أوضاع شمال العراق إلا إذا توافرت لديه الرغبة والأطماع المبيتة لذلك.

وسرعان ما أخذت الأحداث في الموصل تجري لاهثة، فحدث صراع على السلطة ووراثته العرش، إذ أن قطب الدين أوصى لابنه الأكبر عماد الدين زنكي الثاني ثم غير الأمر وجعله لابنه سيف الدين غازي، وذلك بضغط من ابن عبد المسيح الذي خشى من تعيين عماد الدين لأنه كان تابعاً لنور الدين^(٣)، إذ تربى في كنفه، وتم الاتفاق بين الوزير والدة سيف الدين على إبعاد عماد الدين عن الحكم وقصر الأمر على ابنها، وأمام ذلك سارع عماد الدين بالفرار إلى نور الدين محمود مستصرحاً^(٤)، وقد اهتبل الأخير الفرصة السانحة للتدخل العسكري في الموصل وحسم الأمر لصالحه، فعبر بقواته نهر الفرات عام ٥٦٦هـ / ١١٧٠م واستولى على الرقة، والخابور، ونصيبين^(٥)، وألقت قواته عندها بعناصر أرتقية^(٦)، وضم إليه سنجار^(٧)،

١- ناصر النقشبندی، الدينار الأتابكي، ص ٢٣٧.

٢- ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢١٣.

٣- نفسه، نفس المصدر والصفحة.

٤- نفسه، نفس المصدر والصفحة، ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٢، ص ٣٣١ - ص ٣٣٢؛ أبو شامة، الروضتين، ج ١ / ق ٢، ص ٤٧٢، الديوجي، الموصل في العهد الأتابكي، ص ٣٠، عاشور الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٧١٦.

٥- ابن العبري، المصدر السابق، ص ٢٦٤. Gibb, The Career of Nur Al- Din, p. 526 وعصام الدين عبد الرؤف، بلاد الجزيرة، ص ٩٧.

٦- Ibid, p. 526.

٧- ابن العبري، المصدر السابق، ص ٢٦٤، ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٥٧.

وعين عماد الدين زنكى الثانى عليها^(١)، ثم استولى على الموصل فى ١٣ جمادى الأول عام ٥٦٦هـ / ٢٢ يناير عام ١١٧٠م^(٢)، محققاً بذلك أحد أهم انتصاراته العسكرية والسياسية ضد خصومه المسلمين، وأدى ذلك إلى حسم «المسألة الموصلية» لصالحه ولم يعد يخشى خطرهما^(٣). وصارت مدن الموصل - حلب - دمشق تمثل مثلثاً بالغ الأهمية على المستوى التجارى والاستراتيجى العسكرى بصورة أكبر من ذى قبل، بخضوعها لقوة سياسية واحدة ممثلة فى الدولة النورية.

عين نور الدين على الموصل سيف الدين غازى وجعل من الأمير سعد الدين كمشتكين نائباً عليها، وبديهي أن الهدف من ذلك جعل سيف الدين مجرد أداة طيعة منفذة لإرادة رجل نور الدين فى الموصل، ونعنى به كمشتكين ولم يجعلها لعماد الدين زنكى، وربما اعتقد أن سيف الدين سيكون أسلس قياداً وألين جانباً، بعد إبعاد الوزير فخر الدين بن عبد المسيح وبعد فرض كمشتكين كرقيب عليه.

وهناك من يرى أن التدخل النورى فى الموصل رجع إلى استبداد فخر الدين بن عبد المسيح^(٤)، غير أن ذلك لم يكن الدافع الحقيقى إذ أنه شكل ذريعة فقط للقيام بالمشروع القديم للسيطرة على طريق الموصل - حلب التجارى والاستراتيجى الحيوى.

ومن الملاحظ أن نجاح السياسة الخارجية النورية فى ضم الموصل ساهمت فيه الظروف الدولية المحيطة، فعلى الجبهة الجنوبية الغربية توطد نفوذ صلاح الدين الأيوبي فى مصر الفاطمية على نحو جعل سقوط خلافة الفاطميين أمراً قريباً، وفى اتجاه الإمارات الصليبية

١- ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٤٤.

٢- ابن الأثير، الكامل، ص ١٤٦- ١٤٧؛ سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، ج ٨ / ١ ق، ص ٢٨٢؛ ابن تضرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٣٨٣، عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٧١٦، الديوجى، الموصل فى العهد الأتابكى، ص ٣٣، تاريخ الموصل، ج ١، ص ٢٩٣.

Cahen, La Syrie du nord à l'époque de croisades, Paris 1940, p. 413.

٣- عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس، ص ١٥٢.

٤- عصام الدين عبد الرؤف، بلاد الجزيرة، ص ٩٧.

ومملكة بيت المقدس لم يشهد عام ٥٦٦هـ / ١١٧٠م أية تطورات عسكرية خطيرة فيها ومن ثم فإن نجاح نور الدين في مصر ؛ جعل الخلافة العباسية- مصدر الشرعية السياسية- تقبل سياسته الجديدة في شمال العراق .

وفى شمال الدولة النورية وجدت سياستها الخارجية ميداناً خصباً فى صورة العلاقات مع سلاجقة قونية فى الأناضول ، ويلاحظ أن ذلك الميدان شهد صداماً من أعنف ما خاضت غماره الدولة النورية مع القوى الإسلامية المجاورة .

فعلى أثر صراع وقع بين ذى النون بن دانشمند^(١) ، أمير ملطية وسيواس وغيرها وبين الملك عز الدين قلع أرسلان السلجوقى ، هرع الأول نحو نور الدين محمود طالباً عونهُ الحربى ضد خصمه^(٢) ، وهذه هى المرة الثالثة التى تطلب فيها قوة سياسية مسلمة منه التدخل لصالحها ، فمن قبل طلب ذلك شاور ثم عماد الدين زنكى الثانى ودل ذلك على سطوة الدولة النورية وقدراتها العسكرية على التغيير السياسى فى المنطقة ، وطبيعى أن نور الدين اغتنم الفرصة للتدخل العسكرى ، لكسب مناطق جديدة على حساب سلاجقة الروم، أو للمساومة السياسية بها .

بدأت الدولة النورية مواجهة الموقف بمحاولة الوساطة بين الطرفين المتنازعين إلا أن قلع أرسلان رفض ذلك^(٣) ، وما أن أخفق الاتجاه السلمى ؛ حتى تقدمت القوات النورية فاستولت على العديد من المدن ، مثل بهنسا ، ومرعش ، ومرزبان ، وعدة حصون^(٤) أخرى

١- عن الدانشمنديين وأصلهم أنظر :

على صالح المحميد ، الدانشمنديون وجهادهم فى بلاد الأناضول ، ط. الاسكندرية ، ١٩٩٤م ، ص١٦- ص٣٥ .

٢- ابن الأثير ، الكامل ، ج١١ ، ص١٥٨ ؛ أبو شامة ، المصدر السابق ، ص٥٤٤ ؛ ابن قاضى شهاب ، الكواكب الدرية ، ص٢١٧ .

٣- ابن قاضى شهاب ، الكواكب الدرية ، ص٢١٧ .

٤- أبو شامة ، الروضتين ، ص٥٤٤ ؛ ابن قاضى شهاب ، الكواكب الدرية ، ص٢١٧ .

بالإضافة إلى عن سيواس^(١) ، وذلك عام ٥٦٨هـ / ١١٧٢م^(٢).

وحاول البعض سقوط موجة سلطان قونية على أنها براعة من الجيش النورى أن يحدث ذلك بمثل تلك السرعة، غير أن تعليل الموقف نجده فى المصادر اللاتينية إذ يقرر وليم الصورى أن السلطان السلجوقى كان بعيداً عن تلك المدن على نحو أفقده مواجهة الموقف عن كثب وأفقدتها الاتصال معاً لمواجهة القوات الغازية^(٣).

١- ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص ٢٧١ .

٢- تجمع غالبية المصادر على أن تلك الأحداث وقعت عام ٥٦٨هـ / ١١٧٢م أنظر : ابن الأثير ، الكامل، ج١١ ، ص ١٥٨ ؛ الباهر ، ص ١٦٠ ؛ أبو شامة المصدر السابق ، ص ٥٤٢- ٥٤٤ ؛ ابن العديم ، زبدة الخلب، ج٢ ، ص ٣٣٧- ٣٣٨ ، ويذكر ابن تغرى بردى، أن ذلك وقع عام ٥٥٨هـ / ١١٦٢م غير أن تحديده يعد مبكراً ، ففى عام ٥٥٨هـ / ١١٦٤م انشغل نور الدين بالصراع مع إمارة أنطاكية ، ولم يكن من الممكن أن ينجح بنفسه فى صراع آخر ضد سلاجقة الروم .

ويتجه جب إلى القول بأن ذلك وقع بعد الاستيلاء على بعلبك بوقت قصير ومن المعروف أن سقوط بعلبك تم عام ٥٥٢هـ / ١١٥٧م، أنظر :

Gibb, The Career Nur Al- Din , p. 520 .

غير أن العلاقات بين الجانبين كانت حينذاك هادئة ولم يقع الصدام بينهما إلا بعد ذلك التاريخ بوقت طويل ومن الواضح أن نور الدين فى عام ٥٥٢هـ / ١١٥٧م كان قد مر عليه ثلاث سنوات فقط بعد استيلائه على دمشق وازدياد قوته بها ومن غير المنطقى أن يسعى إلى خوض ميدان جديد خارج نطاق دولته بعد تلك السنوات القليلة ثم أنه انشغل بالصراع مع مملكة بيت المقدس ووقعت أحداث معركة بانياس فى العام المذكور ويتجه الباحث عاطف مرقص إلى القول بأن نور الدين اصطدم مع قلع أرسلان وإن الأخير سعى إلى عقد معاهدة صلح مع أمير أنطاكية وتورس الأرمينى عام ٥٥٢هـ / ١١٥٧م حتى يتفرغ لنور الدين أنظر : عاطف مرقص الأرمن وعلاقاتهم بالبيزنطيين والمسلمين ١٠٧١- ١١٧١م، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب جامعة عين شمس لعام ١٩٨٦م ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢ ، غير أنه أمام إجماع غالبية المصادر العربية على توقيت أحداث الصدام سلطان قونية ليس من اليسير قبول ذلك الرأى ، ويدعم عاشور ما ذهبت إليه حيث جعل الصراع فى عام ١١٧٢ - ١١٧٣م ، أنظر : عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ٧٢١ .

William of Tyre, vol . II , p. 282 .

إن تلك المدن التى سقطت فى قبضة الجيش الغازى ارتبط أغلبها بنشاط تجارى مع حلب فى شمال الشام، وربما طمع نور الدين فى استمرار سيطرته عليها من أجل تأمين طرق التجارة بين دولته والإمبراطورية البيزنطية عبر مناطق سيطرة دولة سلاجقة الروم، أو من أجل استخدام تواجده العسكرى كأداة للضغط السياسى على دولتهم لإملاء شروطه مثلما حدث من قبل عندما سيطر على سنجار فى صراعه مع الموصل .

وإزاء إخفاق سلاجقة الروم فى مواجهة الموقف اتجه قلعج أرسلان إلى التحالف مع توروس الأرمني وريشو صاحب أنطاكية ^(١)، غير أن ذلك لم يجديه فتيلاً ، وبذل نور الدين كل طاقته من أجل مواجهة سلطان قونية، فحشد له القوات من كافة أنحاء دولته ^(٢)، واستغرقت العمليات الحربية ما يزيد على الثلاثة شهور ^(٣)، وبديهي أنه علق على تلك الحملة آمالاً كبيراً، على النحو الذى جعله يجهز لها أفضل تجهيز ويتغيب عن بلاد الشام - معقله الرئيسى وقلب دولته - طوال تلك الأشهر، ويبدو أنه اضطر إلى الاستمرار فى الصراع مع سلطان قونية على الرغم من غيابه عن الشام ومهاجمة الصليبيين لأملاكه عند دمشق ، إذ أنه أراد أن يحسم الموقف ويصل إلى حل عسكرى أو سياسى بدلاً من الرجوع يخفى حنين .

وأمام تلك الأحداث أسقط الأمر من يد قلعج أرسلان فسعى نحو المهادنة ^(٤)، وحيث إن الإغارات الصليبية فى الجنوب اقضت مضجع نور الدين فإنه قبل الصلح أيضاً - بل ومن

١- Gibb, The Career of Nur Al - Din , p. 520 .

٢- William of Tyre, vol . II , p. 282 .

٣- دليلنا على أن الحملة استمرت أكثر من ثلاثة أشهر أن بلدوين الثالث عندما هاجم دمشق أثناء غياب نور الدين، اتفق مع نجم الدين أيوب الذى حكم دمشق نيابة عن سيده على هدنة قصيرة مدتها ثلاثة أشهر، يدفع المسلمون بمقتضاها فدية من المال للصليبيين ، وعندما لم يعد نور الدين خلال تلك المدة، ولم يتمكن نجم الدين من دفع ما التزم به، عاود الملك الصليبي هجماته التخريبية على المناطق المجاورة للمدينة، عن ذلك انظر :

William of Tyre , vol . II , p. 282-283 .

٤- ابن قاضى شهاب ، الكواكب الدرية، ص ٢١٧ .

المحتمل أنه سعى إليه- وأهم ما احتواه الاتفاق من شروط أن يقدم قلع أرسلان عناصر من قواته لمساعدة نور الدين في عملياته الحربية ضد الصليبيين^(١)، وأن يزوج ابنته لسيف الدين غازي بن قطب الدين مودود^(٢).

طبيعي أن نلاحظ أن الهدف من الشرط الأول لم يكن في الحقيقة المساهمة في قتال الصليبيين بصورة جوهرية، إذ أن قلع أرسلان لم يدعم نور الدين بقوات ضخمة وأما الهدف تمثل في تقديم الولاء السياسي للدولة النورية وإقرار التبعية لها، أما الشرط الثاني فالتقصّد منه المصاهرة السياسية لضمان إيجاد المصالح المشتركة .

ويبدو أن نور الدين حرص على تنفيذ الاتفاق السابق دون إخلال ودليلنا على ذلك أنه ترك أعداداً من قواته في سيواس- وهي إحدى المدن المهمة في مناطق قلع أرسلان - مع فخر الدين بن عبد المسيح في خدمة ابن الدانشمند غير أن الشرطين المذكورين -على ما يبدو- ولم يكتب لهما الدوام ؛ فعندما قضى نور الدين نحبه عام ٥٦٩هـ / ٧٣ - ١١٧٤م «رحل العسكر عنها»^(٣) وعاد سلطان قونية يفرض سيطرته عليها من جديد .

وبعد الصراع مع سلاجقة الروم من أكبر العمليات العسكرية التي خاض غمارها نور الدين ضد القوى الإسلامية المجاورة وكلفه ذلك الكثير من خزائن الدولة وأبعده عن بلاد الشام عدة أشهر ، على نحو زاد من مطامع الصليبيين في أملاكه ويبدو أن الحملة لم تحقق أهدافها المرجوة أو أن ما حققته لم يدم أكثر من عام واحد ، وحق لنا بالتالي أن نعتبر جبهة قونية أكثر جبهات السياسة الخارجية النورية إخفاقاً وإفلاساً بالمقارنة بالإنجازات المحققة في الجبهات الأخرى .

إن العرض السابق للسياسة الخارجية النورية تجاه القوى الإسلامية المحلية في بلاد الشام والجزيرة يدل واضحة على أن دوافعها قمت في السيطرة على المناطق ذات الأهمية الاقتصادية لاسيما التجارية والصناعية وكذلك الاستراتيجية الحربية وأنها هدفت إلى أن

١- أبو شامة ، الروضتين ، ج١ / ٢ ق ، ص ٥٤٤ .

٢- نفسه ، نفس المصدر والصفحة .

٣- ابن قاضي شهاب ، الكواكب الدرية ، ص ٢١٨ .

تكون العلاقة مع تلك القوى علاقة تبعية وولاء وتحالف سياسى يؤتى بشماره لصالحها، ومن ثم لانقبل ما ذهب إليه البعض فى القول بأن العلاقات اتجهت نحو المصادقة ^(١)، إذ أن الحروب التى خاض الجيش النورى غمارها فى كافة الاتجاهات والمحاور دلت على الرغبة فى فرض السيطرة السياسية ولم تكن قضية صداقة بل تبعية مفروضة إذا لم تقبل القوى الأخرى ذلك بصورة سلمية .

كان ذلك عرض للعلاقات بين الدولة السورية والقوى المحلية الإسلامية فى بلاد الشام والجزيرة .

تلك كانت دراستنا لتوجهات السياسة الخارجية السورية نحو القوى الإسلامية فى بلاد الشام والجزيرة والأناضول، أما علاقاتها مع القوى المسيحية فيتصدى لها الباب التالى ونبدأه بالعلاقات مع مملكة بيت المقدس الصليبية

١- حسين مؤنس ، صور من البطولة ، ص ١٧٠ .

الباب الثانى

سياسة الدولة النورية تجاه
القوى المسيحية

الفصل الرابع

العلاقات مع مملكة بيت المقدس الصليبية

مثلت مملكة بيت المقدس الصليبية العدو الرئيسى للدولة النورية ، وعاصر حكم نور الدين محمود عهد اثنين من كبار الملوك الصليبيين هما بلدوين الثالث وعمورى الأول، وحرصت الدولة النورية على مواجهة المملكة الصليبية بكافة الوسائل الممكنة، سواء الحربية أو بالطرق السلمية من خلال عقد الهدنات ووجهتها إلى الأسلوب السلمى بعض الدوافع الهامة على المستويين الاقتصادى والعسكرى .

ويلاحظ أن سياسة نور الدين تجاه المملكة الصليبية لم تحاول اسقاطها ، بل حاولت أن تتوازن عسكرياً معها ، على اعتبار أن التوازن فى حد ذاته يمثل مقدمة لمرحلة تالية من شأنها حسم الصراع لصالح المسلمين على حساب الصليبيين .

ومن الأهمية بكان دراسة أوضاع مملكة بيت المقدس عندما عاصرتها الدولة النورية وأثر ذلك على علاقاتها الخارجية .

عاصر عهد الدولة النورية اثنان من أقوى ملوك بيت المقدس ، بلدوين الثالث Baldwin III ٥٣٩ - ٥٥٧ هـ / ١١٤٤ - ١١٦٢ م ، وعمورى الأول Amaury ٥٥٧ - ٥٥٨ هـ / ١١٦٢ - ١١٧٤ م، ويعد بلدوين الثالث أول الملوك الصليبيين الذين ولدوا على أرض المملكة وقد سيطرت عليه والدته ميلزندا ، وتمكن من توسيع حدود المملكة وأمكنه الاستيلاء على عسقلان عام ١١٥٣ هـ / ١١٥٣ م، وأمن بالتالى حدوده الجنوبية ، كذلك عمل على تشييد عدة قلاع وحصون من أجل تدعيم مناطق سيادته فى مواجهة أعدائه المسلمين وأيضاً سعى إلى حماية إمارتى طرابلس وأنطاكية من خطر الفوضى الداخلية^(١) ، والأخطار الخارجية وهدف إلى كسب عون الإمبراطورية البيزنطية لتساعده فى مواجهة الأحداث فى شمال الشام .

١- عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ٦٤٧ .

وعن بلدوين الثالث وسياسته الخارجية أنظر :

عبد اللطيف عبد الهادى، السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس الصليبية فى عهد بلدوين الثالث (١١٤٦-١١٦٣م) رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة عين شمس عام ١٩٩٠م.

أما الملك عمورى الأول فإنه أراد توسيع حدود المملكة هو الآخر وعمل على غزو مصر وإخضاعها لسيطرته دون جدوى ، وسعى إلى طلب العون البيزنطى فى مشاريعه التوسعية خاصة ضد مصر .

وقد توجهت السياسة الخارجية النورية تجاه المملكة اللاتينية من خلال جملة دوافع دينية واقتصادية وسياسية وعسكرية .

ومن الطبيعى أن نقرر أن الدوافع الدينية احتلت مكانة بارزة من بين الدوافع المحركة للسياسة الخارجية النورية تجاه مملكة بيت المقدس الصليبية، ولاشك فى أن تلك المرحلة من الصراع الإسلامى الصليبيى قتل إحدى صفحات حركة الجهاد الإسلامى حينذاك ، ويلاحظ أن المؤرخين المعاصرين : تفيض كتاباتهم بالحديث عن طابع الجهاد الواضح فى حروب نور الدين ضد الصليبيين ، وقد أوضحوا الطابع الدينى لشخصيته وشاركهم فى تعميق ذلك الاتجاه ابن الأثير وامتد الأمر إلى المؤرخين المتأخرين واعتبروه من العناصر المتصوفة^(١).

والواقع أن نور الدين محمود جاهد ضد الصليبيين وأن روح المrapطة ظهرت جلية فى عصره من خلال ميله الشخصى للجهاد^(٢)، وقد رأى فى نفسه المدافع الرئيسى عن الإسلام وواصل الحرب على أساس دينى^(٣)، مع عدم إغفال أهمية الدوافع الأخرى بطبيعة الحال .

١- عن الجانب الدينى فى شخصية نور الدين محمود أنظر :

الوهرانى ، منامات الوهرانى، ص ١٤ ، ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٦٤ ، الهروى، الإشارات إلى معرفة الزيارات ، تحقيق جاكين سورديل ، ط. دمشق ١٩٥٣م، ص ١٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب، ج ٢ ، ص ٣١٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٤٤ ، العماد الأصفهاني ، سنا البرق الشامى ، ص ٣٢ ، الديار بكرى ، الخميس ، ج ٢ ، ص ٣٦٥ ، اليافعى، مرآة الحنان، ج ٣ ، ص ٣٨٧ .

٢- سالم ، طرابلس الشام، ص ٢٤٩ ، حبشى، نور الدين والصليبيون ، ص ١٠٠ ، كلود كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ت. بدر الدين قاسم ، ط. بيروت ١٩٧٣م، ص ٣٦٢ .

٣- Stevenson , The Crusaders, p. 155 .

ومع ذلك فقد وجد بعض الباحثين لاسيما من الغربيين من أنكر ذلك الاتجاه لأسباب استشراقية تعصبية لاتخفى على أحد ، وفى مقدمتهم المؤرخ الأمريكى جون لامونت الذى أنكر الطابع الدينى لحروب نور الدين محمود ، وفضل الأخذ بالدوافع السياسية ، ورأى أنه لم يكن مهتما بالحروب الدينية اهتماماً خاصاً وأنه حارب الصليبيين على أساس أنهم وجدوا فى مجال توسعه الطبيعى^(١) ، وأن رغبته فى توسيع رقعة مملكته فى الاتجاه الوحيد الممكن هى التى أملت عليه السياسة التى اتبعها فى علاقاته مع جيرانه اللاتين ، ويذكر أنه لم يكن للدين دخل فى ذلك وأن مراجعة أعماله الحربية توضح أن دافعه الرئيسى كان سياسياً^(٢) .

والواقع أن الرغبة فى القضاء على فكرة الجهاد الإسلامى التى ازدهرت فى مرحلة الحروب الصليبية كان أحد الأهداف الأساسية للمستشرقين الذين تناولوا بالدراسة تلك المرحلة ، وذلك من أجل القضاء على النماذج التاريخية للفكرة ذاتها ، واقتلاعها من أساسها ، خاصة أنها فكرة محورية فى الإسلام .

ومن ناحية أخرى ؛ فإن المصادر التاريخية المعاصرة - كما أوضحت سلفاً - أكدت على الطابع الدينى لشخصية نور الدين محمود وبصورة ليس من اليسير إنكارها ، ولانزع فى أن قائداً له مثل تلك المقومات الشخصية ، من الممكن أن تكون سياسته تجاه مملكة بيت المقدس حركتها دوافع دينية مع وجود دوافع أخرى بطبيعة الحال ، وشكلت كافة تلك الدوافع مجتمعة تحركات السياسة الخارجية للدولة النورية تجاه الكيان الصليبي فى بلاد الشام بصفة عامة .

وتبقى هناك بعض الدوافع الأخرى التى تأتى فى المرتبة الثانية وهى الدوافع الاقتصادية والسياسية والعسكرية ، أما الدوافع الاقتصادية فنجدها ماثلة من خلال طبيعة الموقع الجغرافى لكل من الدولة النورية ومملكة بيت المقدس الصليبية ، إذ وصفت الأولى بأنها دولة داخلية حبيسة دون نطاق ساحلى والمنافذ البحرية على امتداد الساحل الشامى ثم إخضاعها للسيادة الصليبية حيث أدرك الصليبيون أهميتها الكبيرة لاستمرار اتصالهم بأوروبا وحصولهم على الدعم البشرى والمالى والمعنوى وكان تصرف قسم مهم من تجارة الدولة النورية يتم من خلال موانئ شرق البحر المتوسط الصليبية ، كذلك أرادت تلك الدولة الحفاظ على سلامة الطرق

١- لامونت ، الحروب الصليبية والجهاد ، ص ١١٤ .

٢- نفسه ، نفس المرجع والصفحة .

التجارية بين دمشق ذات الأهمية التجارية ومنطقة الجليل الأعلى فى شمال فلسطين بوصفها حلقة وصول إلى الساحل الشامى البالغ الحيوية^(١).

وعلى الصعيد السياسى ؛ مثل الصراع مع تلك المملكة أهمية خاصة للدولة النورية، ولانزاع فى أن مواصلة الصراع الحربى معها كان ضروريا ؛ من أجل أن يقوم نور الدين محمود بدوره فى مجاهدة الكفار ومثل هذا واجبا شرعيا ضروريا لدعم حكمه وتوفير الاستقرار السياسى له وعدم قدرة المعارضة على كسب أعوان لها طالما أنه يقوم بتأكيد هذا الدور الشرعى الحيوى، أضف إلى ذلك ؛ أن الدولة النورية بعد نجاحها فى توحيد بلاد الشام والجزيرة بقبضة واحدة مثلت مملكة بيت المقدس منافسا سياسيا خطيرا لها، فإذا أضفنا إلى ذلك أن ذلك المنافس كان كيانا دخيلا وافدا على المنطقة ولايملك وجوده أصلاً أدركنا حتمية الصراع بين الطرفين لكافة الدوافع السابقة سواء الدينية أو السياسية أو الاقتصادية .

أما بالنسبة للدوافع العسكرية ؛ فقد أدركت الدولة النورية أن تجهيز الجيوش ضد مملكة بيت المقدس الصليبية خير وسيلة من أجل تحقيق باقى الدوافع السابقة ، وكانت هناك صلة وثيقة بين آلة الحرب للدولة النورية وتحركاتها السياسية ، وقد حرصت الدولة النورية على الاستيلاء على عدد من القلاع والحصون الاستراتيجية من أجل إضعاف فعاليات المملكة الصليبية عسكريا ولتأمين حدود الدولة النورية ، ولإيجاد توازن عسكري مع المملكة الصليبية يتطور مستقبلا إلى ما هو أبعد من هذا ونعنى به التفوق العسكري على الوجود الصليبي وهو ما تحقق فى عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي .

وتعد المشكلة الخورانية من أهم الأحداث السياسية التى جعلت نور الدين محمود يواجه بدعمه العسكري مملكة بيت المقدس ومطامعها فى دمشق ؛ إذ قرء الأمير الأرميني الأصل التونتاش^(٢)، وهو غلام أمين الدولة كمشتكين التركى والذى تولى حكم بصرى ،

١- ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٥٣ .

٢- ورد اسم التونتاش لدى ابن القلاسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٥٧ ، التينتاش عند ابن واصل، مفرج الكروب ، ج١ ، ص ١٢٩ ، والتون طاش من جانب ابن أبيك الدودارى المضيفة ، ص ٥٦٩ . وأفضل الصورة التى ورد عليها الاسم لدى ابن القلاسى المعاصر للأحداث بالإضافة إلى صلته بديوان الإنشاء .

٣- أبو شامة ، الروضتين ، ج١ / ١ ق ، ص ١٣٠ .

وصرخد^(١) - تمرد على سيده معين الدين انر أتابك دمشق^(٢) ، ولم تلبث الأحداث أن تطورت مسرعة في عام ٥٤٢هـ / ١١٤٧م^(٣) ، إذ أدرك التونتاش عدم وجود قوة مسلحة تعاونه على تمرده على سيده فلجأ إلى الصليبيين . في عهد الملك بلدوين الثالث ووالدته الوصية على العرش ميلزنذا ، طالباً منهم العون الحربي . وأن يستولوا على بصرى وصرخد في حالة تدخلهم العسكري في مقابل أن يكون سيداً على إقليم حوران^(٤) .

وربما شجعه على ذلك وفاة الملك الصليبي فولك الخامس وانتهاء سياسته الدفاعية ومجئ بلدوين الثالث - الملك الشاب الطموح - إلى حكم المملكة^(٥) ، وقد توافرت دوافع حيوية دفعت

١- بعدت بصرى مسافة ١٤١ كم . م عن دمشق وعدت قسبة إقليم حوران ، أما صرخد فبعدت عن السويديات بنحو ٣١ كم . م وامتازت بجبل بركاني بنيت عليه قلعة حصينة ، عنها أنظر :

- William of Tyre, vol. II, p. 146-147 .

ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ ، ص٢٧٤ ، ابن عبد الحق البغدادي ، مرصد الاطلاع ، ج١ ، ص٢٠١ ، ج٢ ، ص٨٣٨ ، السيوطي ، اتحاف الاخصا بفضائل المسجد الأقصى ، تحقيق أحمد رمضان ، ج١ ، ط . القاهرة ١٩٨٢م ، ص٢٨ ، ص٢٨٢ ، يوسف سماره ، جولة الإقليم الشمالي ، ط . القاهرة ١٩٦٠م ، ص١٠٢ .

٢- عن تمرد التونتاش أنظر :

ابن القلاسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٨٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ص١٢٩ ، العريني ، الشرق الأوسط ، ص٥٣٩ ، حبشي ، نور الدين والصليبيون ، ص٤٣ .

٣- يوجد خلاف حول تحديد بداية المشكلة الحورانية فيذكر ابن القلاسي أحداثها ضمن حولية عام ٥٤١هـ / ١١٤٧م ، أنظر ص٢٨٩ ، بينما يجعلها سبط بن الجوزي ، ضمن حوادث عام ٥٤٦هـ / ١١٥١م ، مرآة الزمان ، ق ١ / ٨ ، ص٢٠٩ - ص٢١٠ والأرجح تحديد ابن القلاسي المؤرخ الدمشقي الرسمى المعاصر ، وقد أخذ به عدد من الباحثين أنظر : عاشور ، المعركة الصليبية ، ج٢ ، ص٦١١ ، ونسيمان ، الحروب الصليبية ، ج٢ ، ص٣٩٠ ، العريني ، المرجع السابق ، ص٥٤١ .

٤- ابن القلاسي ، المصدر السابق ، ص٢٨٩ .

William of Tyre vol. II, p. 146 .

حسين مؤنس ، نور الدين محمود ، ص٢٠٣ ، عاشور ، المرجع السابق ، ج٢ ، ص٦١٧ ، فايد عاشور ، جهاد المسلمين ، ص٢١٢ .

٥- حبشي ، المرجع السابق ، ص٤٣ .

بالصليبيين إلى دعم التوتناش ، فهناك الأهمية الزراعية والتجارية لإقليم حوران ، إذ عرف بوفرة مزروعاته وأن الطرق التجارية بين دمشق وشمال فلسطين مرت بتلك المنطقة، وكذلك القادمة من بلاد العرب إلى دمشق ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن بصرى وقعت على طريق الحج الشامى إلى البقاع الإسلامية^(١) المقدسة، أدركنا مدى أهمية المناطق التى سيطر عليها التوتناش ، ومن الناحية السكانية قطن تلك المنطقة المسيحيون الملكانيون الذين كان بإمكانهم معاونة الصليبيين فى استغلال مواردها^(٢)، وكان الاستيلاء على حوران يهيئ للصليبيين السبيل للمضغط العسكرى والسياسى على دمشق . والاستيلاء عليها فى النهاية ، وتحقيق الحلم الكبير الذى طالما راودهم^(٣).

ويحاول وليم الصورى تصوير دوافع المملكة لقبول عرض التوتناش المغرى على أنه استجابة لدوافع الفروسية وكذلك لأن الرب سيسعده ضم تلك المناطق لحوزة الصليبيين^(٤)، غير أن ثرواتها وأهميتها الاستراتيجية كانت الحاسمة وراء موقف المساندة الصليبية لذلك الأمير . جاءت موافقة الصليبيين فى وقت تعقدت فيه التحالفات والتحالفات المضادة فى بلاد الشام بين المسلمين والصليبيين ، إذ تصاهر نور الدين محمود من ابنة معين الدين أنز أتابك دمشق^(٥) عام ٥٤٢هـ / ١١٤٧م، وجعلت منه هذه الزيجة بمثابة عون سياسى وعسكرى لدمشق وفى نفس الحين حرصت أتابكية دمشق على التحالف مع الصليبيين لخوفها من طموحاته الكبيرة ، ورغبته فى ضمها إلى أملاكه فى شمال الشام^(٦)، بل إن دمشق عقدت هدنة مع المملكة الصليبية^(٧).

١- سليمان مالكي، طريق حجاج الشام ومصر ، ص ٩ .

٢- رنسيان ، الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٣٨٩ ، حسين مؤنس ، نور الدين محمود ، ص ٢٠٣ .

٣- العرينى، الشرق الأوسط ، ص ٥٤٠ ، تيسير بن موسى ، غزوات الافرنج ، ص ١٢٧ .

٤- William of Tyre , vol . II, p. 166 .

٥- ابن عساكر ، ترجمة محمود بن زنكى ، ص ١٣٧ .

William of ture , vol . II , p. 148 , Gibb, The career of Nur Al- Din , p. 514 .

٦- رنسيان ، الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٣٨٩ ، حسين مؤنس، نور الدين محمود، ص ٢٠٣ ، حسن حبشى ، نور الدين والصليبيون ، ص ٤٤ .

٧- William of tyre , vol . II, p. 147 .

وأمام دعم الصليبيين للتوتناش أرسل معين الدين أنر يطلب مساعدة صهره ضدهم^(١)، وقد تقدم نور الدين وما معه من قوات حتى بلغ دمشق^(٢)، ولاحظ معاونة سيف الدين غازي لمعين الدين آنذاك، وحاول من بصرخد كسب الوقت فأرسلوا في طلب الأمان إلى أن يصلهم الدعم الصليبي^(٣)، ولكن تمكنت القوات المسلمة المتحالفة من الاستيلاء على بصرى من زوج التوتناش ومنعت الصليبيين من الاستيلاء عليها^(٤). وألحقت الهزيمة بهم^(٥)، وكذلك بالنسبة لبصرخد، ولم يسع معين الدين إلى الاستمرار في تتبع الصليبيين خلال انسحابهم^(٦)، الذي تكبدوا فيه خسائر فادحة^(٧)، أما التوتناش فإنه استحضر إلى دمشق حيث تم تسميل عينيه وأودع السجن^(٨).

١- ابن القلاسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٨٩،

William of tyre, vol. II, p. 153 .

كرد على، خطط الشام، ج ٢، ص ١٨، تبشير بن موسى، غزوات الفرنج، ص ١١٨.

٢- سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ق ١، ص ٢٠٩.

William of tyre, vol. II, p. 151 .

وقد ردت قوات نور الدين بنحو أربعة آلاف، أنظر :

سبط بن الجوزي، المصدر السابق، ص ٢٠٩.

٣- ابن القلاسي، المصدر السابق، ص ٢٨٩.

٤- نفسه، نفس المصدر والصفحة.

٥- سبط بن الجوزي، المصدر السابق، ص ٢١٠.

٦- ابن القلاسي، المصدر السابق، ص ٢٩٠.

٧- يقول وليم الصوري لقد اجهدت قواتنا في الطريق وتزايدت قوات المسلمين بينما قواتنا أخذت في

التناقص وأصابها القتل والجرح . William of tyre, vol. II, 151 .

وعن المشكلة الحورانية بالتفصيل أنظر :

William of Tyre, vol. II, pp. 146-153, Elisseff, Nur Al- Din, T. II, pp. 403-406 .

٨- ابن القلاسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٩٠، ابن واصل، مفرج الكروب، ص ١٢٩.

ولا مراء فى أن المشكلة الحورانية جعلت نور الدين محمود، يواجه لأول مرة خلال تلك المرحلة المبكرة من حكمه فى حلب، مملكة بيت المقدس، كذلك أثبتت الأحداث مدى أهمية دعمه العسكرى لأتابكية دمشق إذ لم تكن لتستطيع صد الهجوم الصليبي بدون عونه الحربى، وأظهره ذلك على مسرح الأحداث السياسية بصورة أكبر من ذى قبل على نحو دعم مركزه أمام رعاياه خلال تلك المرحلة الأولى من حكمه.

وعلى المستوى الصليبي: كشفت المشكلة الحورانية أن القيادة الصليبية بدأت عهدها بإظهار عدم الحنكة السياسية، إذ أنها اتجهت إلى محاربة أحد حلفائه من أجل أمير شق عصا الطاعة عليه، وأوضح موقفها أن مطامعها السافرة فى إقليم حوران التابع لدمشق كانت أكبر من أية تحالفات سياسية معها، ولاشك فى أن تلك الأحداث وجهت لطمة قوية للتحالف الدمشقى- الصليبي، وجاءت أحداث الحملة الصليبية الثانية لتوجه لطمة مجهزة لذلك التحالف الهش.

فمعلوم أنه كان لسقوط إمارة الرها الصليبية عام ٥٣٩هـ / ١١٤٤م فى عهد الأتابك عماد الدين زنكى^(١)، دوره فى إثارة الغرب الأوروبى للقيام بحملة صليبية على بلاد الشام والجزيرة وهى الحملة الصليبية الثانية^(٢)، لإنتقاذ الكيان الصليبي من التداعى بعد أن سقطت أولى

١- ابن الأثير، الباهر، ص٦٦- ص٧٠.

Michel le syrien, chronique, ed, chabot, Paris, T. III, p. 260-262, Rohricht, Bitrage zur geschichte der kreuzzuge Band, Berlin 1874, Erster, p. 57.

٢- عن الحملة الصليبية الثانية بالتفصيل أنظر:

William of tyre, vol. II, pp. 163-194, Anonymous syriac chronicle, trans. by Tritton, JAS, 1933, Part II, pp. 298-299, Odo of deul, De Profectione Ludovici VII in Orienten, ed V. G. Berry, New York 1948, pp. 7-143.

ابن القلائسى، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٩٨- ص٣٠٠.

Berry, "The Second Crusade", in setton, The crusades, vol. I, pp. 463-512.

مونروند، تاريخ الحروب المقدسة فى الشرق، ت. كبريوكيدو، ط. القدس ١٨٦٥م، ص٤٣.

الإمارات الصليبية ، وقام البابا يوجين الثالث بالدعوة لها^(١) ، واستغل قدرات برنارد دى كلير فوه^(٢) ، من أجل دعم المشروع المرتقب ، وقد قاد الحملة الملك الألمانى كونراد الثالث والملك الفرنسى لويس السابع وتمكنت من الوصول إلى بلاد الشام بعد صعوبات عديدة .

وعلى الرغم من العلاقات القائمة بين أتابكية دمشق ومملكة بيت المقدس؛ إلا أن الصليبيين قرروا غزوها ؛ إذ أن غزوها سيحول دون تحالف إسلامى بين شمال الشام ووسطه ، ثم أن قربها من القدس سيسهل احتلالها حيث لن توجد حينذاك خطوط قوتين طويلة للقوات الصليبية، ويمكن تكوين دولة صليبية تسعى إلى تصفية بقية مراكز الوجود الإسلامى فى بلاد الشام، فإذا أضفنا إلى ذلك الأهمية الاقتصادية لها لاسيما على المستوى الزراعى والتجارى ، لأدركنا مدى اتساع أحلام الصليبيين بغرض الهيمنة عليها، وبالإضافة إلى أن ذلك سيؤدى إلى إنهااء مشكلة أمن الجليل أو القسم الشمالى من فلسطين، ولاشك فى أن تلك المشكلة كلفت مملكة بيت المقدس الكثير من طاقاتها العسكرية^(٣).

وأمام إدراك معين الدين أنر لعزم الصليبيين التقدم صوب أتابكيته لم يجد مناصاً من طلب العون من صهره مرة أخرى، وكان قد اختبره خلال المشكلة الحورانية ، ووجده يقدم له يد العون دوماً تتردد ، أما نور الدين فإنه وجد فى طلب دمشق فرصة لزيادة تدخله فى شئونها على نحو يضمن له فى النهاية إحكام قبضته عليها .

١- عن ذلك أنظر :

“ Eugene III writing to king Louise VII of France and his Subjects Proclaims, the Second crusade on God's behalf , March 1146" in the crusades, Idea and Reality, London 1981, by Louise and Jonathan riely-smith, pp. 57-59 , Eugene III announce acrusade, December I, 1145", in A source Book for Medieval History, by Thatcher , New York 1905, pp. 526-529 .

٢- عن برنارد دى كلير فوه أنظر :

Vacanard , Vie de saint Bernard Abbé de clairvaux, Paris 1895, T. I, pp. 227-249, De Brower, saint Bernard homme d'Eglise, Paris 1953 , pp. 47-57 .

٣- عن الصراع الإسلامى الصليبي بشأن منطقة الجليل الأعلى أو إقليم الجليل الذى كانت عاصمته طبرية

أنظر :

ولاشك فى أن معين الدين أنر كان فى موقف لا يحسد عليه، إذ صار بين شقى الرحى عدو صليبي فى الجنوب ، تم دعمه بعون عسكري أوربي ضخم واتخذ شكل حملة صليبية ، وعدو مسلم فى الشمال يطمع هو الآخر فى نفس ما يطمع فيه الصليبيون ، غير أنه لم يكن هناك مفر من طلب عون سلطان حلب لمواجهة العدو الصليبي خلال تلك المرحلة ، ثم مواجهته فيما بعد وتحجيم خطره .

وبالفعل أرسل معين الدين أنر برسائله لطلب عون نور الدين وأخيه سيف الدين غازى، وكلاهما أرسل إمدادات ضخمة لمساعدته^(١).

وقد قام الصليبيون بحصار المدينة فى ربيع الأول عام ٥٤٣هـ / يوليو ١١٤٥م، لكن الحصار باء بالفشل ، وذلك بفضل الدفاع المستميت للدماشقة الذين خشوا من احتلال صليبي لمدينتهم ، ويفضل الدعم الحربي لنور الدين محمود ، ولاشك فى أن هذا الدعم قد قوى خطوط دفاع المدينة فى مواجهة أعدائها ، كذلك حذر سيف الدين غازى الصليبيين من تقدمه صوب المدينة لقتالهم، وثمة عوامل أخرى أدت إلى فشل الحملة، منها وجود الخيانة فى صفوف الصليبيين^(٢)، على نحو جعلهم يقعون فى أخطاء عسكرية فادحة أدت إلى هزيمتهم ، كذلك شب النزاع بينهم حول من يحكم المدينة بعد إسقاطها^(٣) ، وأمام كافة تلك الملابسات اضطر الصليبيون إلى الانسحاب .

= لىلى طرشوبى ، إقليم الجليل فترة الحروب الصليبية- فى القرن الثانى عشر الميلادى- رسالة دكتوراه غير منشورة - كلية الآداب- جامعة القاهرة لعام ١٩٨٧م ، ص ٦٢- ٨١ .

١- ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج١ ، ص ١١٢ ؛ الذهبى، العبر، ج٤ ، ص ١١٧؛ ابن الوردي، تنمة المختصر، ص ٤٧ ؛ ابن أبيك الدوادارى ، الدرة المضئية ، ص ٥٥١؛ الحريرى، الإعلام والتبيين، ص ٧٦ ؛ ابن العماد الحنبلى، شلرات الذهب، ج٤ ، ص ١٣٤ ، ويلاحظ أن ابن الجوزى والنويرى لا يشيران إلى الدعم النورى لدمشق خلال الحملة الصليبية الثانية على الرغم من اتفاق جمهرة المؤرخين على ذلك ، انظر رواية كل منهما للأحداث :

ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٩ ، ص ١٣١ ، النويرى ، نهاية الأرب، ج٢٧ ، ص ١٥٠- ١٥١ .

أيضا : Berry , The Second crusade, p. 508

٢- William of tyre , vol. II, p. 194 , John of Wurzburg, Description of the Holy Land , Trans. by Stewart, PPTS, vol . V, London 1894 , p. 21 .

Berry , Op. cit, 509 .

والملاحظ أن نور الدين اتجه إلى مقاتلة مملكة بيت المقدس عن طريق دعم دمشق ، إذ أن الأسرة البورية وسيطرتها عليها حالت دون أن يقوم بصراع أكبر مع المملكة ، كذلك لم يشأ - خلال تلك المرحلة - أن يرمى بكل ثقله في دعم دمشق خشية هزيمتها واندحار قواته ، على نحو يهدد مركز دولته في حلب في مواجهة إمارة أنطاكية في الشمال .

وهكذا ؛ فشلت الحملة الصليبية الثانية في تحقيق هدفها الرئيسى باسقاط دمشق، ومع ذلك نجحت في تدعيم نفوذ نور الدين محمود بصورة أكبر ، فعلى الرغم من خشية الدماشقة من تطلعاته السياسية إلا أنهم صاروا على علاقات ودية معه أفضل من قبل تلك الأحداث^(١) ، وتدعم وضعه السياسى فى شمال الشام، بصورة أقوى ، فقد اعترف الدماشقة ضمنياً بقوة نفوذه الحربى والسياسى، وطلبوا منه العون ضد مملكة بيت المقدس^(٢) حليفة الأمس .

لقد أظهرت الحملة مدى التنافس بين الدول الأوربية المشاركة فيها ، كذلك زادت من حدة الصراع بين اللاتين والبيزنطيين، فضلا عن إثبات ضيق أفق السياسة الخارجية للمملكة الصليبية، على نحو جعلها تحارب أقرب حليف لها فى صورة أتابكية دمشق، وأدى ذلك إلى انهيار التحالف بين الجانبين بصورة كاملة، فإذا كانت المشكلة الحورانية من قبل وجهت له ضربة قوية، فإن الحملة الصليبية الثانية جاءت أحداثها لتجهز فى النهاية على حلف لم يكتب له البقاء . كذلك جاءت الحملة لتلقى الضوء على مدى الضعف الذى وصلت إليه أتابكية دمشق، إذ أنها لم تتمكن من مواجهة الزحف الصليبي على المدينة ، ولذلك طلبت العون العسكرى الخارجى، ولاشك أن ذلك الوهن قد أدركه نور الدين محمود بصورة مؤكدة وعلى نحو جعله يخطط أكثر من ذى قبل لإسقاط المدينة فى قبضته .

ولانغفل أن مملكة بيت المقدس أدركت من خلال تلك الحملة ، أن سلطان حلب لن يسمح بوجود صليبي يتركز جنوب سلطنته وأنه سيبدل جهده لدعم دمشق ضد أعدائها، من الطبيعى أن نلاحظ أنه حرص على استمرار وجود دمشق خلال تلك المرحلة على الأقل فى قبضة قوة مسلمة حتى لا تتهدد منطقة شمال الشام على المستويات العسكرية والاقتصادية ، إذ أنها ارتبطت بروابط قوية مع دمشق .

١- انتونى بردج ، الحروب الصليبية، ت. غسان سبانو، ط. دمشق ١٩٨٥م، ص ١٥٩ .

٢- عصام الدين عبد الرؤوف ، بلاد الجزيرة ، ص ١٧٥ .

ومع ذلك : فعلى الرغم من الاخفاق الكبير الذى منيت به السياسة الصليبية، إلا أنها تمكنت من تحقيق مكسب هام فى جنوب الشام، على نحو وجه تحدياً قوياً لنفوذ نور الدين ، وذلك بالاستيلاء على عسقلان ^(١)، إذ تمكن الصليبيون فى عهد الملك الطموح بلدوين الثالث من إسقاط عسقلان فى عام ٥٤٨هـ / ١١٥٣م ^(٢) .

وجاء ذلك فى وقت ضعفت فيه الخلافة الفاطمية فى ظل تغلب الوزراء العظام وحقق الصليبيون بذلك إنتصاراً مزدوجاً على نور الدين محمود والفاطمين وانتصارهم على نور الدين تفوق على إنتصارهم على الفواطم ، لأن الأخيرين كانوا قد وهنوا، ولم تعد دولتهم تمثل خطراً بالغاً على الوجود الصليبي، بينما نور الدين مثل قوة سياسية وحرية متوثبة فى شمال الشام تطمع فى دمشق .

وتأتى أهمية الانتصار الصليبي من خلال إدراك أهمية عسقلان نفسها ، فقط مثلث مركزاً تجارياً هاماً على الساحل الفلسطينى، وقاعدة للأسطول الفاطمى، وبسقوطها سقطت آخر المعاقل الفاطمية فى الشام، وبذلك امتدت السيادة الصليبية على طول الساحل الشامى من

١- وفعت عسقلان على بعد اثني عشر ك م ٢ ، إلى الشمال من غزة على الساحل الفلسطينى، عنها :

اليقوى ، كتاب البلدان ، نشر دى جويه ، ط. ليدن ، ص ١٢٩ ؛ ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، نشر دى جويه ، ط. ليدن ١٨٨٢م ، ص ١٠٣ ؛ الهروى ، مقتطفات من رحلته ، نشر تشارلز شيفر ، Aol, T, Année 1881, I, ص ٦٠٨ ، الادريسى ، نزهة المشتاق ، ج٤ ، ص ٣٣٧ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ط. ليبسك، ج٣ ، ص ٦٧٢-٦٧٣ ، Theodorick, Description of the Holy Land, Trans. by Huart, ، PPTS, vol . V, London , p. 55 .

٢- William of tyre, vol . II, pp. 184-234, Anonymous Syriac Chronicle, p. 301 ,

ابن القلاسى، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل، ج ١١ ، ص ٧٧ ؛ الباهر ، ص ١٠٦ ؛ العماد الأصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٢٥ ؛ ابن شداد الحلبي، الأعلاق الخطيرة ، ص ٢٥٨- ص ٢٦٠ ، سالم والعبادى، تاريخ البحرية الإسلامية ، فى مصر والشام ، ط. بيروت ١٩٧٢م ، ص ١٠٨ ، باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٩٨- ١٣٧ ، Pernoud, The crusades, p. 115 , Mayer, The crusades, p. 144 .

الإسكندرونة شمالاً حتى غزة جنوباً ، ومهد بذلك السبيل أمام الصليبيين لغزو مصر ^(١) ، وقد أحدث ذلك تفوقاً استراتيجياً للمملكة الصليبية فى حدودها الجنوبية بينما عجز نور الدين عن تقديم المساعدة لعسقلان لوقوف دمشق عقبة أمام تحقيق ذلك .

هكذا توسع بلدوين الثالث فى اتجاه الجنوب وأضاف إلى مملكته العديد من المزايا الاستراتيجية ، بينما نور الدين فى الشمال امتازت حدوده مع إمارة أنطاكية بعدم التغير الجوهرى ولم يحقق انتصاراً حاسماً كذلك الذى حدث فى عسقلان ، ومع ذلك فإن الموقف تطور أفضل لصالح الدولة البيزنطية بإسقاط دمشق عام ٥٤٨هـ / ١١٥٤م ، ولاشك أن سقوط عسقلان فى قبضة الصليبيين حفز نور الدين إلى ضرورة الإسراع بالسيطرة على ملك البوريين .

وقد شهدت العلاقات بين الدولة النورية ومملكة بيت المقدس نشوب معركة بانياس ^(٢) عام ٥٥٢هـ / ١١٥٧م ، والتي وقعت فى وقت كانت تنفذ فيه معاهدة سلمية بين الجانيين إلا أن الملك بلدوين الثالث خرقها .

وتتجلى بوضوح أهمية ثروات المنطقة من الناحية الزراعية والرعية وميزتها الاستراتيجية ، كعوامل دفعت بالصليبيين إلى نقض شروط المعاهدة وإعلان الحرب على الدولة النورية ، فقد توافرت فى بانياس المراعى الغنية بقطعان الماشية ^(٣) ، كذلك عرفت بأهمية إنتاجها الزراعى

١- مؤنس عوض ، التنظيمات الدينية ، ص ٤٧٧ .

٢- وقعت بانياس على بعد واحد وعشرين ميلاً من بحيرة طبرية ، بالقرب من شواطئ بحيرة الحولة ، وهى تختلف عن بانياس المدينة الساحلية على شاطئ البحر المتوسط ، عن موقع بانياس أنظر :

ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك ، ص ٤٦ .

Fulcher of chartres, Hist. of the Expedition to Jerusalem , p. 205 Ernoul, Ernoul's account of Palestine, Trans. by conder, PPTS, vol . VI , London 1896 , p. 51 .

عمر كمال توفيق ، مقدمات العدوان الصليبي ، ط. القاهرة ١٩٦٦م ، ص ١٩٤ - ١٩٥ .

وعن بانياس فى عصر الحروب الصليبية بصفة عامة أنظر هذه الدراسة :

آمال هاشم ، بانياس الداخلية فى الصراع الإسلامى الصليبي فى عصر الحروب الصليبية (١٠٩٥-١٢٩١م / ٤٨٧-٦٩٠هـ) رسالة ماجستير ، كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ١٩٨٧م .

William of tyre, vol . II , p. 256 .

وحيث وجد الفلاحون والرعاة طمع الصليبيون في أسرهم واسترقاقهم للإفادة من طاقاتهم الإنتاجية ، وهذا يفسر عمليات الاسترقاق^(١) ، التي حرص الصليبيون عليها عندما هاجموا المنطقة ، كذلك احتلت بانياس أهمية استراتيجية متميزة ، إذ وقعت بالقرب من دمشق وفي المنطقة الواقعة بينها وبين الجليل الأعلى بشمال فلسطين، وإذا اعتبرنا عسقلان بوابة مصر فإن بانياس عدت بوابة دمشق^(٢).

ولاشك أن كافة تلك المغريات لعبت دورها في إغراء الملك بلدوين الثالث على شن هجومه على بانياس ، وكان الرعاة والفلاحون المسلمون في المنطقة قد ارتكنوا إلى وجود معاهدة السلام مع الصليبيين، وبينما هم منهمكون في عملهم هاجمت القوات الصليبية المنطقة بالقرب من بحيرة الحولة، وقد قتل وجرح العديدون ، وتم سلب قطعان الماشية وأسر العديدين ، ويبدو أن الصليبيين أرادوا تحقيق انتصار كبير في حملتهم بدليل إشراكهم لأكبر العناصر لديهم قوة ونعنى بهم الاستتارية^(٣)، والداوية^(٤).

William of tyre, vol . II , p. 256 .

-١

Boase , Kingdoms and strongholds of crusades, p. 114.

-٢

٣- وعن الاستتارية :

William of tyre, vol . II , p. 82 .

Delaville Le Rouk , “ inventaire de Pieces terre sante de L’Hospital “ ROL, III , Année 1985, p. 36-106 .

King , The Knights Hospitallers in the Holy Land, London 1930 .

Cavaliero, The Last crusaders, London , p. I .

نبيلة مقامى، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين ١٢ ، ١٣م، رسالة ماجستير غير منشورة- كلية الآداب- جامعة القاهرة لعام ١٩٧٤م، سامى سلطان سعد، الاستتارية في رودس ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، بنفس الكلية لعام ١٩٧٥م الفصل الأول ، مصطفى الحناوى ، جماعة الاستتارية ودورها في الصراع الصليبي الإسلامى في عصر الحروب الصليبية (١٠٩٩-١٢٩١م / ٤٩٣-٦٩٠هـ)، رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآداب- جامعة المنيا ١٩٨٠م .

٤- عن الداوية :

William of tyre , vol , I, p. 524 .

ومما تجدر الإشارة إليه أن مؤرخ المملكة الرسمى وليم الصورى، أقر واعترف صراحة بأن حملة بلدوين الثالث على بانياس، كانت خرقاً للاتفاقية المعقودة مع نور الدين، وأن الأمر كان أبعد عن أن يكون مجداً عسكرياً للملكة الصليبية^(١).

طبيعى أن أحداث مهاجمة المنطقة عدت اختباراً قوياً لسيادة نور الدين محمود السياسية فى دمشق، إذ أن المعركة وقعت بعد ثلاث سنوات فقط من سيطرته على المدينة، ومن جهة أخرى كانت بادرة انتهاك لاتفاقيات السلام بين الجانبين، ويبدو أن المملكة الصليبية كانت تهدف - فيما تهدف- إلى سبر أغوار نور الدين ومعرفة قوته العسكرية ورد فعله، ثم أنها من جهة أخرى جاءت استعراضاً واضحاً للقوة من جانب الصليبيين، إذ أن المنطقة نفسها لم تكن تحتاج فى غزوها إلى تلك الأعداد الكبيرة من الفرسان الصليبيين، من أجل إحراز انتصار على رعاة وفلاحين عزل، ولكن المملكة حرصت على أن تكون أعدادهم على هذا النحو لإرهاب المسلمين فى المنطقة، وإحراج موقف الدولة النورية خاصة أنها فضلت الاتجاه السلمى خلال ذلك الحين، بدليل عقدها معاهدة سلمية مع مملكة بيت المقدس خرقها الملك بلدوين الثالث.

أمام كافة تلك الملاحظات، لم يكن هناك مفر من الرد العسكرى وقد قام المسلمون بنصب كمين للقوات الصليبية كلل بالنجاح^(٢)، وقتل منهم الكثيرون^(٣)، وعلى حد قول ابن القلائسى

Barber, The trial of templars, Cambridge 1982, prestige, chivalry, London 1925, = p. 13.

Delaville le roux, " Bulles Pour L'ordre de temple" ROL, XI, Année 1905-1809, pp. 409-438.

ابراهيم خميس، جماعة الفرسان الداوية وعلاقاتهم السياسية بالمسلمين فى الشرق الأدنى حتى نهاية حكم صلاح الدين الأيوبي، رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآداب- جامعة الإسكندرية، لعام ١٩٨٠م، العلاقات السياسية بين جماعة الفرسان الداوية والمسلمين فى مصر والشام (١١٩٣-١٢٩١)، رسالة دكتوراه - غير منشورة بنفس الكلية لعام ١٩٨٣م، مؤنس عوض، التنظيمات الدينية، ص ٣٧٤-٣٨١.

William of tyre, vol. II, p. 256.

-١-

William of tyre, vol. II, 260

٢- ابن القلائسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٣٩،

٣- نفسه، المصدر السابق، ص ٣٣٩.

« صارو بأجمعهم بين قتيل وجريح ومسلوب وأسير وطريح »^(١) وغنائم وفيرة، وأمكنهم احتلال بانياس^(٢)، غير أن بلدوين الثالث تمكن من استردادها في نفس العام^(٣)، وإن عاد نور الدين ليفرض سيطرته عليها عام ٥٦٠هـ / ١١٦٤م^(٤).

ولا مراء في أن الصراع على بانياس على هذا النحو، وتداول سيادتها بين نور الدين والصليبيين، يدل بجلاء على أهميتها البالغة على نحو تنافس الطرفان من أجل ضمها إلى سيطرتها.

ويرى البعض أن الصراع حول بانياس عكس أن قوى الفريقين كانت متوازنة^(٥). والحق أنه عكس على نحو أكثر جلاء، الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية لها، وهى عوامل وجهت الصراع حولها بصورة عبرت عنها المصادر المعاصرة دون مواربة.

ومن جهة أخرى، إنجبه نور الدين محمود إلى اتباع سياسة التخريب الاقتصادي في موارد أعدائه وسعى إلى إسقاط العديد من الحصون والمعاقل التابعة لمملكة بيت المقدس لتجربدها من مصادر قوتها.

ففى عام ٥٥٣هـ / ١١٥٨م وقعت معركة السواد حيث حاول الجيش النورى الاستيلاء على أحد الحصون الحيوية، غير أن قوات الملك بلدوين الثالث أنزلت به الهزيمة^(٦). ولم تذكر المصادر العربية المعاصرة واللاحقة إلا القليل عن أحداثها^(٧)، على نحو يرجح أن الهزيمة كانت بالفعل

١- ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٣٩.

٢- عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٦٦٨.

٣- نفسه، نفس المرجع، ج ٢، ص ٦٦٨.

٤- أبو شامة، الروضتين، ج ١ / ٢، ص ٣٥٦؛ النويرى، نهاية الأرب، ج ٢٧، ص ١٥٨؛ ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، ج ٤، ص ١٨٨.

٥- حبشى، نور الدين والصليبيين، ص ٩٣.

٦- William of Tyre, vol. II, p. 272-273, Stevenson, the crusaders, p. 179.

٧- ابن القلائسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٥٢.

كبيرة ، واتجهت القوات النورية بقيادة أسد الدين شيركوه إلى مهاجمة بارونية صيدا في ذلك العام، في وقت قيام أهلها بإعادة بناء ما هدمته الزلازل وتمكنت من سلب الكثير من الغنائم^(١)، وكذلك أخضعت حصن هام على حدود بلاد العرب فيما وراء نهر الأردن عام ٥٦١هـ / ١١٦٥م، وحاول الملك عموري الأول استعادته دون جدوى^(٢)، واستطاع الجيش النوري الاستيلاء على حصن استراتيجي بالقرب من صيدا عرف بكهف صور، وربما سعى إلى ذلك بالبذل والبرطلة^(٣)، ومن ناحية أخرى هاجم مناطق هونين^(٤) وخرها.

وطبيعى أن يتجه ملك بيت المقدس إلى اتباع نفس السياسة، فقام بمهاجمة إقليم حوران عام ٥٥٣هـ / ١١٥٨م، وتم نهب الكثير من ممتلكات السكان المسلمين^(٥)، وبلغت القوات الصليبية داريا بالقرب من دمشق ، واهتبل بلدوين الثالث فرصة تغييب نور الدين محمود عن دمشق واتجاهه صوب سلاجقة الروم عام ٥٦٨هـ / ١١٧٣م، وهاجمها وخرّب مواردها الاقتصادية خاصة الزراعية^(٦)، في المنطقة الواقعة بين بصرى ودمشق^(٧)، وعادوا الكرة بعد ذلك بثلاثة أشهر تقريباً، ونهب الغنائم وسبى السكان لاسترقاقهم^(٨).

١- ابن القلائسي، ص ٣٥٢، أيضاً ، أسامة زكى ، صيدا ، ص ١٥٠- ١٥١ .

٢- William of tyre, vol . II , p. 312 .

مؤنس عوض ، التنظيمات الدينية، ص ٤٨٧-٤٨٨ .

٣- William of tyre, vol. II, p. 312 .

ويتجه أسامة زكى إلى تصوير الأمر على أنه حصار لصيدا نفسها، بينما نصوص وليم الصوري لاتدل على ذلك ، كذلك فإنه يجعل تاريخ تلك الأحداث عام ١١٦٤م بينما يستفاد من نفس المصدر أنها وقعت غالباً في صيف ١١٦٥م حيث أنه ذكر ذلك بعد إشارته لإطلاق سراح بوهيمند الثالث أمير أنطاكية الأسير في حارم وأطلق نور الدين سراحه في صيف ١١٦٥م ، أنظر : أسامة زكى، المرجع السابق، ص ١٥٢ .

٤- ابن العديم ، زبدة الحلب، ج٢ ، ص ٣٢٤ .

٥- ابن القلائسي، المصدر السابق ، ص ٣٥١؛ ابن قاضى شهبه، الكواكب الدرية ، ص ١٥٥ .

٦- William of tyre , vol . II , p. 282 .

٧- William of tyre, vol. II, p. 282 .

٨- William of tyre, vol. II, p. 282 .

وعلى الرغم من تلك المعارك شبه المستمرة ، لاحت فى الأفق أضواء باهتة لسلام شاحب،
تمثل فى اتفاقيات هدنة قصيرة تراوحت بين الثلاثة أشهر والعامين وقعت بين الطرفين .
ومن الأهمية بمكان دراسة دوافع السياسة السلمية التى اتبعها نور الدين محمود فى بعض
الأحيان تجاه مملكة بيت المقدس وتمثل فى أبعاد استراتيجية واقتصادية وعسكرية .

والواقع أن الدولة النورية لم تكن تستطيع أن تعيش بمعزل عن الدخول فى علاقات تجارية
مع القوى الصليبية فى بلاد الشام لعدة اعتبارات ؛ إذ أن بعض المواد الخام وجدت فى أرض
أعدائها وكانت فى حاجة إليها من أجل عمليات التصنيع ، ثم أن بعض الطرق التجارية
الدولية التى مرت ببلاد الشام كانت منافذها فى المناطق الساحلية الصليبية وكان تصريف
تجارة الدولة النورية يحتم ضرورة وجود صلات ما من أجل ضمان وصول السلع إلى شاطئ
البحر المتوسط ومنه إلى أوروبا، كذلك فإن المتاجرة مع مملكة بيت المقدس كانت تدر على
الدولة أرباحاً طائلة من عائد المكوس على نحو يدعم ميزانيتها ، وتوجه اشارات إلى وجود
علاقات وثيقة بين الجانيين على المستوى التجارى^(١)، ويقرر ابن جبير أن «اختلاف القوافل من
مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع واختلاف المسلمين من دمشق إلى مكة كذلك
وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحدهم ولا يعترض » ويضيف أن القوافل المسلمين تخرج إلى بلاد
الفرنج وسببهم يدخل إلى بلاد المسلمين^(٢) . وإذا كان نص ابن جبير المذكور يرجع إلى العصر
الأيوبي، فإنه يعد امتداداً طيباً لما كان موجوداً بصورة فعلية من قبل فى عهد الدولة النورية.

١- ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٥٣، زكى حسن، الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى، ط. القاهرة
١٩٤٥م، ص ٨٣ ، عمر كمال توفيق، الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين ، ط.
الإسكندرية، ١٩٨٦م، ص ١٠٧ ، جمعه الجندى، حياة الفرنج ونظمهم فى الشام خلال القرنين ١٢ ، ١٣ م،
رسالة دكتوراه غير منشورة - كلية الآداب جامعة عين شمس لعام ١٩٨٥م، ص ١٥٤-١٥٦ .

٢- ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٥٣ ،

وأنظر أيضا :

Burchard of Mont sion , Pilgrimage of Burchard of Mont sion, Trans . by Stewart,
PPTS, vol. XII, London 1896, p. 103 , Ludolph von Suchem, Description of the Holy land ,
Trans. by Stewart, PPTS, vol . XII, London 1896, p. 55 .

ومن جهة أخرى؛ فبالنسبة للصليبيين ، نعرف أنهم كانوا يدخلون إلى دمشق وغيرها من المدن المسلحة من حين لآخر من أجل «قضاء حوائجهم»^(١) وطبيعي أن من بينها عمليات الشراء والمتاجرة مثلما حدث عام ٥٤٦هـ / ١١٥١م^(٢).

وبلاحظ أن التجارة مع الكيان الصليبي احتاجت إلى تراكم رأسمالى كبير، من أجل تمويل عمليات نقل البضائع بكميات وفيرة، وتجهيز الجمال والقوافل ، وتأمين سيرها إلى غير ذلك، وقد خضعت لسيطرة عناصر من كبار التجار الأثرياء ، ومن أمثلتهم التجارين نصر بن قوام وأبى در ياقوت وكانت كل تجارتهم مع المناطق الصليبية على الساحل الشرقى للبحر المتوسط^(٣)، وامتلكا العديد من القوافل وعاونهما عدد وافر من المقارضين^(٤)، وحققا من وراء ذلك ثراء عريضاً^(٥).

إن إيراد وضع التجارين السابقين يدل بجلاء على أن عمليات المتاجرة مع مملكة بيت المقدس الصليبية ، قد صارت حقيقة واقعة متخصصة على نحو عبر عن ظاهرة التعايش السلمى بين الجانبين الإسلامى والصليبي حينذاك .

ولاشك فى أن الدولة النورية عندما كانت تهادن القوى الصليبية ، كانت تضع نصب عينيه المصالح التجارية ، بل أن تلك المصالح هى التى حددت- فى بعض الأحيان- موقفها السياسى من أعدائها .

أما الجانب العسكرى، فتمثل فى أن الحروب التى خاض غمارها الجيش النورى ضد مملكة بيت المقدس كانت حروباً موسمية^(٥) فى الغالب ، ولم يكن يستطيع أن يواصل الحرب على

١- ابن القلائسى ، ذيل تاريخ دمشق، ص ٣١٤ .

٢- نفسه، نفس المصدر والصفحة .

٣- ابن جبير ، المصدر السابق، ص ٢٥٣ .

٤- نفسه ، ص ٢٥٣ .

٥- اتسمت الحرب بين الجيش النورى والصليبيين بأنها كانت موسمية وقد لاءم الربيع والصيف القيام بالعمليات الحربية نظراً لأن فصل الشتاء فى الشام انهمرت فيه الأمطار الناجمة عن الرياح الغربية العكسية وكذلك الثلج المتساقط فى بعض المناطق مما نتج عنه أن تغطت أرض العمليات بالأوحال أو الثلوج الأمر الذى عاق تقدم الجنود ونقل آلات الحصار الضخمة كالمنجنيقات ، حقيقة أن بعض العمليات جرت فى الشتاء لكن ذلك كان من النادر، أنظر :

سمائل ، الحروب الصليبية، ص ٧٣-٧٤ .

مدى العام بأكمله ، واحتاج إلى أن تكون هناك بضعة أشهر لإراحة القوات من عناء القتال، ثم أن الحرب نفسها ضد الصليبيين كانت باهظة التكاليف من حيث الأسلحة ، وإعداد الجند، وتوفير التموين اللازم وإعداد الدواب إلى غير ذلك ، ثم أنها مثلت استهلاكاً لموارد الدولة على نحو هدهدا اقتصادياً ، وأمام تلك الاعتبارات كان الاتجاه السلمى مطلباً ضرورياً من وجهة النظر النورية، ولا تغفل أيضاً أنها اتجهت إلى مهادنة مملكة بيت المقدس لكي تتفرغ للحرب فى الجبهة الشمالية حيث إمارة أنطاكية ، أو لكي تواجه سلاجقة الروم، وقد كان أخوف ما تخافه أن تقع بين شقى الرحى، إمارة أنطاكية وهى تشن هجماتها الحربية على مركز الدولة التجارى فى حلب ، ومملكة بيت المقدس تهاجم مركزها التجارى والصناعى فى الجنوب أى فى دمشق، إذ أن ذلك كان يعنى استهلاكاً أكبر لطاقتها البشرية والمادية، على نحو أدى إلى تشتيت قدراتها وعدم تحقيقها لإنجازات كبيرة على أى من الجبهتين .

وبلاحظ أن سياسة المسالمة تلك قديمة ، قدم مقدم الصليبيين إلى بلاد الشام منذ أخريات القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، عندما حرصت القوى المحلية الشامية الصغيرة على مهادنة الغزاة من أجل البقاء ، وحتى دمشق نفسها فى عهد الأسرة البورية اتجهت إلى مسالمة مملكة بيت المقدس، ويزعم المؤرخون الرسميون - مثل العماد الكاتب الأصفهاني- أن دمشق كانت قبل أن يستولى عليها نور الدين عام ٥٤٩هـ / ١١٥٤م تدفع ما يشبه الجزية للصليبيين وأنه منع هذا ^(١)، غير أن ذلك القول لا يستند إلى الحقيقة فى شئ ؛ إذ أن نور الدين قدم هو الآخر الأموال لمملكة بيت المقدس من أجل شراء السلام المؤقت معها .

وعلى ذلك نجد أن نور الدين اتجه إلى مهادنة المملكة سنة ٥٥٠هـ / ١١٥٥م لمدة عام ^(٢)، وفى العام التالى ٥٥١هـ / ١١٥٦م تجددت المودعة وتم إرسال قطيعة للصليبيين قدرها ثمانية آلاف من الدنانير السورية ^(٣)، وفى نهاية العام الأخير تم ترتيب معاهدة لمدة عام مع استمرار

١- العماد الأصفهاني ، سنا البرق الشامى، ص ١٦ .

٢- ابن القلاسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٣١ .

٣- نفسه ، نفس المصدر ، ص ٣٣٦ ، أبو شامة ، الروضتين ، ج ١ / ق ١ ، ص ٢٥٨ ،

الفدية التى كانت الدولة النورية تدفعها ^(١)، غير أن تلك المعاهدة خرقت عندما هاجم بلدين الثالث مراعى بانياس ^(٢)، كذلك عقدت معاهدة بين الطرفين لمدة عامين فى عام ٥٥٦هـ / ١١٦٠م ^(٣)، وعلى أثر الزلازل التى اجتاحت بلاد الشام عام ٥٦٦هـ / ١١٧٠م اتجه نور الدين إلى عقد هدنة مع عمورى الأول ^(٤)، ويضاف إلى ذلك أنه تم عقد هدنة قصيرة مدتها ثلاثة أشهر فى عام ٥٦٨هـ / ١١٧٣م ^(٥)، وتم الاتفاق على أن تدفع الدولة النورية للصليبيين أربعة آلاف من الدنانير السورية ^(٦).

ويلاحظ أنه لم تصل إلينا وثائق خاصة بتلك الاتفاقيات وإنما وردت إشارات مقتضية خاصة بها لدى ابن القلاسى ، وكذلك وليم الصورى .

وجدير بالتنويه ؛ أن تلك الهدنات احتوت على وقف أشكال القتال بين الطرفين ، وتقدم الدولة النورية بمقتضاها المال للصليبيين، ولم يحدث قط العكس أى أن يقدم الأخيرون لتلك الدولة المال من أجل عقد هدنة معها، إذ لو وجه ذلك لأشارت إليه المصادر العربية الرسمية باعتباره من انتصارات الدولة على أعدائها أن يقدموا لها المال صاغرين، وإقدام نور الدين على تقديم الفدية للمملكة اللاتينية يقدم دليلاً على أنه فى سبيل مصالح دولته سعى إلى «شراء» المسألة مع أعدائه ، وأنه كان حريصاً على تلك الاتفاقيات من أجل أن يتفرغ لشئون دولته ومواجهة أوضاعها الداخلية الأخرى .

لم تكن مدة الهدنات مع المملكة اللاتينية لتطول أكثر من العامين وطبيعى أنه مع الاحتكاك بين الجانبين اتضح لهما أن تلك الاتفاقيات السلمية لم تكن لتعيش طويلاً ، إذ أن كثيراً ما تم خرقها ، ولذا فإن إطالة مدتها لم يكن من ورائه فائدة ترجى .

William of tyre , vol . II , p. 256 , note (47) , Stevenson , The crusaders, p. 174 . -١

William of tyre , vol . II , p. 256, not (47) . -٢

Gibb, The Career, p. 523 . -٣

William of tyre , vol . II , p. 371 . -٤

William of tyre , vol . II , p. 282 . -٥

William of tyre , vol . II , p. 282 . -٦

ومن ناحية أخرى ؛ يلاحظ أن نصوص الهدنات لم تتناول أمر المتاجرة بين الجانبين ، ويبدو أن العلاقات التجارية بينهما كانت من النشاط والازدهار- وهذا أمر أكدته الرحالة- على نحو لم يدع إلى إعادة التأكيد عليه مرة أخرى، ومع ذلك فيفهم ضمناً أن الاتجاه السلمى بينهما كان من دوافعه عدم تهديده حركة التجارة بين الجانبين .

تركزت المعاهدات والهدنات التى وقعتها الدولة النورية مع المملكة اللاتينية - ووفق ما أمدتنا به المصادر العربية واللاتينية - تركزت فى المدة من عام ٥٥٠هـ / ١١٥٥م وعام ٥٦٨هـ / ١١٧٣م، ومعنى ذلك أنها وجدت فى خلال الثمانية عشر عاما الأخيرة من عهد الدولة النورية، أما المرحلة السابقة على عام ٥٥٠هـ / ١١٥٥م، أى المرحلة من عام ٥٤٤هـ / ١١٤٩م إلى ٥٥٠هـ / ١١٥٥م فلم توجد بها أية هدنات وذلك مرجعه - على ما يبدو- إلى عدم اهتمام السياسة الخارجية النورية بجهة مملكة بيت المقدس وارتباطها خلال ذلك الحين بالجبهة الشمالية حيث إمارة أنطاكية .

وطبيعى أن عقد كافة تلك الهدنات تطلب جهداً دبلوماسياً مكثفاً، ومع ذلك فإن المصادر العربية واللاتينية لاتقدم إشارات وافية عن أولئك السفراء الذين تنقلوا بين الجانبين .

أما تقييم سياسة نور الدين محمود الخارجية تجاه مملكة بيت المقدس الصليبية فنجد أنه لم يتمكن من إسقاطها ، ويبدو أن ذلك لم يكن هدفه الرئيسى بل أن هدفه كان توحيد القوى الإسلامية فى بلاد الشام والجزيرة ومصر ضد الصليبيين^(١)، وحصرهم فى نطاق ساحلى ضيق ، وهذا ما كانت عليه مملكة بيت المقدس فى أخريات عهده^(٢)، فسياسته قائمة على إيجاد توازن حقيقى فى القوى مع أعدائه، على أن يكون القضاء عليهم فى مرحلة تالية ، تكفل بها الأيوبيون ومن بعدهم المماليك.

كذلك فإن نور الدين كان من الدهاء على نحو اتجه معه إلى عقد الهدنات مع الصليبيين حتى يريح قواته من عناء الحرب، ويدعم قوته فى آن واحد ، ولم تشهد ساحات الصراع بينه

١- حسين مؤنس ، صور من البطولة ، ص ١٣٧ ، السيف ، «الحياة الاقتصادية فى دمشق فى عصر ابن عساكر ، ضمن كتاب ابن عساكر ص ٣٠١ ، عاشور ، «حطين ، وقائع وعبر» ، مجلة العربى ، العدد (٣٤٤) ، يوليو ١٩٨٧م ، ص ٤٢ .

٢- حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص ١٧٧ .

وبين مملكة بيت المقدس الصليبية معارك مندفعة يقضى فيها على قواته قضاءً مبرماً ، وحق للمؤرخ السرياني المجهول ، ولوليم الصورى أن يصفاه بالدهاء ، والحكمة ^(١).

ويلاحظ أنه لم يسع إلى نقل الصراع مع المملكة إلى نطاق النشاط الاقتصادي لاسيما التجارى، إذ قصر الحرب على ساحاتها دون مجال التبادل السلعى وأفاد من حركة القوافل الصليبية فى فرض المكوس على نحو دعم اقتصاديات دولته وأمدّها بالأموال اللازمة لاستمرار صراعاها مع الصليبيين .

كذلك اتجه نور الدين إلى سياسة تخريب موارد أعدائه الاقتصادية وذلك من خلال القيام بعمليات التخريب والنهب فى مزرعاتهم ودوابهم وممتلكاتهم الأخرى، وأيضاً عمل على إسقاط العديد من القلاع التابعة للملكة من أجل تجريدها من مصادر قوتها العسكرية مثلما سعى من قبل إلى تجريدها من قوتها الاقتصادية بتخريب مواردها .

وهناك من تصور أن نور الدين قد عجز عن تحقيق نتائج حاسمة فى صراعه ضد الصليبيين ^(٢) ، ووجد من المستشرقين من تحامل عليه فهاجمه سمايل واتهمه بانعدام نشاطه المضاد لهم ^(٣)، وأرجع ذلك إلى جبنه وانعدام روح المبادرة لديه وخوفه من التدخل البيزطى لصالح الدول اللاتينية ^(٤)، وأن الغزوات فى عهده لم تكن تتسم بالطموح، والواقع أن استعراض مراحل صراعه مع المملكة الصليبية تعكس لنا صورة مغايرة لذلك، فالاستيلاء على دمشق عام ٥٤٩هـ / ١١٥٤م ، حسم أمرها تماماً لصالح السيادة الإسلامية ، ولم تستطع

١- . Anonymous Syriac Chronicle, p. 292 , William of tyre, vol . II , p. 146 , p. 394 .

يقول عنه ولیم الصوری ما نصه :

“Principes Justus et Providus et Secundum gentis suae traditiones religiosus “ .

أى :

أمير عادل يقظ متدين معين لأبناء جنسه راع لتقاليد، حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص ١٦٩ .

٢- ماجد ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ١٥٦ .

٣- سمايل ، الحروب الصليبية، ص ٧٢ .

٤- نفسه ، نفس المرجع والصفحة .

المملكة أن تفرض سيطرتها عليها ، لذلك فإن إخضاع مصر عام ٥٦٧هـ / ١١٧١هـ/ لسيادته حسم الصراع حولها والذي استهلك جهداً كبيراً من الجانبين المتحاربين .

ولاشك أن نور الدين كان يحارب فى جبهات عديدة فى وقت واحد سواء بالنسبة للمسلمين أو الصليبيين، ثم أن المرحلة نفسها كانت مرحلة الصراع من أجل توازن القوى بينه وبين المملكة الصليبية، ومن غير الإنصاف تحميل المرحلة أكبر من إمكانياتها .

إن الباحثين الذين نظروا فيما بعد إلى حجم الإنجازات الكبيرة التى حققها المسلمون فى عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، وتمكنه من إسقاط مملكة بيت المقدس عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، نظروا إلى مجهودات نور الدين محمود بشئ من الاحتقار ، نظراً لعجزه عن تحقيق ما حققه عامله على مصر، بينما الأحداث التاريخية تثبت أن صراع نور الدين مع المملكة المذكورة قد مهد السبيل لصلاح الدين لتحقيق ما حققه .

أما إتهام نور الدين بعدم الطموح^(١) فهذا ما تفنده الأحداث نفسها، فقد امتدت ساحة صراعه مع الصليبيين من إمارة الرها إلى أنطاكية ثم طرابلس وبيت المقدس ، وأسقط ما يزيد على الخمسين من الحصون والمعازل^(٢)، وتصارع مع جبهتين شمالية وجنوبية فى آن واحد، والواقع أن طموحاته ارتبطت بحكمته ودهائه السياسى وجهها ، دون اندحار لطاقات دولته وإنجازاته .

ذلك عرض لسياسة الدولة النورية فى تجاه مملكة بيت المقدس الصليبية، أما سياستها تجاه الإمارات الصليبية فهذا ما تخصص له الفصل التالى .

١- سماعيل ، الحروب الصليبية، ص ٧٢ .

٢- ابن خلكان ، وفیات الأعيان ، ج٤ ، ص ٢٧٢ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية، ج٢ ، ص ٢٨٦ ؛

الذهبي، دول الإسلام، ج٢ ، ص ٨٣ ؛ ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، ج٤ ، ص ٥٢٨ .

الفصل الخامس

العلاقات مع الإمارات الصليبية

مثلت الإمارات الصليبية في الجزيرة وبلاد الشام (الرها- أنطاكية- طرابلس) جانباً نشطاً في السياسة الخارجية النورية، ويلاحظ تباين تلك السياسة من إمارة إلى أخرى وفقاً لموقعها وأهميتها ودورها في أحداث المنطقة .

ومن المعروف أن الحملة الصليبية الأولى نجحت في إقامة ثلاث إمارات هي الرها في أعلى نهر الفرات وأنطاكية في أقصى شمال الشام وطرابلس على الساحل اللبناني ، وقد ارتبطت تلك الإمارات ارتباطاً وثيقاً مع بعضها البعض وكذلك مع مملكة بيت المقدس اللاتينية .

وقد حظيت إمارة أنطاكية بنصيب وافر من مجهودات الدولة النورية الحربية ، وإن عجزت عن إسقاطها نظراً لوقوف الإمبراطورية البيزنطية ومملكة بيت المقدس ضد محاولات نور الدين لإخضاعها ، وقد عمل نور الدين على تأكيد سيادة عماد الدين زنكى على إمارة الرها ولذا قمع محاولة أميرها ، إعادتها إلى سيطرته من جديد، أما إمارة طرابلس ؛ فإن الصراع ضدها قتل في إسقاط حصونها المنيعة لتجريدها من مصادر قوتها العسكرية .

ومنطقتي أن توجد بعض الدوافع الحيوية وراء توجه السياسة النورية صوب الإمارات الصليبية في بلاد الشام والجزيرة ، مثلما وجدت من قبل في علاقتها مع مملكة بيت المقدس الصليبية، وتتمثل تلك الدوافع في دوافع دينية واقتصادية وأخرى استراتيجية عسكرية .

أما الدوافع الدينية وهي التي لها أهميتها الكبرى بحيث نجعلها في الصدارة فهي ذاتها التي تم تناولها في معرض الحديث عن دوافع الدولة النورية تجاه مملكة بيت المقدس الصليبية، وإذا اتجهنا من بعد ذلك إلى الدوافع الاقتصادية فنجد أنها تتمثل في الرغبة في السيطرة على خطوط التجارة والمارة من حلب إلى أنطاكية بشمال الشام، ومعلوم أن أنطاكية اشتهرت بازدهار النشاط التجاري وعدت مركزاً لتصريف التجارة الشامية إلى عالم البحر المتوسط وأوروبا^(١) ، وقد وصلت إليها الطرق التجارة الأرمنية والقادمة من أعالي الجزيرة^(٢)، على نحو

١- نعيم زكي، طرق التجارة الدولية، ص ١٥١، ميخائيل زاهاروف ، الصليبيون في الشرق، ت. الياس شاهين ، ط. موسكو ١٩٨٦م ، ص ٨٥ .

٢- الحويرى ، الأوضاع الحضارية ، ص ١٣١ .

جعلها المستودع الأساسي للمحاصلات الواردة من بلاد الهند والصين، ونظراً لتلك الأهمية التجارية حرصت المدن التجارية الإيطالية مثل جنوة وبيزا على الحصول على مراكز لها في أنطاكية منذ بدايات المشروع الصليبي في أخريات القرن الخامس هـ/ الحادى عشر م^(١).

طبيعى والأمر كذلك، أن تكون أنطاكية فى بؤرة الاهتمام السياسى النورى، من أجل الإفادة من عائد حركة التجارة والمكوس المفروضة، فإذا أضفنا إلى ذلك أنها بإزدهارها التجارى مثلت مركز منافسة لمدينة حلب بشمال الشام. لأدركنا أن ضمها مثل أهمية كبيرة للدولة النورية .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن وقوع أنطاكية فى الحوض الأدنى من نهر العاصى^(٢)، قد جعل لها أهمية خاصة من حيث الناحية الزراعية وخصوبة تربتها، إلى الحد الذى جعل البعض يصفها بأنها من أخصب المناطق بعد دمشق^(٣) ، فى كافة أنحاء بلاد الشام، وحيث إن توسعات الدولة النورية سارت نحو السهول الفيضية، وانطبق ذلك على أنهار النيل ويردى وغيرها، فطبيعى أن يكون نهر العاصى ومدينته المزدهرة أنطاكية محلاً لإهتمام السياسة النورية ، خاصة ما عرف من ازدياد كثافة السكان بصفة عامة فى مثل تلك السهول الفيضية.

كذلك احتلت إمارة طرابلس أهميتها الاقتصادية هى الأخرى، إذ مثلت مخرجاً للتجارة الحلبية ، وكذلك العديد من المدن الشامية الداخلية مثل حمص ، ودمشق ، وحماه، وغيرها^(٤)، زيادة على ازدهار النشاط الزراعى بها، أما الرها فإنها مثلت محطة تجارية للطرق المارة بشمال الجزيرة .

ويضاف إلى الأهمية الاقتصادية ، رغبة الدولة النورية فى ضم مناطق جديدة إذ كانت تلك الإمارات تمثل مجالاً طبيعياً للتوسع النورى، فمعلوم أنها كانت دولة داخلية، ولم تملك موانئ

١- هايد ، تاريخ التجارة، ص١٤٧ ، عادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية ، ص١٣١ .

٢- Joannes Phocas, Abrief description of the castles and cities from The city of Antioch even unto Jerusalem". Trans . by A. Stewart, PPTS, vol. II, London 1894 , p. 6 .

أيضا : فامبرى ، أنطاكية القديمة ، ت. ابراهيم نصحي ، ط. القاهرة ١٩٦٧، الخريطة التوضيحية .

٣- أبو الفداء، تقويم البلدان ، ص٢٥٧ .

٤- نعيم زكى ، طرق التجارة الدولية ، ص١٥١ .

على ساحل شرق البحر المتوسط الذى خضعت موانيه للسيادة الصليبية منذ العهد الباكر للإحتلال الصليبي للمنطقة ، وطبيعى والأمر كذلك أن تسعى إلى الحصول على أحد الموانئ التجارية الحيوية ، ومن المرجح أنها بذلت قصارى جهدها من أجل السيطرة على ميناء السويدية (سان سيمون) والذى كان ضمه إليها يؤثر فى زيادة حركة الصادرات والواردات فى تلك المنطقة بين قارتي آسيا وأوربا^(١)، خاصة أن مدينة حلب تعاملت تجارياً مع ميناء السويدية ولارب فى أن التجار الحلبيين أدركوا أهميته الكبيرة .

وعلى الرغم من ذلك، فإن القوى الكبرى فى المنطقة لاسيما الإمبراطورية البيزنطية ومملكة بيت المقدس، ما كانتا لتقبلا توسع نور الدين على نحو يهدد مصالحها التجارية فى المنطقة وكانت حريصة على أن تظل الدولة النورية دولة داخلية دون منافذ بحرية على ساحل شرق البحر المتوسط، من أجل أن تنعم تلك القوى بفوائد دورها كوسيط تجارى بين تلك الدولة ومصادر توزيع تجارتها فى القارة الأوربية .

لقد تمكنت الدولة النورية فى مرحلة من مراحل الصراع مع إمارة أنطاكية من السيطرة على السويدية ، ولكن نظراً لتدخل مملكة بيت المقدس لم تستمر سيطرتها وتهاونت مع الصليبيين وانسحبت من الميناء الحيوى البالغ الأهمية .

أما الدوافع الاستراتيجية العسكرية ، فكانت على جانب كبير من الأهمية ويمكن أن تدركها من خلال تناول أهمية موقع الإمارات الصليبية نفسها، فقد وقعت أنطاكية شمال غرب بلاد الشام فى الحوض الأدنى لنهر العاصى ، وقاربت حلب مركز الدولة النورية التجارى والسياسى، أما الرها فإنها واجهت الموصل بشمال العراق، وسيطرت بموقعها فى أعلى الفرات على الخط الدفاعى بين حلب والموصل، ومثلت مركزاً تمكن الصليبيون من خلاله من دعم الاتصال بالمسيحيين فى جورجيا وعزل الأتراك فى الأناضول عن بقية العالم الإسلامى^(٢)،

١- نعيم زكى، طرق التجارة الدولية، ص ١٥١ .

٢- الحويرى ، الأوضاع الحضارية، ص ١٣٠ .

٣- عن موقع الرها أنظر :

Eucherius, Description of Jerusalem , Trans. by A. Stewart, PPTS, vol. II , London 1892
 , p. 19 , Silvia of Aquitania , Pilgrimage to the Holy Places, Trans by A. Stewart, PPTS, vol
 . II, London 1896, p. 34-35 .

كذلك كانت إمارة الرها بمثابة دولة حاجة فى مواجهة المسلمين، وكان عليها أن تواجه أولى الهجمات الإسلامية على الكيان الصليبي^(١). أما إمارة طرابلس فإنها مثلت الإمتداد الشمالى لمملكة بيت المقدس بحدودها الفلسطينية، وحدها من الغرب البحر المتوسط ومن الشرق الدولة النورية ومن الشمال إمارة أنطاكية .

لقد كانت مواقع الإمارات الصليبية على جانب كبير من الأهمية الاستراتيجية، بحيث شكلت تهديداً لحدود الدولة النورية ، ويلاحظ أن من دوافع نور الدين محمود للإلتجاء صوب أنطاكية ، رغبة فى تأمين حدود دولته الشمالية خاصة حلب من خطر الهيمنة الصليبية من جانب إمارة أنطاكية ، التى تاخمت حدودها حدود الدولة النورية الشمالية، ويبدو أنه أدرك أن الهجوم خير وسيلة للدفاع ولذا فإنه بادر بتوجيه الهجمات العسكرية إليها .

أما إمارة الرها فإن الدولة النورية أرادت أن تؤكد على النجاح العسكرى الذى حققه من قبل الأتابك عماد الدين زنكى بإخضاعها عام ٥٣٩هـ / ١١٤٤م خوفاً من وجود قوة صليبية على حدودها الشمالية الشرقية الأمر الذى من شأنه عرقلة اتصال شمال الشام بشمال العراق ، خاصة أن نور الدين كان يعلق آمالاً كبيراً على الدعم العباسى المادى والسياسى لدولته ، أما إمارة طرابلس فإن نور الدين هدف إلى وقف توسعها شرقاً على حساب حدود دولته .

كذلك هدفت الدولة النورية من خلال توجيهها عسكرياً نحو الإمارات الصليبية، خلق جبهة شمالية ضد الكيان الصليبي فى بلاد الشام ، يتم من خلالها الضغط العسكرى عليه لوقف توسعته فى مصر عندما وقع التسابق عليها من جانب الملك عمورى الأول ونور الدين محمود ، وقد اثمرت مجهودات الأخير فى هذا المجال ؛ إذ أدى انتصاره فى حارم عام ٥٥٩هـ / ١١٦٣م إلى إسراع الملك الصليبي بالعودة إلى الشام لمواجهة الموقف المتدهور هناك .

= ياقوت ، معجم البلدان، ط. ليبسك ، ج٣ ، ص٨٧٦؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٧٦- ص٢٧٧ ؛ ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك، ص٥١ ، يوسف بغدادى، «الرها» المشرق، العدد (٤) ، السنة (٨) لعام ١٩٠٥م، ص١٧١ ، زبدة عطا ، الترك فى العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص٩١ .

Riley - Smith, The Knights of St. John , p. 28 .

Kerr, The Crusades, New York 1964, p. 41 .

Vasiliev, Hist. of The Byzantine empire, Madison 1929, vol . II, p. 69 .

أما سياسة الدولة النورية تجاه الإمارات الصليبية : فنجد أن إمارة الرها قد أسقطها من قبل عماد الدين زنكى عام ٥٣٩هـ / ١١٤٤م^(١) ، وقد لاذ أميرها جوسلين الثانى بالفرار واستقر فى تل باشر، ولم يكن له نفس شخصية والده القوية الطموحة، بل إنه أنصرف إلى حياة المجون والترف على نحو كان عاملاً مؤثراً فى أسره على أيدي قوات نور الدين .

وقد حاول جوسلين الثانى استرداد إمارته المفقودة فى عام ٥٤٢هـ / ١١٤٧م وذلك بعد مقتل زنكى ، بمساعدة العناصر الأرمينية بداخلها^(٢) ، وأمكنه عبور نهر الفرات فى ربيع الثانى من عام ٥٤٢هـ / أكتوبر ١١٤٧م، وساعده الأرمن على فتح أبوابها والاستيلاء عليها^(٣)، وإن عجز عن قلعها^(٤)، نظراً لمناعتها وتجهيزاتها بالمعدات والرجال ، وعدم جلبه لآلات الحصار اللازمة لاقتحامها^(٥).

أمام ذلك الموقف : هب نور الدين إلى إنقاذ الرها، وعندما اقتربت قواته منها لاذ جوسلين بالفرار^(٦)، وقد تمكن الجيش النورى من إلحاق الهزيمة بالصليبيين ، وأصيب جوسلين نفسه ،

١- ابن القلائسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩؛ ابن الأثير، الباهر، ص ٦٨، عليه الجنزورى ، إمارة الرها الصليبية، ص ٣١٦-٣١٧.

Gibb, Zengi and the Fall of Edessa, in Setton , The Crusades, vol. I, p. 461 , Rohricht, Beitrage, vol . II, p. 57 .

٢- سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ق ١ ، ص ١٩١ ؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٢ ، ص ٢٩٠؛ ابن خلدون ، المعبر، ج ٥ ، ص ٢٣٨؛ النويرى ، نهاية الأرب، ج ٢٧ ، ص ١٥٢ .

٣- William of Tyre, vol. II, p. 158 .

٤- William of Tyre, vol. II, p. 158 .

ابن العديم ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٩٠ .

Rohricht, Beitrage, p. 313 .

٥- William of Tyre, vol . II, p. 158 .

وعن محاولة جوسلين الثانى أنظر :

براور ، عالم الصليبيين ، ت. قاسم وخليفة ، ط. القاهرة ١٩٨١م ، ص ٦٩ .

٦- ابن القلائسى ، المصدر السابق، ص ٢٨٨؛ ابن عساكر ، ترجمة محمود ابن زنكى، ص ١٣٦ .

وقتل فيمن قتل بلدوين صاحب مرعش^(١)، وقام الأول بعبور الفرات مسرعاً حتى بلغ سميساط وفر من كان معه في اتجاهات متفرقة^(٢)، وقامت القوات النورية بسلب المدينة ونهبها ، كعقاب لأهلها على تمردهم وغنمت من وراء ذلك الغنائم الوفيرة^(٣).

ووجدت لدى نور الدين محمود عدة اعتبارات دفعته إلى الإسراع نحو القضاء على محاولة جوسلين الثانى استرداد الرها، إذ أنه أراد إنقاذ الإنجاز الكبير الذى حققه والده زكى بإخضاع أولى الإمارات الصليبية، وما غنمه المسلمون من وراء ذلك من مغانم استراتيجية كبرى، كذلك أراد أن يوقف أية توسعات صليبية فى المنطقة الممتدة من شمال العراق، كذلك فإن عودة السيادة الصليبية للرها، كان من شأنه توجيه ضربة قوية لخط الدفاع الاستراتيجى القائم بين المدينتين ، والذى حرص نور الدين على عدم خضوعه لسيطرة الصليبيين بأية صورة .

ويلاحظ أن إسراع نور الدين بمواجهة الموقف المتدهور فى الرها- على الرغم من أنها لم تكن ضمن أملاكه وفقاً لاتفاق الخابور مع أخيه سيف الدين غازى- دل على إدراكه لكافة العوامل والاعتبارات السابقة .

ولاريب فى أن محاولة الصليبيين الاستيلاء على الرها، قد زادت من إدراك نور الدين لأهميتها فى الصراع الإسلامى- الصليبي وأهمية زيادة دفاعاتها لمواجهة الأطماع الصليبية .

كذلك وقع صدام حربى بين نور الدين وجوسلين الثانى ، عندما حاول الاستيلاء على أملاكه الصليبية، وتمكن الأخير من إلحاق الهزيمة بنور الدين عام ٥٤٥هـ / ١١٥٠م^(٤)، وأسر بعضاً

١- Anonymous Syriac chronicle, p. 297 .

٢- William of Tyre, vol. II, p. 141 .

٣- Anouymous Syriac chronicle, p. 161 .

ابن القلاسى ، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٨٨؛ ابن عساكر ، ترجمة محمود بن زكى، ص١٣٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج١١ ، ص٤٦ .

٤- ابن الأثير ، الباهر ، ص١٥٤؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص٢١٧؛ ابن العديم ، زبدة الحلب، ج٢ ، ص٣٠١؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج١ ، ص١٢٣ ؛ النيربى، نهاية الأرب، ج٢٧ ، ص١٥٦-١٥٧ .

من قادة الجيش النورى، ويلاحظ أن المصادر الرسمية العربية لا تقدم إشارات كافية عن هذه الهزيمة على نحو يدعو للإعتقاد بأنها كانت فادحة .

أدرك نور الدين من خلال تلك الأحداث ضرورة حرمان الصليبيين من قيادة جوسلين الثانى بأن سعى إلى أسره ، وبالفعل تمكن من ذلك فى نفس العام^(١). وسمل عينيه وأودعه السجن، وأمضى فيه نحو تسعة أعوام حيث أدركته منيته عام ٥٥٤هـ / ١١٥٩م^(٢)، وعد أسره من الأحداث الهامة فى صراع نور الدين مع الإمارات الصليبية، حيث عرفت عنه البسالة فى قتال المسلمين، وكانت النتيجة المباشرة لأسره هى سقوط أملاكه مثل تل باشر، وعين تاب وإعزاز، وتل خالد ، وقورس ، والرواندان، وبرج الرصاص ، ودلوك، ومرعش ، وغيرها من الأملاك^(٣) - سقوطها فى قبضة الجيش النورى .

١- اختلفت المصادر والمراجع بشأن تاريخ أسر جوسلين الثانى، فهناك من ذكر أن ذلك حدث عام ٥٤٤هـ / ١١٤٩م ومن أصحاب ذلك رأى سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ق١ ، ص٢٠٢؛ ابن أبيك ، الدوادارى، الدرة المضئبة ، ص٥٥٥ ، والبسيف ، Elisseeff, Nur Ad- Din, I . II, p. 453-454 .

وهناك اتجاه آخر يرى ذلك عام ٥٤٥هـ / ١١٥٠م، وهو الأرجح فى تقديري وقد وجد تأييداً من المؤرخين المعاصرين مثل ابن القلائسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣١٠؛ العماد الأصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق، ص٢٠٧، وكذلك ابن الأثير، الكامل، ج٨ ، ص٦٢-٦٣ ؛ ابن العديم ، المصدر السابق، ج٢ ، ص٣٠٢ ؛ ابن قاضى شهاب، الكواكب الدرية، ص١٣٦-١٣٧ ، وتأييد المؤرخين المعاصرين لتاريخ ٥٤٥هـ / ١١٥٠م تجعلنا نؤيده وقد أيد به بعض المؤرخين المحدثين وحدوده بصورة أدق هى ٥ محرم ٥٤٥هـ / ٥ مايو ١١٥٠م أنظر: عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص٦٤٢، عمران ، السياسة الشرقية ، ص١٧٩ .

Stevenson, The Crusaders in the East, p. 167 .

Anonymous Syriac chronicle, p . 301.

وعن أسره

William of Tyre, vol . II, p. 201 .

ابن القلائسى، المصدر السابق ، ص٣١٠ .

٢- وعن موته بعد سنوات الأسر أنظر :

William of Tyre, vol . II, p. 201 not (26) , Stevenson The Crusaders in the east, p. 181 .

٣- ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص٢٠٨؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج٢، ص٣٠٢-٣٠٣؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، ج١، ص١٢٤؛ سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان، ص٢٠٢؛ ابن الشحنة ، روضة المناظر، ص٥٥٠؛ النويرى ، نهاية الأرب ، ج٢٧ ، ص١٥٧ .

وقد اختلف المؤرخون فى تحديد المدة الزمنية التى استغرقها إسقاط قلاع وحصون وأملاك جوسلين الثانى، فذكر البعض أن ذلك حدث فى أيام يسيرة^(١)، بينما تصور الآخرون أنه حدث خلال عام^(٢)، وقرر ابن الوردي أنها مدة يسيرة^(٣)، ولكن اعتماداً على نص صريح لابن العديم أمكن الاعتقاد أن ذلك استغرق عدة سنوات ربما بلغت الخمس، يقول «فى ثامن عشر ربيع الأول سنة خمس وأربعين وخمسمائة فتح تل ياشر وتل خالد وفتح عين ثاب سنة خمسين وفتح قورس والراوندان وبرج الرصاص^(٤)...» وما يدعم هذا أن المصادر المعاصرة مثل ابن القلاسى والعماد الأصفهاني، لا يبرز إلا سقوط عزاز عام ٥٤٥هـ / ١١٥٠م^(٥)، مما يدل على أن القلاع والمناطق الأخرى سقطت بعد ذلك، ثم أن دلوك مثلاً استولى عليها نور الدين عام ٥٤٧هـ / ١١٥٢م^(٦).

وجدير بالملاحظة، تناول دوافع نور الدين للاستيلاء على كافة تلك الحصون والقلاع، فقد رغب فى تأمين خطوط التجارة بين حلب والموصل كذلك بين حلب ودولة سلاجقة الروم، والإمبراطورية البيزنطية، ووقوعها غرب نهر الفرات له أهميته الكبيرة إذ أنها - على ما يبدو - فرضت نوعاً من السيطرة على حركة التجارة بين شرق الفرات وغربه وبالذات فى الجزء الشمالى لبلاد الشام، أما الدوافع الاستراتيجية العسكرية فتمثلت فى رغبة نور الدين الأكيدة فى تأمين الخط الدفاعى الحربى الواقع بين الموصل وحلب، إذ أن خضوع تلك القلاع والحصون فى أيدي الصليبيين هدد ذلك الخط تهديداً كاملاً.

هكذا نجد أن سياسة نور الدين محمود تجاه إمارة الرها، تمثلت فى القضاء على محاولة أميرها السابق استردادها، ثم اتجأه إلى أسره وإسقاط أملاكه، وطبيعى أن ندرك أن دوره فى هذا المجال كان المحافظة على ما أمكن إنجازه فى عهد والده، والقضاء على المراكز

١- كرد على، خطط الشام، ج٢، ص ٣٧.

٢- Stevenson, Op. cit, p. 148.

٣- ابن الوردي، تنمة المختصر، ص ٥٠.

٤- ابن العديم، زبدة الحلب، ج٢، ص ٣٠٣-٣٠٢.

٥- ابن القلاسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٣١٠؛ العماد الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٢٠٧.

٦- ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص ١٢٥.

الحصينة التى سيطر عليها جوسلين الثانى، ويلاحظ أن جهوده نحوها لم تكن على ذلك المستوى الكبير الذى حظيت به إمارة أنطاكية مثلاً، نظراً لإنهاء قوة إمارة الرها الصليبية الفعلية فى عهد والده .

أما إمارة إنطاكية فقد تولى حكمها خلال عهد نور الدين محمود ثلاثة من الأمراء ، ريموند Raymond de Poitiers دى بواتيه^(١) (٥١٩-٥٤٣هـ / ١١٣٦-١١٤٩م) وقد اتجه إلى محاولة طلب عون الحملة الصليبية الثانية، عندما قدمت إلى الشام من أجل مساعدته فى استرداد أملاكه المفقودة شرق نهر العاصى .

أما رينودى شاتيون Reynald de Chatillon^(٢) أو أرناط فى المصادر العربية (٥٤٨-٥٥٧هـ / ١١٥٣-١١٦٢م) فقد شن هجماته على الأعمال الحلبية ، ووصف بالاندفاع والتهور ، وجرت تصرفاته على الصليبيين فى بلاد الشام بصفة عامة وأوخم العواقب، وقد عمل نور الدين على أسره ، وتمكن بالفعل من ذلك ومكث فى السجن سبعة عشر عاماً خرج بعدها يقاتل المسلمين بضراوة .

- وتولى بوهيمند الثالث Bohemond III (٥٥٨-٥٩٥هـ / ١١٦٣-١٢٠٠م) عرش الإمارة تحت وصاية الأميرة كونستانس أرملة ريموند دى بوانيه، ويلاحظ أنه أسر فى معركة حارم عام ٥٥٩هـ / ١١٦٤م .

Rey , “ Resume chronologique de L’histoire des princes d’ Antioche” , ROL, IV, An- -1 née 1896, pp. 358-348 .

William of Tyre, vol. II, pp. 248-414

٢- عنه أنظر :

OTTO of St. Blasion , The Third Crusade from the chronicle of OTTO of St. Blasion in thatcher, source book of medieval History , New York 1903, p. 529-530 .

مجهول ، الاستبصار فى عجائب الأمصار ، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، ط. الإسكندرية ١٩٥٨م، ص ١٠٥ ؛ ابن أبيك الدوادارى، د، والتيجان وغرر تواريخ الزمان ، ورقة (٤٩٨) ك السلامى، مختصر التواريخ ، ورقة (٥٨) . Schlumberger, Renauld de chaillon, Prince di Antioche, Paris 1933 .

وأيضا ، محمود رزق محمود ، العلاقات بين أرناط أمير حصن الكرك وصلاح الدين الأيوبي حتى موقعة حطين ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة عين شمس ، لعام ١٩٧٧م . على أحمد السيد، الخليل والحرم الإبراهيمى عصر الحروب الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧م، ١٩٩٨م/ ٤٩٢-٥٨٣هـ، ط. القاهرة ١٩٩٨م، ص ٢٢٧ - ٢٣٤ .

أما سياسة نور الدين محمود تجاه إمارة أنطاكية ؛ فقد امتازت بتعدد المعارك الكبيرة التى خاضها ضدها . على نحو لم نجده بالنسبة لغيرها من الإمارات الصليبية الأخرى .

فعندما كان نور الدين فى حلب بعد تأسيس دولته ، تولى حكم أنطاكية الأمير الصليبي ريموند دى بواتيه (٥٣١-٥٤٤هـ / ١١٣٦-١١٤٩م) وقد أدرك أن سقوط إمارة الرها فى قبضة المسلمين فى عهد الأتابك زنكى سيتلو بالضرورة إحداق الخطر بإمارته ، لذا اغتنم فرصة مقتلته فهاجم أملاك حلب ، وعندما قدمت الحملة الصليبية الثانية إلى بلاد الشام ، حاول أن يوجهها إلى مهاجمتها ^(١) ، ليقضى على خطرهما نهائياً ، غير أن ذلك لم يحدث ، وتوجهت الحملة صوب دمشق تاركة إمارة أنطاكية تواجه صراعاتها مع نور الدين .

وقد بلغ العداء مع تلك الإمارة ذروته عندما وقعت معركة يغرى ^(٢) فى رجب ٥٤٣هـ / نوفمبر ١١٤٨م ، وإن اختلف المؤرخين بشأنها من حيث انتصار الصليبيين ^(٣) ، أو هزيمتهم ^(٤) ، وذهب البعض إلى القول بأن المعركة وقعت فى مرحلتين ، مرحلة حالف النصر الجيش النورى ، ومرحلة أخرى منى فيها بالهزيمة ، وفى تقديره أن المصادر العربية أغفلت الهزيمة وأبرزت إنتصاره ^(٥)

William of Tyre, vol. II, p. , Elisseeff, l'Orient Musulman, p. 245 .

-١

حسين مؤنس ، نور الدين محمود ، ص ٢١٠ ، العرينى ، الشرق الأوسط ، ص ٦٢٥ ، مسفر الخالدى ، الجهاد ضد الصليبيين ، ص ٢٤٥-٢٤٦ .

٢- وقعت يغرى على النهر المعروف بإسمها حيث صب فى بحيرة أنطاكية أنهار ثلاثة ، النهر الأسود إلى الشرق ، ثم نهر يغرى فى الوسط ، ونهر عفرين إلى الغرب ، وقعت يغرى إلى الشرق من درساك فى شمال أنطاكية ، عنها أنظر : ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ ، حاشية (٤) ، عمران ، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية ، ص ١٦٨ ، حاشية (٢) Stevenson, The crusaders, p. 165 .

٣- ابن القلائسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠٢-٣٠٣ ،

Anonymous Syriac chronicle, p. 300 .

٤- ابن العديم ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٥ ؛ ابن وأصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١١٤ ؛ ابن الوردى ، تنمة المختصر ، ص ٤٨ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٧ ، ص ١٥٤ ، أيضاً : حسين عطية ، إمارة أنطاكية الصليبية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة الإسكندرية ١٩٨١م ، ص ٢٣٣ .

٥- حبشى ، نور الدين والصليبيين ، ص ٧٩ .

وأغلب الاحتمال أن النصر حالف نور الدين فى النهاية، فقد أكدت المصادر إرسال الغنائم والأسرى إلى إخوته ، وإلى الخليفة العباسى^(١)، ومن المستبعد تمامًا قيامه بذلك فى حالة هزيمته، كذلك فإن نور الدين عمل على استغلال إنتصاره فعمل على الاستيلاء على حصن حارم^(٢) وارتاح.

واستمر الصراع بين حلب وأنطاكية فجرت وقائع معركة أنب^(٣) فى صفر ٥٤٤هـ/ يونيه ١١٤٩م، ووقعت فى منطقة سهلية على نحو أدى إلى حدوث معركة كبيرة هزم فيها الصليبيون وقتل فيها ريموند دى بواتيه وعدد من كبار قادة الصليبيين^(٤)، ومن الملاحظ أن نور الدين تلقى دعمًا عسكريًا من جانب دمشق ، وإن وقفت الإسماعيلية النزارية إلى جانب الصليبيين ، ولقى قائدهم على بن وفا مصرعه على نحو عكس أنه فى سبيل المصالح السياسية العليا ارمى الإسماعيلية فى أحضان الصليبيين ضد القيادة السنية المجاهدة^(٥).

١- ابن الأثير ، الكامل ، ج١١ ، ص ٥٥ .

٢- ابن القلائسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠٢ ، عاشور ، الحركة الصليبية ج٢ ، ص ٦٣٧ .

٣- وقعت أنب ضمن أعمال عزاز فى شمال الشام ، عنها أنظر :

كرد على ، خطط الشام، ج٢ ، ص ٢٣، وأورد حسين مؤنس التسمية على أنها أناب وهى تسمية لم ترد فى أى من المصادر العربية المعاصرة أو اللاحقة على هذا النحو، حسين مؤنس ، صور من البطولة ، ص ١٧٣ ، ولعل ذلك خطأ مطبعى .

٤- عن تفاصيلها أنظر :

Anonymous Syriac chronicle, p. 300 ,

ابن القلائسى، المصدر السابق ، ص ٣٠٤ ؛ العماد الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٠٧ ؛ ابن الأثير، الباهر، ص ٩٨-٩٩ ؛ الكامل، ج١١ ، ص ٥٨-٥٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج١ ، ص ١٢٠-١٢١ .

Elisseeff, Nur Al- Din , T. II, pp. 430- 432 , Gibb, The career of Nur Al- Din , p. 515 , Stevenson, The crusaders, p. 165 .

أنطوان برديج، الحروب الصليبية، ت. سبانو وزميله ، ط. دمشق ١٩٨٥م، ص ١٥٩ ، العروسى المطوى، الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب، ط. تونس ١٩٥٤م ، ص ٤٨ .

٥- ابن القلائسى ، المصدر السابق، ص ٣٠٤ ؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج٢ ، ص ٢٩٨-٢٩٩ .

ويعد انتصار أنب ، من أهم إنتصارات نور الدين محمود خلال تلك المرحلة المبكرة من حكمه ، وبعده البعض نقطة تحول فى صراعه مع الصليبيين ، وقد أكسبه إنتصاره صيتاً كبيراً فى العالم الإسلامى .

وبلاحظ أن وقوع معركتين كبيرتين بين حلب وأنطاكية خلال ثمانية شهور فقط، دل بوضوح على احتدام الصراع بينهما وسعى نور الدين الأكيد إلى إضعاف الإمارة الصليبية التى مثلت تهديداً أساسياً لشمال الشام. ودل ذلك من ناحية أخرى على الكفاءة القتالية للجيش النورى، الذى خاض غمار معركتين هامتين خلال تلك المرحلة القصيرة وخرج منهما مظفراً .

وعلى أثر مقتل ريموند دى بواتيه ، اضطربت الأوضاع السياسية فى أنطاكية ، ويقرر وليم الصورى نفسه أن الفوضى حلت بالإمارة ، واستولى الهلع على كافة الناس وأن الأرض صارت ممهدة أمام قوات نور الدين ، لأن الحرب أخذت زهرة الجيش، وأمير البلاد، ولم يعد هناك من يقدم حماية قوية ضد الأخطار التى هددتهم^(١).

وطبيعى أن سعى نور الدين إلى الإفادة من انتصاره فعمل على الاستيلاء على عدد من الحصون الأنطاكية فى كل الوادى الأوسط لنهر العاصى ، ومنها أرزمان، وأنب، وعم، واجتاح سهل أنطاكية حتى بلغ ميناء السويدية (سان سيمون San Simeon)^(٢) وبذلك قضى على المراكز الصليبية الأمامية الراقعة بين حلب وأنطاكية^(٣)، بل أنه هدد أنطاكية نفسها وحاصرها^(٤)،

William of tyre, vol. II, p. 199 .

-١

٢- حسين عطيه ، إمارة أنطاكية الصليبية ، ص٢٣٥ ، العرينى، الشرق الأوسط، ص٥٧٦، عاشور ، الحركة الصليبية، ج٢ ، ص٦٣٩، حسن حبشى ، نور الدين والصليبيون، ص٨٣ .

٣- عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس ، ص١٥٢ ،

وقد بالغ تيسير بن موسى فى حجم التوسعات الحربية عقب الانتصار فى أنب حيث ذكر أن نور الدين اندفع بقواته نحو أنطاكية وتمكن من تحرير جميع المدن والقرى المحيطة بها من الصليبيين ، أنظر :

تيسير بن موسى، غزوات الافرنج ، ص١٤٧، ونتصور أن توسعاته شملت السهل الأوسط لنهر العاصى فقط على ما هو مرجح .

Elisseeff, Nur Al- Din, T. II, p. 432-433 .

-٤

واتفقت معه المدينة على الاستسلام فى حالة عدم مقدم الملك الصليبيى بلدوين الثالث^(١) ، وبالفعل حضر وفرض حصاره على حصن حارم ولما باء بالفشل ؛ عاد أدرجه إلى أنطاكيه^(٢) ، وعقد هدنة مع نور الدين^(٣) .

ومن الملاحظ هنا أن سياق الأحداث الذى تقدمه المصادر العربية المعاصرة وكذلك اللاتينية يبدو غريباً ، إذ أنه بعد أن وصل نور الدين إلى ذلك الوضع المتميز نجده يتراجع ، إذ هزم الإمارة فى معركة أنب وقتل أمير أنطاكية وتوغل فى مناطقها حتى وصل إلى ميناء السويدية- على نحو مثل إنجازاً كبيراً لم يحققه طوال صراعه مع الإمارة- وبعد ذلك كله ارتضى بعقد هدنة مع الملك الصليبيى بلدوين الثالث !! إن تحليل الموقف السابق- وكما أكدته المصادر العربية- هو الخوف من الخطر البيزنطى ، إذ أن بيزنطة لم تكن لتقبل بامتداد النفوذ النورى إلى ذلك المدى البعيد فى سهل العاصى ، ويبدو- وهذا هو المهم- لم تكن لتقبل باستمرار السيطرة على ميناء سان سيمون وحصول الدولة النورية ذات الطابع الجغرافى الداخلى على ميناء هام لعمليات الاستيراد والتصدير ، ولم يشأ أن يثير البيزنطيين على نحو يجعلهم يزيدون من نفوذهم فى شمال الشام على نحو يهدد مركز دولته التجارى والسياسى .

إن مملكة بيت المقدس وكذلك الإمبراطورية البيزنطية ، ربما قبلتا بأن تتساقط بعض القلاع التابعة لإمارة أنطاكية ، لكن أن يسيطر نور الدين على مراكز اقتصادية بالغة الأهمية لحركة التجارة فى تلك المنطقة الحيوية بين قارتى آسيا وأوربا ، فهذا لم يكن مقبولاً منهما ، وهكذا لم نعد نسمع شيئاً فى المصادر العربية أو اللاتينية عن استمرار النفوذ النورى فى السويدية ، وأغلب الاحتمال أن القوات النورية انسحبت منه بناء على الهدنة الموقعة مع بلدوين الثالث .

مهما يكن من أمر ، فقد عمل الجيش النورى على الاستيلاء على بعض المراكز الحصينة للإمارة فاستولى على أفامية عام ٥٤٤هـ / ١١٤٩^(٤) ، وتعد من أهم الحصون شرقى نهر العاصى ، وعد ذلك نقطة مهمة فى سبيل غزو الإمارة فيما بعد^(٥) .

١- ابن القلاسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠٥ .

٢- William of tyre, vol. II, p. 300 .

٣- حسين عطية ، إمارة أنطاكية الصليبية ، ص ٢٣٦ .

٤- William of tyre, vol. II, p. 198, note (80) ,

فايد عاشور ، جهاد المسلمين ، ص ٢١٠ ، العربى ، الشرق الأوسط ، ص ٥٧٨ .

٥- Stevenson , The crusaders, p. 165 .

ومن جهة أخرى : سعى نور الدين إلى اتباع نفس السياسة التي انتهجها مع إمارة الرها من قبل عندما أسر جوسلين الثاني، إذ أنه سعى إلى أسر رينودى شاتيون ، وهو الفارس الصليبي وقد تولى حكم إمارة أنطاكية منذ عام ٥٤٨هـ / ١١٥٣م^(١)، وتمكن المسلمون من أسره بفضل مساعدة التركمان^(٢)، وقدموه إلى مجد الدين بن الداية نائب نور الدين بحلب وطبيعى أن الهدف من وراء ذلك كان إحداث أكبر قدر من الفوضى فى الإمارة فى أعقاب أسر أميرها، وقد خشى الملك الصليبي بلدوين الثالث من تدخل الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين فى شئون الإمارة بعد أسر أميرها ، خاصة أن بوهيمند الثالث- الذى تولى بعده- كان صغير السن ، ولذا فقد قدم إليها وجعل الوصاية على عرش الإمارة فى يدى البطريرك ايمرى ليمجوس^(٣)، وكان من الممكن لنور الدين حينذاك التقدم صوبها لإسقاطه ولكن حال دون ذلك ذات الاعتبارات التى عاقبه عام ٥٤٤هـ / ١١٤٩م .

١- Rey, Resume Chronologique de L'Histoire des Princes d'Antioche, p. 348

٢- Anonymous Syriac chronicle, p. 303, William of tyre, vol . II, p. 283-284 .

ويوجد خلاف بين المؤرخين بشأن تحديد تاريخ أسر أرناط فهناك من جعله عام ٥٥٦هـ / ١١٦٠م مثل ستيفنسن ورنسيمان , Stevenson, The crusaders, p. 183, note (2), Runciman, vol. II, p. 357

وأيضًا ، العربى ، الشرق الأوسط، ص٦١٩- ص٦٩٠، حسين عطية، إمارة أنطاكية الصليبية، ص٢٥٨، ويوجد من تصور ذلك عام ٥٥٧هـ / ١١٦١م مسفر الخالدى ، الجهاد ضد الصليبيين، ص٢٦٧- ص٢٦٨، أما المصادر السريانية فتجد أن المؤرخ السريانى المجهول يقرر أن ذلك وقع عام ٥٥٢هـ / ١١٥٧م Anonymous syriac chronicle, p. 303 .

أما المصادر اللاتينية مثل، وليم الصورى ، فيذكر أن أسره تم فى العام الثامن عشر من حكم بلدوين الثالث- William of tyre, vol . II, p. 284-285 ولما كان بلدوين الثالث قد تولى الحكم عام ٥٣٩هـ / ١١٤٤م اعتمادا على دراسة العملة الصليبية ، أنظر :

رأفت النبراوى ، المسكوكات الصليبية فى مصر والشام، رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآثار - جامعة القاهرة لعام ١٩٨٠م ، ص١٠٦ وبالتالى يكون أسر أرناط تم حوالى عام ٥٥٨هـ / ١١٦٢م .

٣- William of tyre, vol. II, p. 287-288 .

وتطور الصراع بين الدولة النورية وإمارة أنطاكية تطوراً خطيراً فى صورة معركة حارم عام ٥٥٩هـ / ١١٦٣م^(١)، التى اشتركت فيها العديد من القوى المواجهة لنور الدين ، منها الصليبية ، والبيزنطية ، والأرمينية .

أما اشتراك القوى الصليبية ، فذلك مرجعه إلى رغبتها فى تحجيم خطر نور الدين ، الذى تزايد من خلال هجماته على إمارة أنطاكية، وسعت الإمبراطورية البيزنطية إلى المشاركة فى مواجهة نور الدين . نظراً لإتباطأتها الأصلية بأنطاكية ، من قبل الغزو الصليبي فى أواخر القرن الخامس هـ/ الحادى عشر، وأراد الأرمن هم أيضاً جنى ثمار مشاركتهم فى المعركة فى حالة الظفر .

وقد اغتنم نور الدين محمود فرصة غياب الملك عمورى الأول فى مصر لتنفيذ مشروعه الصليبي هناك وهاجم إمارة أنطاكية^(٢)، وطبيعى أنها حرمت من العون العسكرى الكبير الذى كان من الممكن أن يقدمه لها، ويقال- وفقاً لرواية ابن عساكر وغيره- إن عدد القوات المتحالفة بلغ ثلاثين ألفاً^(٣)- وعلى الرغم من إدراكنا لطابع المبالغة العددية الذى اعتادته

١- وقعت حارم ضمن إمارة أنطاكية على بعد عشرة أميال غربها وهى حالياً من مناطق محافظة أوليا فى شمال سوريا وتبعد عن أوليا مسافة ٥٣ كم عنها أنظر : William of tyre, vol. II, p. 306-308 . Jacque de vitry , Hist. of Jerusalem, Trans. by Stewart, PPTS, vol. XI, London 1896, p. 94 .
عمران ، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية، ص ٢٨٥، فتحى عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية ، ج١ ، ص ٢٣١ .

عن معركة حارم أنظر بالتفصيل : Anonymous syriac chronicle, p. 303, William of tyre, vol. : II, p. 306-308, Jacque de vitry, p. 94 .

ابن الأثير، الباهر، ص ١٢٤؛ الأصفهاني ، البستان الجامع ، ص ١٣٥ ؛ أبوشامة ، الروضتين، ج٢ ، ص ٣٢٩- ٣٤١؛ العدوى، الزيارات، تحقيق المنجد ، ط. دمشق ١٩٥٦م ، ص ٤٠، عمران ، «معركة حارم»، مجلة المؤرخ العربى، العدد (٨) لعام ١٩٧٧م، ص ٩٠- ص ١١٢ .

Jacque de vitry, p. 94 .

-٢-

٣- ترجمة محمود بن زنكى، ص ١٣٨ .

المصادر حينذاك - ، وتلقى نور الدين دعماً كبيراً من المناطق المجاورة، خاصة من أخويه نصرة الدين، وقطب الدين وكذلك من زين الدين كوجك حاكم أربيل ، وحاكم سنجار، وابن عم مجد الدين وسيف الدين صاحب منيج^(١)، وقد كلل جهد الجيش الثوري بالنجاح وأنزل هزيمة كبيرة بالقوات المعادية وبلغ عدد القتلى نحو عشرة آلاف^(٢)، ويقال أن الأسرى بلغوا ستة آلاف من كبارهم^(٣)، ومن بينهم أمير أنطاكية بوهيمند الثالث ، وأمير طرابلس ريموند الثالث، وأمير كيليكيا البيزنطي قسطنطين كارلومان ، وهيو دي لوزينيان^(٤)، بينما فر تورس الأرمني من ساحة القتال عندما أيقن تفوق المسلمين ، ولم ينصت الصليبيون إلى نصحه لهم بانتظار مقدم الملك عموري من مصر^(٥).

وينبغي أن نلاحظ احتمال المبالغة في أعداد قتلى الصليبيين في معركة حارم بالذات ، فابن الأثير- ريبب الزنكيين- والذي قدم مادة تاريخية مفصلة عن المعركة أشار إلى آلاف القتلى، ويبدو أنه أراد أن يصور المعركة على أنها بضخامة معركة حطين عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م، ومن المحتمل أن أعداءه لصالح الدين جعله يصور معركة حارم تصويراً مبالغاً فيه يحوى طابع تمجيد لنور الدين، ويلاحظ أن كافة المؤرخين المتأخرين قد نقلوا عنه أحداث المعركة وخسائر الصليبيين فيها .

Anonymous syriac chronicle, p. 303 .

-١

ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج١ ، ص١٤٣ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٤٨ .

٢- ابن العديم ، زبدة الحلب، ج٢ ، ص٣٢٠ ؛ ابن واصل ، المصدر السابق ، ج١ ، ص١٤٥ ، الذهبي، دول الإسلام ، ص٧٤ .

٣- سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨ / ١ ق ، ص٢٤٧ ؛ أبو الفداء، المختصر، م(٢)، ج(٥)، ص٥٦ .

Anonymous syriac chronicle, p. 304, William of tyre, vol. II, p.

-٤

العماد الأصفهاني، سنا البرق الشامي، ص١٩ ، أبو شامة الروضتين ، ق١ / ج٢ ، ص٣٣٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، ج١ ، ص١٤٥ ؛ الذهبي، العبر، ج٤ ، ص١٦٧ ؛ الحريري ، الإعلام والتبيين، ص٧٨ ؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤ ، ص١٨٦ .

Anonymous Syriac chronicle, p. 204, William of tyre, vol . II, p. 308 .

-٥

ولا مراء فى أن موقعة حارم أثرت على نطاق متسع على العلاقات النورية- الأنطاكية؛ فقد مثلت إنتصاراً لنور الدين ضد الوجود الصليبي فى شمال الشام، وفقدت الإمارة الكثير من فرسانها بين قتيل وجريح ، وسلبتها قيادات فعالة وحق لكلود كاهن أن يصفها بأنها كارثة^(١)، وقد حقق نور الدين من جرائها العديد من المكاسب؛ إذا استولى على حارم^(٢)، وعمل على الإغارة على مناطق أنطاكية ، بعد أن أيقن عدم وجود مقاومة حقيقية ضده، وبلغت قواته اللاذقية وسعى إلى اكتساب مغانم وفيه من أعدائه^(٣) ، وانتهاز فرصة غياب عمورى فى مصر واستولى على بانياس بعد ذلك بشهرين^(٤). على نحو هكس تزايد فعالياته خلال تلك المرحلة الزمنية القصيرة .

ومع ذلك ؛ فينبغى ألا نقبل المبالغة بشأن نتائج معركة حارم، إذ أنها لم تحدث تغييراً كبيراً على خريطة منطقة شمال الشام ولم تؤد إلى إخضاع إمارة أنطاكية لسيادة الدولة النورية إذ أن الإمبراطورية البيزنطية وقفت كقوة عسكرية وسياسية كبرى لتحول دون تحقيق ذلك، وهكذا أدت حارم فى الحقيقة إلى مكاسب جزئية، لا تتفق مع حجم ما صورته المصادر عن ضخامة خسائر الصليبيين فيها.

ومن جهة أخرى ؛ اتجه نور الدين إلى إطلاق سراح خصمه بوهمند الثالث، أمير أنطاكية^(٥) عام ٥٦١هـ / ١١٦٥م ، وربما كان دافعه إلى ذلك أنه أدرك محدودية كفاءته الحربية، ولم يجد خطراً كبيراً من عودته ليحكم إمارته من جديد، وقد خشى ظهور أمير آخر أكثر كفاءة وقمرساً بالجوانب العسكرية ، والسياسية ؛ على نحو يجلب المصاعب على الدولة

Cahen, La syrie du nord, p. 204 ,

-١

"Le desastre de Harim"

يقول عنها

William of tyre, vol. II, p. 308 .

-٢

أبو شامة ، الروضتين، ق ١ / ج ٢ ، ص ٣٢٠؛ ابن واصل ، مفرج الكرب، ج ١ ، ص ١٤٥؛ الحريرى، الإعلام والتبيين، ص ٧٨ .

٣- ابن الأثير ، الباهر، ص ١٢٥؛ ابن العديم ، زبدة الحلب، ج ٢ ، ص ٣٢٠ .

William of tyre, vol. II, p. 308-310 .

-٤

ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ٣٢١ .

William of tyre, vol. II, p. 311 .

-٥

النورية، ومن المحتمل أنه أدرك خطورة حدوث ضغط صليبي أو بيزنطي لإطلاق سراحه ، فرغب فى المبادرة بالقيام بذلك بدلاً من أن يضطر إليه على نحو يضعف من مركزه السياسى أمام الأمراء المسلمين .

أما إمارة طرابلس فعاصر عهد نور الدين محمود اثنان من أمرائها، ريموند الثانى ٥٣٢-٥٤٧هـ / ١١٣٧-١١٥١م وريموند الثالث ٥٤٧-٥٨٣هـ / ١١٨٧م، وقد شهد عهد وقد شهد عهد ريموند الثانى اعتماد الإمارة على عناصر فرسان الاستتارية ، فى الدفاع عن حصن بالغ الأهمية هو حصن الأكراد^(١) عام ٥٣٧هـ / ١١٤٢م، وقد اغتاله عناصر الإسماعيلية النزارية عام ٥٤٧هـ / ١١٥٢م .

وفيما يتعلق بريموند الثالث ؛ فقد حكم الإمارة وهو لا يزال طفلاً صغيراً فى الحادية عشر من عمره، فتولت الوصاية عليه أمه هوديرن وقام الملك الصليبي بلدوين الثالث بتنظيم أمور الوصاية ، ويلاحظ أنه وقع أسيراً فى معركة حارم السالفة الذكر.

أما سياسة الدولة النورية تجاه إمارة طرابلس ، فقد اتسمت بصراع عنيف لإسقاط حصونها وقلاعها، واحتلت تلك الإمارة الصليبية أهمية متميزة لديها نظراً لتصريف التجارة الشامية عبر موانئها إلى عالم البحر المتوسط .

١- وقع حصن الأكراد على بعد أربعين كم من مدينة حمص وقد تحكم فى الممر الهام بين سهول نهر العاصى والبحر المتوسط ، وأشرف على كل الإقليم الواقع بين أنطربوس وطرابلس من ناحية وحمص من ناحية أخرى ، وقد عهد صالح بن مرداس لجماعة من الأكراد عام ٤٣٤هـ / ١٠٣٣م بأمر الدفاع عنه وعندما احتل الصليبيون إمارة طرابلس خضع لسيطرتهم ، وقد استرده المسلمون فى عهد السلطان الظاهر بيبرس عام ٦٦٩هـ / ١٢٧١م عند أنظر :-

ابن شداد الحلبي، الأعلام الخطيرة ، ج٢ ، ص ١١٧ ،

Marino Sanutos, Secrets for true crusaders to help them to recover the Holy land, trans. by A. Stewart, PPTS, vol. VII, London 1896, p. 5 , Deschamps, Le crac des chevaliers, Paris 1958 .

مصطفى طلاس ومحمد وليد الجبلاد، قلعة الحصن، حصن الأكراد، ط. دمشق ١٩٩٠م ، مرثى محمد سالم، حصن الأكراد وروده فى الصراع الصليبي- الإسلامى ، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب- جامعة الإسكندرية عام ١٩٩٢م .

ومن ناحية أخرى، ساعدت الأحداث في بلاد الشام وتصارع القوى السياسية نور الدين على تحقيق بعض أهدافه ، إذ أنه خلال عام ٥٤٦هـ / ١١٥١-١١٥٢م اغتيل ريموند الثاني أمير طرابلس على أيدي عناصر الإسماعيلية النزارية^(١)، فسقط بذلك أحد خصوم الدولة النورية من الصليبيين .

ويلاحظ هنا أن وليم الصوري لا يقدم لنا صورة مفصلة للحادث أو دوافعه ، وإن أشار إلى أن عناصر الإسماعيلية النزارية تصارعت قبل الحادث مع بعض الأمراء التابعين لريموند الثاني، ويبدو أن تحليل الموقف يكمن في صراع المصالح بين الفريقين نظراً لوقوع قلاع الدعوة الإسماعيلية الجديدة في مناطق إمارة طرابلس^(٢)، وحيث أن الاغتيال كان سلاح الإسماعيلية النزارية الرهيب الذي أشهرته في وجوه أعدائها ، فإن ذلك الأمير الصليبي لم يسلم منه .

وطبيعي أن نلاحظ أن الموقف كان بعيداً عن الدولة النورية، ومن المستبعد تماماً أن يكون لها أي تورط في الأمر ، ولم تكن الإسماعيلية أداة تنفيذ لأهداف نور الدين إذ أنها نفسها كانت على خلاف حاد معه وهددته عدة مرات ، ولو كان وراء تلك الحادثة لما تردد وليم الصوري عن الإشارة إلى ذلك .

William of tyre, vol. II, p. 214 ,

برنارد لويس ، الدعوة الإسماعيلية الجديدة، ص١٢٦ ، أسامة زكي ، الصليبيون وإسماعيلية الشام، ص٢٢٥ ، سالم ، طرابلس الشام، ص٢٧٦ .

Lewis, The Assassins, p. 109 , Margoliouth, the Assassins, p. 140, Runciman, The Crusades, vol. II, p. 333, Boase, Kingdoms and strongholds, p. 108 .

ويلاحظ أن هناك اختلافاً بين المؤرخين حول تحديد تاريخ اغتيال ريموند الثاني ؛ إذ لا يذكر وليم الصوري تحديد تاريخ الحادثة، ولكن يبدو أن ذلك وقع بين عامي ١١٥١، ١١٥٢م إذ يذكر وليم الصوري الحادثة بعد إشارته لعودة بلدوين الثالث من شمال الشام وحيث أن عودته لم تقع قبل عام ١١٥٠م فطبيعي أن ذلك وقع بعد العام المذكور ، أنظر :

William of tyre, vol . II, p. 214 , Stevenson, the Crusaders, p. 170, note (5) .

٢- جوزيف نسيم ، العدوان الصليبي في بلاد الشام ، ط. بيروت ١٩٨١م، ص٢٣٤ .

مهما يكن من أمر ، فإن نور الدين اتجه إلى تركيز جهده ضد الإمارة في مهاجمة حصونها ، فهاجم حصن أنطوطوس عام ٥٤٧هـ / ١١٥٣م ، وحصن يههور ، وحشد القوات اللازمة للدفاع عنهما ، كما استولى في نفس العام على حصن المرقب وهو من أمنح حصون الإمارة .

كذلك حدث صدام حربي عنيف بين نور الدين وإمارة طرابلس عند سفح حصن الأكراد- على الأرجح- في عام ٥٥٨هـ / ١١٦٢م ، وعرفت المعركة بالبقية ، وهزم فيها الجيش النوري هزيمة فادحة^(١) ، بل أن نور الدين نفسه تمكن من الفرار بأعجوبة ، ويبدو أن عنصر المفاجأة لعب دوره في إنتصار الصليبيين ، وقد كان من قادتهم جوفري مارتيل ، وهيودي لوزينان^(٢) ،

William of tyre, vol. II, p. 306, Michel Le Syrien. chronique, ed Chabot, Paris 1903, -١ p. 324 .

ابن الأثير ، الكامل ، ج١١ ، ص١١٩ ؛ الباهر ، ص١٣٧-١٣٨ ؛ سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج٨ / ق١ ، ص٢٤٤ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج١ ، ص١٣٥ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ ، ص٣١٢-٣١٤ ، عبد العزيز عبد الدايم ، إمارة طرابلس الصليبية في القرن الثاني عشر ، رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآداب- جامعة القاهرة لعام ١٩٧١م ، ص٨٩ .

Jean Richard, La Comte de Tripoli sous la Dynastie Toulousaine, Paris 1945, p. 21 ,

وقد اختلفت المصادر في التحديد الزمني للمعركة :

٥٤٤هـ / ١١٤٩م ابن أبيك الدواداري ، الدرة المضيفة ، ص٥٥٤ ،

٥٤٨هـ / ١١٥٣م النويري ، نهاية الأرب ، ج٢٧ ، ص١٥٩ ،

٥٥٢هـ / ١١٥٧م أبو الفداء ، المختصر ، م (٢) ، ج (٥) ، ص٥٦ ،

٥٥٧هـ / ١١٦١م الحريري ، الإعلام والتبيين ، ص٧٧ ،

٥٥٨هـ / ١١٦٢م ابن الأثير ، الباهر ، ص١١٧-١١٨ ، الكامل ، ج١١ ، ص١١٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ص١٣٥ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ص٣١٣-٣١٤ وأغلب الإحتمال أن يكون ذلك قد حدث حوالي عام ٥٥٨هـ / ١١٦٣م فابن الأثير- مؤرخ الزنكيين - يذكر ذلك ، كما أن وليم الصوري يذكر هذه الحوادث مباشرة بعد معركة حارم عام ٥٥٩هـ / ١١٦٤م مما يدل على أنها وقعت حوالي ذلك التاريخ ، أنظر إشارة وليم الصوري :

William of tyre, vol. II, p. 306 , not (20) .

William of tyre, vol. II, p. 306 .

وجيبرت دى لاسى مقدم فرسان الداوية، ويبدو أن اشتراك عناصر الهيئات الدينية الحربية مثل الاسبتارية والداوية، قد لعب دوره فى إلحاق الهزيمة بالجيش النورى فى تلك المعركة وغيرها . ولا شك فى أن معركة البقيعة قد أحدثت بعض النتائج المهمة، إذ أوضحت بعض القصور فى تنظيمات الجيش النورى، كذلك أوضحت تزايد اعتماد إمارة طرابلس على عناصر الهيئات الدينية الحربية، ثم فإنها زادت من تصميم نور الدين على مواصلة سياسته فى إسقاط قلاع وحصون الإمارة من أجل تجريدتها من مصادر قوتها العسكرية .

وهكذا، اتجه الجيش النورى إلى الاستيلاء على حصن المنيطرة فى عام ٥٦١هـ / ١١٦٥م^(١)، وغنم الغنائم الوفيرة، وفى العام التالى ٥٦٢هـ / ١١٦٦م تمت مهاجمة المناطق المحيطة بحصن الأكراد^(٢)، وسلب الغنائم، كذلك تم الاستيلاء على حصنى صافينا^(٣)، والعريضة وهما من حصون الإمارة المنيعتين، ووقع صدام بين الجيش النورى وجيش الإمارة عام ٥٦٥هـ / ١١٦٩م فيما عرف بمعركة اللبوة^(٤)، وبعد عامين أى فى عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م،

١- ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص ١٣٠؛ الباهر، ص ١٣١؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٣٨؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج٢، ص ٣٢٢؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص ١٤٨؛ الذهبى، دول الإسلام، ج٢، ص ٧٥؛ العبر، ج١، ص ١٧٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص ٢٥١؛ أبو شامة، الروضتين، ج١ / ق ٢، ص ٣٦٠؛ ابن قاضى شعبة، الكواكب الدرية، ص ١٦٩؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٢٧، ص ١٥٨؛ الحيرى، الإعلام والتبيين، ص ٧٨.

وقد ذهب ابن شداد إلى القول بأن ذلك حدث عام ٥٦٢هـ / ١١٦٦م،

المصدر السابق، ص ٣٨ ولكن أمام إجماع المصدر الأخرى على أن الإستيلاء على حصن المنيطرة تم عام ٥٦١هـ / ١١٦٥م فليس من اليسير موافقته، ونجد أن ابن واصل على الرغم من أنه أشار إلى ما ذكره ابن شداد بشأن تحديده بعام ٥٦٢هـ / ١١٦٦م إلا أنه ذكر الواقعة ضمن حوادث عام ٥٦١هـ / ١١٦٥م، أنظر، ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص ١٤٨.

٢- ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص ١٣٢؛ أبو شامة، الروضتين، ص ٣٧٤؛ الذهبى، دول الإسلام، ج٢، ص ٧٥؛ النويرى، نهاية الأرب، ص ١٥٩.

٣- وقعت صافينا على الطريق بين أنطربوس وحصن الأكراد، عنها، ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص ٢٦٧؛ أبو الفرج العشى، آثارنا فى الإقليم السورى، ص ٩٧، لويس شيخو، «جولة فى الدولة العلوية» المشرق، السنة (٢٢) لعام ١٩٤٤م، ص ٤٩٠.

٤- ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص ١٤٣.

واصل نفس السياسة فتم إرسال القوات لمحاصرة حصن عرقه، واستولت عليه عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م^(١).

ويبدو أن الإغارات على إمارة طرابلس خلال تلك المرحلة ، مثلت حملات للاستيلاء على الغنائم الوفيرة، وهذا ما ذكرته المصادر العربية على نحو جلي تماماً ، ففي إسقاط المنيطرة «سبى غنيمة كبيرة» وكذلك في مهاجمته حصن الأكراد^(٢)، وفي عرقه «غنم الناس غنيمة عظيمة»^(٣).

إن تحليل حدوث عمليات السلب والنهب من جانب الجيش النورى ، فى عملياته ضد إمارة طرابلس على نحو خاص ، نجده فى ثراء تلك الإمارة بالذات إذا ما قورنت بغيرها من الإمارات الصليبية وما احتوته من مناطق زراعية مزدهرة .

وهكذا مثلت سياسة نور الدين محمود تجاه إمارة طرابلس رغبته فى السيطرة على مراكزها الحصينة، وأدى صراعه عليها إلى إلحاق الهزيمة بالجيش النورى أحياناً .

وقد اختلفت سياسة تجاه أنطاكية عنها فى طرابلس فبالنسبة للأولى اتسمت سياسته نحوها بالصراع المبرر، من أجل السيطرة على وادى نهر العاصى ذو الأهمية الاقتصادية الكبيرة ، على المستويين الزراعى والتجارى بحكم موقعه الحيوى، ووقعت ثلاث معارك كبيرة هى بغرى، وأنب، وحارم ، واستهلكت جانباً كبيراً من جهد القوات النورية، وأدى الصدام مع أنطاكية إلى دخول كيانات سياسية كبرى فى الصراع مثل مملكة بيت المقدس ، والإمبراطورية البيزنطية ، بينما نجد فى إمارة طرابلس أن الصراع معها كان محدوداً ، ومتمثلاً فى الرغبة فى السيطرة على قلاعها وحصونها، وتكفلت الإمارة بقواتها العسكرية بمواجهة الغزو النورى لأراضيها ، ولم تحدث معارك كبرى فى طرابلس مثل تلك التى وجدت فى مواجهة أنطاكية .

ومن مظاهر اختلاف سياسة نور الدين تجاه كل من أنطاكية وطرابلس ونتائج كل منهما، أن الجيوش النورية تمكنت من تهديد إمارة أنطاكية تهديداً كاملاً نحو ثلاث مرات على نحو

١- ابن العديم ، زبدة الخلب، ج٢ ، ص٣٣٦؛ أبو شامة ، الروضتين، ج١ / ٢ ق ، ص٥١٦ .

٢- ابن الأثير ، الكامل، ج١١ ، ص١٣٢ .

٣- أبو شامة ، المصدر السابق ، ص٥١٦ .

استدعى تدخلاً من جانب مملكة بيت المقدس لحمايتها ، ولكن ذلك لم يحدث بالنسبة لإمارة طرابلس ولعل ذلك مرجعه إلى خطورة وضع إمارة أنطاكية بالنسبة لحلب وتهديدها على نحو مستمر الأمر الذى وجه نور الدين إلى زيادة نشاطه العسكرى نحوها ، بينما لم تشكل طرابلس تهديداً كبيراً لحدود الدولة النورية مثلما كان الحال عليه فى شمال الشام .

ومن جهة أخرى ، يلاحظ اختلاف سياسة نور الدين تجاه مملكة بيت المقدس عن سياسته تجاه الإمارات الصليبية، إذ أنه عقد مع الأولى عدة معاهدات وهدنات بينما لم يحدث ذلك مع تلك الإمارات ، وتعليل ذلك أن الأمراء الصليبيين فى الرها وأنطاكية وطرابلس كانوا بشابة أفصال إقطاعيين أمام الملك الصليبي ومن ثم فإن عقد هدنات معهم لم يكن يضمن لها الفاعلية بدون دعم الملك الصليبي نفسه، ونقطة التبعية تلك هى التى كانت تدفع ذلك الملك إلى الإسراع بالذهاب إلى الإمارة التى تهددها الحروب مع الدولة النورية .

ويلاحظ أن سياسة الدولة النورية تجاه الإمارات الصليبية ، توضح أن إمارة أنطاكية لم تتمكن من إسقاط مدينة حلب وذلك منذ أن عجز ريموند دى بواتيه عن إقناع الحملة الصليبية الثانية بالاتجاه صوب تلك المدينة، لتستمر من بعد ذلك مصدر خطر لإمارة أنطاكية . إن ذلك العجز أضعف قوة الإمارات الصليبية فى مواجهة الدولة النورية، ودل على أنها أرادت هى الأخرى الحفاظ على أملاكها القديمة باقية، بعد أن لم تتمكن من التوسع الخارجى على حساب الدولة النورية بصورة جوهرية .

تشابهت تلك الناحية مع ما حدث بين الدولة النورية ومملكة بيت المقدس، إذ فشلت الأخيرة فى إسقاط دمشق ، الأمر الذى أضر بالمملكة بصورة كبيرة .

إن عجز الدولة النورية وكذلك الإمارات الصليبية عن تحقيق نتائج جوهرية، قد دل بصورة واضحة على أن كلا من الطرفين - بعد الإخفاق المتبادل- حرص على اتباع سياسة التوازن مع خصمه، وهى سياسة قامت على جانب دفاعى، وإن رأت أحيانا أن الهجوم خير وسيلة للدفاع .

ومما تجدر الإشارة إليه : أن صراع الدولة النورية مع تلك الإمارات قد شهد نوعين من الاحتكاك العسكرى، معارك كبيرة مثل يغرى ، وأنب ، وحارم، ثم معارك محدودة من أجل إخضاع بعض القلاع والحصون ، مثل المنيطرة، وانطربوس، وغيرها .

كذلك اتسمت المعارك بين الطرفين بعمليات السلب والنهب على نطاق واسع، ومن الإنصاف أن نقرر أن الجيش النورى قد غنم الكثير من وراء هجماته خاصة على حصون الإمارات ،

ولاشك أن ذلك كان من العوامل المشجعة على غزوها ، بالإضافة إلى الاعتبارات السياسية الأخرى .

ولعل أخطر ما تمخطت عنه سياسة الدولة النورية تجاه الإمارات الصليبية خاصة تجاه أنطاكية من نتائج ، التأكيد على التكوين الداخلى لتلك الدولة ، إذ لم تكن لها أية موانئ على الساحل الشرقى للبحر المتوسط وهى التى سيطرت عليها القوى الصليبية ، فنجد أن محاولاتها لإخضاع ميناء السويدية (سان سيمون) باءت بالفشل ، بسبب تصدى مملكة بيت المقدس والإمبراطورية البيزنطية لتوسعات الدولة الطموحة فى ذلك الاتجاه ، وأدى ذلك إلى نتائج مهمة ، إذ استمرت الدولة النورية لامتلاك أية موانئ ، وبالتالي أساطيل يمكنها أن تهاجم بها القوى الصليبية ومراكزها على الساحل الشامى ، وهذا هو التعليل المنطقى لعدم وجود أدنى إشارة فى المصادر - المطبوعة على الأقل - إلى أسطول تابع لها ، إن المعارك جميعها صارت معارك برية ولم تحدث أية معركة بحرية ، وقد غدت تلك الناحية عامل ضعف مؤثر فى صراع نور الدين محمود ضد الإمارات الصليبية ، خاصة إمارتى أنطاكية وطرابلس اللتين امتلكتا ساحلا ممتدا من السويدية شمالاً إلى ميناء جونية جنوباً .

كما يلاحظ أن الصراع مع تلك الإمارات امتاز بناحية لم تتواجد فى صراع الدولة النورية مع مملكة بيت المقدس ، إذ امتدت جبهة المعارك من شمال الجزيرة إلى نطاق ممتد من شمال وغرب حلب إلى غرب دمشق ، بينما اتسعت حدودها مع مملكة بيت المقدس بالمحدودية ، إذ واجهت إقليم الجليل ، مع إدراك أن ذلك الوضع تم خلال الصراع فى بلاد الشام لكن بامتداد المعارك إلى مصر فى عهد الملك عمورى اتسعت ميادين الصراع بين نور الدين ومملكة بيت المقدس على نحو فاق الوضع بالنسبة للإمارات الصليبية.

ذلك عرض لسياسة نور الدين محمود تجاه الإمارات الصليبية . أما الفصل التالى فإنه يتنازل العلاقات النورية - البيزنطية .

الفصل السادس

العلاقات النورية - البيزنطية

تعد الإمبراطورية البيزنطية إحدى القوى السياسية المهمة التي عاصرت الدولة النورية ودخلت ضمن نطاق سياستها الخارجية. وقد توجهت الأخيرة إليها من خلال جملة عوامل ودوافع على المستويات الاقتصادية والسياسية والعسكرية ، وإن حرصت بيزنطة على بقاء الدولة النورية في بلاد الشام ؛ إلا أنها وقفت ضد كل توسعات لها تجاه إمارة أنطاكية التي ارتبطت بها ارتباطاً وثيقاً .

وقد اتخذت العلاقات بين الطرفين عدة أشكال ، فهناك الشكل الحربي من خلال مشاركة البيزنطيين الصليبيين في معاركهم ضد نور الدين ، ثم هناك العلاقات الدبلوماسية من أجل تجنب ويلات الحرب ، كذلك العلاقات الاقتصادية التجارية .

وبلاحظ أن الدولة النورية نجحت في علاقاتها مع الإمبراطورية البيزنطية في مواجهة خطر المعارك التي تحالفت فيها مع الصليبيين ، وكذلك نجحت في المجال الدبلوماسي حيث تمكنت من إبعاد الخطر البيزنطي عن أملاكها ذات الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية ، ثم أفادت أيضاً من عائد المتاجرة معها .

ويتطلب تناول العلاقات النورية - البيزنطية عرض تطور أوضاع الإمبراطورية البيزنطية في وقت معاصرتها لعهد نور الدين محمود ، إذ أن ذلك يعين في فهم إشكاليات العلاقات بين الطرفين .

عاصر عهد نور الدين محمود في بلاد الشام ، عهد الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين (٥٤٠-٥٧٥هـ / ١١٤٥-١١٨٠م)^(١) الذي تولى عرش الإمبراطورية خلفاً لحنا كومنين ، وقد كان مانويل إمبراطوراً يؤمن بفكرة السيادة العالمية وساعده على تحقيق ذلك أنه كان دبلوماسياً ماهراً ورجل دولة قديراً ، وقد كانت له سياسته في الشرق والغرب معاً ، ورغب

Whitting , Monnaies Byzantines, Paris 1975, p. 181 .

مثل أسلافه فى فرض سلطته على روما سواء إذا كان ذلك عن طريق القوة أو بالاتفاق والتعاون مع البابوية^(١)، وأراد القضاء على الإمبراطورية الغربية ، التى نظر إليها البيزنطيون على أنها مغتصبة لحقوقهم، ولذا فقد اتخذ موقفاً عدائياً من الإمبراطور الألماني فردريك بارباروسيا^(٢).

ويلاحظ أنه كان هناك ارتباط وثيق بين سياستى مانويل كومنين الشرقية والغربية ، فنجد أنه واكب نجاح مشروعاته فى تدعيم السيادة البيزنطية فى الشرق اللاتينى وهنغاريا ، تدهور واضح فى نفوذه فى الغرب إذ ثارت البندقية ضده، وباء مشروعه مع البابوية فى توحيد الكنيستين الشرقية والغربية أى كنيستى بيزنطة وروما بالإخفاق^(٣)، إذ أن البابا لم يكن ليقبل أن يكون مجرد بطريك بيزنطى فى روما^(٤).

وقد شغل مانويل اهتمامه بمشاكل الغرب عن مواجهة صراعات الشرق، ويقرر شارل ديل أنه خلال منتصف القرن الثانى عشر فإنه كان يحتاج فقط إلى حشد قوات لكى يقضى على سلطنة قونية السلجوقية غير أنه ابتعد عن ذلك بسبب طموحاته المتعلقة بالسياسة الغربية^(٥).

ويأخذ المؤرخون عليه اتباعه سياسة دفاعية لمدة طويلة ، إذ أنه خلال المدة من ٥٥٩-٥٧٠هـ / ١١٦٤-١١٧٥م ألزم نفسه باتباع تلك السياسة واتجه إلى تحصين تخومه وعندما أدرك أخيراً الخطر اتجه إلى اتباع سياسة هجومية غير أن ذلك جاء متأخراً وكان ذلك من عوامل هزيمته هزيمة منكرة فى موقعة ميريو كيغالون عام ٥٧١هـ / ١١٧٦م^(٦) والتى يميل

١- Ostrogorsky, Hist. of The Byzantine state, p. 337.

٢- عمر كمال توفيق، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١٤٤ .

٣- هسى، العالم البيزنطى، ت. رأفت عبد الحميد، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص ١٩٦ .

٤- عمر كمال توفيق، المرجع السابق، ص ١٤٥ .

٥- Diehl, Hist. of The Byzantine Empire, English Trans. by Lvas, New York 1945, p. 118-119 .

٦- Ibid , p. 119 .

البعض إلى تشبيهها بمعركة مانزكرت^(١) عام ٤٦٢هـ / ١٠٧١م من حيث أثارها المدمرة على الإمبراطورية البيزنطية ، وقد أدت إلى القضاء نهائيا على آخر أمل بيزنطى فى طرد الأتراك السلاجقة من آسيا الصغرى .

والواقع أن مانويل كومنين وجدت لديه اهتمامات كبيرة بالسياسة الغربية ، وأن تلك الاهتمامات شغلته عن سياسته الشرقية التى اتبع فيها جانباً دفاعياً إلى حد كبير، ولم يكن ذلك قاصراً على موقفه من سلاجقة قونية فقط، بل تجاه القوى الشامية

Nicetas choniates, p. 234-245 .

=

على عودة الغامدى، «معركة مرياكيفالون ١١٧٦م» مجلة كلية الشريعة- جامعة أم القرى، مكة المكرمة، العدد (٢) عام ١٤٠٤هـ.

أومان، الإمبراطورية البيزنطية ، ت. مصطفى بدر، ط. القاهرة ١٩٦٠ م ، ص٢١١، أسد رستم ، الروم ، ط. بيروت ١٩٥٦م، ج٢ ، ص١٥٧-١٥٨ .

_ ويعتبرها رنسيमान كارثة مشابهة لكارثة مانزكرت عام ٤٦٢هـ / ١٠٧١م وقد قضى على أى أمل لدى بيزنطة فى استعادة آسيا الصغرى ، أنظر : رنسيमान ، الحضارة البيزنطية ، ص٥٤ .

Vasiliev, Hist. of The Byzantine Emprre, vol. II,

أيضا

Nicol, A Biogtaphical Dictionary of The Byzantine Empire, London1991, p. 79.

١- عنها أنظر :

أهن القلائسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٩٩ ؛ العماد الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص٤٠-٤٤ .

Psellus, Chronographia, in Ashour and Rabie, Fifty documents in Medieval History , Cairo 1971 , p. 58-60 . Cahen , " La Campagne de Mantzikert" , Byzantion, vol. IX Année 1934 , 99 . 613-642 , " The Turkish invasion" in setton, Hist. of The Crusades , vol . I, pp. 148-149 , Charanis, " The Byzantine Empire in the eleventh century " in setton , vol. I, pp. 191-192 .

شاكرك مصطفى ، «دخول الترك الغز إلى الشام»، ضمن كتاب تاريخ بلاد الشام من القرن السادس إلى القرن السابع عشر، مؤتمر بلاد الشام، ط. بيروت ١٩٧٤م، ص٣٥٨-٣٥٩ .

الإسلامية والصليبية ، ولم يتقدم بقواته إلا لتحقيق مكاسب سياسية دون أن يزج بها فى معارك حربية فاصلة، إذا استثنينا معركة ميريوكيغالون عام ٥٧١هـ / ١١٧٦م .

وقد توجهت سياسة الدولة النورية نحو الإمبراطورية البيزنطية من خلال جملة دوافع اقتصادية وسياسية واستراتيجية عسكرية .

أما الدوافع الاقتصادية فتمثلت فى رغبة نور الدين محمود فى استمرار الصلات التجارية بين الطرفين، فمعلوم أن الإمبراطورية البيزنطية عدت سوقا رائجة لمنتجات الشرق ، التى دخلت الدولة النورية طرفاً هاماً فى عملية استيرادها وتصديرها من بعد ذلك للقوى الأوروبية ومنها الإمبراطورية البيزنطية .

وقد دعم الصلات التجارية بين الجانبين مرور أحد الطرق التجارية الدولية المهمة بمناطقها ، ونعنى به طريق الشرق الأقصى - الخليج العربى - الشام ^(١)، وقد بدأ من رأس الخليج العربى إلى البصرة ثم بغداد واتخذ اتجاهين صوب الشمال نحو ديار بكر والثانى باتجاه غربى نحو دمشق ومنها إلى موانئ شرق البحر المتوسط مثل اللاذقية، وطرطوس، وعكا، وغيرها ، ومن تلك الموانئ اتجه نحو آسيا الصغرى والقسطنطينية .

ومما سبق ^(٢) ، اتضح لنا أن الإمارات الصليبية سيطرتها على موانئ شرق البحر المتوسط مثلت دور الوسيط التجارى بين الدولة النورية والإمبراطورية البيزنطية ، وقد زاد الثقل على تلك الموانئ من خلال ما لاحظته البعض من أثر الحروب الصليبية بصفة عامة على حركة التجارة الدولية، فلم تعد البضائع تنقل إلى طرابيزون أو عبر آسيا الصغرى ، لأن السلاجقة كانوا يسدون عليها الطريق بل نقلت إلى السفن فى الموانئ الصليبية حيث حملتها السفن التجارية الإيطالية إلى السوق الأوربي .

ومع إدراكنا لاحتمال إعاقة الوجود السلجوقى لانسياب حركة التجارة عبر الطريق البرى المذكور ، إلا أن الصلات التجارية استمرت عبر الوساطة الصليبية بين الجانبين .

١- عن هذا الطريق انظر :

ماركو بولو، رحلات ماركو بولو ، ص٣٨ ، نعيم زكى ، طرق التجارة الدولية، ص١١٧-١١٨ ، هايد ، تاريخ التجارة ، ص٤٣-٦٥ .

٢- انظر ، فصل الإمارات الصليبية .

أما الدوافع السياسية فيمكن إدراكها من خلال إدراكنا لوضعية الإمبراطورية، إذ مثلت قوة سياسية كبرى فى المنطقة وتدعمت سياسيا من خلال قوتها العسكرية، وقد جعلتها المشكلة الأنطاكية تضع بلاد الشام بصفة عامة والقسم الشمالى منه على نحو خاص نصب عينيهما بصفة مستمرة ، من أجل إعادة هيمنتها عليها وفرض سيادتها على الإمارات اللاتينية فى بلاد الشام .

ولاشك أن الإمبراطورية البيزنطية والإمارات الصليبية جمعتها ارتباطاتهما المسيحية ضد القوى الإسلامية المجاورة ، ولكن ينبغى ألا يغيب عن أذهاننا تباين مصالح كل طرف من خلال عدائهما وتواجد المشكلة الأنطاكية بدون حل حقيقى. ونظرة البيزنطيين للصليبيين بوصفهم مغتصبين لحقوق السيادة البيزنطية عليها .

حاول نور الدين محمود استثمار الخلافات القائمة بين الجانبين من أجل محاولة إيجاد توازن فى علاقات الإمبراطورية البيزنطية بدولته وبالكيان الصليبي فى بلاد الشام، وساعده على ذلك أن تلك الإمبراطورية احتاجت إلى قوته من أجل استمرار الصراع مع الصليبيين وإلحاق الخسائر بهم، على نحو يجعلهم يطلبون عون البيزنطيين ولا تغيب سطوتهم عن بلاد الشام، وهذا ما هدفوا إليه .

ومن أجل تحقيق سياسة توازن القوى فى المنطقة ، وعدم ارتقاء بيزنطة بشقلها فى دعم الصليبيين ، نجد أن نور الدين عمل على تبادل السفارات مع الإمبراطور البيزنطى وكذلك الهدايا ، ثم لم يجهر بالعداء تجاه تلك الإمبراطورية ؛ بل حاول أن يكتسب صداقتها بقدر الإمكان ، ونجد ذلك واضحاً بالنسبة للغة المصادر الرسمية نفسها، فعلى حين أشارت بالعداء الكامل تجاه الصليبيين فإنها كانت أقل حدة عندما أشارت إلى «الروم» أى البيزنطيين^(١).

ولا مراء ، فى أن الدولة النورية لمجحت فى تحقيق تلك السياسة التى مارستها أيضا الإمبراطورية البيزنطية، وهى التى رأت أن دبلوماسيتها^(٢) ينبغى أن تقوم على أساس شغل القوى السياسية المجاورة بصراعاتها، لإضعافها من أجل أن تقوى الإمبراطورية نفسها، ولاشك فى أنها هدفت إلى استمرار صراع الدولة النورية مع الصليبيين .

١- ابن القلاسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٥٧ .

٢- عن الدبلوماسية البيزنطية أنظر :

رأفت عبد الحميد ، بيزنطة بين الدين والفكر والسياسة ط. القاهرة ١٩٩٧م، ص ١٠٣ - ١٤١ .

أما الدوافع الاستراتيجية العسكرية ، فيمكن ملاحظتها من خلال أن الإمبراطورية البيزنطية شكلت قوة عسكرية كبيرة فى المنطقة ، وقد فاقت قوة الدولة النورية بصورة كبيرة ، ويمكن إدراك ذلك من خلال إشارات المصادر عن حجم الهلع الذى انتشر فى الأعمال الإسلامية الشامية^(١) خلال مقدم مانويل كومنين بقواته مشاركا الصليبيين ، لقد حرصت الدولة النورية على تجنب الصدام العسكرى مع البيزنطيين بمفردهم أو من خلال تحالفهم مع الصليبيين ، ولكم يوجد لدى نور الدين أى تصور لمهاجمة أملاك الإمبراطورية البيزنطية ، وذلك لعدة اعتبارات ، إذ أنه لم يشأ أن يثير غضبها عليه ، ثم لأن مجال توسعه العسكرى الطبيعى كان باتجاه الإمارات الصليبية فى بلاد الشام وفى الاتجاه الجنوبي الغربى صوب مصر الفاطمية .

ويذكر أبو شامة أن نور الدين أرسل إلى الخليفة العباسى فى بغداد يخبره بأن القسطنطينية فى طريقها إلى الفتح ، شأنها فى ذلك شأن القدس^(٢) ، والواقع أن ذلك كان من قبيل الدعاية السياسية لا أكثر لأن استعراض نشاط قواته الحربية يعكس أنها لم تكن تضع الغاصمة البيزنطية ضمن مجال توسعها الحيوى ، ولم يكن من الاندفاع بحيث يجعل جيوشه تجاه قوة عسكرية كبيرة فى المنطقة كبيزنطة .

وتعد دراسة المشكلة الأنطاكية أمراً محتتماً فى دراسة العلاقات النورية- البيزنطية ؛ إذ أنها توضح الظروف التى دفعت بالإمبراطورية البيزنطية إلى الاهتمام بالشام وقسمه الشمالى على نحو خاص ، ورغبتها فى قرض سيادتها على أنطاكية ، وباقى الإمارات الصليبية فى بلاد الشام ، بحيث تدين لها بالتبعية والولاء .

ومن المعروف أن الصليبيين خلال الحملة الصليبية الأولى عقدوا مع الإمبراطور البيزنطى الكسبروس كومنينوس اتفاقية عرفت باتفاقية القسطنطينية وذلك فى عام ٤٩٢هـ / مايو ١٠٩٧م وفيها تعهد الصليبيون بأن يعيدوا للإمبراطورية البيزنطية كافة ممتلكاتها التى فقدتها من جراء التوسع السلجوقى على حسابها ، وطبيعى أن مدينة أنطاكية وضواحيها

١- ابن القلائسى، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٥٧ . ، Gregoire le pretre, Doc. Arm T. I. , p. 190 .

٢- أبو شامة ، الروضتين ، ج ١ / ق ٢ ، ص ٥٤٧ .

شملتها الإتفاقية ، وفى مقابل ذلك تعهد الإمبراطورية بتقديم العون العسكرى البرى والبحرى للصليبيين ، وكذلك إمدادهم بالمؤون اللازمة^(١).

غير أنه بعد نجاح الحملة الصليبية الأولى فى تحقيق أهدافها ، بإقامة إمارات لاتينية فى الرها وأنطاكية وطرابلس وبيت المقدس ، لم ينفذ الصليبيون وعودهم للبيزنطيين ، ووجد فى الساسة البيزنطية ما عرف بالمشكلة الأنطاكية وهى تعنى سعى بيزنطة الدؤوب من أجل فرض هيبتها وسيادتها على أنطاكية ، وذلك بكافة الوسائل السلمية أو الحربية .

ولا مرأ فى أن الإمارة النورمانية التى أسستها الحملة فى أنطاكية كانت مصدر إزعاج للإمبراطورية^(٢) بسبب مطامع قياداتها مثل بوهيمند وتانكرد . وقد حاولت إلزامهما ببعض الإلتزامات التى تضمن لها نوعاً من السيادة على أنطاكية ، وفى عام ٥٠٢هـ / ١١٠٨م تم عقد معاهدة مع بوهيمند وأوشكت الإمبراطورية على فرض سيادتها على المدينة ، غير أن تلك المعاهدة لم تنفذ^(٣).

ومن بعد الكسيوس كومنين ورث يوحنا ومانويل كومنين نفس تطلعاته من أجل فرض السيادة البيزنطية على الإمارات الأرمينية فى كيليكيا والإمارات الصليبية فى بلاد الشام^(٤).

ويلاحظ أن مانويل كومنين سرعان ما أثبت تفوقه فى هذا المجال ، إذ أجبر ريموند دى بواتيه على الحضور إلى القسطنطينية وقدم اعتذاره للإمبراطور وجعل نفسه فصلاً تابعاً له فى عام

١- عن اتفاقية القسطنطينية انظر :

William of Tyre, vol . I, p. 130 .

عبد الفنى عبد العاطى، السياسة الشرقية، ص٢٩٣، فتحية النبراوى، «حياة الإمبراطور الكسيوس كومنينوس كمصدر من مصادر تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى القرن ١٢م» ، المجلة التاريخية المصرية، م (٢٧) ، لعام ١٩٨١م، ص٤٧- ص٤٨ .

Ostrogorsky, Hist. of The Byzantine state, p. 343 .

-٢-

Diehl, Hist. of The Byzantine Empire, p. 124-125 .

-٣-

Ibid, p. 124-125 .

-٤-

٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م ، وبعد ذلك ، وفى عام ٥٥٣ هـ / ١١٥٨ م ، فإن مانويل لعب دوره لفرض سيادته الإقطاعية على نحو أكثر نجاحًا عندما غزا كيليكيا ، وعامل رينودى شانيون أمير أنطاكية على نحو مهين وقاس وأجبره على الخضوع له^(١).

وقد اتجه مانويل كومنين صوب كيليكيا فى العام المذكور بجيشه وحقق هدفه الأول ألا وهو الاستيلاء عليها وذلك بدون كبير عناء، إذ أن توروس الأرمينى لاذ بالفرار عندما علم بمقدم الإمبراطور إلى المناطق الجبلية ، وعندما علم رينودى شانيون بالأمر استشار مستشاريه من البارونات ، وأيقن عدم قدرته على مواجهة جيش الإمبراطورية البيزنطية منفردًا واضطر إلى التقدم إلى معسكر الإمبراطور فى المصيصة وقدم اعتذاره^(٢)، وقدم له قسمًا بالولاء والطاعة، وتعهد بتقديم بعض القوات العسكرية للخدمة فى الجيش الإمبراطورى، كما تعهد بعزل البطريرك اللاتينى لأنطاكية وأن يحل محله بطريرك بيزنطى^(٣).

ثم دخل مانويل كومنين مدينة أنطاكية فى أبريل ١١٥٩م / ٥٥٤ هـ^(٤) فى مركب مهيب ومعه كافة الأشعة الإمبراطورية ومن خلفه الملك بلدوين الثالث ورينودى شانيون .

Dieh, Hist. of the Byzantine Empire, p. 125 .

-١

William of Tyre, vol. II, p. 276 , Schlumberger, Renauld de chatillon, p. 102 , Ostrogorsky, Hist. of the Byzantine State, p. 343 , Baldwin, The Latin states under Baldwin III , p. 543 .

أسد رستم ، الروم ، ج٢ ، ص ١٥٣ .

٣- عادل زيتون ، العلاقات السياسية والكنيسة بين الشرق البيزنطى والغرب اللاتينى فى العصور الوسطى، ط٢. دمشق ١٩٨٠م، ص ٢٠٨ .

٤- Cinnamus, p. 187 , Chalandon , Jean II commnene et Manuel I commnene , Paris 1912, vol II , pp. 451-452 , Hussey, The Later Macedonians , The Comneni and The Ange-li, C M H , vol. IV , p. 234 , Baldwin, The Latin states under Baldwin III In p. 544 Ostrogorsky , Hist. of The Byzantine state, p. 343, vasiliev, Hist. of The Byzantine Empire, vol . II, p. 80 .

حسنيين ربيع ، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، ط٢. القاهرة ١٩٨٧م ، ص ٢٢٦ . عمر كمال ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١٤٩ ، هسى، العالم البيزنطى، ص ١٩٤، أسد رستم ، الروم ، ج١ ، ص ١٥٣ .

وقد مثل إخضاع أمير أنطاكية ودخولها من جانب مانويل علامة انتصار بارزة للسياسة الخارجية البيزنطية تجاه اللاتين وكان ذلك نتاج ما يزيد على الستين عاماً من الجهد والنضال^(١).

ويوجد في كنيسة الميلاد ببيت لحم نقش يرد فيه اسم مانويل جنباً إلى جنب مع اسم الملك الصليبي عموري الأول^(٢) ، ويقع خلاف بين المؤرخين في تحليل دلالات ذلك النقش وهل يعنى أن الإمبراطورية البيزنطية كانت لها سيادتها على المملكة والإمارات اللاتينية أم لا ، والمرجح أن النقش المذكور دل على إنجاز الإمبراطورية البيزنطية في ذلك المجال ، وأن مجهودات مانويل كومنين نجم عنها دعم النفوذ الإمبراطوري على الوجود الصليبي في بلاد الشام .

إن العرض السابق لتطور المشكلة الأنطاكية وموقف البيزنطيين منها دل على أن شمال الشام لم يكن مجرد منطقة عادية بالنسبة لها ، بل مثل ميداناً للنزاع والتنافس الدولي بين شرق أوروبا وغربها في صورة الوجود اللاتيني في بلاد الشام .

اقتصرت الصراع إذن بين بيزنطة وإمارة أنطاكية الصليبية ومن خلفها دعم مملكة بيت المقدس ، ولم تشأ الأولى وجود أية قوة أخرى في المنطقة تهدد مصالحها الحيوية في الإمارة الصليبية ومن هنا جاءت معارضة بيزنطة لأية توسعات للدولة النورية على حساب توجهاتها في المنطقة .

ويمكن أن نجد أول تأثير من جانب الإمبراطورية البيزنطية في سياسة نور الدين محمود في شمال الشام تجاه إمارة أنطاكية في صورة معركتي يغرى عام ٥٤٣هـ / ١١٤٨م وأنب ٥٤٤هـ / ١١٤٩م^(٣) . إذ أن أبواب المدينة كان من الممكن أن تفتح بدون عناء كبير أمام نور الدين ،

١- Vasiliev Hist . of the Byzantine Empire , p. 80 .

-١

٢- عن نقش كنيسة الميلاد ببيت لحم أنظر ، IV ، 1877 ، Corpus inscriptionum Graecorum , Berlin .
p. 339 .

وعن موضوع النقش وآراء المؤرخين ، Ostrogorsky , T. II p. 449 , Chalandon, Les commenes ,
Hist. of the Byzantine State , p. 343, note (2) . Vasiliev, Op. Cit., vol. II, p. 80 .

٣- عن ذلك بالتفصيل أنظر فصل الإمارات الصليبية .

بعد أن هزم الإمارة هزيمة كبيرة، ولكن خشى من التدخل البيزنطى على نحو يمنعه من مد نفوذه إلى مدى أبعد فى حوض نهر العاصى، ولارب فى أن الخطر البيزنطى حد من توسع الدولة النورية وجعل أقصى تطلعاته أن تحافظ على أملاكها قائمة دون أن تخضع لسيطرة الصليبيين أو البيزنطيين .

ولعل من أهم ما ساهمت به الإمبراطورية ضد الدولة النورية وبصورة كادت تهدد حلب نفسها ، حملة البيزنطيين والصليبيين المشتركة عليها عام ٥٥٤هـ / ١١٥٩م .

ومن المعروف أن العلاقات البيزنطية- الصليبية قد توطدت فى عهد الملك الصليبي بلدوين الثالث، ولا أدل على ذلك من وجود حالا للزواج السياسى، إذ تزوج ذلك الملك من ابنة مانويل كومنين ثيودورا ، وقد قدم وليم الصورى فى تاريخه بعض التفاصيل عن ذلك الزواج^(١) ، ولاشك فى أن تلك المصاهر ، قد أدت إلى دعم الصلات بين الجانبين .

ويلاحظ أن مقدمات العمل الحربى المشترك بين مانويل كومنين وبلدوين الثالث ضد الدولة النورية قد بدأ فى اجتماع المصيصة الذى عقد بينهما^(٢)، ويقرر المؤرخون أن ذلك اللقاء قد دعم التحالف بينهما، إذ أظهر مانويل كل مظاهر الصداقة والتقدير للملك الصليبي، وكما يلاحظ لامونت فإن نتائج المصيصة لم ترد لدى كيناموس أو وليم الصورى أو جريجورى الراهب ولكن من خلال إشارات الأخير، يمكن استنتاج أن بلدوين الثالث حصل على دعم أكبر من جانب الإمبراطور، وفى المقابل أظهر استعداداه لتقديم عون الحربى للإمبراطورية البيزنطية من أجل مساعدتها على محاربة السلاجقة فى آسيا الصغرى^(٣).

١- William of Tyre, vol. II, p. 274 , Baldwin, The latin states under Baldwin III, p. 543, Diehl, Hist. of The Byzantine Empire, p. 136 , Bouchier, Short Hist. of Antioch, p. 260 .

رئيسمان ، الحضارة البيزنطية ، ص ١٩١ .

٢- عن اجتماع المصيصة ، أنظر :

Cinnamus, p. 183-185, William of Tyre, vol. II, p. 278 , Gregiory le preter, pp. 188-189.

٣- La Mante, " To what extent was The Byzantine Empire suzerain of the latin crusading states", Byzantion, VII, Année 1932, p. 259 .

ارتكز المخطط الصليبي- البيزنطي على أساس من مهاجمة حلب^(١) - المركز التجارى والسياسى للدولة النورية- وبذلك يصححون الخطأ الفادح الذى وقعت فيه الحملة الصليبية الثانية عندما اتجهت إلى مهاجمة دمشق بدلاً من مهاجمة حلب ، ولأشك أنهم أدركوا أن إسقاطها يسهل السيطرة على شمال الشام والتقدم جنوباً صوب دمشق لكى تقع بين شقى الرحى، قوات متقدمة من الشمال وأخرى تتقدم من جهة اقليم الجليل .

تقدمت القوات المتحالفة وعلى رأسها مانويل كومنين ، وبلدوين الثالث ، ورينودى شاتيون وتوروس الثانى صوب حلب^(٢) ، وقد بلغت نور الدين أخبار مقدم تلك القوات فانتشر الرعب والهلع فى صفوف المسلمين تخوفاً من ذلك الخطر الداهم، وقد سعى نور الدين إلى طلب العون الحزبى من الأمراء المسلمين القريبين منه فوصلته قوات كبيرة^(٣).

وقد تقدمت القوات البيزنطية والصليبية عند منطقة بعدت أربعة عشر ميلاً شمال غرب حلب^(٤).

ويرى البعض أن «البازيليوس- أى مانويل- قرر فجأة عدم القتال وعقد صلحاً مع نور الدين»^(٥)، والواقع أن من المستبعد تماماً أن يكون الاتجاه السلمى لمانويل كومنين قد حدث فجأة، فبالنسبة لذلك الإمبراطور السياسى الداهية والدبلوماسى المحنك لم، يكن من الممكن أن يتطور الموقف لديه بمثل تلك الصورة، وهكذا من الممكن تصوير الأمر كواقع تاريخى برؤية أخرى إذ أن تحليل الموقف يكمن فى أن الإمبراطور عندما خرج من القسطنطينية لم يكن يود محاربة نور الدين، وكان ذلك- على ما يبدو- امتداداً لسياسته الدفاعية التى أشار إليها من قبل شارل ديل- التى اتبعها على الجبهة الشرقية حيث السلاجقة ، وقد هدف إلى القيام بمظاهرة عسكرية فقط ؛ يمكنه من خلالها تحقيق مكاسب سياسية هامة فى أنطاكية ، وحق لأحد المؤرخين أن يصف حملة مانويل على بلاد الشام بأنها «زيارة عسكرية»^(٦).

Baldwin , The Latin states, p. 545 .

-١

Zoe Oldenbourg, Les Croisades, p. 373 .

-٢

٣- ابن القلائسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٥٧ .

Baldwin, The latin states, p. 545 .

-٤

٥- اسحق عبيد ، روما وبيزنطة ، ص ٢٢٢ .

٦- تيسير بن موسى، غزوات الافرنج ، ص ١٥٧ .

وتشار ناحية جدلية، تتصل بالطرف الذى سعى إلى طلب الصلح، فالمصادر اللاتينية مثل وليم الصورى مثلاً، تقرر أن مانويل هو الذى أرسل الرسل إلى نور الدين، من الموقع الذى تجمع فيه البيزنطيون والصليبيون عند نهر بالنيا حيث كان نور الدين فى حلب^(١)، ويعطى ابن القلاسى- المؤرخ الرسمى- انطباعاً بأن مانويل هو الذى سعى إلى الصلح فيقول: «انتظمت الحال فى ذلك فى عقد السداد وكنه المراد حسن رأى ملك الروم ومعرفته بما يؤول إليه عواقب الحروب»^(٢). ومع ذلك فينبغى ألا تندفع وراء رأى وليم الصورى، بحكم العداء بين اللاتين والبيزنطيين، ورغبة ذلك المؤرخ- أغلب الاحتمال- تصوير البيزنطيين بصورة خائنى القضية الصليبية، كما أن ابن القلاسى يريد أن يظهر قوة سيده وأن الإمبراطور البيزنطى نفسه سعى إلى مصالحته خشية من خوض الحرب ضده.

الأرجح: أن نور الدين وهو الذى سعى إلى الصلح من أجل وقف الخطر العسكرى البيزنطى والصليبي المشترك إذ أن ذلك كان من شأنه توجيه ضربة ذات خسائر فادحة للدولة النورية، ليس على المستوى الحربى فقط بل والاقتصادى أيضاً إذ أنه معناه تهديد خطوط التجارة بين حلب وأنطاكية وكذلك الأعمال الشامية وهذا ما خشيته الدولة النورية. ومما يدعم هذا التصور أن المصادر تشير إلى ضخامة القوات المتحالفة وأن الدولة النورية نفسها لم تكن تستطيع أن تواجه بسهولة تلك القوات الضخمة.

ويلاحظ أنه سبق التوصل للاتفاق بين نور الدين ومانويل مرحلة من الإتصالات الدبلوماسية أو بتعبير ابن القلاسى «تكرر المراسلات والاقتراحات فى التقارير»^(٣)، ومعلوم أن البيزنطيين كان لهم باعهم الطويل فى شأن الدبلوماسية وكذلك الحال بالنسبة للدولة النورية التى اتصلت دبلوماسياً بالعباسيين، والفاطميين ومملكة بيت المقدس الصليبية، أى بكافة القوى الكبرى فى المنطقة سواء الإسلامية أو المسيحية.

William of Tyre, vol. II, p. 280 .

-١-

٢- ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٥٧.

٣- ابن القلاسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٥٧.

Runciman, vol. II, p. 354

أنظر أيضاً: تيسير بن موسى، غزوات الافرنج، ص ١٥٧.

والمرجح أن تكرار المراسلات بين الجانبين دل على وجود اختلاف فى رأى كل منهما وفى مطالب كل طرف على نحو استدعى تبادل السفراء بينهما، لكن قرب المسافة بين حلب والمنطقة التى استقر فيها الإمبراطور جعلت المداولات بينهما من خلال الرسل تستغرق وقتاً قصيراً ، وهناك من يرى أنها استغرقت مدة العشرة أيام الأواسط من جمادى الأولى عام ٥٥٤هـ / العشرة الأوائل من يونيو عام ١١٥٩م^(١).

وهناك من يرى أن الاتفاق بين مانويل ونور الدين وعدم محاربة الأول له يدل على أنه كان هناك اتفاق سابق بالصلح^(٢) لاعتقاد - صاحب الرأى - أن الاتصال الدبلوماسى الذى قد وقع فى صفر عام^(٣) ٥٥٤هـ / ١١٥٩م تمت فيه المهادنة ، والواقع أن هذا الاتجاه جانبه الصواب بدليل أن ابن القلاسى نفسه قرر عند التوصل إلى الاتفاق بين الطرفين فى جمادى الأول ٥٥٤هـ / يونيو ١١٥٩م بعد اقتراب القوات المتحالفة من حلب أن ذلك «لم يكن فى الحساب ولا خطر ببال»^(٤) مما يدل على عدم وجود اتفاق سابق ، ومن المستبعد أن يقوم نور الدين بحشد قواته واستدعاء قوات من الأمراء المسلمين المجاورين له على الرغم من وجود اتفاق سابق- كما تصور مؤرخنا- ثم قيام نشاط دبلوماسى مكثف بين الجانبين دل على سعيهما نحو التوصل لاتفاق ، أما الاتصال الدبلوماسى الذى وقع فى شهر صفر فكان مجرد تبادل هدايا ومحاولة توطيد الصلات السياسية بين حلب والقسطنطينية .

مهما يكن من أمر ، فإن الاتفاق بين الطرفين احتوى على تقرير إطلاق سراح الأسرى الصليبيين والبيزنطيين الذين فى سجون الدولة النورية^(٥) ، واختلفت المصادر فى أعدادهم وربما

١- عمران ، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية، ص ٢٥٦، حاشية (٥) .

٢- نفسه، نفس المرجع، ص ٢٥٢ .

وعن الاتصال بين الطرفين فى صفر أنظر :

ابن القلاسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٥٦ .

٣- نفسه ، نفس المصدر، ص ٣٥٧ .

٤- نفسه ، نفس المصدر والصفحة .

٥- Cinnamus, p. 188, Anonymous Syriae chronicle, p. 302 , William of Tyre, vol. II, -
= p. 280 .

بلغوا الآلاف^(١). ومن كبار القادة الصليبيين الذين تقرر إطلاق سراحهم بتراند ابن بوردان التولوزي وبرتاند دي بلانكفورت مقدم هيئة الداوية ، ويلاحظ أن الأول أسره الجيش النوري في عام ٥٤٤هـ / ١١٤٩م^(٢) أما نوعية أولئك الأسرى ، فهناك من يقرر أن غالبيتهم كانوا من الذين اشتركوا في الحملة الصليبية الثانية^(٣)، ويضيف البعض أن صحتهم قد وهنت نظراً لطول مدة السجن ولم يعودوا يصلحون لشيء^(٤).

ولاشك أن إطلاق سراحهم كان أمراً مهماً وملحاً بالنسبة لمانويل كومنين ، إذ أنه ذلك يسترد عدداً من الفرسان البيزنطيين ويظهر نفسه أمام الشعب البيزنطي على أنه لم ينس رجاله الأسرى النوري ، كما أنه سيساعد الصليبيين على استرداد فرسانهم الأسرى لدى نور الدين .

ويبدو أن نور الدين قد وافق على ذلك الشرط اتقاء لخطر مانويل والصليبيين ، إذ أنه لا يمكن أن نقيّل ما تصوره البعض من أنهم كانوا لا يشكلون خطراً كبيراً على دولته لضعف صحتهم ، ومن المستبعد تماماً أن أعدادهم التي بلغت عدة آلاف جميعهم كانوا على ذلك النحو من الإتهاك الجسماني ، ولا تغفل أنهم كانوا عسكريين متخصصين وأنهم - ولاريب - سيعودون

= ابن القلائسي ، المصدر السابق، ص ٣٥٧-٣٥٨ ،

La Monte, to what Extent, p. 260 , Elisseeff, Nur Al- Din, T. III, p. 512 , note (5) , Praw-
er, Brehier le Monde Pyzantine , p. 333, Zoe Oldenbourg, Les Croisades, p. 373 .

اسحق عبيد ، روما وبيزنطة ، ص ٢٢٢ ، أسد رستم ، الروم ، ج ٢ ، ص ١٥٣ عادل زيتون ، العلاقات
الكنسية ، ص ٢٠٩ ، حسين مؤنس ، نور الدين محمود ، ص ٢٧٠-٢٧١ .

Cinnamus, p. 188 .

-١

Gregoire Le Pretre, p. 190 .

William of Tyre, vol. II, p. 280 , note (76) .

-٢

Anonymous Syriac chronicle, p. 302 .

٣- اسحق عبيد، روما وبيزنطة ، ص ٢٢٢ ، حسين مؤنس ، نور الدين محمود ، ص ٢٧٠-٢٧١ .

٤- حسين مؤنس ، المرجع السابق، ص ١٧١ .

وبصفة عامة عن موضوع الأسرى خلال تلك الأحداث أنظر :

فاطمة الشناوى ، معاملة المسلمين للأسرى الصليبيين في بلاد الشام ومصر ١١٣٧-١٢٩١م /
٥٣١-٦٩١هـ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة الاسكندرية عام ١٩٩٧م، ص ١٨١-
ص ١٨٢ .

إلى خدمة بنى جلدتهم من الصليبيين ، ولانغفل هنا أمر أرناط الذى ظل فى الأسر نحو ستة عشر عاما ثم خرج يقاتل المسلمين بضراوة أكبر من ذى قبل، وهكذا فإن نور الدين قبل إطلاق سراحهم على مضض من أجل اتقاء خطر التحالف العسكرى البيزنطى الصليبي .

وتجدر الإشارة ، إلى أن هذه لم تكن هى المرة الأولى التى يتم فيها الاتفاق بين الجانبين على إطلاق سراح أسرى بيزنطيين، فبعد معركة حارم عام ٥٥٩ هـ / ١١٦٤ م ، تم الاتفاق على إطلاق الأسرى البيزنطيين والصليبيين وعلى إطلاق سراح قسطنطين كولمان حاكم كيليكيا البيزنطى مقابل خمسين من الثياب الحريرية^(١) ، كذلك تقرر إطلاق سراح أسرى مسلمين ، وتم فداء بعض الأسرى الصليبيين مقابل مبلغ خمسمائة ألف دينار^(٢).

وبالإضافة إلى ، فمن المحتمل أن الاتفاق تقرر فيه شرط يتصل بالحج المسيحى ، وفيه تقرر أن يقوم نور الدين بتسهيل مرور الحجاج فى أراضى الدولة النورية^(٣).

وتمثل دراسة دوافع مانويل كومنين لعقد الاتفاق السابق مع نور الدين- تمثل أحد أكثر القضايا إثارة للجدل فى العلاقات النورية- البيزنطية .

ولكى نتفهم دوافع الإمبراطورية ينبغى أن ندرك أن البيزنطيين كانت لهم دبلوماسية بارعة هدفت إلى إيقاع القوى الأجنبية بعضها مع البعض وذلك من أجل أن تحقق بيزنطة توازن القوى وتمنع الغزو الخارجى لأراضيها وتكون هى الرابطة فى النهاية^(٤) ، وتطبيق ذلك خلال عهد مانويل كومنين ، فى صورة صراع المسلمين مع الصليبيين ، وقد أدرك أهمية دور نور الدين فى قتالهم ولاشك أنه أفاد البيزنطيين بصورة غير مباشرة مهاجمته للصليبيين^(٥) ، وبالتالي

Cinnamus, p. 216 .

-١

٢- عمران ، معركة حارم، ص ٩٩ . ويلاحظ أنه خلال ذلك وقعت أحداث مضطربة قام بها أحد قادة الجيش فى القسطنطينية استدعت عودة الإمبراطور مانويل إليها. عن ذلك أنظر :

William of Tyre, vol. II, p. 231 .

Anonymous Syriac chronicle, p. 302 .

Elisseeff, Nur Al- Din, p. 544 .

Runciman, vol . II, p. 355 .

٣- أسد رستم ، الروم ، ج٢ ، ص ١٥٣ .

Baldwin, The latin States, p. 546 .

٤- رنسيما ، الحضارة البيزنطية ، ص ٢٨٤

Hussey, Later Macedonians, p. 235 .

-٥

احتياجه لبيزنطة ، وتقرر هسى فى تقييم حملة مانويل «هكذا فقد أعطى الأمن للصليبيين دون أن يزيد قوتهم من خلال هزيمة حاسمة لنور الدين»^(١).

ثم أن القضاء على نور الدين يعنى ازدياد قوة الصليبيين على نحو يجعلهم لا يحتاجون إلى العون البيزنطى^(٢)، وهذا ما كانت تخشاه الإمبراطورية البيزنطية التى أرادت أن تقتل عاملاً نشطاً فى توجيه سياسات المملكة اللاتينية وصراعاتها مع القوى الإسلامية المجاورة .

وهناك من يرى أن وحدة المسلمين جعلت الإمبراطور يخشى الصدام المسلح معهم ويوافق على عقد معاهدة مع نور الدين^(٣)، والواقع أن الاعتبارات السابقة هى التى دفعت مانويل إلى عقد الاتفاق ولم يكن للوحدة الإسلامية تأثير كبير على تطور الأحداث خاصة أن القوى التى يشير إليها المؤرخ هى مجرد كيانات محلية صغيرة قريبة من حلب طلب منها نور الدين الدعم العسكرى، وبخلاف ذلك كان هناك الانقسام بين معسكر سنى فى صورة الخلافة العباسية فى بغداد، ومعسكر شيعى متمثل فى الخلافة الفاطمية فى القاهرة ، ولم يتغير الموقف إلا فى عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م بإسقاط الفاطميين، فإذا أضفنا إلى ذلك قوة الإمبراطورية البيزنطية العسكرية حينذاك مجتمعة بالجيش الصليبي، لأدركنا أن قضية الوحدة الإسلامية لم تكن تمثل تأثيراً جوهرياً ، ولم تكن لتدفع الإمبراطور إلى عقد الاتفاق مع نور الدين، ومع ذلك فلا ينكر أثر ارتباط ولاية الأعمال الشامية والجزيرة بالدولة النورية، على نحو جعلهم يسرعون بدعما عندما احتاجت إلى عونهم ضد التحالف البيزنطى- الصليبي .

أما رنسيما : فإنه رأى أن من دوافع مانويل لعقد الاتفاق أن بلاد الشام وإن كانت بالغة الأهمية للصليبيين، إلا أنها لم تكن على مثل ذلك المستوى بالنسبة للبيزنطيين، إذ كانت مجرد واحدة من مناطق الحدود من وجهة نظرهم، ولم يكن بوسع الإمبراطور البقاء شهوراً عديدة فى الطرق البعيدة الخطرة وذات المواصلات المجهدة المنهكة ، ولم يرغب فى أن يلحق بجيشه خسائر فادحة دون مبرر^(٤).

١- Hussey, Later Macedonians, p. 235 .

٢- Chalandon, les commnènes, T . II, p. 454 .

٣- تيسير بن موسى، حركة الافرنج ، ص ٢٤ .

٤- Runciman , vol. II , p. 355 .

وبالإضافة إلى ذلك ؛ يشار الجدل حول طبيعة ما توصلت إليه السفارات المتبادلة بين نورالدين ومانويل كومنين، إذ أن هناك من تصور أن الاتفاق احتوى تحالفا بين الطرفين وقد مثل ذلك الاتجاه جب^(١) وكذلك حبشى^(٢)، والواقع أنه ليس من اليسير قبوله ، إذ أن ما كان يريده نور الدين من الاتفاق وقف الحملة العسكرية البيزنطية- الصليبية، وهذا ما تم بالفعل، ويضاف إلى ذلك أن نور الدين وكذلك الإمبراطورية البيزنطية اتجها إلى أن تكون لهما مطامع واضحة فى إمارة أنطاكية ، وتواجد مطامع مشتركة فى منطقة واحدة تنفى تمامًا وجود تحالف بين الطرفين ، خاصة أن الاتفاق لم ينص على تقسيم مناطق نفوذهما بصورة ترضى كل طرف حتى نصف الأمر بأنه تحالف .

ومن جهة أخرى ؛ فإن التحالف البيزنطى والنورى من شأنه الإخلال بسياسة توازن القوى التى سارت عليها الإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور مانويل كومنين .

وفى حالة قيام مثل ذلك الحلف كان من الممكن أن تقدم بيزنطة دعمها العسكرى لنور الدين فى صراعه مع مملكة بيت المقدس الصليبية ، ولكن ذلك لم يحدث ، ولم تشر أية مصادر إلى مثل ذلك على نحو يجعلنا نعارض فكرة التحالف، بل أن بيزنطة وقفت بقوتها العسكرية ضد نور الدين فيما بعد سواء فى بلاد الشام أو فى مصر .

يضاف إلى ما سبق ؛ أن الخلافة العباسية لم يكن من الممكن أن تقبل قيام محالفة بيزنطية- نورية ولم يكن من المنطقى قيام تحالف بين بغداد وحلب وبين الأخيرة والقسطنطينية فى آن واحد، خاصة أن الإمبراطورية البيزنطية كانت من وجهة نظر العباسيين قوة معادية للمسلمين فى المنطقة وخاضت معها معارك عديدة من خلال حدود ملتهبة فى صورة حرب الثغور خلال العصر العباسى الأول على نحو خاص، ثم أن السلاجقة جاءوا لدعم العباسيين وكان اصطدامهم بالإمبراطورية البيزنطية من خلال توسعاتهم فى بلاد الشام .

Runciman , vol . II, p. 355 .

-١

Gibb, The career of Nur Al- Din , p. 522 .

-٢

٣- نور الدين والصليبيون ، ص ٨٧ . يقول «وقد كان معنى الاتفاق بين نور الدين ومانويل كومنين إطلاق يد المسلمين فى الأعمال الصليبية ومكايده صليبي الشام».

ويرى البعض ؛ أن مما يدعم القول بذلك التحالف أسر نور الدين لأرناط بعد تلك الأحداث بفترة ليست طويلة ^(١)، غير أن هذا لا يعنى بالضرورة تدعيم ذلك الرأى ، فقد كان أرناط يقوم بهاجمة الأعمال الإسلامية للمسلم والنهب وأراد نور الدين أسره، وذلك سيرا وراء سياسة اتباعها من قبل مع غيره من الأمراء الصليبيين وقد طبقها من قبل مع جوسلين الثانى صاحب تل باشر، ولو كان أسر أرناط يمثل سابقة جديدة وفريدة لتدعم القول بإمكانية المحالفة لكنها لم تكن كذلك ، وما يفند ذلك الرأى أن أسره تم بعد حوالى أربع سنوات من الاتفاق النورى البيزنطى وحيث أن أرناط مثل خطراً على الإمبراطورية البيزنطية من قبل ؛ عندما هاجم ممتلكاتها فى قبرص عام ٥٥٠هـ / ١١٥٥م فقد كان الأخرى بنور الدين فى حالة تحالفه معها أن يبادر بأسر عدوها عقب الاتفاق مباشرة ولكن ذلك لم يحدث .

إضافة إلى ذلك كله، أن الإمبراطورية البيزنطية لم يغيب عن سياستها إدراك أن التحالف مع نور الدين - فى حالة حدوثه أصلاً - سيدعم قوته ضد الصليبيين بصورة كبيرة قد تجعله من بعد ذلك يتقلب عليها نفسها طمعاً فى زيادة قوته السياسية .

وما يدعم القول بالاتفاق - لا التحالف- أن المعارك اندلعت من بعد ذلك بسنوات بين نور الدين محمود والصليبيين واشتركت فيها الإمبراطورية البيزنطية ، وهذا يدل على أنه كان اتفاقاً مرحلياً ومؤقتاً ولم يشمل أية أمور مستقبلية ، ومن أمثلة تلك المعارك معركة البقية حوالى عام ٥٥٨هـ / ١١٦٣م وبعدها معركة حارم ٥٥٩هـ / ١١٦٤م .

ففى الأولى ؛ اشتركت الإمبراطورية بقواتها بصورة فعالة إلى جانب القوات الصليبية ضد الجيش النورى عندما قام بهاجمة حصن الأكراد التابع لإمارة طرابلس الصليبية، إذ أشارت المصادر إلى اشتراك «الدوقس الرومى» الذى قدم ومعه جمع كبير من الفرسان البيزنطيين وأنه كان «أشدهم على المسلمين» ^(٢) ويبدو أنهم ساهموا بدور فعال فى المعركة التى انتهت بهزيمة الجيش النورى إذ يقرر أحد المؤرخين أنه «لم يبق أصحابه على أحد» ^(٣) وحاولوا قتل نور الدين محمود نفسه فى خيمته من خلال هجوم مفاجئ غير أنه تمكن من النجاة بأعجوبة .

١- حبشى، نور الدين والصليبيون ، ص ٨٧ .

٢- ابن العديم ، زبدة الخلب، ج٢ ، ص ٣٤٣ .

٣- نفسه، نفس المصدر والصفحة .

٢٠٣

وتمثل معركة البقيعة أهمية متميزة ، إذ أنها أول معركة تشترك فيها الإمبراطورية البيزنطية بقوات لها ضد نور الدين محمود ، كما أنها لم تكن تساهم في الدفاع عن أنطاكية ، بل عن طرابلس ، وتعليل ذلك أنها رغبت في إظهار دعمها الحربي لمملكة بيت المقدس في صورة دعم إمارة تابعة لها .

أما معركة حارم عام ٥٥٩هـ / ١١٦٣م فقد اشتركت فيها قوات بيزنطية تحت قيادة أمير كيليكيا البيزنطي قسطنطين كولمان وذلك من خلال التحالف البيزنطي الصليبي الأرميني ضد نور الدين وإن تمكن جيشه من إلحاق الهزيمة بالأعداء وتقتل تلك المعركة أهمية خاصة بالنسبة لبيزنطة إذ أنها تعد آخر معركة تشترك فيها القوات البيزنطية على أرض الشام ^(١).

وبعد تقدم قسطنطين كولمان للدفاع عن حارم وهى من ضمن أملاك إمارة أنطاكية- يعد دليلاً واضحاً على اهتمام الإمبراطورية البيزنطية بأمر تلك الإمارة باعتبارها من ضمن أملاكها وفق الادعاءات البيزنطية السابقة ^(٢).

وقد قاد القوات البيزنطية في المعركة كولمان الذى أشار إليه ابن العديم بقوله «الدوك مقدم كبير من الروم» ^(٣).

وفى أعقاب أحداث معركة حارم لاحت في الأفق- أكثر من أى وقت مضى- إمكانية إسقاط أنطاكية التى خلت من مدافعيها إلا القليلين، غير أن الخطر البيزنطي ظل قائماً ويتعبير المصادر العربية فإن نور الدين فضل أن يجاور الصليبيين على أن يجاور ملك الروم، ولارب في أن الإمبراطورية البيزنطية على الرغم من أنها أفادت من صراع نور الدين ضد الوجود الصليبي من حيث انهائه ومن ثم احتياجه إلى العون البيزنطي إلا أنها لم تكن لتقبل أن يكون توسع الدولة النورية على حساب ارتباطاتها القوية بنهر العاصى ومدينته المزدهرة أنطاكية .

ومن النتائج المهمة التى قمضت منها معركة حارم ، فشل فعاليات التحالف العسكرى الصليبي- البيزنطي- الأرميني، وتعد هذه إحدى المرات الفعالة التى تم فيها الاتفاق بين الصليبيين والبيزنطيين للعمل المشترك ضد الدولة النورية .

١- عمران ، معركة حارم، ص ٩٦ .

٢- نفسه، نفس المرجع والصفحة .

٣- زبدة الحلب، ج ٢ ، ص ٣١٩ .

ومن ناحية أخرى؛ لم تقف الإمبراطورية البيزنطية أمام توسع نور الدين فى بلاد الشام على حساب مصالحها فقط، بل إن ذلك الاتجاه امتد ليشمل مصر أيضاً ومحاولة الدولة النورية التوسع فى الاتجاه الجنوبي الغربى .

أما دوافعها إلى ذلك فتتمثل فى رغبته فى عدم حدوث تفوق استراتيجى فى صالح نور الدين محمود على حساب مملكة بيت المقدس الصليبية على نحو يحدث ضرراً بالغاً بميزان القوى فى المنطقة ، ثم لأن مصر كانت من قبل من ضمن أملاك الإمبراطورية البيزنطية ، قبل حركة الفتوح العربية الكبرى فى القرن الأول هـ/ السابع م .

ويلاحظ أن ذلك حدث فى عهد الملك عمورى الأول ، وأن الدعم البيزنطى العسكرى للصليبيين حدث بعد طلب من جانب الملك الصليبي، وذلك عندما أراد شن حملة عسكرية على دمياط ، فقد تم إرسال سفارة صليبية رفيعة المستوى إلى القسطنطينية للتفاوض مع مانويل كومنين بشأن الحملة المرتقبة على دمياط (١) .

وتم الاتفاق عام ٥٦٣هـ / ١١٦٨م على أن تضع الإمبراطورية قواتها البحرية فى خدمة الصليبيين فى مشروع الغزو وأن تحصل فى مقابل ذلك على قسم من أراضي مصر، ولا مراء فى أن ثراء سهل النيل الفيضى قد أسال لعاب البيزنطيين للمشاركة فى حملة دمياط ، فضلاً عن رغبتهم فى الحصول على مراكز بحرية واستراتيجية هامة فى جنوب شرق البحر المتوسط تدعم نشاط الموانئ البيزنطية فى جنوب شرق القارة الأوربية .

وقد انهمك مانويل فى مشاكل خاصة فى البلقان ؛ ولذا سارع عمورى بالتقدم إلى مصر دون انتظار الحليف البيزنطى، وبامت الحملة بالفشل لأخطاء وقع فيها القائد البيزنطى اندروتيكوس كونتوستفانوس الذى كان أصلاً قائداً برياً وليس بحرياً (٢) ، وكذلك لأخطاء وقع فيها الصليبيون، وقد انتشرت المجاعة فى صفوفهم ووعد الإمبراطور بإرسال الأموال اللازمة، ومع ذلك فإنه لم يقم بذلك، وبصور لنا وليم الصورى مدى معاناة الصليبيين من المجاعة الطاحنة (٣) .

William of Tyre, vol . II , p. 348 .

-١

٢- عمران ، السياسة الشرقية ، ص٣١٢- ص٣١٣ .

William of Tyre, vol . II , p. 369-370 .

-٣

وبالإضافة إلى تلك العلاقات والاتصالات ذات الأشكال السياسية والعسكرية ، فإن هناك مظهرًا من العلاقات الاقتصادية وجد بين الجانبين النوري والبيزنطي ، فمعلوم وجود طريق تجارى بين شمال الشام والإمبراطورية البيزنطية عبر مناطق سلاجقة الروم ، وأن الدولة النورية كانت تمثل أحد المنافذ التجارية المهمة التى مرت بها منتجات الشرق لكى تصل إلى الإمبراطورية البيزنطية ، ويشير ابن القلاسى إلى أن نور الدين محمود هادى مانويل كومنين بهدايا منها أثواب ديباج ^(١) ، وينبغى أن نلاحظ أن تلك الهدايا مثلت دعاية تجارية تعكس مدى ما وصلت إليه الصناعة فى العهد النورى من ازدهار وعكست صلات تجارية قائمة بين الجانبين .

تلك سياسة نور الدين محمود تجاه الإمبراطورية البيزنطية ، وقد أثرت سياسة توازن القوى التى اتبعتها الإمبراطورية على توسعته فى بلاد الشام ومصر ، إذ قاومت أية تحركات من شأنها الإخلال بتوازن القوى بينه وبين الصليبيين ، ومع ذلك حافظت على بقاء دولته من أجل مواصلة تهديد الكيان الصليبي على نحو يجعل ذلك الكيان فى حاجة إلى الدعم البيزنطي ، وهو ما هدفت إليه الإمبراطورية من حيث استمرار تواجدها كعامل فعال فى سياسة المملكة اللاتينية .

إن العرض السابق ؛ يوضح لنا أن العلاقات النورية - البيزنطية دخلت فى عدة مراحل ، فأولا لم تتدخل عسكريًا ضد نور الدين وإن أثرت على سياسته الخارجية من حيث عدم قدرته على السيطرة على أنطاكية خوفًا من تدخلها ، والمرحلة الثانية المشاركة فى حملة مشتركة مع الملك الصليبي وأمير أنطاكية ومعهما الإمبراطور البيزنطي على حلب ولكن فضلت الإمبراطورية خلالها الاتجاه السلمى من خلال جملة دوافع واعتبارات أما المرحلة الثالثة فتمثلت فى العمل العسكرى ضده بالمشاركة مع الصليبيين وهذا ما نجده فى أحداث معركتى البقيعة ٥٥٨هـ / ١١٦٣م ، وحارم ٥٥٩هـ / ١١٦٤م ، أما المرحلة الرابعة فقد تمثلت فى مقاومة التوسع النورى خارج حدود بلاد الشام أى فى مصر حفاظًا على سياسة توازن القوى .

لقد تمثل دهاء نور الدين محمود السياسى فى عدم إثارته للصراع مع الإمبراطورية البيزنطية واتجاهه إلى عقد اتفاق سلمى معها ، وذلك من أجل تجنب تحالف صليبي- بيزنطي

١- ابن القلاسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٥٦ .

ضد دولته ، على نحو يؤدي إلى خسائر فادحة تلحق بهما ، ولاشك أنه استغل خبرة دولته الدبلوماسية من أجل إجراء تلك الاتصالات .

لقد تشابهت سياسة نور الدين محمود تجاه الإمبراطورية البيزنطية مع سياسته تجاه مملكة بيت المقدس ، من حيث اتجاهاه إلى مسالمتها في بعض الأحيان. ولا جدال في أن مصلحة دولته العليا هي التي دفعته إلى ذلك .

ولاشك في أن الدولة النورية قد وفقت في سياستها تجاه الإمبراطورية البيزنطية من حيث تحجيم خطرهما من خلال الاتصالات الدبلوماسية ، كذلك فإنها أثبتت قدرتها العسكرية في مواجهة التحالف العسكري البيزنطي - الصليبي ومعه الأرمن في معركة حارم عام ٥٥٩هـ / ١١٦٤م .

ومن جهة أخرى ؛ أثبت العرض السابق أن القسطنطينية لم تكن ضمن أهداف السياسة الخارجية النورية بدليل عدم تعرضها لأدنى خطر من جانب الجيش النوري الذي كان مجال توسعه الطبيعي في بلاد الشام والجزيرة ومصر ، وأحياناً قام بعمليات عسكرية في جبهة آسيا الصغرى ، ومن الواضح أن ما أشارت إليه المصادر بشأن العاصمة البيزنطية لم يكن إلا من قبيل الدعاية السياسية التي حرصت الدولة النورية على ترديدها لدى الخليفة العباسي لضمان دعم أكبر على كافة المستويات ، ثم من جهة أخرى رغبة المؤرخين المعاصرين واللاحقين في إظهار نور الدين في صورة المقاوم لكافة القوى المسيحية الصليبية والبيزنطية على السواء وذلك من خلال تصويره كبطل للجهاد .

كان ذلك عرض للعلاقات بين الدولة النورية والإمبراطورية البيزنطية .

الباب الثالث

نتائج السياسة الخارجية النورية

الفصل السابع

النتائج السياسية

حقق التوسع النورى الخارجى العديد من النتائج السياسية المهمة والمؤثرة على مستوى الدولة النورية نفسها ، وكذلك على مستوى القوى السياسية المجاورة لها سواء كانت إسلامية أم مسيحية وكانت تلك النتائج من القوة بحيث عملت على تغيير خريطة توزيعات الكيانات السياسية فى المنطقة بصورة اتفقت مع الأهداف العليا للدولة النورية والتى سعت ما وسعها السعى إلى خلق كيانات متحالفة أو خاضعة لها فى الجبهة الإسلامية ، أما الجبهة الصليبية فإنها هدفت إلى وقف توسع الصليبيين على حساب أملاكها ومحاصرة الكيان الصليبي بقدر الإمكان وصولاً إلى تحقيق مبدأ توازن القوى ليستطور من بعد إلى رجحان كفة الميزان الاستراتيجى لصالح المسلمين .

والواقع أن دراسة السياسة الخارجية للدولة النورية تكشف بجلاء عن أن تلك الدولة على امتداد السنوات الواقعة من عام ٥٤١هـ / ١١٤٦م إلى عام ٥٦٩هـ / ١١٧٤م كان التوسع الخارجى بمثابة عصب الحياة بالنسبة لها ، ولذا فقد حق القول أنها كانت دولة ثغرية ذات سياسة خارجية مهيمنة .

وقد تعددت النتائج السياسية التى لحقت بالدولة النورية نفسها من جراء التوسع الخارجى ، على نحو جعل من تلك الدولة قوة سياسية ذات شأن بين القوى الدولية فى المنطقة .

ومن أهم النتائج التى لحقت بها سياسياً اتساع نطاق سيادتها بصورة واضحة ، فعلى الرغم من أن تلك الدولة بدأت عهداً بالسيطرة على مدينة حلب وبعض الأعمال المجاورة لها فى شمال الشام ، وذلك عقب مصرع عماد الدين زنكى عام ٥٤١هـ / ١١٤٦م ، إلا أنه خلال ما يقرب من الثلاثين عاماً استطاعت أن تدمج نفوذها ليشمل شمال العراق والقسم الأوسط من الشام ، وكذلك مصر حتى حدودها الجنوبية فى بلاد النوبة ، ووصلت بتلك الحدود حتى جبل نفوسة غرباً ، وهكذا ، فبدلاً من مدينة رئيسية ، صارت الدولة النورية تخضع لها دولة متسعة مترامية الأطراف^(١) ذات نطاقين آسيوى وأفريقى ، وحوت العديد من المدن الكبرى الهامة فى المنطقة مثل دمشق والموصل والقاهرة ، هذا بالإضافة عن حلب ذاتها ومن المعروف أن المدن

١- ابن عساكر ، ترجمة محمود بن زنكى ، ص ١٣٨ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٣٤٠-٣٤١ ؛ ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٥٩-١٦٣ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج ١ / ق ١ ، ص ١٤٠ .

الأربعة المذكورة كانت دعامة حركة الجهاد الإسلامى وصولاً إلى إسقاط مملكة بيت المقدس الصليبية عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م .

ولعل من أهم النتائج السياسية ، أن السياسة الخارجية النورية قد أحدثت تغييراً واضحاً بالنسبة للطبيعة الجغرافية للدولة نفسها ، فبعد أن كانت دولة برية حبيسة لامتلاك منافذ بحرية ، وتجسد ذلك بصورة واضحة عندما كانت فى ظل الحدود الشامية الشمالية- إذ وقفت إمارة أنطاكية وطرابلس ومملكة بيت المقدس ذاتها إلى الغرب منها حائلة دون أن تكون لها أية موانئ فى تلك المنطقة- فإنها بإخضاعها لمصر عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م حدث تغيير جوهري فى تلك الطبيعة الجغرافية ، إذ صارت الدولة النورية تهيمن على سواحل ممتدة على البحر المتوسط ووصلت سيادتها إلى قسم مهم من سواحل المغرب الأدنى ، وكذلك تمكنت من إخضاع جانب كبير من ساحل البحر الأحمر ، ولاشك فى أن ذلك ضمن لها قوة سياسية متميزة ، وهى لها أن تلعب أدواراً سياسية نشطة فى المنطقة من خلال تلك الطبيعة الجديدة ، والتى لم تكن لها قبل أن تبدأ فى ممارسة سياسة الهيمنة الخارجية .

ومن جهة أخرى ، أثرت التوسعات الخارجية فى دعم النظام السياسى القائم فى الدولة ، والذى قام على أكتاف القادة العسكريين الأتراك ومنهم نور الدين محمود نفسه وكذلك عناصر من الأكراد قتلوا فى صورة كبار رجالات الدولة الذين عاونوه فى الحكم ، ويلاحظ أن العناصر التركية وكذلك الكردية غدت أكثر العناصر تميزاً من حيث الدور السياسى كنتيجة للتوسع الخارجى للدولة .

حقيقة أن المشرق الإسلامى خلال تلك المرحلة من تاريخه قد شهد تغلب العسكر وتزايد نفوذهم ، وأوضح الأمثلة الدالة على ذلك نجدها لدى الأتراك السلاجقة أنفسهم وتوغلهم فى المنطقة وقضائهم على النفوذ البويهى ، إلا أن الدولة النورية بالذات شهدت نفوذاً متزايداً للعسكريين الذين صنعوا- من وجهة النظر الرسمية- كافة إنتصاراتها على أعدائها ، ومن ثم لمعت أسماء شخصيات قيادية حربية مثل أسد الدين شيركوه ، وصلاح الدين الأيوبي ، ومجد الدين بن الداية ، وهم من العناصر الكردية والتركية ، وتكرار تردد تلك الأسماء وغيرها فى المصادر وبصورة ملفتة للانتباه ، يدل على أن التوسع الخارجى للدولة قد نجم عنه تزايد نفوذ العسكريين سياسياً على نحو واضح ، وقد تدعم ذلك النفوذ السياسى -بالطبع- من خلال اقطاعاتهم^(١) التى حصلوا عليها .

١- عن الإقطاع الحربى النورى أنظر بالتفصيل الفصل الخاص بالنتائج الاقتصادية .

ويرتبط بالوضع السابق ، أنه مع تزايد نفوذ النخبة العسكرية أن زادت الصفة العسكرية للدولة ، ولاشك في أن نجاح الجناح الحزبي في تحقيق إتساع سيادة الدولة النورية ، أدى إلى تزايد الصبغة الحزبية لها ، ولا مراء في أن دولة تقوم بكافة تلك التوسعات وعلى مثل ذلك النحو ، من الطبيعي أن كافة أجهزتها الإدارية كانت تتعاون مع قواها الإنتاجية من أجل دعم السياسة الخارجية الطموحة التي تبنتها ، يدعم هذا التصور أن الدولة النورية- على مدى السنوات التي عمرت خلالها وهي تزيد على الربع قرن- ، ندر أن انصرم عام دون حشد القوات من أجل مهاجمة الأعمال المجاورة الإسلامية أو الصليبية ، ومعنى هذا استمرار الدولة ذات صفة حزبية واضحة وهذه الصفة نفسها هي التي هيأت لها أن تنجح في ضم الأقاليم المجاورة.

ومن جهة أخرى ؛ أدت الإنجازات التي حققتها الدولة النورية على الصعيد الخارجي إلى تزايد الارتباط السياسي بالسلطان الحاكم، وعلى مستوى العامة نظروا إليه على اعتبار أنه مجاهد ومدافع عن الإسلام في وجه العدوان الصليبي، ويلاحظ هنا دور الجوامع والمساجد في توجيه الرأي العام إلى مثل تلك الوجهة المدعومة للسلطة وخلق سيكولوجية حشود ذات طابع ديني قوي، فضلاً عن أن نجاح القيادات السياسية في القضاء على كل معارضة لها ، زاد من تسيدها على المسرح السياسي دون منازع ، وجاءت نجاحاتها الخارجية مدعومة لذلك .

كذلك أثرت سياسة التوسع الخارجي على السياسة الإدارية ، فعندما كانت الدولة النورية لاتزال دويلة وليدة في حلب وأعمالها بشمال الشام لم تكن هناك مشكلة في إدارة البلاد ، ولكن مع اتساع رقعتها بصورة كبيرة، ومع رغبة الجهاز الحاكم في تشديد قبضته على أرجاء البلاد ، صار من اللازم إيجاد وسائل جديدة للاتصال وإبلاغ المسئولين بتطورات الأقاليم الخاضعة لها، ومن ثم وجد نظام الحمام الهوادي^(١)، ومن الأمور ذات الدلالة أن استخدامه لم يتم إلا عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م، حيث دخلت مصر ضمن أملاك الدولة النورية واتسعت رقعتها بصورة ملحوظة .

١- ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٥٩ ؛ ابن العديم ، بغية الطلب ، تراجم السلاجقة ، ص ٢٧٦ ؛ أبو شامة الروضتين ، ج ١ / ق ٢ ، ص ٥٢ ؛ ابن قاضي شهاب ، الكواكب الدرية ، ص ٣٨ ، الحويرى ، الأوضاع الحضارية ، ص ١٦٣ ، الغزى ، نهر الذهب ، ج ٣ ، ص ٩٧ ، كرد علي ، خطط الشام ، ج ٢ ، ص ٤٥ ، ص ٦٦ ، شاكِر أبو بدر ، الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ، ص ١٩١ ، عاشور ، كتاب صبح الأعشى مصدراً لدراسة تاريخ مصر في العصور الوسطى ، ضمن كتاب القلقشندي وكتابه صبح الأعشى ، ط. القاهرة ١٩٧٣م ، ص ٤٢ .

وبالإضافة إلى ذلك ، جلب التوسع الخارجى الغنائم والأسلاب الوفيرة للدولة النورية، بفضل فعاليات ، جيوشها ، وذلك فى صورة الأسرى أو الأموال أو المتاع العسكرى أو الدواب إلى نحو ذلك . وكانت تلك الغنائم من الأهمية بحيث أنها أفادت الدولة مادياً فى بناء بعض المنشآت العمرانية التى كانت فى حاجة إليها، ولاريب فى أن تعدد المعارك التى خيض غمارها، قد جعل أمر حصول تلك الجيوش على المغنم أمراً مستمراً ومتزايداً ، ويكفى للتدليل على حجم تلك الأسلاب أنه فى أعقاب معركة حارم عام ٥٥٩هـ / ١١٦٤م، غنم الجيش النورى ما قيمته ٦٠٠,٠٠٠ دينار^(١)، ويلفت البعض النظر إلى أن ذلك المبلغ قد تأتى من جراء خوض غمار معركة واحدة^(٢)، وبدل ذلك على مغزى مهم : إذ أن الدولة أدركت فى دهاء أن حجم إنفاقاتها العديدة على قواتها الحربية، سيعود إليها فى صورة الأسلاب والغنائم ، وأنه لن يفقد بصورة كاملة وكان ذلك كافياً لأن تنفق عليها بسخاء دون تردد أو إحجام .

ويضاف إلى ذلك : فإن التوسع النورى الخارجى قد ساعد فى إبراز دور عناصر من خارج بلاد الشام تساهم بدورها فى قضية الصراع مع الوجود الصليبي وتشتلت فى المغاربة^(٣)،

١- عن تلك الغنائم أنظر :

Anonymous Syriac chronicle, p. 304 , William of Tyre, vol . II , p. 307 .

ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٢٥ : ابن العديم ، زبدة الحلب، ج٢ ، ص ٣٢٠ : سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨ / ق ٢ ، ص ٢٤٧ : ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ٢٨١ : ابن قاضى شعبة ، الكواكب الدرية ، ص ١٦٧ .

٢- عماد الدين خليل ، نور الدين محمود ، ص ١٤٣ .

وعن الغنائم فى المعارك الأخرى التى انتصرت فيها الدولة النورية :

ابن القلائسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠٦ ، ص ٣١٢ ، ص ٣١٨ ، ص ٣٢٠ ، ص ٣٤٢ ، ص ٣٥٢ : ابن العديم ، المصدر السابق، ص ٢٩١ ، ص ٣٢٢ ، ص ٣٣٦ . Anonymous Syriac chronicle, p. 302 .

٣- عن دور المغاربة أنظر :

ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٤٧ .

أيضاً :

أحمد بدر، « الأندلسيون والمغاربة فى القدس »، مجلة أوراق- المعهد الأسباني العربى للثقافة، العدد (٤) =

وهنا من يرى أن دوافع مقدمهم إلى بلاد الشام والاستقرار بها حينذاك كانت دينية في المقام الأول^(١)، ومع إدراكنا لأهمية الدافع الديني في عصر الصليبيات إلا أننا لانغفل أهمية الدوافع الأخرى؛ إذ أن انتعاش النشاط الاقتصادي لاسيما التجاري جعل الكثيرين منهم يستقرون هناك، كذلك فإن المميزات التي توافرت للعناصر العسكرية هي التي حفزتهم - على ما يبدو - على الإنضمام إلى الجيش النوري والاشتراك في معاركه مع الصليبيين وبالتالي وقوع عناصر منهم قتلى وأسرى، ثم لانغفل أيضاً دور الرحلة الدينية والعملية في استقرار المغاربة في بلاد الشام في عهد الدولة النورية .

كذلك يلاحظ أن التوسع النوري الخارجي قد أظهر بجلاء نجاح المصاهرات السياسية كوسيلة لتحقيق أهداف الدولة العليا ، وعلى الرغم من أن التصاهر قد وجد بين القيادات السياسية من قبل ذلك لدى السلاجقة^(٢)، إلا أنه بالنسبة للدولة النورية لعب دوراً مهماً ، فمصاهرة نور الدين محمود لمعين الدين أنر أتابك دمشق وزواجه من ابنته في عام ٥٤١هـ / ١١٤٦م^(٣) قد أفاد من بصورة واضحة في دعم نفوذه في دمشق ، ولاريب في أن ذلك قد أعانه على إحكام سيطرته عليها ، وبالتالي التوسع جنوباً لحساب دولته .

= لعام ١٩٨١م ، ص ١٣٣ ، عبد الكريم كريم، « الشام والمغرب خلال القرن العاشر للهجرة » المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام - الجامعة الأردنية- عمان ، ابريل ١٩٧٤م، ص ٤٨٩ ، عبد الهادي التازي، « بلاد الشام في الوثائق الدبلوماسية المغربية »، نفس المؤتمر ، ص ٤٣٤ ، ص ٤٣٥ .

١- أكرم العلبي ، نيابة دمشق في نهاية عهد المماليك ، رسالة ماجستير - معهد الدراسات العربية ، ص ٦٣ .

٢- عن ذلك بالتفصيل أنظر :

فتحى أبو سيف ، المصاهرات السياسية في العصورين الفزنوي والسلجوقي ، ط. القاهرة ١٩٨٦م ، ص ١٢٩- ١٧٥ .

٣- ابن القلائسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٨- ٢٨٩ ؛ أبو شامة الروضتين ، ج ١ / ق ١ ، ص ١٢٩ -

William of Tyre , vol . II , p. 148 .

عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٦٤٧ ، حسن حبشي ، نور الدين والصليبيون ، ص ٤٢- ٤٣ .

ونجد مثلاً ثانياً على المصاهرات السياسية فى صورة أن نور الدين اتجه إلى تزويج ابنة قلع أرسلان سلطان سلاجقة الروم، لسيف الدين غازى بن قطب الدين مودود^(١) فى عام ٥٦٨هـ/ ١١٦٦م، لدعم الاتفاق الموقع بين سلطان حلب ولسطان قونية .

ويلاحظ أن التوسع الخارجى النورى قد ألحق نتائج سلبية أيضاً على الدولة، ولم يكن قاصراً على تحقيق نتائج إيجابية مهمة ، ولا مرأى فى أن النتائج السلبية أثرت عليها كدولة من دول المنطقة ، إذ أن امتداد رقعتها بمثل تلك الصورة المترامية الأطراف قد شجع على ظهور بوادر اتجاهات انفصالية ، ورغبة فى تكوين حكم مستقل لأسرات حاكمة معينة، ونجد مثلاً وضاحاً دالاً على ذلك فى صورة دور صلاح الدين الأيوبي- رجل السياسة الخارجية النورية فى مصر- ورغبته فى تكوين ملك خاص ببنى أيوب بها، إذ أن ذلك أدى إلى اشتعال المنافسة بين الطرفين ، وعدم القدرة على توحيد جهودهما معا، من أجل مواجهة الكيان الصليبي القائم بينهما فى بلاد الشام، بل وصل الأمر إلى الحد الذى صار صلاح الدين معه هو الذى توسع على حساب الدولة النورية ذاتها^(٢).

كذلك توجد بعض النتائج الحربية السلبية من جراء السياسة الخارجية النورية على تلك الدولة نفسها ، فقد أدت سياسة التوسع الخارجى أحياناً إلى إلحاق الخسائر بالجيوش النورية،

١- أبو شامة ، المصدر السابق، ج١ / ٢ ق ، ص٢٤٤ .

وأنظر أيضاً من أمثلة الزواج السياسى فى عهد نور الدين محمود :

ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٤٤ .

٢- عن ذلك :

العماد الأصفهاني ، سنا البرق الشامى، ص٨١ ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٥٠ ؛ ابن الأثير ،

الباهر ، ص١٧٦- ص١٧٧ ؛ أبو شامة ، الروضتين، ج١ / ٢ ق ، ص٥٩٧ .

William of Tyre, vol. II, p. 409 ,

سامى الدهان ، الناصر صلاح الدين الأيوبي ، ط. القاهرة ١٩٦٠م ؛ عاشور ، الناصر صلاح الدين ، ط.

القاهرة ١٩٦٥م ، ص١٠٧- ص١٠٨ ، ص٧٧ ؛ عبد الله علوان ، صلاح الدين الأيوبي، ط. القاهرة

١٩٨٣م، ص٤٣ .

وأحياناً الهزيمة الفادحة ، ونجد مثلاً دالاً على ذلك فى صورة معركة البقيعة عام ٥٥٨هـ / ١١٦٣م^(١) ، ولاشك فى أن مثل تلك المعارك أدت إلى سقوط العديد من القتلى سواء من القادة أو الجند ، وحتى فى المعارك التى كُلت بالظفر ، فمن المحتمل أن الدولة النورية دفعت الثمن من رصيدها البشرى ، ولا مرأى فى أن دولة تخوض عشرات المعارك بهدف الهيمنة على الأقاليم المجاورة ، وعلى مدى سنوات عديدة ، وفى كافة الاتجاهات ، من الممكن تصور أنها فقدت العديد من أبنائها ، وإن أغفلت المصادر التاريخية الرسمية مثل ابن القلاسى والعماد الكاتب الأصفهاني بالطبع الإشارة إلى ذلك لرغبتها فى إظهار تلك الدولة بمظهر المنتصر دون أن تمنى بخسائر فادحة .

وتجدر الإشارة إلى أن النتائج السياسية، لم تكن قاصرة على الدولة النورية فحسب، بل تعدتها إلى القوى المجاورة لها، والتى كانت ميداناً رحباً لسياستها الخارجية ، سواء كانت تلك القوى إسلامية أم صليبية .

أما الخلافة العباسية ؛ فلاريب فى أن سياسة التوسع النورى قد عضدت من المركز السياسى للخليفة العباسى أمام رعاياه فى كافة أنحاء العالم الإسلامى ، وحيث أن أهداف حلب وبغداد تشابهت ، وحارب الجيش النورى لتحقيق أهداف العباسيين فى الدفاع عن البقاع الشامية والجزيرة فى مواجهة الخطر الصليبي، وكذلك من أجل تدعيم مركز الدولة النورية فى مصر إلى أن اسقطت الخلافة الفاطمية وهى العنبر التقليدى للعباسيين- فإن التوسع النورى كان يعنى من جهة أخرى تدعيماً للسيادة السياسية للخليفة العباسى^(٢) ، وتوتيجاً لجهوده فى دعم الدولة النورية مادياً وسياسياً ، خاصة إذا ما أدركنا أن ذلك جاء فى وقت خاض فيه العباسيون غمار معارك ضارية من أجل استرداد نفوذهم السياسى فى مواجهة استفحال النفوذ

١- عن ذلك : . 324 , vol . III , Michael The Syrian , 306 , vol. II , William of Tyre

ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٣٧- ١٣٨ : الكامل ، ج ١١ ، ص ١١٩ ؛ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ / ق ١ ، ص ١٣٥ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٣١٢- ٣١٤ ؛ ابن أبيك الدوادارى ، الدرّة المضيئة ، ص ٥٥٤ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٧ ، ص ١٠٩ ، الخريزى ، الأعلام والتبيين ، ص ٧٣ .

٢- يقول ابن عساكر «خطب فيها للدولة العباسية بعد اليأس» ترجمة محمود بن زكى ، ص ١٣٩ .

السلجوقي^(١)، وجاءت النجاحات التي حققها الحليف الشامي لمواجهة العدو الصليبي مدعمة لنفوذ العباسيين.

ولعل من أهم ما تمخض عن التوسع النوري سياسياً ، وأنه ظهر بجلاء عجز الخلافتين الفاطمية والعباسية عن مواجهة الغزو الصليبي الاستيطاني في بلاد الشام، وأنه لا مفر من وجود كيانات عسكرية تتولى أمر مواجهة ذلك الكيان الغازي^(٢)، فالخلافة الفاطمية ظهر عجزها السياسي وأنها انهمكت في مشاكلها الداخلية عن مواجهة الأخطار الخارجية على حدودها الشرقية ناهيك عن صراعها المذهبي مع الخلافة العباسية ، أما الأخيرة فلم تكن تستطيع أن تواجه الصليبيين لبعدها المسافة بين مركزها في العراق وتواجدهم في بلاد الشام، بالإضافة إلى مواجهة الخلفاء العباسيين لمشاكلهم الخاصة بمقاومة النفوذ السلجوقي المتنامي ، ومشكلات الشرق الإسلامي بعامة. ومنطقي تصور أنه بدون وجود كيان سياسي ذو صبغة عسكرية مثل الدولة النورية، لما تمكنت خلافة بغداد من المساهمة بدور فعال في مجريات الصراع الإسلامي- الصليبي، فالسياسة الخارجية النورية كشفت عن عجز الخلافتين عن التغيير السياسي في المنطقة، ومن ثم جاءت لتملأ ذلك الفراغ بالمجازاتها على حساب الصليبيين أنفسهم .

أما النتائج السياسية التي لحقت بالكيانات المحلية الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة ، فمن أهمها فقدان العديد منها لكيانها السياسي المستقل، والذي مثل جزءاً من ظاهرة التشرذم السياسي^(٣)، الذي كانت عليها بلاد الشام والجزيرة عشية مقدم الغزو الصليبي، في

١- عن ذلك بالتفصيل أنظر الفصل الخاص بالعلاقات النورية- العباسية .

٢- أحمد الهواري ، «غاذج من شعر الجهاد ضد الصليبيين»، ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط ، م(٣) ، ط. القاهرة ١٩٨٥م ، ص١٥- ص١٦ .

٣- عن تلك الظاهرة أنظر :

ابن القلاسي ، ذيل تاريخ دمشق، ص١٢٣- ص١٣٥ ، عليه الجنزوري، الحياة السياسية، في بلاد الشام في القرن الخامس الهجري وأثرها في قدوم الحملات الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية البنات- جامعة عين شمس لعام ١٩٦٩م، يوسف أبو بكر ، «الحرب الصليبية لازالت مستمرة»، مجلة بلسم ، السنة (١٥) العدد (١٤٩) ، نوفمبر ١٩٨٧م، ص٦٥ .

أخريات القرن الخامس هـ / الحادى عشر م ونجد مثلين واضحين للتدليل على ذلك فى صورة الأسرة البورية التى حكمت دمشق وكذلك أسرة بنى منقذ فى شيزر .

كذلك فإنه مما نجم عن التوسع النورى ، التطور العام الذى حل بشكل النظام السياسى الذى اتخذته بعض القوى المحلية الشامية فقد كان هناك النظام الأتابكى^(١) فى دمشق ، ومثل إفرازاً للنظرية السياسية السلجوقية ، ولكن بخضوع المدينة الأخيرة لسيطرة حلب عام ٥٤٩ هـ / ١١٨٤م تم القضاء على الأتابكية كنظام سياسى فى بلاد الشام ولم يعد لها وجود هناك ، ومن الانصاف أن نقرر أن القضاء على ذلك النظام هناك ، لم يكن وليد التفوق السياسى والعسكرى للدولة النورية فحسب ، بل نتيجة لإفلاس ذلك النظام ، وكثرة الصراعات التى دارت من حوله وعجز أولئك الأتابكة عن مواجهة القوى السياسية المعادية المحيطة بهم .

إن فقدان بعض الكيانات المحلية لاستقلالها السياسى ، وكذلك القضاء على بعض أشكال الحكم فى بلاد الشام ، أدى إلى الاعتقاد بأن ظاهرة جديدة بدأت تتأثر بها تلك الكيانات المحلية وهى ظاهرة «الوحدة السياسية»^(٢) ، فهذه هى المرة الأولى منذ مقدم السلاجقة إلى بلاد الشام التى يتم فيها توحيد شمال الشام مع وسطه ، أى حلب مع دمشق تحت قيادة واحدة^(٣) ، ولا مراء أن ذلك عد من أهم النتائج السياسية للتوسع النورى .

لقد أدت تلك الوحدة إلى إيجاد تجانس ما بين الكيان الإسلامى ككل كذا الكيان الصليبي فى بلاد الشام ، وبعد أن كان الصليبيون تجمعهم رابطة سياسية موحدة فى صورة المملكة

١- عن النظام الأتابكى أنظر المدخل وأنظر التحليل المهم الذى تناوله حسين أمين عن سلبيات ذلك النظام على الدولة السلجوقية :

حسين أمين ، «نظام الحكم فى العصر السلجوقى» ، سومر ، الجزء (١) ، (٢) ، م (٢٠) لعام ١٩٦٤م ، ص ٢٢٣ .

٢- عن ذلك بالتفصيل :

جوزيف نسيب ، الوحدة وحركات البقطة فى عصر الحروب الصليبية ، ط. بيروت ١٩٨١م .

٣- محمود ياسين التكريتى ، الأيوبيون فى شمال الشام والجزيرة (٥٦٤-٥٤٨ هـ / ١١٦٨-١٢٥٠م) ، رسالة دكتوراه - كلية دار العلوم جامعة القاهرة لعام ١٩٧٨ ، ص ٢٤ .

الصليبية والإمارات التابعة لها، فإن الموقف تغير من جراء طموحات الدولة النورية، فقد صار الواقع السياسى الشامى له نفس الصفة المتحدة، على نحو زاد فى قوة مقاومة المسلمين للكيان الصليبي، وعلى نحو قضى بصورة كبيرة على نقاط الضعف التى وجدت لديهم عند مقدم الصليبيين إلى المنطقة فى أخريات القرن الخامس هـ/ الحادى عشر م.

ولم تقتصر التأثيرات السياسية على القوى الإسلامية فحسب، بل تعدتها لتشمل القوى المسيحية هى الأخرى ممثلة فى مملكة بيت المقدس والإمارات الصليبية والإمبراطورية البيزنطية أيضا.

ومن الملاحظ أن مملكة بيت المقدس الصليبية بعد أن تمكنت الدولة النورية من إخضاع دمشق لسيادتها عام ٥٣٩هـ / ١١٥٤م، عجزت عن التوسع فى وسط بلاد الشام، إذ شكلت تلك الدولة قوة عسكرية وسياسية فعالة فى مواجهة أية توسعات صليبية بالاتجاه المذكور، وهذا هو الذى دفع الصليبيين إلى الاتجاه نحو مصر للاستيلاء عليها، بعد أن فشلوا فى تحقيق أهدافهم سواء بالنسبة لدمشق أو حلب فى الشام، وهكذا انحصر نشاط الملوك الصليبيين مثل بلدوين الثالث وعمورى الأول فى مهاجمة المناطق الزراعية، خاصة التابعة لريف دمشق وبالذات قرى حوران وغيرها، والتى كثيرا ما أشار ابن القلائسى إلى مهاجمة الصليبيين لها^(١)، كما نتج عن التوسع النورى على المملكة سياسياً أن منطقة الجليل الأعلى وكذلك النطاق الممتد من دمشق إلى عكا صارت منطقة ضغط سياسى على الصليبيين، وفى ذلك النطاق، على نحو خاص اتصلت الجوانب الحربية بالسياسية، إذ أن النفوذ السياسى للملوك الصليبيين لاسيما بلدوين الثالث وعمورى الأول تعرض لعدة هزات من خلال عجز المملكة عن إيجاد حسم حقيقى لضغط قوة الدولة النورية على تلك المناطق.

ومن جهة أخرى؛ أدى ضم القاهرة للسيادة النورية وعجز الصليبيين عن إخضاع مصر- أدى إلى وقف امتداد النفوذ السياسى للمملكة من جهة الجنوب الغربى، وظل ذلك النفوذ منحصرًا

١- عن مهاجمة الصليبيين لحوران وغيرها من الأعمال الريفية أنظر :

ابن القلائسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٣١٧، ص ٣٣٨، ص ٣٥١؛ العماد الأصفهاني، سنا البرق الشامى، ص ٧٢؛ ابن قاضى شعبة، الكواكب الدرية، ص ١٣٨.

فى النطاق السهل الساحلى من الإسكندرونه شمالاً إلى غزة جنوباً ، ولارب فى أن الصليبيين واجهوا قوة سياسية مؤثرة حالت دون تحقيق أطماعهم وذلك فى صورة الدولة النورية، ومن الممكن تصور الموقف فى حالة عدم تواجد تلك السياسة الخارجية النورية الطموحة ، إذ أن الملك عمورى الأول كان بإمكانه حينذاك تحقيق مطامعه التوسعية، ومد حدود مملكته الجنوبية إلى أقصى حد ممكن لها بدلا من تلك من المشقة البالغة التى واجهته على مدى الحملات التى وجهها صوب مصر الفاطمية .

ومن النتائج السياسية للتوسع النورى على مملكة بيت المقدس حسم قضية السيطرة على المنافذ البحرية فى المنطقة لصالح القوى الإسلامية لا الصليبية ، ومن الثابت أن السياسة الخارجية للدولة النورية لم تكن تهدف فقط إلى السيطرة على خطوط التجارة الدولية المارة بالمنطقة ، بل أيضا إحكام قبضتها على منافذها البحرية ، لما ينجم عن ذلك من مكاسب اقتصادية وسياسية واستراتيجية ، وقد أدت السيطرة على مصر عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م، إلى اخضاع قسم مهم من الساحل الجنوبى للبحر المتوسط ^(١)، وكذلك الساحل الغربى للبحر الأحمر بدلا من السيطرة الفاطمية التى أدبرت وولى عهدها ، ويلاحظ أن ذلك لم يحدث خلال مرحلة يسيرة، بل ظلت الدولة النورية نحو ربع قرن من عام ٥٤١هـ / ١١٤٦م، إلى عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م دون أن تتمكن من تحقيق ذلك الهدف الجيوى الذى كان أشبه شئ بالحلم، وكان لتحقيقه الآثار الكبرى على مستقبل الصراع الإسلامى الصليبي، فقد حوصرت المملكة اللاتينية بحرياً فى القسم الجنوبى منها، وقد حاولت من خلال محاولة إرتباط عام ٥٧٧هـ / ١١٨٢م مهاجمة المحارم الإسلامية المقدسة، ^(٢) أن تخضع المنافذ الجنوبية لذلك البحر لسيطرتها دون جدوى .

١- وما يدل على إدراك الدولة النورية لأهمية الاستيلاء على المناطق الساحلية أن المقرئى يقرر على لسان نور الدين محمود نفسه أن هدفه من وراء اخضاع مصر لسيطرته «فتح الساحل» ويقصد بالطبع الساحل الشامى الخاضع لسيطرة الصليبيين ، وكذلك توصية أسد الدين شيركوه لأتباعه قبيل وفاته بالاهتمام بالأسطول الفاطمى، ووفق ما ذكره المقرئى «احذروا من التفريط فى الأسطول»، عن ذلك " اتعاط الحنقا ، ج٣ ، ص ٣٠٧ .

٢- عن وثائق تلك الحملة وأهدافها :

أبو شامة ، الروستين ، ج٢ ، ص ٣٦- ص ٣٧ .

كذلك نتج عن التوسع النورى على مملكة بيت المقدس الصليبية، أن الأخيرة أدركت بعد عدة هزائم منيت بها مدى التفوق البشرى الذى كانت عليه الدولة النورية بفضل سهول الوديان الفيضية فى بلاد الشام والجزيرة الدعم البشرى من أمراء المشرق، لاسيما الأراتقة وكذلك الأمراء المحليين فى بلاد الشام نفسها ، وحيث أن خسائر الصليبيين البشرية تزايدت فإن المملكة توسعت فى تشييد القلاع والحصون وتجنبت الزج بجيوشها فى معارك فاصلة بقدر الإمكان^(١).

ومن الملاحظ أن عهدهى الملكين بلدين الثالث، وعمورى الأول قد شهدا تطوراً هاماً فى تاريخ الصليبيين، إذ تم تشييد العديد من القلاع والحصون على امتداد أنحاء المملكة، وتناثرت تلك القلاع من حدود أنطاكية شمالاً إلى غزة جنوباً ، ومن أمثلتها قلاع غزة، ويغراس ودريساك، وكوكب، والداروم، وغيرها .

وقد وجدت عدة دوافع واعتبارات دفعت بالصليبيين إلى بناء مثل تلك القلاع^(٢)، فإلى جانب نقص القوى البشرية، أرادت المملكة أن تحمى المناطق الخاضعة لها، خاصة ذات الثروات الزراعية من خطر الانتهاب والتخريب من جراء إغارات الجيوش النورية، كذلك فإنها هدفت

= وعن المصادر والمراجع الخاصة بها : الأصفهاني ، البستان الجامع ، ص ١٤٣؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، ج ٢ ، ص ١٢٧ ؛ ابن منكلى، الأحكام الملوكية والضوابط النموسية ، رسالة دكتوراه غير منشورة - كلية الآداب- جامعة القاهرة لعام ١٩٧٤م، ص ٨٥- ٨٦ ، فاروق جزار، «أسطول صلاح الدين الأيوبي» ، مجلة الأبحاث- الجامعة الأمريكية ببيروت، السنة (١٣) لعام ١٩٦٠م، ص ٨٥- ٨٦ ، سعاد ماهر، البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، ط. القاهرة ١٩٦٧م ، ص ١٠٥ عطية القوصى، التجارة فى مصر فى العصور الوسطى ، رسالة دكتوراه - كلية الآداب- جامعة القاهرة ١٩٧٣م، ص ١٤٤، عثمان عشرينى، الأسطول والبحرية فى عصر سلاطين المماليك ، رسالة ماجستير - كلية الآداب- جامعة القاهرة عام ١٩٧١م، ص ١١ ، حسنين ربيع ، «البحر الأحمر فى العصر الأيوبي» ، ندوة البحر الأحمر فى التاريخ الحديث والمعاصر ، ط. القاهرة ١٩٨٠م ، ص ١٠٨- ١١١ .

Atiya, The Crusade in The later middle ages, London 1962 , p. 77 .

١- مونتجومرى، الحرب عبر التاريخ ، ت. عبدالله النمر، ط. القاهرة ١٩٧٦م، ج ٣ ، ص ٢٥٢ .

٢- عن ذلك بالتفصيل أنظر :

مؤنس عوض، التنظيمات الدينية، ص ٤١٨- ٤٢٣ .

إلى تأمين خطوط التجارة الواقعة فى مناطق سيادتها ، وسعت إلى تحصيل الرسوم الجمركية على القوافل المارة^(١)، فضلاً عن ذلك، فإن تلك القلاع بما حشد فيها من مقاتلين عدت مستودعاً استراتيجياً لهم من أجل الإفادة منهم حربياً فى الوقت الملائم .

وقد عاصر حكم بلدوين الثالث وعمورى الأول - خاصة- تزايد اعتماد المملكة اللاتينية على عناصر فرسان الاسبتارية والداوية ، من أجل الدفاع عن تلك القلاع والحصون، على نحو صارت فيه الهيئتان المذكورتان العمود الفقري للصليبيين فى مواجهتهم للجيش النورية^(٢)، ولا مراء فى أن ذلك جاء كنتيجة طبيعية للتوسع النورى .

والأمثلة على التطور السابق متعددة ، ففى عهد بلدوين الثالث عهد إلى هيئة الداوية بأمر الدفاع عن قلعة غزة^(٣)، وذلك خلال عام ٥٤٤هـ أو ٥٤٥هـ / ١١٤٩-١١٥٠م، أما قلعة درساك فقد قام رينودى شاتيون (ارناط) أمير أنطاكية فى عام ٥٥٠هـ / ١١٥٥م بمنح نفس الهيئة أمر الدفاع عن المنطقة الواقعة فيها القلعة ، كذلك أعطى لها الحق فى إقامة المنشآت الحربية اللازمة^(٤)، وفى عام ٥٦٣هـ / ١١٦٧م قام الملك عمورى بمنح الهيئة قلعة بغراس من أجل أن يتولى فرسان الداوية أمر الدفاع عنها^(٥)، وتكرر نفس الموقف وفى ذات العام بالنسبة

William of Tyre , vol . II, p. 343 .

-١

٢- جوزيف داهموس ، سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى، ت. فتحي الشاعر، ط. القاهرة

١٩٨٧م، ص ١٠٨ .

وقد أقر ابن الأثير بشجاعة فرسان الاسبتارية فى قتال الجيش النورى ومن ذلك قوله ضمن حوادث عام ٥٦٥هـ «استعرض (أى نور الدين) الأسرى ورؤس القتلى فرأى فيها رأس مقدم الاستبار صاحب حصن الأكراد وكانت الأفرنج تعظمه لشجاعته ودينه ولأنه شجا فى حلق المسلمين» الباهر، ص ١٤٦ .

William of Tyre , vol . II, p. 202 , Stevenson, The Crusaders, p. 173 , Baldwin , The

Latin States, p. 534 , Archer, The Crusades, p. 173 .

٣- ابراهيم خميس ، العلاقات السياسية ، ص ٤٩ .

٤- عاشور ، الحركة الصليبية، ج٢ ، ص ٦٩٣ ، حامد غنيم، الجبهة الإسلامية ، ج٢ ، ص ٦١ .

لقلعة صفد^(١)، ولكن تولت أمر الدفاع عنها هذه المرة هيئة الاستبارة^(٢)، وفى العام التالى أى ٥٦٤هـ / ١١٦٨م عهد عمورى لنفس الهيئة بأمر الدفاع عن قلعة كوكب^(٣)، أما قلعة عكار فإن ذلك الملك عهد بها إلى تلك الهيئة، وذلك عندما كان وصيًا على إمارة طرابلس والأرجح أن ذلك تم فى عام ٥٦٦هـ / ١١٧٠م^(٤)، أما قلعة أنطرطوس فيشار من حولها لخلاف؛ إذ أن هناك من يرى أن الملك بلدوين الثالث هو الذى عهد بها إلى الداوية^(٥)، بينما يرى البعض أن ذلك تم فى عهد الملك عمورى^(٦)، وأيا كان الأمر، فإن تلك القلعة عهد بأمرها إلى إحدى الهيئات الحربية امتداداً لتلك الظاهرة التى وجدت حينذاك .

١- عنها أنظر : ابن شداد ، النوادر السلطانية، ص ٩٥؛ ابن شداد الحلبي ، الأعلام الخطيرة، ج ٢ ، ص ١٤٦ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٣٠١ ؛ شيخ الربرة ، نخبة الدهر، ص ٢١٠ ؛ العثماني ، تاريخ صفد ، نشر . B. Lewis BSOAS, vol. XV, 1953, p. 480

وأيضاً : Arculfus , The pilgrimage of Arculfus in The Holy land , Trans. by Macepherson, PPTS, vol. III , London 1895 , p. 27 .

Runciman , vol . II, p. 489 . -٢

Boase, Kingdoms and Strongholds, p. 88 . -٣

عبد الرحمن زكى ، القلاع فى عصر الحروب الصليبية ، ص ٥٩ .
وعن قلعة كركب أنظر :

ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٨٤ : ص ٩٦ .

وأيضاً : Arculfus , The Pilgrimage of Arculfus, p. 43 .

٤- رنسيما ، الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٦٢٨ ، نبيلة مقامى ، فرق الرهبان الفرسان ، ص ٢٠٦ .

٥- عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٦٤٨ .

٦- حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية ، ج ٢ ، ص ٦١ La Mont , Feudal, Monarchy in The Latin kingdom of Jerusalem, Cambridge 1932 , p. 220 .

وعن قلعة أنطرطوس أنظر :

Willibald , The Hodaeporicon, PPTS, vol. III, London 1892 , p. 12 .

والواقع أن نظرة متأنية إلى تواريخ تولي الهيئات الحربية أمر الدفاع عن تلك القلاع، تدل بجلاء على أن عهد الملك عموري الأول قد فاق عهد سلفه بلدين الثالث في عدد القلاع التي تولت الاستتارية والداوية مسئولية الدفاع عنها، وتعليل ذلك الموقف أن عهد الملك عموري- على نحو خاص- قد شهد تزايد الدور الحربي للجيش النوري ضد المملكة اللاتينية، خاصة بعد وصول امتداد الدولة النورية حتى دمشق واتجاهها إلى ضم مصر، ومن ثم وقع الصليبيون بين ضغط عسكري شمالي وآخر جنوبي، ولذلك اتجه الملك الصليبي إلى طلب عون تلك الهيئات الحربية للدفاع عن تلك القلاع، وبالتالي عن حدود المملكة، أما عهد سلفه فإن الموقف الحربي لم يكن بمثل تلك الخطورة، حقيقة أن الدولة النورية قد بلغت حدودها الجنوبية دمشق، غير أنها لم تكن قد تمكنت بعد من أن تدمر سيطرتها صرب الجنوب الغربي باتجاه مصر. ومن ثم كانت استعانة المملكة بتلك الهيئات في عهد بلدين الثالث أقل بالمقارنة بعهد خلفه.

ويلاحظ أن تلك الهيئات الحربية كانت تحصل على القلاع عن طريقين، أن تمنح لها، وهذا ما حدث عدة مرات، ومن أمثلته أن ريموند أمير طرابلس، الذي اهتم بأن تكون هيئة الاستتارية حليفاً مؤثراً في ميزان القوى في المنطقة، منح قلعة الرقب لها، ودافعت الهيئة عن القلعة والاقطاع المجاور لها^(١)، أما الطريق الآخر فقد تمثل في شراء القلاع خاصة تلك التي امتازت بأهميتها الاستراتيجية الكبيرة ومن أمثلة ذلك شراء الداوية لقلعة صفد، وشراء الاستتارية لقلعة كوكب^(٢).

ولاريب في أن تلك الهيئات حرصت على السيطرة على العديد من العماثر الحربية في أنحاء المملكة، وعلى وجه خاص لمواجهة هجمات الجيوش النورية كما قرر الرحالة ثيودريك^(٣).

١- فرديناند توتل، «زيارة إلى قلعة الرقب» المشرق، م (٣٧)، ج (٤)، لعام ١٩٣٥م، ص ٥٤٠.
Bradford, The shield and The Sword, p. 20.

وعن قلعة المرقب أنظر:

ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص ٨٥.

Marino Sanutos, Secrets for True, crusaders to help them to recover the holy land ,
Trans . by A. Stewart, PPTS, vol. XII, London 1896 , p. 4 .

آمال هاشم، المرقب وقلعتها ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي في عصر الحروب الصليبية (١٠٩٥-١٢٩١م / ٤٨٧-٦٩٠هـ) رسالة ماجستير - كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ١٩٨٧م.

٢- نبيلة مقامي، فرق الرهبان الفرسان، ص ٧٥.

Theodorich , p. 64 .

وبالإضافة إلى ذلك اتسع الدور الحربى لها ، ونجد العديد من الأمثلة الدالة على اشتراكها فى معارك تلك المرحلة : ففى عام ٥٤٢هـ / ١١٤٧م قام فرسان الداوية بدور حربى مهم ، خلال زحف الملك لويس السابع عندما قدم إلى بلاد الشام خلال الحملة الصليبية الثانية وذلك فى الطريق عبر آسيا الصغرى^(١) ، وساهم الاسبتارية والداوية فى إسقاط مدينة عسقلان عام ٥٤٨هـ / ١١٥٣م^(٢) ، وفى عام ٥٥٢هـ / ١١٥٧م شارك فرسان الهيئتين فى معركة بانياس بأعداد كبيرة وقتل وأسر منهم الكثيرون^(٣) ، كذلك شاركت هيئة الاسبتارية فى مشروع الملك عمورى الحربى ضد مصر وذلك عام ٥٦٢هـ / ١١٦٧م^(٤) .

وقد أدى ذلك كله إلى تزايد النفوذ السياسى لهيئتى الاسبتارية والداوية حتى أنهما شكلتا دولة داخل الدولة وأعاقتا استقلالية القرار الصليبي ، بل أحيانا رفضتا معاونة الملك الصليبي وتحقيق أهداف مملكته السياسية^(٥) ، ومن ذلك رفض الداوية المشاركة فى حملة الملك عمورى ضد مصر ، وقد تطور نفوذ الهيئتين السياسى إلى درجة أضرت بأبلغ الضرر بالكيان الصليبي ، إذ تنافستا وتناحرتا ، ومثل الداوية على نحو خاص مركز ثقل سياسى من خلال ثرائها لدرجة أنها أقرضت المملكة الصليبية^(٦) ، بالأموال فيما بعد .

١- Smail , Crusaders in Syria, p. 55 .

٢- William of Tyre , vol . II, pp. 202-224 , Baldwin, The Latin states, p. 337 , Runciman , vol . II, p. 338 .

٣- ابن القلائسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٣٨ ، William of Tyre vol. II, p. 257 .

٤- عن دعم الاسبتارية للملك عمورى أنظر :

William of Tyre , vol. II, p. 350 , King, The Knights of St. John , p. 12 , Lucie northup, The knights templars in The Holy Land , 1118 - 1187, Thesis for the degree of Master of Arts, University of California 1943, p. 17 , note (27) , Stevenson, The Crusaders, p. 232 , Smail , Op. cit , p. 35 . La monte, feudal monarchy in the latin kingdom of Jerusalem , p. 163 .

٥- ويكفى للتدليل على ذلك موقف الداوية من رفع الحصار عن دمشق خلال الحملة الصليبية الثانية أنظر :

John of Wurzburg, p. 21 .

٦- Joinville, The life of saint louis, p. 25 , Favier , “Les Templiers ou l’echec des- = banquiers de la croisade “ , L’Histoire, LXVII, 1982 , PP. 44-51 .

ومن نتائج السياسة الخارجية النورية على المملكة اللاتينية، أن الأخيرة أمام إحداق الخطر الإسلامى بها، اتجهت إلى زيادة الاقطاعات الحربية للفرسان من أجل أن يتولوا الدفاع عن حدودها على نحو أدى إلى ازدياد دورهم الحربى والسياسى، وبصورة أدت إلى زيادة عدد الأسرات الإقطاعية، وهناك من يقرر ظهور أسرات من ذلك النمط عاصرت الحكم النورى فى بلاد الشام، ومن أمثلتها- تلك التى وجدت فى اقطاع سكندليون Scandilion (الاسكندرية) الاسكندرونة عام ١١٤٨م/ ٥٤٣هـ وشامبرلين Chamberlain عام ١١٤٦م/ ٥٤١هـ وبلانشجارد Blanchegarde (تل الصافية) ^(١).

ومن النتائج السياسية التى لحقت بالإمارات الصليبية من جراء السياسة الخارجية النورية، إحكام السيطرة على إمارة الرها، ومقاومة محاولة إعادتها مرة أخرى للسيادة السياسية الصليبية، ومعلوم أن الدولة النورية ورثت عن الدولة الأتابكية اهتمامها بالقضاء على النفوذ الصليبي فى بلاد الجزيرة، أما إمارة أنطاكية فقد أثرت الدولة النورية عليها تأثيراً واضحاً، فقد منعتها من مد نفوذها السياسى إلى حلب والتوسع بصفة عامة على حساب الأملاك الإسلامية فى شمال الشام، وبذلك صارت إمارة أنطاكية كياناً سياسياً محدداً بقسم من حوض نهر العاصى، وذلك على نحو خاص بعد أن اقتطعت الدولة النورية العديد من ممتلكاتها، وألحقت بها الهزائم المنكرة فى معارك بغرى عام ٥٤٣هـ / ١١٤٨م، وأنب عام ٥٤٤هـ / ١١٤٩م، وحارم عام ٥٥٩هـ / ١١٦٤م ^(٢)، وهكذا فبعد أن كانت أنطاكية توجه هجماتها نحو حلب، انعكس الموقف وصارت الأخيرة بمثابة القوة السياسية والعسكرية الموجهة نحوها.

ومنطقى أن تلك الهزائم الحربية قد كلفت الصليبيين خسائر بشرية كبيرة، بالإضافة إلى تعرض الكثيرين منهم للوقوع كأسرى فى قبضة القوات النورية.

= جوزيف نسيب، هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل، ص ١١٦، العدوان الصليبي على مصر، ط. الاسكندرية ١٩٦٧م، ص ٢٨٥، حبشى، الشرق الأوسط بين شقى الرقى، ط. القاهرة ١٩٤٩م، ص ١٠٩، زيادة، حملة لويس التاسع وهزيمته فى المنصورة، ط. القاهرة، ص ١٠٩، عبد الرحمن زكى، الجيش المصرى فى العصر الإسلامى، ص ٣١٩، عزيز سوربال، العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٧٧، Conder, The Latin kingdom of Jerusalem, p. 355, Grousset, Hist. des croisades, T. III, p. 432.

١- عن ذلك أنظر :

William of Tyre, vol. II, p. 5, p. 514.

وأيضاً: العرينى، «مؤ طبقة النبلاء الإقطاعيين بمملكة بيت المقدس فى القرن الثانى عشر الميلادى» حوليات كلية الآداب- جامعة القاهرة، م (٢٠) لعام ١٩٥٨م، ص ٤٦.

Balaed, "Les chateaux forts en Palestine " L' Histoire LXVII, 1982, p.99.

٢- عن تلك الهزائم ونتائجها أنظر الفصل الخاص بالإمارات الصليبية.

ويلاحظ أن الهزيمة الحربية في حد ذاتها كانت تختلف في معناها عند الصليبيين بالمقارنة بالمسلمين ، وقد كان لدى الأخيرين احتياطي لا ينفد القوة البشرية ، وبالنسبة لهم لم تكن أكثر الهزائم الحربية شدة وقسوة تعنى أكثر من مجرد إحدى المعارك الخاسرة ، يتلوها تراجع القوات وتقهقها إلى قواعد أكثر أمناً ، بعيدة عن قبضة الجيوش الصليبية في حلب ودمشق مثلاً^(٢) ، أما بالنسبة للصليبيين الذين كانوا يقومون بتعبئة كل قواتهم البشرية تقريباً في حالات الهجمات الكبيرة على المسلمين ، فقد كانت الهزيمة الواحدة ربما تعنى خسارة المعركة أو الحرب ، بل ربما كانت تعنى أيضاً ضياع المملكة نفسها^(٣) ، وهذا بالتحديد ما حدث بعد موقعة حطين الحاسمة عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م^(٤).

وقد نجم عن سياسة التوسع النورى أن غدت إمارة أنطاكية أكثر من ذي قبل ، محط آمال البيزنطيين في استردادها حيث دخلها الإمبراطور مانويل كومنين ، وحقق من وراء ذلك العديد من المكاسب السياسية ، وهكذا أدخلت المشكلة الأنطاكية مرحلة مهمة من مراحل الصراع بشأنها ، وذلك كله من تأثير فعاليات السياسة الخارجية النورية .

أما بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية ، فنجد أن تلك السياسة أوجدت لها المبرر القوى للتدخل في شئون الإمارات الصليبية لاسيما أنطاكية ، ولاشك في أن توسع الدولة النورية على حساب مناطق نفوذ القوى الصليبية في بلاد الشام والتهديدات التي تعرضت لها إمارة أنطاكية على نحو خاص قد جعلت تلك الإمبراطورية تزيد من اهتمامها بالمنطقة ، لقد وجهت جيوشها صوب الشام لمواجهة ازدياد الخطر المحدق بالصليبيين وكذلك أساطيلها التي أرسلتها صوب مصر لوقف التوسع النورى فيها ، وحتى لاتتعرض سياسة توازن القوى Balance of Powers التي سار عليها البيزنطيون في علاقاتهم بالدولة النورية والكيان الصليبي

٢- براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٢٤ .

٣- نفسه ، نفس المرجع ، ص ١٢٥ .

٤- عن تلك المعركة أنظر :

ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٧٥-٧٩ ، العماد الأصفهاني ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، تحقيق محمد صبيح ، ط. القاهرة ١٩٦٥م ، ص ٢١-٢٣ ، سنا البرق الشامي ، ص ٢٩٢-٢٩٨ .

Jacque de Vitry, Hist. of Jerusalem, p. 302 , Ernoul, Ernoul's account of Palestine, p. 60 , Richard, "Le bataille de Hattin , Saladin defeat L'Occident" , L'Histoire, XLVII, Année 1982, pp. 104-111, " An Account of the battle of Hattin refering to the Frankish Mercenaries in Oriental moslem states" Speculum, XXVII, pp. 168-175 .

للاتهيار، ولا شك فى أن سياسة نور الدين محمود الطموحة جعلت البيزنطيين يوجهون جانباً من قواهم العسكرية فى جبهة الشام ومصر على نحو كان من الممكن توفره فى حالة وجود قوة سياسية ذات تأثير محدود فى مجريات المنطقة .

ومن جهة أخرى ساعدت السياسة الخارجية النورية- بصورة غير مباشرة - على تدهور العلاقات البيزنطية- اللاتينية، فمن الملاحظ أن اتجاه الصليبيين إلى طلب عون القسطنطينية وعدم تقديم الأخيرة العون الكافى لهم مثلما حدث فى خلال حملات عمورى على مصر وغيرها من المواقف ، زاد من تباعد الجانيين وعمق الكراهية التى وجدت بينهما حتى من قبل الحملة الصليبية الأولى ، وهكذا فإنه منذ الحملة الصليبية الثانية وعلى امتداد نحو ربع قرن من العلاقات بين الجانيين فى ظل الضغط العسكرى النورى على الكيان الصليبي، اتسعت الهوة بينهما وليس من قبيل المصادفة أنه بعد نحو ثلاثين عاما من انتهاء عهد نور الدين محمود سقطت القسطنطينية على أيدي اللاتين عام ٥٩٩هـ / ١٢٠٤م^(١) على نحو ترك آثاره الكبيرة على موازين القوى الدولية فى المنطقة .

ذلك عرض للنتائج السياسية للتوسع الخارجى النورى ، أما النتائج الاقتصادية فيتصدى لها الفصل التالى.

١- عن الحملة الصليبية الرابعة أنظر هذين المصدرين :

Robert Clari Clari, The Conquest of Constantinople, English Trans., New York 1936 .

وأنظر الترجمة العربية التى قام بها حسن حبشى تحت عنوان فتح القسطنطينية ، ط. القاهرة ١٩٦٤م على أيدي الصليبيين .

Villehardoun, The Conquest of Constantiple, Trans. by Shaw, in Chroni cles of The Crusades, London 1963, pp. 29-87 .

وأنظر الترجمة العربية الممتازة من مذكرات فلهااردوين فتح القسطنطينية ، ت. حسن حبشى ، ط. جدة ١٩٨٢م.

Grogair, "The diversion of The Fourth Crusade", Byzantion, vol.: المراجع التالية XV, 1940-1941 , pp. 158-166 .

Ebid, " Was Pope Innocent III an accomplice in The diversion for The Fourth crusade 1204 " , EHR, vol . XV , Cairo 1969 , pp. 2-19 .

Kaplan , " Le sac de constantinople" L'Histoire LXVII, 1982, pp. 112-115 .

وأيضاً : اسحق عبيد ، روما وبيزنطة ، ويعد أفضل دراسة باللغة العربية عن الحملة الصليبية الرابعة وتطور العلاقات بين القسطنطينية والغرب الأوربي ، الدولة البيزنطية فى عصر باليولوغوس (١٢٦١-١٢٨٢م) ، ط. بنى غازى ب-ت ، ص ١٣-١٤ .

الفصل الثامن

النتائج الاقتصادية

ألحقت سياسة التوسع التى سارت عليها الدولة النورية فى علاقاتها الخارجية آثارها الفعالة على المستوى الاقتصادى، وذلك على المحيطين الإسلامى والصليبيى وكانت تلك الآثار من العمق والفاعلية بحيث أدت إلى تطور الدولة النورية نفسها، وساهمت بصورة أو بأخرى فى التأثير على أوضاع القوى السياسية فى المنطقة واقتصادياتها .

وقد زادت فعاليات النتائج الاقتصادية تلك، من خلال ما شهدته المنطقة من انتعاش واضح فى النشاط الاقتصادى الدولى التجارى بصفة خاصة .

ومن الأهمية بمكان ، إدراك أن التوسع الخارجى للدولة النورية قد نتج عنه تدعيم اقتصادياتها ، وانعكس ذلك بدوره مرة أخرى وبصورة أقوى من ذى قبل على السياسة التوسعية، إذ قدم الاقتصاد النورى للدولة الدعم المادى اللازم لخوض غمار المعارك مع القوى المجاورة ، ولا مرأى فى أن دولة بمثل طبيعة الدولة النورية التى جعلت من الحرب والتوسع الخارجى عصب حياتها ، احتاجت إلى اقتصاد قوى من أجل دعم سياستها الخارجية .

وقد أثرت تلك السياسة على كافة القطاعات الاقتصادية الزراعية والصناعية والتجارية ، ولاريب فى أن تناول وضعية الأرض يمثل أهمية خاصة ومتميزة عند بحث الآثار الاقتصادية للتوسع الخارجى النورى ، وقد تشكلت تلك الوضعية فى صورة الإقطاع العسكرى .

ويتطلب الأمر، عرض وضعية الأرض فى المرحلة السابقة على عهد الدولة النورية، فمعلوم أن سلاطين بنى بويه توسعوا فى الإقطاعات الحربية غير أنهم من جهة أخرى لم يعموا الإقطاع العسكرى^(١) ، وهناك من يرى أنهم عملوا على القضاء على كافة صور الإقطاع القديمة واستحدثوا نمطاً محدوداً من الإقطاع الحربى فى بداية حكمهم غير أنهم لم يلبشوا أن الغوه عندما اشتد ساعد دولتهم^(٢) .

١- إبراهيم طرخان، «الإقطاع الإسلامى ، أصوله وتطوره- دراسة مقارنة»، المجلة التاريخية المصرية، م ٦٠ لعام ١٩٥٧م، ص ٧١ .

٢- محمود إسماعيل ، سوسيولوجيا الفكر الإسلامى، ج٢ ، ص ١٢٤ .

وفى عهد الخلافة الفاطمية حدث تطور هام ، فقد صودرت إقطاعات التملك القديمة وتم توزيع بعضها على كبار رجال الدولة من أجل استغلالها دون منحهم الحق فى حيازتها ، وفى ظل ذلك الوضع قام الملاك بأمر صيانة الأرض وربها وقاموا بدفع مستحقات الدولة ، وآلت غالبية الأراضى إلى زارعها وعهدت إلى عناصر من المتقبلين للقيام بجباية الخراج^(١) ، وهكذا ، فإن السياسة الفاطمية اتجهت صوب إلغاء الإقطاع العسكرى وصار رجال الإدارة والعسكر يحصلون على الإعطيات والرواتب^(٢) .

أما الدولة السلجوقية فإنها اتجهت إلى الإقطاع العسكرى من خلال مواجهة الخطرين البيزنطى ، والصليبي ، وصار على المقطعين القيام بتقديم العون الحربى للدولة فى مقابل إقطاعاتهم^(٣) ، ويلاحظ أن السلاجقة اتجهوا إلى تعميم ذلك الشكل من الإقطاع من أجل توفير رواتب الجند وتجنب هباتهم ضدهم ، وقد شكلت تلك الناحية أهمية خاصة لديهم على نحو أشار إليها وزيرهم الأشهر نظام الملك وقرر ضرورة أن تدفع رواتب الجند بصورة منتظمة ودون تأخير^(٤) .

ولعل من أهم النتائج التى نجمت عن الغزو السلجوقى للمنطقة ، انتشار ظاهرة الإقطاع العسكرى لدى الدول التى عاشت فى كنف السلاجقة ، وخير دليل على ذلك مجده لدى أتابكية عماد الدين زنكى^(٥) .

١- محمود إسماعيل ، سوسيولوجيا الفكر الإسلامى ، ج٢ ، ص١٤٦ .

٢- نفسه ، نفس المرجع ، ص١٤٧ .

٣- نظام الملك ، سياسة نامه ، ت. السيد العزاوى ، ط. القاهرة ١٩٧٦م ، ص٦١-٦٩ .

Gibb, The Damascus chronicle, p. 23 .

جب ، تاريخ دمشق ، ص٥٣ .

٤- نظام الملك ، سياسة نامه ، ص١٢٥ ، سعد زغلول عبد الحميد ، «سياسة نامه لنظام الملك» ، مجلة تراث الإنسانية ، م(٩) ، ج(٢) ، القاهرة ١٩٧١م ، ص١٩٩ ، صلاح البحيرى ، «ديوان الجيش فى الدولة الأيوبية» ، الموسم الثقافى للجمعية التاريخية ١٩٧٦-١٩٧٧ ، ط. القاهرة ١٩٧٨م ، ص١٧٤ .

٥- ابن القلاسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٥٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج١١ ، ص٤٥ ؛ المقرئى ، اعطاء الحنفى ، ج٧ ، ص٣٠٦ .

فقد اتجه إلى توزيع الإقطاعات على الفرسان والجند، من أجل المحافظة على استمرار دعمهم الحربى لدولته فى مواجهته الإمارات المتنافسة فى بلاد الشام والجزيرة^(١)، وكذلك الصليبيين وهناك من يؤكد عدم وجود ملكية مباشرة للأرض من قبل الذين أقطعوا وأن الأهالى والفلاحين قاموا بتقديم ضريبة سنوية للحكومة والمقطعين ، ومع ذلك فإن العهد الأتابكى لم يشهد توريثاً للإقطاع كما تصور البعض^(٢)، وإنما حدث ذلك فيما بعد فى عهد نور الدين محمود .

وحيث إن الدولة النورية قد تأثرت بنظم السلاجقة وأساليب حكمهم ، فإنها اتجهت صوب الإقطاع العسكرى كنتيجة لرغبتها فى التوسع الخارجى، وحاجتها إلى ضمان استمرار الخدمة العسكرية اللازمة ، ولذا فإنها قدمت الإقطاع لكبار القادة العسكريين وكذلك العسكر^(٣)، فى مقابل الحصول على ذلك العون الحربى من المقطع وقت الحاجة .

وبلاحظ أن المصادر التاريخية توضح تواريخ تلك الإقطاعات بعد أن خرجت الدولة النورية من تكوينها الأولى فى حلب واتساعها لتشمل مناطق أخرى فى بلاد الشام والجزيرة وهكذا ، فإن اتساع نطاق الإقطاع الحربى جاء كنتاج طبيعى للتوسع الخارجى .

ولدينا أمثلة عديدة على ذلك النوع الحربى من الإقطاع ؛ فقد أقطع أسد الدين شيركوه حمص ، والرحبة فى عام ٥٦٣هـ / ١١٦٧م^(٤) وكذلك أقطع مجد الدين بن الداية حلب وحارم وقلعة جعبر وأقر أخوه من بعد ذلك عليها عام ٥٦٥هـ / ١١٦٩م^(٥)، أما فخر الدين بن عبد

١- عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكى، ص ٢١٧ .

٢- نفسه ، نفس المرجع ، ص ٢٢٣- ص ٢٢٥ .

٣- يشير ابن الأثير صراحة إلى أن نور الدين محمود أقطع نصيبين والخابور للعسكر ، عن ذلك ، الباهر، ص ١٥٤ .

٤- ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول، ص ٢١٣؛ أبو شامة ، الروضتين، ج ١ / ٢ ، ص ٣٨٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢ ، ص ٢٥٩؛ الذهبى، دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ٧٦ ؛ ابن أبيب الدوادارى، الدرة المضيئة ، ص ٥١٩ ، طرخان ، النظم الإقطاعية ، ص ٣١، عماد الدين خليل ، الجانب الإدارى، ص ٥٠ ، العربى، مصر فى عصر الأيوبيين ، ط. القاهرة ١٩٦٠ م ، ص ٢١ .

٥- طرخان، المرجع السابق، ص ٣١ .

المسيح فقد حصل على «إقطاع حسن» فى عام ٥٦٦هـ / ١١٧٠م^(١)، وبالنسبة لشهاب الدين على بن مالك العقيلي فقد حصل على إقطاع كبير شمل سروح والملاحه والباب وبزاعه بالقرب من حلب^(٢)، وتم إقطاع منيخ للغازى بن حسان المنيجي عام ٥٦٢هـ / ١١٦٦م^(٣)، أما أمراء الغرب فى لبنان فقد تم إقطاعهم عام ٥٦٠هـ / ١١٦٤م وتم الاتفاق على أن يقدموا للجيش النورى على الأقل أربعين فارساً^(٤) وذلك كحد أدنى، كذلك تم إقطاع أمراء القبائل العربية الواقعة على طريق الحج من بلاد الشام إلى المحارم الإسلامية المقدسة من أجل أن يكلف أولئك الأمراء عن مهاجمة الحجاج الشاميين^(٥)، أما ملك الأرمن مليج بن لاوون: فقد تم إقطاعه إقطاعاً «من دار الإسلام»^(٦) - وبعد أول إقطاع يمنع فى عهد الدولة النورية لقوة مسيحية، وكان لذلك دوره فى أن وقف إلى جانب الجيش النورى فى مواجهة الخطر الصليبي وكذلك البيزنطى .

١- ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص ٢٦٣؛ ابن قاضى شهبه، الكواكب الدرية، ص ١٩٢ .

٢- ابن الأثير، الباهر، ص ١٣٦ .

٣- نفسه، نفس المصدر، ص ١٣٤؛ أبو شامة، المصدر السابق، ج ١ / ق ٢، ص ٣٧٥، ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٢، ص ٣٢٥؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ١، ص ١٥٣ .

٤- صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٤٣ .

Salibi, "The Buhturids of The Garb, Medieval Lords of Beirut and The southern Lebanon" REA, T. VIII, Année 1961, p. 82 .

٥- ابن عساكر، ترجمة محمود بن زنكى، ص ١٣٨؛ ابن كثير، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٧٨؛ النويرى، نهاية الأرب، ج ٢٧، ص ١٦٤؛ ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، ج ٤، ص ٢٢٨ .

Hiyari, "The Origins and development of The Amirate of The Arabs during The seventh Thirteenth and eighth Fourteenth centuries" BSOAS, vol. XXXVIII, 1975, part, 3, p. 518 .

٦- ابن الأثير، المصدر السابق، ص ١٦٩؛ ابن العديم، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٣٧ .

ويذكر ابن الأثير أنه مما دفع نور الدين إلى ذلك أن بلاد ملك الأرمن كانت وعرة المسالك ذات قلاع حصينة ولا توجد طرق مهيأة إليها .

أنظر، المصدر السابق، ص ١٦٩ .

ويلاحظ أن الإقطاعات النورية الحربية لم يكن قاصراً على بلاد الشام فحسب بل إنه تعداها ليتمدد إلى مصر أيضاً كنتيجة للتوسع فيها على حساب النفوذ الفاطمي ؛ إذ أ المقریزی يقرر أن صلاح الدين الأيوبي- ممثل الدولة النورية في مصر- عندما كان لا يزال وزيراً للخليفة العاضد أقطع شمس الملوك تور انشاء في عام ٥٦٥هـ / ١١٦٨م مناطق قوص، وأسوان، وعيذاب^(١)، وفي العام التالي ٥٦٦هـ / ١١٧٠م زاد ذلك الإقطاع بإضافة مناطق بوش ، ودهشور ، والمنوفية^(٢)، ويضاف إلى ذلك فإنه خلال تلك المرحلة التي سعى فيها إلى تصفية النفوذ الفاطمي «أقطع أجناد الشام أجل البلاد»^(٣).

ويلاحظ أن الإقطاع الحربي النوري قد تطور عندما تم توريث المنطقة المقطعة في حالة وفاة المقطع في ساحة الوغى، وكان ولده لا يزال طفلاً صغيراً ، وفي هذه الحالة تم تعيين وصى لرعاية مصالحه حتى يكبر^(٤)، ومنطقي أن الاتجاه إلى توريث الإقطاع قدم إغراء أكثر من ذي قبل من أجل انضمام العديدين إلى المقدمة في الجيش النوري، وأدى أيضاً إلى استبدال المقطعين في الحروب إذ أنهم عدوها بمثابة أوطانهم^(٥).

ويوجد شكل آخر من أشكال الإقطاع النوري لم يكن ذا صفة حربية ، ومن أمثلة ذلك الإقطاع الذي حصل عليه الطبيب المهذب بن النقاش، إذ أقطع ضيعة^(٦)، ومن المنطقي أنه لم يكن إقطاعاً حربياً لانتهاء أية صفة حربية على شخصية ابن النقاش، وقد حصل عليه في عام ٥٦٣هـ / ١١٦٨م .

١- المقریزی، اتعاظ الحنفا، ج٣ ، ص ٣١٧ .

٢- نفسه ، نفس المصدر ، ص ٣٢٢ .

ويلاحظ أيضاً أن هذا الاتجاه سار عليه من قبل أسد الدين شيركوه الذي أقطع العسكر الإقطاعات كما يقرر المقریزی، المصدر السابق، ص ٣٠٤ .

٣- نفسه، نفس المصدر، ص ٣١١ .

٤- ابن الأثير، الباهر ، ص ١١٧ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، ج١ ، ص ١٣٥ ؛ ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية ، ص ٢٦ ؛ النويری، نهاية الأرب ، ج٢٧ ، ص ١٦٧ .

٥- ابن الأثير، المصدر السابق، ص ١٩٩ ؛ ابن قاضي شهبة ، المصدر السابق، ص ٢٦ .

٦- العماد الأصفهانی، سنا البرق الشامي، ص ١٦ .

ومن المرجح أن الإقطاعات السابقة كانت إقطاعات حيازة ولم تكن إقطاعات تملك ، إذ أن العماد الأصفهاني يقرر بالنسبة لإقطاع الطبيب المهذب بن النقاش أن نور الدين «أقطعه ضيعة وملكه أخرى»^(١) مما يدل على أن الضيعة المقطعة كانت مجرد حيازة ولم تكن على سبيل التمليك ، أما الثانية فكانت تملكًا فعليًا له .

ومن الطبيعي أن يعد الإقطاع وخاصة النوع الحرى الذى انتشر فى كافة أنحاء الدولة النورية، أحد أهم النتائج الاقتصادية التى نجمت عن توسعها الخارجى ، إن لم يكن أهمها، فعلى أساس تلك القاعدة الإقطاعية ، تشكل أبنية الدولة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

أما نتائج سياسة التوسع الخارجى النورى على المستوى الزراعى، فمن الملاحظ أن تلك الدولة بدأت من مدينة حلب وتوابعها ، وعلى الرغم من أن تلك المدينة كانت تتمتع بقدر من الإنتاج الزراعى، إلا أن الطبيعة التجارية غلبت على النشاط الاقتصادى فيها، ومن ثم فإن توسع الدولة النورية خارج نطاق شمال الشام جعلها تسيطر على مناطق ذات أهمية زراعية متميزة ، وينبغى ألا نغفل هنا مناطق الهلال الخصيب وكذلك مصر، ومن اليسير أن ندرك أن هاتين المنطقتين شكلا أكثر المناطق ثراءً فى الإنتاج الزراعى خاصة إذا ما قورنتا بما حولهما من مناطق صحراوية مجاورة مثل شبه جزيرة العرب والصحراء الكبرى .

وتجدر الإشارة هنا إلى توسع الدولة النورية فى مناطق السهول الفيضية الخصبة مثل سهول أنهار العاصى وبردى والنيل وغيرها من الأنهار، التى زخرت بها بلاد الشام والجزيرة ومصر على نحو أدى إلى زيادة إنتاجها الزراعى بصورة واضحة ، عما كان عليه الحال عندما كانت قاعدتها الأولى فى حلب، ومن ثم جاءت إشارات الرحالة الذين زاروا بلاد الشام خلال وبعد عهد الدولة النورية إلى الثراء الزراعى الذى كانت عليه البلاد^(٢)، ولاريب فى أن ذلك الثراء عاد على الدولة ماليا من جراء جباية خراج الأراضى الزراعية وكذلك دخول المحاصيل الزراعية ضمن عمليات التبادل التجارى مع الأقاليم المجاورة .

١- العماد الأصفهاني ، سنا البرق الشامى، ص ٢٦ .

٢- الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ج ٤ ، ص ٣٦٧ ؛ بنيامين التيطلى، الرحلة، ص ٤٢ ؛ ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢١٠-٢١١ .

ويتصل بأمر التوسع فى النطاق السهلى الفيضى فى بلاد الشام والجزيرة ومصر، تواجد الكشافات السكانية المرتفعة نسبياً بالمقارنة بالمناطق الأخرى، وقد مثلت الزيادات السكانية قوة إنتاجية مؤثرة فى كافة قطاعات النشاط الاقتصادى ، لاسيما الزراعى فى عصر لم يشهد إلا استخدام الآلات البدائية فى عمليات الحرث والرى والحصاد إلى غير ذلك من مراحل الزراعة .

وتقدم المصادر التاريخية إشارات مهمة للدلالة على تزايد الكثافة السكانية فى المناطق التى اخضعتها الدولة النورية وقد أشار الإدريسي الذى زار دمشق فى وقت مقارب من بداية سيطرة الدولة النورية عليها إلى أنها احتوت على العديد من الضياع وأن كل ضيعة احتوت على عدد يتراوح بين ألفين وألف رجل^(١) يقومون بعمليات الإنتاج الزراعى اللازمة ، كذلك فإن نفس المدينة احتوت على نحو مائة حرفة^(٢) مما عكس بالطبع تواجد قطاعات سكانية متزايدة سواء فى عمليات الإنتاج أو الاستهلاك ، ولما كانت الصناعة نفسها تقوم على الإنتاج الزراعى- فى قسم هام منها- فطبيعى أن ذلك انسحب أيضا على النطاق الزراعى .

ومنطقى أن نلاحظ أن تلك القوة البشرية لم تكن لتتهدأ للدولة النورية عندما كانت لا تزال دولة وليدة مسيطرة على حلب وما جاورها من أعمال .

ومن المرجح أن التوسع الخارجى النورى؛ ارتبط بالفكرة السابقة الخاصة بالكشافات السكانية فى المناطق التى تم إخضاعها، ومن الملاحظ أن إشارة الإدريسي السابقة ذات دلالات مهمة وهى تعنى أن الآلاف من الأيدي العاملة فى الضياع عملوا من خلال تقسيم العمل وتخصصه ومن خلال تزايد مساحة الرقعة الزراعية وبالتالى زيادة الإنتاج الزراعى بصورة واضحة ، لمواجهة حاجات الاستهلاك التى بالضرورة قد تزايدت ، ومع ذلك ينبغى ألا يغيب عن أذهاننا

١- ويحدد الإدريسي أسماء تلك الضياع وهى : المزة ، وداريا ، وبرزة ، وحرسة ، وكوكبا ، وبلاس ، وكفر سوسية ، وبيت الأهراء ، نزهة المشتاق ، جء ، ص ٣٦٧ .

وقد زار الادريسي دمشق بعد عام ٥٤٨هـ / ١١٥٣ م .

٢- ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، م (٢) ، السيف ، الحياة الاقتصادية فى دمشق ، ص ٣٥ .

ويقرر الإدريسي احتواها على «ضروب ن الصناعات (المصدر السابق، جء ، ص ٣٦٩) ، وقد ذكر ابن جبير أنها احتوت على جميع الصناعات المدنية (الرحلة، ص ٢٠٣) .

أن احتياج العمل الزراعى إلى مثل تلك الأعداد الكبيرة من الأيدي العاملة مرجعه إلى عدم استخدام الآلات الزراعية الموفرة لدور العنصر البشرى، إذ أن تلك الآلات كانت بدائية وبسيطة، ولم تمثل توفيراً للأيدي العاملة .

ومن جهة أخرى، وامتداداً للتطور الزراعى الذى حدث من خلال التوسع الخارجى ، صارت الدولة النورية تحوى نوعيات متعددة من المحصول الزراعى الواحد، ويقرر الوهرانى أنه أحياناً كان المحصول الواحد سبعة عشر نوعاً^(١) فى عهد تلك الدولة، على نحو أوضح أن التطور الذى حدث زراعياً لم يكن فى كم الإنتاج فقط ، بل تعداه ليشمل نوعيته أيضاً ، ولاشك فى أن تعليل ذلك يكمن فى تعدد أنواع التربة الزراعية التى توسعت خلالها الدولة من سهلية، وجبلية، وصحراوية وكل واحدة امتازت بمميزات معينة فى محاصيلها المنتجة .

وينبغى ألا نغفل أن اتساع الدولة النورية فى مناطق ذات أهمية تجارية أثر على النشاط الزراعى أيضاً ؛ فقد صار الكثير من المنتجات الزراعية تحتل مكاناً مهماً فى قائمة البضائع المتبادلة ، وقد أدى ارتفاع ثمن بعض هذه المنتجات إلى تزايد العناية والاهتمام بها وتطور الأساليب الزراعية من أجل إنتاجها^(٢) مثل تواجد وسائل مختلفة لتسميد التربة حسب اختلاف نوعيتها ، وكذلك تعدد وسائل الرى إلى غير ذلك .

وطبيعى أن ينعكس التطور الذى حدث فى النطاق الزراعى، على النطاق الصناعى، حيث مدت المنتجات الزراعية الصناعة بالمادة الخام اللازمة، ومن الأهمية بكان توضيح أن الدولة النورية مدت سيادتها السياسية لثلاثة من أكبر المراكز الصناعية فى الشام والعراق ومصر^(٣)، ونعنى بها مدن دمشق والموصل والقاهرة، فضلاً عن توافر المواد الخام اللازمة لعمليات

١- الوهرانى ، منامات الوهرانى ومقاماته ، ص١٧ .

٢- الحبيب الجناحانى، « نظام ملكية الأرض فى المغرب الإسلامى » ، مجلة المزرع العربى، العدد (٢٣) لعام ١٩٨٣م، ص ٣٠ .

٣- عن المراكز الصناعية فى مصر مثل القاهرة، والفسطاط، والإسكندرية، وتنبس، ودمياط ، أنظر :

صلى عبدالله، مدن مصر الصناعية فى العصر الإسلامى إلى نهاية عصر الفاطميين، رسالة دكتوراه -كلية البنات- جامعة عين شمس ، لعام ١٩٨٥م، ص٩٨- ص ١١٠ .

التصنيع فإذا أضفنا إلى ذلك توافر الصناع المهرة^(١) الذين اشتهرت بهم، لأدركنا أن النشاط الصناعى شهد اتساعاً واضحاً من خلال اتساع نطاق سيادة الدولة النورية نفسها .

حقيقة أن الدولة النورية لم تشهد ما يمكن وصفه بالثورة الصناعية ، بل شهدت انتعاشاً فى المجال الصناعى^(٢)، إلا أن إخضاع المراكز الصناعية الحيوية فى النطاق الواقع من جبال طوروس شمالاً إلى بلاد النوبة جنوباً^(٣) قد در على الدولة أرباحاً طائلة من عوائد الرسوم المفروضة على الإنتاج ، ثم دخول تلك المنتجات المصنعة فى عمليات التبادل التجارى من بعد ذلك .

وتجدر الإشارة هنا إلى ناحية مهمة، وهى أن اتباع الدولة لسياسة توسعية من خلال الحرب قد انعكس على المجال الصناعى، إذ أن الجيش النورى احتاج إلى مستلزمات معينة مثل أدوات القتال من سيوف^(٤) ورماح، وسهام، ومجانيق، وغيرها، وكذلك بعض الاحتياجات الأخرى مثل الخيام وملابس الجند، وكان على القطاع الصناعى أن يوفر للدولة كل ذلك ، ومن المرجح أن الطابع الحربى لها كان من العوامل المهمة التى دفعت بها نحو الاهتمام بالقطاع الصناعى لسد احتياجاتها .

كذلك يلاحظ أن التوسع الخارجى ، وضم ذات كثافات سكانية مرتفعة قد انعكس بدوره على نوعية الصناعة نفسها، فقد ازدهرت صناعة المنتجات التى تؤول إلى الاستهلاك

١- العمري، وصف دمشق ، ص ١٤٥ .

٢- عن ذلك أنظر المدخل .

٣- مع عدم إغفال وجود مناطق خاضعة للمسيحيين .

٤- عن تلك الصناعة فى عهد الدولة النورية أنظر :

اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ١١٧ ؛ العمري ، وصف دمشق، ص ١٢٢ ، جبرسى بياسكوفسكى ، الصلب الدمشقى أروع المنجزات فى علم التعدين» ، الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب، معهد التراث العلمى العربى- جامعة حلب عام ١٩٧٧م، ص ٥١٠ ، عفيف بهنسى، «صناعة السيوف الدمشقية» ، الكتاب الذهبى للاحتفال الخمسينى بالدراسات الأثرية ، جامعة القاهرة، ج٢ (٢) ، ط. القاهرة ١٩٧٨م ، ص ٧٣ ، عبد الرحمن زكى ، السيف فى العالم الإسلامى، ص. القاهرة ١٩٥٧م، ص ١٠٥ .

الجماهيرى المتسع، مثل صناعة الملابس، والأواني الفخارية، والصناعات النحاسية^(١) وصناعة الصابون^(٢) إلى غير ذلك .

وفى ذات المجال الصناعى : من المحتمل أن التوسع الخارجى ترك أثره على طوائف الحرف؛ إذ أن انتعاش القطاع الصناعى وكذلك ازدهار بعض الصناعات التى زاد الإقبال عليها قد أدى إلى زيادة تكتل الصناع معا واحتياجهم إلى رابطة تربطهم وتنظم علاقاتهم مع الدولة ومن ثم كان الانتماء إلى الطائفة هو السبيل إلى ذلك ، وهناك من يقرر وجود نحو مائة حرفة فى مدينة مثل دمشق وذلك بالاعتماد على نصوص ابن عساكر^(٣) ومع ذلك فينبغى أن نحاذر فيما يتعلق بتلك الناحية : إذ أن المصادر التاريخية لاتشير إلى تعبير «نقابة» وما ورد بشأن نقابة الأشراف^(٤) لايمثل فى حقيقته اتصالا بقطاع العمالة الصناعية والحرفية ، ويضاف إلى ما سبق أن البعض يذكر ارتباط تلك الطوائف بالعناصر القرمطية والشيوعية وأن الحكومات

١- عن تلك الصناعة فى عهد الدولة النورية أنظر :

سعيد الديوبجى ، تاريخ الموصل ، ج١ ، ص ٤٠٨ ، عامر السامرائى ، الصناعات اليدوية فى العراق ، ط١ . بغداد ١٩٧٠م ، ص ٩ ، أحمد رمضان ، حضارة الدولة العباسية ، ص ١٨٤ ، ومن أمثلة ما وصلنا من إنتاج الموصل ، دلو نحاسى يرجع إلى القرن السادس هـ / الثانى عشر م وهو من النحاس له مقبض وتكوينه كروى عليه من أعلى شريط مكتوب عليه كتابة نسخية، القطر ١٩ سم، الارتفاع ٢١,٥ سم، محفوظ فى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة تحت رقم ١٥٦٦٥ ، أنظر :

أحمد حمدى ، معدات التجميل فى متحف الفن الإسلامى، ط١ . القاهرة ١٩٥٦م ، ص ٤٩ .

٢- عن تلك الصناعة أنظر :

العصرى، وصف دمشق ، ص ١٢٤ ، البدرى، نزهة الأثام، ص ٣٦٣، ارشيبالد لويس، القوى البحرية التجارية ، ص ٣٢٧ ، عادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية ، ص ١٧٥ .

٣- ومن أمثلتهم : الزرادون، النحاسيون، الحدادون، السكاكينيون، صانعو السيوف وغيرهم، راجع تاريخ مدينة دمشق، حيث يورد العديد من الحرف، أيضا، اليسيف، الحياة الاقتصادية فى دمشق، ص ٣٠٦ .

Elisseeff, " Corporation de Damas sous Nur Al- Din, Matériaux pour une Topographie Economique de Damas au XII siècle", REA, T. III , Année 1956 .

٤- ابن قاضى شعبة ، الكواكب الدرية ، ص ١٣٣ .

الإسلامية السنية^(١)، حدث من انتشار طوائف الحرف بصفة عامة . وهكذا فإنه فى ضوء صمت المصادر التاريخية، ليس من اليسير تبين أثر السياسة الخارجية النورية على طوائف الحرف .

أما التجارة : فقد غنمت الدولة النورية أكثر ما غنمت من جراء توسعها الخارجى فى صورة النشاط التجارى، إذ أخضعت تجارة شمال الشام ومرت بها الطرق التجارية القادمة من شرق ووسط آسيا إلى أوروبا ، وكذلك الطرق المارة من شمال العراق إلى شمال الشام، وأيضاً القادمة من دمشق ، فضلاً عن تلك المتجهة إلى الإمبراطورية البيزنطية عبر مناطق نفوذ سلاجقة الروم، أما دمشق فقد غدت من أهم المراكز التجارية الشامية، ومر بها طريق الحجاج الشاميين وكذلك القوافل التجارية القادمة من غرب أوروبا إلى شمال أفريقيا إلى الشام، أما الموصل فقد اشتهرت بنشاطها التجارى، وأنها مثلت حركة اتصال مؤثرة وحيوية بين تجارة شمال العراق وشمال الشام بصفة خاصة ، وتجارة الإقليميين المتجاورين بصفة عامة .

وبلاحظ : أن الدولة النورية من خلال توسعها الخارجى ساهمت فى أحكام قبضتها على قسم حيوى من البحر المتوسط، ومن المؤكد تاريخياً أن الحروب الصليبية نفسها تمثل - فى أحد جوانبها - ظاهرة بحر متوسطية، بمعنى أن الصراع الذى وقع بين الجانبين الإسلامى ، والصليبي كان من أجل السيادة على ذلك البحر الحيوى وما يترتب عليه من مكاسب اقتصادية تجارية مهمة وحيث إن سواحله الشرقية قد أغلقت بإحكام فى وجه التوسعات النورية فلم يعد هناك سوى السواحل الجنوبية لتكون مجالاً حيوياً للتوسع النورى. وبالفعل تمكنت من إخضاع الساحل الممتد من قرب غزة إلى طرابلس الغرب .

ولانغفل أن الدولة النورية بإحكام قبضتها على برقة وجبل نفوسة ، قد أخضعت قسماً مهماً من تجارة الشمال الأفريقى ، خاصة تجارة الذهب والرقائق وهما عصب تجارة العالم الإسلامى فى العصور الوسطى، فإذا أضفنا إلى تلك المحطات التجارية البرية، المحطات البحرية مثل عيذاب على البحر الأحمر ودمياط والإسكندرية على البحر المتوسط أدركنا كم كان المكسب التجارى بالغ الأهمية والقيمة، إذ فرضت الدولة المكوس على كافة القوافل المارة عبر كافة الطرق والمحطات التجارية المذكورة ، ولا مرأى فى أن خزينتها ربحت أموالاً طائلة من وراء ذلك على نحو دعم مشاريعها التوسعية .

وجدير بالذكر ؛ أن حجم ما غنمته الدولة النورية على الصعيد التجارى من جراء توسعها الخارجى ينبغى أن نلاحظه من خلال تطورات الساحة الدولية حينذاك ، إذ شهد القرن السادس هـ/ الثانى عشر ما وصفه البعض بأنه بداية الثورة التجارية خاصة حول حوض البحر المتوسط^(١) ، فمعلوم أن الدولة النورية عجزت عن الحصول على أحد الموانئ التجارية المهمة على الساحل الشامى ، وفشلت محاولتها للسيطرة على ميناء السويدية ، وقد تمكنت من تعويض ذلك بالسيطرة على مصر وسواحلها الممتدة على البحر المتوسط حيث المدن التجارية الإيطالية والنشاط التجارى البيزنطى ، إلى غير ذلك من القوى التجارية فى عالم البحر المتوسط ، ولا مرأ فى أن الدولة النورية غنمت من ارتياح ذلك البحر تجارياً ومن المنطقى أن نقرر أنه فى حالة وجود ركود تجارى فى المنطقة فإن حجم التوسعات النورية للهيمنة على منافذ خطوط التجارة الدولية فى المنطقة ما كان له أهمية حقيقية ، لكن الموقف اختلف من حيث ازدهار النشاط التجارى حينذاك .

لقد أثرت السياسة التوسعية على القطاع التجارى بصورة واضحة ، ونلمس ذلك من خلال أنها تمكنت من فتح أسواق تجارية جديدة فى كافة المناطق التى أخضعتها لسيطرتها السياسية ، وقد يقول قائل إن التجارة الشامية كانت تصل إلى مصر قبل سقوطها فى قبضة الدولة النورية عام ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م وكذلك فإن التجارة الحلبية كانت تصل إلى الموصل ودمشق ، لكن الحقيقة أن الأمر يختلف ، ففى الوضع الأول كانت المكوس تفرض على تجارة العبور الشامية إلى مصر لتذهب إلى الخزانة الفاطمية ، أما الآن فإن مصر صارت جزءاً لا يتجزأ من الدولة النورية ككل ، ومن المرجح أن ذلك سهل حركة التبادل التجارى دون أية عراقيل ، ودون فرض رسوم جمركية زائدة ثم إن المكاسب عادت فى النهاية لخزائن الدولة.

لقد أدى فتح أسواق جديدة أمام التجارة الشامية إلى تطور هام فى الأساليب التجارية المتبعة ، فقد صار على تلك التجارة أن تهتم أكثر من ذى قبل باختلاف الأقاليم ونوعية السكان وعاداتهم الاستهلاكية ، ومن المنطقى تصور أو أولئك التجار الذين قدموا إلى مصر^(٢) ،

١- أحمد صادق سعد ، تاريخ مصر الاجتماعى والاقتصادى ، ط. بيروت ١٩٧٩م ، ص ٢٥٣ .

٢- ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٤٤ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ ، ص ٣٢٩ ؛ المقرئى ، انعاظ الحنفاء ،

ج٣ ، ص ٣١١ ، ابن قاضى شهبه ، الكواكب الدرية ، ص ١٨٨-١٨٩ .

عقب نجاح الدولة النورية فى صد هجمات الصليبيين عليها فى عهد الملك عمورى الأول، قدموا لدراسة السوق المصرى ومعرفة إمكانياته لاستيعاب تدفق التجارة الشامية بصورة متضاعفة عن ذى قبل .

وبالإضافة إلى ذلك ؛ شهدت التجارة فى عصر تلك الدولة تطوراً مهماً من جراء التوسع الخارجى، فبعد أن كانت العمليات التجارية مرتبطة بحلب- قلب تجارة شمال الشام- صار هناك مبدأ التخصص فى التجارة الخارجية، وفى قطاعات إقليمية منسقة وموزعة بين قسم من غربى قارة آسيا والشمال الأفريقى، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال ثلاثة محاور ، الأول: التجارة مع الكيان الصليبي، والثانى تجارة التوابل، وهى التى اختص بها التجار الكارمية ، والثالث تجارة الرقيق والذهب من بلاد السودان الغربى عبر الصحراء الكبرى .

أما المتاجرة مع الكيان الصليبي، فقد حتمتها الطبيعة الجغرافية للدولة النورية ، إذ كانت دولة داخلية حبيسة ليست لها موانئ على الساحل الشامى، وحيث أن تلك الموانئ خضعت للسيطرة الصليبية، فإنها مثلت دور الوسيط التجارى بين تلك الدولة والأسواق التجارية الدولية التى استهلكت منتجاتها التجارية مثل الإمبراطورية البيزنطية وجنوب أوروبا وغربها، ومن المعروف أن ميناء صيدا كان ميناءً تجاريًا لدمشق^(١)، وكذلك كان ميناء طرابلس مجالاً لتصريف منتجات كل من حماه، وحمص^(٢)، ولانغفل هنا دور القوى التجارية الإيطالية مثل مدن جنوة ، والبندقية ، وبيزا، وأمالفى، دورها فى دعم النشاط التجارى الصليبي .

وبالنسبة لتجارة التوابل والتى نهض بأمرها الكارمية فقد احتلت أهمية كبيرة فى ميزانية الدولة، ويلاحظ أن هيمنة الدولة النورية على تجارة التوابل الهندية قد تأتى لها بعد أن سيطرت على مصر وقضت على النفوذ الفاطمى بها، واحتاج الأوروبيون على نطاق متسع لتلك التوابل التى حددها لوبيز بأنها كانت تشمل أصنافاً متعددة من السلع المستخدمة فى الزينة

١- ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك، ص ٤٧ .

٢- هايد، تاريخ التجارة، ص ١٨١-١٨٢، رنسيمن ، الحروب الصليبية، ج ٣ ، ص ٦٠٥ ، ستيفنسن، «الحروب الصليبية، روحها وأثرها» ، ضمن كتاب تاريخ العالم ، نشر جون همرتون، الترجمة العربية، ط. القاهرة ب-ت ، ج ٥ ، ص ١٨٨ .

والعطور ، والعقاقير ، والصيانة الكيماوية ، والطهو^(١) ، وامتازت بارتفاع سعرها إذا ما قورن بوزنها وحجمها ، وقد أثرت الدولة النورية بفضل هيمنتها على طريق عيذاب الذى كان معبراً لانتقال التجارة الكارمية ، وورثت المكوس التى فرضتها الخلافة الفاطمية من قبل على مرور تلك التجارة فى أراضيها .

أما المحور الثالث ونعنى به تجارة الرقيق والذهب فقد مثل أهمية بالغة للدولة النورية ، وقد تهيأ لها أن تشارك فى تلك التجارة بصورة متزايدة بعد أن مدت سيطرتها السياسية إلى مصر ، وأمنتها بالسيطرة على برقة ، وجبل نفوسة^(٢) بطرابلس ، وكذلك بإحكام قبضتها على النوبة ، أما تجارة الرقيق؛ فكانت لها أهمية خاصة ، واعتبرها لومبار أكثر العوامل الاقتصادية أهمية فى العالم الإسلامى فى العصور الوسطى^(٣) ، وفى رأيه أن حضارة ذلك العالم قامت على الرقيق^(٤) ،

١- التأثيرات الشرقية والنهضة الاقتصادية فى الغرب، ضمن كتاب بحوث فى التاريخ الاقتصادى، ت. توفيق اسكندر، منشورات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ط. القاهرة ١٩٦١م ، ص ١٧٩ ، أيضاً سونيا هاو، فى طلب التوابل ، ت. محمد عزيز رفعت ، ط. القاهرة ١٩٥٧م ، ص ٢٠-٢٢ ، مصطفى الكنانى، العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامى ، ١١٧١-١٢٩١ ، ط. الإسكندرية ١٩٨١م، ص ٣٠٩ .

٢- ويلاحظ أن جبل نفوسة احتل أهمية تجارية متميزة بصفة عامة، إذ يشير الرحالة المراكشى المجهول صاحب الاستبصار أنه احتوى على مدينة كبيرة هى جادوا ذات أسواق حافلة وأن غالبية أهلها من اليهود ، ومن المعروف اشتغال اليهود بصفة عامة بأمور المال والتجارة .

أنظر : الاستبصار ، ص ١٥٤ .

أيضاً : أهمية موقعه لدى :

سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربى ، من الفتح إلى بدء عصور الاستقلال، ط. الاسكندرية ١٩٧٨م ، ص ٦٩ .

Lombard, The Golden Age of Islam , p. 201 .

-٣-

أيضاً كلود كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ، ص ١٦٠ ، ويلاحظ أن الرقيق المستجلب عمل فى صورة جوارى وحاضنات وكذلك عمال وخدم أنظر : ابن بطلان ، رسالة فى طلب الرقيق وتقليب العبيد، ط. القاهرة ١٩٥٤م ، ص ٣٧١-٣٧٥ .

Ibid, p. 185, Lopez and Raymond, Medieval Trade in Mediterranean world , Oxford - 1955, p. 115 .

ويلاحظ أنه قد وجدت ثلاثة مراكز رئيسية فى العالم لتجارة الرقيق، الأول فى صورة بلاد الصقالبة أو مناطق الغابات فى وسط وشرق أوروبا، والثانى بلاد التركستان أو استبس وسط آسيا، وأخيرا بلاد السودان حيث النجرو الذين سكنوا مناطق السافانا، ومن المقرر أن عالم النجرو كان المصدر الرئيسى الثالث للرقيق^(١)، وظل يمد المناطق الأخرى بتلك الثروة لأمد أطول من المصدرين الآخرين، وقد انقسم إلى عدة مجموعات متميزة فهناك النوبيون فى النيل الأعلى واستجلبوا عن طريق أسوان^(٢) وهى المدخل الجنوبى لمصر، ثم البرابرة وكذلك الأحباش وقد تم استجلابهم عن طريق وديان النيل الأزرق أو نهر النيل، وعلى طول موانئ البحر الأحمر إلى مصر أو جزيرة العرب^(٣).

ولاريب فى أن الدولة النورية قد ساهمت فى تجارة الرقيق من خلال وصول حدودها إلى جنوب مصر حيث بلاد النوبة، وكذلك بوصول حدودها الغربية إلى جبل نفوسة وطرابلس حيث كانت هناك تجارة مزدهرة للرقيق من جانب تجار الشمال الأفريقى ومصار الرقيق جنوب الصحراء الكبرى، فمن الواضح أن القوافل التجارية خرجت من هناك إلى بلاد السودان محملة بالملح والنحاس وغيره من السلع وعادت بالرقيق^(٤)، وما اشتهرت به تلك البلاد من منتجات.

١- Lombard, The Golden age of Islam , p. 196 .

٢- Ibid, p. 196 .

ويقرر بنيامين التطيلي أمر استجلاب الرقيق عن طريق أسوان، أنظر: الرحلة، ص ١٧٠، أيضا: نقولا زيادة، رواد الشرق العربى فى العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٨٦م، ص ١٠٤.

٣- Ibid, p. 196 .

أيضا :

يوسف فضل، «المعالم الرئيسية فى الهجرة العربية إلى السودان»، المجلة التاريخية المصرية، م (١٣)، لعام ١٩٦٧م، ص ١١٤.

٤- القزوينى، آثار البلاد، ص ١٩

Ziada, " Factors influencing Trade relations between north Africa and The western su-
= dan in the middle ages", p. 40 .

أما تجارة الذهب، فمن المعروف أنه خلال العصور الوسطى تميز العالم الإسلامى بوفرة لا بأس بها من الإنتاج الزراعى ، نظراً لازدهار الزراعة فى سهول الوديان النهرية، مثل النيل ودجلة والفرات وغيرها، وواكب ذلك تقدم المعارف الملاحية، وقد نشطت تجارة العالم الإسلامى مع البلاد الأفريقية وبلاد الشرق الأقصى وزادت حصيلته من الذهب بسبب أن التعامل مع تلك المناطق كان يتم بالنقود الذهبية^(١)، ومما دعم امتلاك المسلمين لفائض ذهبى، أنهم عملوا على استغلال مناجم الذهب فى المناطق التى فتحوها، ثم جلبهم للذهب من بلاد السودان على نحو خاص ، وقد كان ذهبها يشكل ويحق عماد الرخاء فى عالم البحر المتوسط^(٢) وشمالى أفريقيا، وقد اشتهرت بلاد السودان بأنها بلاد الذهب^(٣)، وقد اعتبر ذلك المعدن النفيس أهم عناصر التجارة الصاعدة من بلاد ما وراء الصحراء الكبرى^(٤).

ويلاحظ أن امتداد النفوذ السياسى للمسلمين على كل شمال أفريقيا هياً لهم الوصول إلى منابع الذهب فى تلك البلاد ووجدت عدة طرق تجارية لهُ، فسجلماصة غدت مدينة كبرى من مدن القوافل خاصة بتجارة الذهب، ولم تلبث أن قامت بالإضافة إلى ذلك الخط الغربى الذى مر

= الموسم الثقافى للجمعية التاريخية المصرية ١٩٧٦-١٩٧٧م، ط. القاهرة ١٩٧٨م ، محمود اسماعيل، الخواص فى بلاد المغرب، ط. القاهرة ١٩٨٦م ، ص ٢٨١ ،

أيضاً : صباح الشبخلى ، «تطور الوجود العربى فى صحارى فزان ما بين القرنين الأول والسادس هـ/ السابع والثانى عشر م »، مجلة العلوم الإنسانية- العدد (٢٣) ، م (٦) ، الكويت عام ١٩٨٦م، ص ٤٣ .

١- رمزى زكى، التاريخ النقوى للتخلف ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد رقم (١١٨) ، الكويت، أكتوبر ١٩٨٧م، ص ١٥ .

٢- نفسه، نفس المرجع ، ص ١٩ .

٣- القزوينى، آثار البلاد، ص ١٨ ، ص ٢٤ ، مارك بلوك ، «مشكلة الذهب فى العصر الوسيط» ضمن كتاب بحوث فى التاريخ الاقتصادى ، ص ٤١ ، دريد نورى، «ازدهار الصناعة والزراعة فى بلاد السودان الغربى فى القرن الخامس هـ/ الحادى عشرم، كما وصفته المراجع الإسلامية» مجلة العلوم الإنسانية ، العدد (٢١) ، م (٦) ، الكويت ١٩٨٦م، ص ٩٦ .

٤- فرديناند برودل ، «دراسات فى النقود والحضارة ، من ذهب السودان إلى فضة أمريكا» ، ضمن كتاب بحوث فى التاريخ الاقتصادى ، ص ٦٢ .

بسجل ماسة وتيشيت^(١) والسودان ، اتصالات أخرى امتدت من ورجلة إلى منحني النيجر مروراً بتيدكليت، وفي الشرق وجدت طرق تجارية للذهب ووصلت ما بين الجريد وطرابلس من جهة، وغدامس وعابر والسودان من جهة أخرى^(٢).

إن استعراض خطوط تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى يدل على أن امتداد نطاق السيادة السياسية للدولة النورية حتى جبل نفوسة بطرابلس قد جعلتها تشارك بصورة أو بأخرى في تجارة الذهب القادمة من بلاد السودان، ومنطقي أن نتصور أنها غنمت من وراء ذلك مغانم عظيمة، ولكن ينبغي أن ندرك أن امتدادها إلى تلك الحدود جاء متأخراً أي بعد سقوط الخلافة الفاطمية في مصر عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م، وبالتحديد قبل ثلاث سنوات فقط من موت نور الدين محمود نفسه .

كذلك فإن من نتائج التوسع الخارجى النورى، وجود بعض الظواهر التجارية التى ميزت النشاط التجارى لتلك الدولة، مثل ظاهر الاحتكار ، حقيقة أن تلك الظاهرة كانت موجودة من قبل عهد تلك الدولة، إلا أنها لم تكن بمثل هذه الصورة التى كشفت النقاب عنها المصادر التاريخية، إذ أنه مع تزايد أهمية التجارة فى اقتصاديات الدولة، وتزايد نفوذ الطبقة الوسطى التجارية وصل الأمر إلى الحد الذى وجد فيه تاجران احتكرا المتاجرة مع كل الساحل الشامى حيث الوجود الصليبي^(٣)، ومنطقي أن ذلك لم يكن ليحدث قبل توسع الدولة النورية لتضم

١- موريس لومبار، «الأسس النقدية للسيادة الاقتصادية، الذهب الإسلامى من القرن السابع إلى القرن الحادى عشر الميلادى»، ضمن الكتاب السابق ، ص ٦٢ .

٢- نفسه، نفس المرجع ، ص ٤ .

وعن خطوط تجارة الذهب فى أفريقيا أنظر أيضا :

طرخان ، «غانه فى العصور الوسطى»، المجلة التاريخية المصرية، م (١٣) ، لعام ١٩٦٧م ، ص ٦٣ ،
إمبراطورية غانا الإسلامية، ط. القاهرة ١٩٧٠م ، نعيم قداح والحكيم ، أفريقيا الغربية فى ظل الإسلام،
ص ١٢٦-١٢٧ ، نقولا زيادة ، «الطرق التجارية فى العصور الوسطى» مجلة تاريخ العرب والعالم ،
السنة (٥) ، العددان (٥٩-٦٠) ، أكتوبر ١٩٨٣م، ص ٢٠-٢١ .

٣- ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٥٣ .

إليها دمشق عام ٥٣٩هـ / ١١٥٤م، إذ صارت حدودها السياسية مقترية بصورة أكبر من ذي قبل من الموانئ الساحلية شرق البحر المتوسط ، وقد دل على ذلك ناحية أخرى على التكتل الرأسمالي الضخم لدى أولئك التجار ، على نحو مكن التاجرين السالفى الذكر من احتكار تجارة محور حيوى وبالغ الأهمية من محاور التجارة الخارجية للدولة بأسرها ^(١) ، وطبيعى أن ذلك لم يكن متوافراً بمثل هذه الصورة عندما كانت الدولة النورية ما زالت فى بدايتها منحصرة فى حلب .

ومن الطبيعى أن نلاحظ ؛ أن النتائج التى لحقت بالجانب التجارى كانت أكثر أهمية وتأثيراً على اقتصاديات البلاد، إذ أن النشاط التجارى كان مجالاً لتصرف المنتجات الزراعية والصناعية وبالتالى ضمن لها ازدهارها أيضاً .

ولم تقتصر النتائج الاقتصادية للتوسع النورى على تلك الدولة فقط، بل تعدتها إلى القوى الإسلامية والمسيحية المجاورة أيضاً ، فبالنسبة للخلافة العباسية أثرت السياسة الخارجية النورية اقتصادياً عليها ، ولعل من أهم النتائج فى هذا المجال أن القضاء على الخلافة الفاطمية عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م قد أدى إلى القضاء على منافستها اقتصادياً للخلافة العباسية لاسيما على المستوى التجارى، فمن المعروف أن الفاطميين أرادوا توجيه ضربة قاصمة للخلافة العباسية فى بغداد عن طريق إضعاف طريق الخليج العربى ^(٢) ، وتحويل تجارة الشرق الأقصى عبر الأراضى المصرية ولكن بإسقاط تلك الخلافة أمكن إنهاء تلك المنافسة إلى غير رجعة بل صارت مصر تمثل قوة معضدة للعباسيين لا منافئة .

أما نتيجة التوسع النورى على الخلافة الفاطمية اقتصادياً ، فيمكن إدراكها من خلال أن تلك الأنشطة الزراعية ، والصناعية ، والتجارية التى دعمت حكم الفواطم على المستوى الاقتصادى، تحولت جميعها إلى سيطرة الدولة النورية وقمت الهيمنة على قسم مهم من طرق التجارة عبر البحرين الأحمر والمتوسط وعبر نهر النيل وكذلك الطرق البرية أيضاً .

١- عن الاحتكار التجارى فى عهد الدولة النورى ، أنظر :

الدمشقى، الإشارة إلى محاسن التجارة، ص ٧٠ .

٣- فاروق عمر، الجذور التاريخية للوزارة العباسية ، ص ١٩٨ .

أما الكيانات المحلية فى بلاد الشام والجزيرة، فقد أدى التوسع على حسابها إلى إقصائها عن مصادر ثروتها الاقتصادية لاسيما المحطات التجارية وخطوط التجارة الدولية التى مرت عبر مناطق نفوذها ، وينطبق ذلك أكثر ما ينطبق على أتابكية دمشق التى جاء إسقاطها عام ١١٥٤هـ / ١١٥٤م إيذاناً بانتقال ثروات المدينة إلى سيطرة الدولة النورية، وكذلك أسرة بنى منقذ فى شيزر ، وإذا كانت دمشق قد امتازت بالأنشطة الزراعية ، والصناعية ، والتجارية، فإن شيزر تميزت بالنشاط التجارى كما لاحظ وليم الصورى نفسه^(١).

أما الكيان الصليبي ممثلاً فى مملكة بيت المقدس والإمارات التابعة لها، فقد تأثر هو الآخر على المستوى الاقتصادى من جراء السياسة التوسعية للدولة النورية .

وحيث أن الدولة النورية لم تقاطع مملكة بيت المقدس اقتصادياً لاسيما تجارياً ، بل إن القوافل استمرت تتردد بين الجانبين ، لذا فإن تلك المملكة أفادت من وراء المتاجرة مع عدوها الرئيسى ، وذلك من خلال عائد المكوس المفروضة ومن المرجح أن الازدهار التجارى الذى شهده ميناء عكا^(٢) بالذات كان يرجع - فى أحد أسبابه- إلى المتاجرة مع الدولة النورية إذا اعتبر أحد الموانئ الرئيسية الهامة لتصريف تجارة تلك الدولة .

William of Tyre , vol . II, p. 267 .

-١-

وتوجد إشارة ضمنية إلى ثرائها التجارى لدى المؤرخ السريانى المجهول:

Anonymous Syriac chronicle, p. 302 .

٢- يصف ابن جبير عكا بقوله «هى قاعدة مدن الفرنج بالشام ومحط الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام، مرفأ كل سفينة ، والمشبهة فى عظمتها بالقسطنطينية ، مجمع السفن والرفاق، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق»، أنظر : الرحلة ، ص٢٤٩ ،

Abbot Daniel, The pilgrimage of the Russian Abbot Daniel, Trans. by wilson , London 1895, PPTS, vol. IV, p. 55 .

وإشارة مهمة لدى ابن القلاسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣١١ ، أيضا : هايد، تاريخ التجارة، ص١٨٦ ، الحويرى، الأوضاع الحضارية ص١٢٨- ص١٢٩ ، براور ، عالم الصليبيين، ص٢٢٢- ص٢٢٣ .

محمد مؤنس أحمد عوض ، الجغرافيون والرحالة المسلمون فى بلاد الشام زمن الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٩٥م، ص٢٨٨ .

وقد أثرت سياسة التوسع النورية والتداخل الذى جرى بين تلك الدولة والكيان الصليبي على المستوى التجارى، أثرت على سياسة المملكة اللاتينية إذ أنها لكى تتاجر مع المسلمين كان عليها أن تتبع الموازين والمكاييل المستعملة فى البلاد من قبل^(١)، كما كان الصليبيون فى حاجة إلى استعمال نوع من العملات يقبلها التجار المسلمون، وفى الوقت الذى استعمل فيه الصليبيون العملات النقدية الإغريقية وغيرها، عملت عملة خاصة عرفت بالدينار الصورى وتم استخدامه فى التجارة مع المسلمين على أوسع نطاق وقد شابه البيزنطى Bezant البيزنطى، وقد نقشت عليه عادة بعض الآيات القرآنية، وبصورة تدريجية صارت الدنانير الصورية أكثر العملات المتداولة انتشاراً فى كافة أنحاء بلاد الشام^(٢)، ولذا أكثر المصادر التاريخية المعاصرة من الإشارة إليها .

ويلاحظ أن الهدنات التى عقدتها الدولة النورية مع مملكة بيت المقدس، كان لها أثرها الفعال على التبادل التجارى بين الجانبين، إذ توقفت عند ذلك المعارك ووجد التجار فرصة سانحة لمروور قوافلهم التجارية دون التعرض لمخاطر الحروب .

١- عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس، ص ١٢٤ .

٢- رنسيما، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٦١٨، سر الختم عثمان، مدينة صور فى القرنين ١٢، ١٣ م، رسالة دكتوراه غير منشورة - كلية الآداب- جامعة القاهرة لعام ١٩٧١م، ص ٢٩٣ .

وعن إشارات المصادر المعاصرة للدولة النورية للدينار الصورى :

ابن القلائسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٣١ .

William of Tyre, vol. II, p. 282 .

ويلاحظ أن البيزنطى عملة ذهبية بيزنطية وقد سمي بذلك نسبة إلى مدينة بيزنطة أو القسطنطينية، وقد استمر البيزنطى فى التعامل النقدى فى أوروبا العصور الوسطى حتى القرن السابع هـ/ الثالث عشر، عن ذلك أنظر : عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص ٣١٣، حاشية (٣)، ستيفنسن، الحروب الصليبية، ص ١٩١ .

وعن التأثيرات الإسلامية فى العملة الصليبية أنظر :

عبد الرحمن فهمى، «النقود الصليبية تحت تأثير النقود العربية فى الشرق العربى»، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد (١٦) السنة (٦) ١٤٠٣هـ، ص ٢٧٥-٢٩٢، «تعريب النقود ومدلوله الحضارى»، المنهل، العدد (٤٥٤)، لعام ١٩٨٧م، ص ٣٩٢ .

وإذا كانت التجارة الصليبية قد نشطت من خلال توسع الدولة النورية واتباعها لسياسة متعاونة مع الصليبيين تجارياً فإن الناحية الزراعية ربما كانت أكثر مجالات النشاط الاقتصادي تضرراً من جراء ذلك التوسع ، فمن الثابت أن الإغارات المتبادلة بين الجانبين حوت فيما حوت عنصر التخريب الاقتصادي ، وقد هاجم الجيش النورى الأعمال الريفية التابعة للملكة وعمل على نهبها واستلابها ، ومن المرجح أن النشاط الزراعى - خاصة على مناطق الحدود - قد أضر من جراء العمليات الحربية بين الجانبين.

أما الإمارات الصليبية فقد أفادت - شأنها فى ذلك شأن المملكة اللاتينية نفسها - من المتاجرة مع الدولة النورية ولا مرأى فى أن ميزانيتها دعمت من جراء ذلك ، ومن المرجح أن الموانئ التابعة لتلك الإمارات ، والتي وقعت على الساحل الشرقى للبحر المتوسط مثل السويدية (سان سيمون) ، وأنطوطوس ، واللاذقية ، وطرابلس ، وغيرها قد ازدهرت أوضاعها التجارية شأنها فى ذلك شأن ميناء عكا ، نظراً لأنها عُدت من المنافذ المهمة الخاصة بتصرف تجارة الدولة النورية .

ذلك عرض لنتائج السياسة الخارجية النورية على المستوى الاقتصادى ، أما النتائج الاجتماعية فيختص بها الفصل التالى .

الفصل التاسع

النتائج الاجتماعية

كان طبيعياً أن تحقق السياسة الخارجية النورية تأثيرات مهمة على تكوين المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام والجزيرة ، وكذلك على المجتمع الصليبي نفسه، ولاشك فى أن اتباع سياسة قائمة على التوسع الخارجى، طوال نحو ما يقرب من الثلاثين عاماً ، منطقى أنها ساهمت فى التأثير اجتماعياً مثلماً أحدثت آثارها من قبل على المستويات الاقتصادية والسياسية .

وينبغى أن نلاحظ ، أنه ليس من اليسير فصل تلك التأثيرات والنتائج بعضها عن بعض ، أو إدراك مدى أولويتها، ومع ذلك فمن الواضح أن النتائج الاجتماعية للتوسع النورى ، امتازت عن غيرها من النتائج الأخرى باتساع نطاقها وطول تأثيرها على الجانبين الإسلامى والصليبي، من خلال طبيعة الدولة وكذلك المرحلة التاريخية نفسها، ومن المؤكد أن التأثيرات الاقتصادية والسياسية تستمر لفترة محددة بينما تستمر التأثيرات الاجتماعية تتوارثها الأجيال وتعمر قروناً .

ومما يجدر تناوله ، تكوين مجتمع بلاد الشام والجزيرة وعناصره فى عهد الدولة النورية من أجل أن تتمكن من رصد التغيرات التى حلت به نتيجة للتوسع الخارجى .

وقد تكوين ذلك المجتمع العناصر العربية، فمعلوم أن القبائل العربية كثيراً ما اتجهت إلى بلاد الشام من أجل المتاجرة وللتخلص من موجات الجفاف التى عانت من جرائها شبه الجزيرة العربية وكذلك من جراء الصراع القبلى^(١)، وهكذا فإنها لم تقم بغزو بلاد الشام فحسب- كما لاحظ دوسو- بل أنها اتجهت إلى الإقامة المستمرة فيها^(٢).

وقد وجدت عدة قبائل عربية استقرت فى بلاد الشام مثل بنى كلاب، وبنى طى ، وبنى

١- الحويرى، الأوضاع الحضارية ، ص ١٥ .

٢- العرب فى سوريا قبل الإسلام ، ت. عبد الحميد الدوخلى، ط. القاهرة ب-ت ، ص ١٠ .

كلب^(١) وغيرهم، ووجد منها من لعب دوراً هاماً فى تاريخ البلاد من قبل عهد الدولة النورية ، مثل بنى كلاب الذين أسسوا الدولة المرداسية^(٢) فى حلب عام ٤١٤هـ / ١٠١٩م فى عهد صالح بن مرداس .

كذلك وجدت العناصر التركية التى قدمت مع تقدم القبائل التركية إلى المنطقة خاصة فى النصف الثانى من القرن الخامس هـ / الحادى عشر م^(٣) . وبالإضافة إلى ذلك استقر الأكراد^(٤) فى بلاد الشام وشمال العراق، ومن المعروف أن عناصرهم تولت أمر الدفاع عن حصن حيوى من الحصون التى وجدت للدفاع عن مدينة طرابلس وما جاورها من أعمال وذلك فى عام ٤٢٨هـ / ٣٣٣ . ١٠٥^(٥)، ويلاحظ أن من الأكراد ، من تشكل فى صورة جماعات أو قوم رحل، كما أن

Gibb, The Damascus Chronicle of The Crusades, p. 17 .

-١

الحويرى ، الأوضاع الحضارية ، ص١٦- ص٢٤ .

وعن تلك القبائل أنظر :

المقريزى ، البيان والإعراب بأرض مصر من الأعراب ، تحقيق عبد المجيد عابدين ، ط. القاهرة ١٩٦١م، ص٢٨ ، ص٦٧- ص١١٩ ؛ القلقشنلى، نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب، تحقيق ابراهيم الأبيارى، ط. القاهرة ١٩٥٩م، ص٣٢٥، ص٤٠٧ ، ص٤٠٨ .

صالح العلى، القبائل العربية فى بلاد الشام فى زمن الخلفاء الراشدين «مجلة دراسات - الجامعة الأردنية - عمان، م (١٤) ، العدد (٤) أبريل ١٩٨٧م ، ص٤٧- ص٤٩ .

٢- عنها ، ابن العديم، زبدة الخلب، ج٢ ، ص٩ - ص٧٠، يونس السامرائى ، الدولة المرداسية فى حلب، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية دار العلوم - جامعة القاهرة لعام ١٩٨٢م .

٣- عن ذلك أنظر :

شاكر مصطفى، «دخول الترك الغز إلى الشام فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر م » ، مجلة كلية الآداب- جامعة الكويت العدد (٥) يونيو ١٩٧٧م .

٤- ابن القلائسى، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٥٩؛ المقريزى، اتعاظ الخنفا ، ج٣ ، ص٣٠٥ .

٥- ابن شداد الحلبي، الأعلام الخطيرة ، ج١ ، ص١١٥ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج١ ، ص١٨٧ ، حاشية (١) ، Le Strange, Palastine under Islam, p. 39 .

أبر الفرج العيش، آثارنا فى الإقليم السورى ، ص٢١٦ ، أحمد رمضان ، المجتمع الإسلامى ، ص٥٥ .

بعضهم سكن المدن أيضا خاصة الجهات الشمالية من بلاد الشام^(١)، حيث أننا نجد العناصر الكردية تقوم بخدمة آل منقذ في شيزر، وشاركوا في المعارك الحربية التي خيض غمارها، وكذلك ساهموا في المظاهر العمرانية^(٢)، وفي هذا المجال نجد أسرات كردية بأكملها استقرت في تلك المدينة .

ويضاف إلى كافة العناصر السابقة، وجدت عناصر من أهل الذمة وتمثلوا في المسيحيين واليهود، ومن الفريق الأول وجد اليعاقبة^(٣)، وقد شكلوا العنصر الأساسي من بين طوائف المسيحيين الشرقيين في بلاد الشام، يضاف إليهم النساطرة^(٤) وشكلوا أعدادا أقل إذا ما قورنوا باليعاقبة، وقد عمل الفريقان في الأنشطة الصناعية والتجارية .

١- الحويرى، الأوضاع الحضارية، ص ٢٨ .

٢- محمد الشيخ، الإمارات العربية، ص ٤٥٢ .

٣- اعتقد اليعاقبة أو المونوفيزيتين بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح عنهم :

القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٢٧٨ ،

أيضا :

Lombard, The Golden age of Islam , pp. 28-91 , Gibb, The Damascus chronicle, p. 29 .

٤- اعتقد النساطرة بأن الطبيعة الإلهية كانت منفصلة عن الطبيعة البشرية في السيد المسيح، عنهم :

حتى ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ج ٢ ، ص ١٣٨ ، Gibb, The Damascus chronicle, p. 29 ,

ومن أمثلة الاختلاف حول طبيعة المسيح أنظر :

William of Tyre , vol . II, p. 459 .

ويلاحظ أن الدولة النورية ضمت عناصر اليعاقبة والنساطرة بينما وجد الموارنة تحت السيادة الصليبية

وخاصة في إمارة طرابلس ، عنهم :

William of Tyre, vol . II, p. 458-459 ,

أيضا :

Salibi, " The Maronites of Lebanon under Fran ish and Mamluk rule, (1099-1516),

REA, IV , Anée 1957 , pp. 288-303 .

ويضاف إلى الجماعات المسيحية هناك اليهود، وقد استقروا في المدن الشامية والجزرية مثل دمشق وحلب واهتموا بالنشاط التجاري على نحو خاص، وقد وجدت حارة بأسمهم في مدينة دمشق ذكرها ابن عساكر^(١) ضمن عرضه لخطط المدينة، وقد أشار البعض إلى تواجدهم بأعداد كبيرة بلغت عدة آلاف في تلك المدينة^(٢)، على نحو يدعو إلى الاعتقاد بأنهم شكلوا جانباً هاماً من عناصر أهل الذمة في المجتمع الشامي حينذاك.

ويلاحظ أن ذلك المجتمع اتسم بوضوح معالم تركيبته الطبقية حيث وجدت طبقتي الخاصة والعامة، أما الأولى فإنها شملت رجال الدولة ومعاونيهم من الوزراء والحجاب وكبار موظفي الدواوين وقيادات الجيش وكذلك العلماء والفقهاء والأدباء، الذين اتصلوا بالسلطة السياسية بصورة أو بأخرى، أما طبقة العامة- والتي شكلت السواد الأعظم- فشملت عناصر الفلاحين وصغار الحرفيين، والتجار، وجماعات الشطار، والعيارين.

ومن النتائج الاجتماعية المهمة للتوسع الخارجى النورى، انتشار ظاهرة العمران بصورة واضحة وذلك من خلال تزايد أعداد السكان، وبالتالي تزايد المنشآت العمرانية، وعلى الرغم من أنه لا يوجد لدينا إشارات كافية في المصادر التاريخية للدلالة على حجم الزيادات السكانية في المناطق السهلية الفيضية التي توسعت فيها الدولة النورية- في عصر لم يعرف الإحصاء السكاني- إلا أنه بالإمكان استنتاج ذلك من خلال نتف متناثرة في المصادر المعاصرة.

وتقدم لنا إشارات ابن عساكر- الذى قدم وصفاً طبوغرافياً للمدينة- تقدم إنطباعاً عاماً بالزيادة السكانية فيها، إذ أنه قرر أن عدد الجماعات الدمشقية في عهد نور الدين محمود بلغ ما يزيد على السبعة والخمسين حمماً^(٤)، كذلك لا تغفل ازدهار الحركة العمرانية في مدينة

١- تاريخ مدينة دمشق، م (١)، ص ١٦٤.

٢- بنيامين التطيلي، الرحلة، ص ١١٧.

٣- أحمد رمضان، المجتمع الإسلامى، ص ٨٤.

٤- ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، م (٢)، ص ١٦٢- ص ١٦٤ وبالتفصيل أنظر:

منير كمال، الحمامات الدمشقية وتاريخها، ط. دمشق، ١٩٦٤م. ويلاحظ أن عدد تلك الحمامات تزايد بصورة واضحة فيما بعد حيث ذكر ابن جبير أنها بلغت قرب مائة حمام عندما زار المدينة، أنظر، الرحلة، ص ٢٣٥.

دمشق إذ انتشر العمران خارجها وتم تقسيم الأرياض وجعل لكل منها مسجد ، وحمام ، وعدد من المحال التجارية^(١)، وقد أدى ذلك بالضرورة إلى الاعتقاد بأن الأعداد السكانية المتزايدة قد احتاجت إلى مثل تلك المنشآت العمرانية .

كما يلاحظ أن تلك المدينة وغيرها من المدن الشامية الكبيرة كانت بصفة مستمرة مجالاً لحركة ديموغرافية من المناطق الريفية المجاورة لها من أجل العمل والاستقرار بها .

وقد قرر ابن العديم ازدياد الأعداد السكانية في مدينة حلب خاصة في أخريات عهد الدولة النورية^(٢)، ولا مرأى في أن التوسع الخارجى عاد بالضرورة على المدينة «الأم» للدولة فزادت عمراً^(٣)، أما مدينة حمص فإن الإدريسي ذكر صراحة أنها «عامرة بالناس»^(٤) وذكر ابن القلائسي عن سكان حماه أن «أهلها من الشيوخ والشبان والأطفال والنسوان وهم العد الكثير والجم الغفير»^(٥).

ومنطقي أن تفوق ظاهرة العمران وما صاحبها من زيادة سكانية لم يكن ليتهايئاً للدولة النورية عندما كانت لاتزال دويلة وليدة مسيطرة على مدينة حلب وما جاورها من أعمال بشمال الشام، وإنما تأتى لها من خلال امتداد نفوذها إلى مناطق السهول الفيضية ، كذلك بعد أن تدعمت ميزانيتها على نحو مكن الدولة من إقامة العديد من المنشآت العامة في العديد من المدن الشامية، مما جعلها مراكز جذب لأعداد سكانية متزايدة ، ولانغفل هنا زاوية حاسمة في صورة استقرار الأمن بصفة عامة على نحو أدى إلى جذب الحركة السكانية إلى ربوع تلك الدولة.

وقد تركت السياسة الخارجية النورية آثارها على المجتمع الإسلامى في بلاد الشام ، وقد تزايد نفوذ طبقة الخاصة وتضخمت مصالحها بصورة كبيرة بينما دفعت العامة تحسن التوسع الخارجى للدولة ومثلت تلك الطبقة وقود الحرب المستعرة على الحدود خاصة في مواجهة الصليبيين .

١- سليم عبدالله ، «تشبيد بغداد وأثره في فن العمارة والعمران العربى والعالمى» مجلة الحوليات الأثرية السورية، م (١٢) ، لعام ١٩٦٣م، ص ٢١ .

٢- زبدة الخلب ، ج٢ ، ص ٣٤١ .

٣- ويقرر ابن العديم أنه «انعمر بلد حلب في زمانه حتى لم تبق مزرعة في جبل ولا واد إلا وفيها سكان ولها مغل»، نفس المصدر ، ج٢ ، ص ٣٤١ .

٤- نزهة المشتاق ، ج٤ ، ص ٣٧٤ .

٥- ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٢ .

ويلاحظ أنه قد ازداد نفوذ العناصر العسكرية اجتماعياً ، ولا مراء في أن نجاح القيادات العسكرية في عهد الدولة النورية في تحقيق أهداف السياسة الخارجية لها ، قد جعلها تحتل أعلى الدرجات الاجتماعية ، هذا بالإضافة إلى أن اتصالها بالسلطة السياسية القائمة ضمن لها هذا التميز من قبل ، وجاء المجد العسكري ليدعم نفوذها ، ولا تغفل أن الإقطاعات التي حصلت عليها قدمت الأساس المادي للتميز الطبقي ، فضلاً عن طبيعة الدولة النورية نفسها بوصفها دولة ثغرية في حالة حرب شبه مستمرة مع جيرانها سواء المسلمين أو الصليبيين ، على نحو دعم الوضعية الاجتماعية الخاصة لتلك العناصر .

ومن ناحية أخرى ، فإن البعد التجاري الواضح من بين دوافع السياسة الخارجية النورية ، وكذلك دور النشاط التجاري في دعم اقتصادياتها ، قد ضمن للعناصر التجارية الثرية مكانة اجتماعية متميزة ^(١) ، على نحو ضمن ازدياد شأن الطبقة الوسطى التجارية ، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال إشارة بعض المؤرخين والرحالة إلى الشراء العريض الذي كان لتلك العناصر ، على نحو لم نجد له لدى غيرهم من شرائح المجتمع الإسلامي في بلاد الشام والجزيرة حينذاك .

حقيقة أن الطبقة الوسطى التجارية قد ازدهرت شأنها على امتداد تاريخ بلاد الشام في العصور الوسطى طالما وجدت الاستقرار السياسي الملائم ، إلا أنها نشطت بصورة واضحة خلال العهد النوري كنتيجة للتوسع الخارجي ، ومن مظاهر ذلك أنها صارت تمثل عنصراً للتأثير السياسي ، ويفيد نص لابن جبير في توضيح أن كبار التجار أصحاب رؤس الأموال الكبيرة والذين احتكروا المتاجرة مع موانئ شرق البحر المتوسط الصليبية قد اتصلوا بكبار الساسة ^(٢) ، وأن الأخيرين هبوا لهم ممارسة أعمالهم التجارية خاصة مع الكيان الصليبي .

وتجدر الإشارة إلى أن الدولة النورية نفسها حرصت على إرضاء كبار التجار من أجل أن يستمر استثمارهم لأموالهم في عمليات تجارية على أرضها على نحو يدعم اقتصاديات الدولة

١- ومن الأمور ذات الدلالة أن ابن القلاسي اعتبر التجار «من أمائل الرعية» عن ذلك : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢٨ .

٢- ياقوت معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ٢٨٦ ؛ أبوشامة ، الروضتين ، ج ١ / ١ ق ، ص ٢٦ ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢١٧ ؛ ابن قاضي شهاب ، الكواكب الدرية ، ص ٢٧ .

٣- ابن جبير ، الرحلة ، ص ٣٥٣ .

ويدر الأموال الطائلة على ميزانيتها من عوائد المكوس لا أن تذهب إلى خارجها ، فى وقت تصارعت فيه مع القوى الإسلامية والصليبية المجاورة ولاسيما الأخيرة .

ومما دعم التمايز الطبقي للطبقة الوسطى التجارية أن مصالحها التقت مع مصالح الدولة النورية، ومن قبل مثل إسقاط دمشق فى قبضة نور الدين محمود عام ٥٤٩هـ / ١١٥٤م، وبصورة غير دموية ودون جهد عسكرى ضخم، مثل دليلاً واضحاً على أن كبار التجار وجدوا فى سلطان حلب قوة مهيئة لنشاطهم التجارى أكثر من ذى قبل، ومن الأمور ذات الدلالة؛ أن نور الدين عندما دخل المدينة ، حرص أشد الحرص على الاجتماع مع كبار التجار الدماشقة، من أجل بعث الطمأنينة فى نفوسهم ، ولتوضيح معالم سياسته الاقتصادية المرتقبة^(١)، ودل على أهمية الدور المرتقب الذى ستقوم به الطبقة الوسطى التجارية فى دعم اقتصاديات دولته.

ومن مظاهر تأثير تلك الطبقة إتباع الدولة النورية لسياسة مهادنة مملكة بيت المقدس الصليبية من حين لآخر، فى صورة هدنات تتراوح بين الثلاثة أشهر^(٢) والعامين^(٣)، ومنطقتى أن نلاحظ أن اتجاه تلك الدولة إلى مثل ذلك الاتجاه السلمى جاء استجابة لضغوط عناصر تلك الطبقة ومن أجل استمرار دورهم التجارى فى دعم اقتصاديات الدولة. فطبيعى أن كبار التجار لم يقبلوا أن يستمر الصراع مع الصليبيين إلى ما لانهاية ، وبصورة تلحق أشد الأضرار بمصالحهم الاقتصادية ، ومن ثم اتجهت الدولة النورية إلى اتباع تلك السياسة ، على ما هو مفترض خاصة أن مصالح تلك الطبقة وكذلك الدولة ذاتها كانت مترابطة.

وعلى حين كان أثر التوسع الخارجى إيجابياً على العناصر العسكرية والتجارية الكبيرة، إلا أن طبقة العامة لاسيما الفلاحين مثلت بحق قاعدة الهرم الطبقي حينذاك ، وقد شكل العامة سواد الناس^(٤) وغالبيتهم ، وكان على القطاع الفلاحى بالذات أن يدفع ثمن التوسع الخارجى على حساب أوضاعه الاجتماعية .

١- ابن القلائسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢٨-٣٢٩ ، ويلاحظ أن نور الدين محمود انتهاز فرصة الاستيلاء على دمشق فألقى عدة رسوم كانت مفروضة فى عهد البوريين على بعض السلع ، أنظر : ابن القلائسى، نفس المصدر، ص ٣٢٩ .

٢- William of Tyre, vol. II, p. 282 .

٣- Gibb , The Career of Nur Al- Din, p. 523 .

٤- بدرى فهد، العامة ببغداد فى القرن الخامس الهجرى، ط. بغداد ١٩٦٧م، ص ١٢ .

وتوجد ناحية مهمة ، تبدو كمؤشر على ذلك الوضع المتردى للسواد الأعظم من طبقة العامة متمثلاً في الفلاحين ، فالمؤرخين الرسميون مثل ابن القلايس والعماد الأصفهاني ، ومن اتجه وجهتهم ، في غمرة تأليفهم التواريخ الرسمية لتمجيد السلطان وتوسعته شمالاً وغرباً وجنوباً ، تناسوا طبقة العامة ، وخلت تواريخ الكثيرين منهم من إشارات مفصلة عنهم ، ولم نحصل - والأمر كذلك - إلا على شذرات متناثرة هنا وهناك ، ودل ذلك على تدنى وضع الطبقة اجتماعياً ، وأنها لم تكن في بؤرة الاهتمام لدى المؤرخين الرسميين .

ويلاحظ أن ذلك التغافل عن القطاع الفلاحي له مدلوله الهام ، وهو أن ذلك القطاع كان محتقراً من القطاع العسكري^(١) ، ونظر بصفة مستمرة للفلاحين نظرة المنغمس في العمل اليدوي المتصل بالأرض ، وكانت الصورة دائماً تربط بين الفلاح والاستضعاف حتى أن ابن خلدون نفسه - فيما بعد - أقر ذلك صراحة في مقدمته^(٢) .

اتحدر الوضع الاجتماعي للفلاحين في بلاد الشام والجزيرة ، وتوجد عدة مظاهر دالة على ذلك ، وعلى مدى المعاناة الكبيرة التي تحملتها تلك العناصر .

= ويلاحظ ارتباط العامة في أذهان المؤرخين الرسميين بالفوضى وبعبث الاضطراب ومثال ذلك ما يذكره ابن القلايس ، إذ ذكر عدة تعبيرات تدل على ذلك مثلاً « سفهاء العوام » و « المفسدين من عوام رعيته » أي رعية نور الدين محمود ، عن ذلك أنظر :

ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٥٢ ، ص ٣٥٥ كذلك فإن ابن العديم سار في نفس الاتجاه، إذ يشير إلى « ... عوام الشيعة وغوغائهم » زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢٩١ .

١- وفي نص مهم لابن الأثير يذكر على لسان أحد قادة الجيش النوري في ظروف معركة البابين عام ٥٦٢هـ / ١١٦٧م ، « من يخاف القتل والجراح فلا يخدم الملك ، بل يكون فلاحاً أو في بيته مع النساء » .

الباهر ، ص ١٣٣ ، ابن قاضي شهاب ، الكواكب الدرية ، ص ١٧٠ .

ونجد أن ابن القلايس يشير إلى الفلاحين على أنهم امتداد للرعايا إذ يقول « ... وجمع الجمع الكثير من الأجناد والمقدمين والرعايا والفلاحين » .

عن ذلك ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠٧ .

٢- المقدمة ، ص ١٤٨ .

وقد مثل الفلاحون دعماً حريياً متجدداً للجيش النورى ، وذلك من خلال ترجيحنا لاستمرار سياسة التجنيد الإجبارى التى اتبعها الأتابك عماد الدين زنكى^(١) - استمرارها فى عهد نور الدين محمود^(٢) ، وقد أوضح ابن العديم صراحة أن ذلك كان من عوامل ضيق فلاحى حلب بحكم زنكى ومعنى ذلك أن القطاع الفلاحى فى عهد الدولة النورية مثل المورد البشرى اللازم لخوض المعارك ، وقد قتل منه الكثيرون نظراً لتعدد المعارك الحربية والصبغة العسكرية للدولة بصفة عامة .

وبالإضافة إلى ذلك ، كان للتوسع على حساب القوى الصليبية، وقيام الصليبيين بالإغارة على حدود الدولة النورية، أثره فى تدهور أوضاع الفلاحين الاجتماعى .

والملاحظ هنا ، أن الكثيرين منهم تعرضوا لعمليات الأسر والسبى يستوى فى ذلك الرجال والنساء والصبية، وقد صاروا يعاملون كرقيق لدى الصليبيين، وقد قدم لنا ابن جبير وصفا دقيقا لأولئك الأسرى من المسلمين عندما زار المناطق الخاضعة للسيطرة الصليبية^(٣) ، وقد استفاد الصليبيون منهم من خلال طاقاتهم الإنتاجية فى الأراضى الزراعية فى المناطق الصليبية، وكذلك لإقامة التحصينات والمعازل وغيرها من المنشآت العسكرية ، ولاشك فى أن عمليات الأسر تلك قد نجم عنها تشتت العديد من الأسر فى القطاع الفلاحى .

وزيادة على عمليات الأسر والسبى، تعرض ذلك القطاع إلى عمليات السلب والنهب والتخريب فى الممتلكات وفى المزارع وقد أقر ابن القلائسى صراحة تعرض العديد من المناطق التابعة لسيادة الدولة النورية للإغارات الصليبية المتكررة، مثلما حدث عام ٥٤٦هـ/

١- ابن العديم ، بغية الطلب - تراجم السلاجقة ، ص ٢٦٣ .

٢- وتجدر الإشارة إلى أن عدم ذكر المصادر إلغاء نور الدين محمود للتجنيد الإجبارى الذى سار عليه والده تقدم دليلاً على ترجيح استمراره فى عهد الأخير .

٣- ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٥٢- ص ٢٥٣ .

ويلاحظ أن المسلمين الخاضعين للسيطرة الصليبية تعاطفوا بالطبع مع أولئك الأسرى ، فإذا فر أحدهم من قبضة الصليبيين تمكنوا من توصيله إلى المناطق الإسلامية ، وفى ذلك يقول أسامة بن منقذ «وسكان ضياع عكا كلهم من المسلمين إذا وصل إليهم الأسير أخفوه وأوصلوه إلى بلاد الإسلام».

الاعتبار ، ص ١٠٦ .

١١٥١م^(١)، وكذلك فى عام ٥٥٢هـ / ١١٥٧م^(٢)، خاصة فى حمص ، وحماه ، وفى العام التالى أى ٥٥٣هـ / ١١٥٨م^(٣) فى مناطق حوران .

ومن المنطقى أن نتصور ، أنه نجم عن عمليات التخريب السابقة والإغارة ، أن هاجر الفلاحون مناطقهم - لاسيما الحدودية- إلى مناطق إلى مناطق أكثر أمناً، أو أنهم عادوا من بعد ذلك إلى مناطقهم الأصلية ، على نحو جلب لهم فى النهاية عدم الاستقرار الاجتماعى بصورة واضحة .

ومن ناحية أخرى ؛ وفى عصر لم يشهد وعى صحى كبير وعدم توافر الخدمات الطبية فى أعماق الريف بصورة كافية ، من المرجح أن الفلاحين حصلوا على قسط وافر من الأمراض التاجمة عن البعوض والقواقع فى الأراضى الزراعية على نحو أصابهم بالملايا والبهارسيا ، وينبغى أن نلاحظ ، أنه على الرغم من إقامة العديد من البيمارستانات فى المدن الكبيرة فى بلاد الشام مثل دمشق وحلب، إلا أن القطاع الفلاحى فى المناطق الريفية، على ما هو متوقع، كانت معاناته مستمرة ولم يحدث له تغير جوهري، ولا مرأ فى أن ذلك الوضع الصحى ساهم بدوره فى إضعاف مستوى الحياة الاجتماعية لدى الفلاحين .

فإذا أضفنا إلى ذلك كله ، أن القطاع الفلاحى بصفة عامة انتشرت فيه الأمية ، أدركنا بحق كيف أن الفلاحين الذين شكلوا القسم الأكبر من طبقة العامة جاءوا فى أسفل الهرم الطبقي ، وكان التوسع الخارجى النورى من عوامل تدهور أوضاعهم الاجتماعية .

ومن جهة أخرى ؛ لانغفل هنا دور الإقطاع العسكرى^(٤)، إذ أن التوسع الخارجى للدولة النورية ، وزيادة الاعتماد على العناصر العسكرية ، وما نجم عن ذلك من تقديم النظام السيسى الإقطاع لتلك العناصر ، كان معناه زيادة الضغط على عناصر الفلاحين ولا شك أنه أدى إلى إضعاف وضعهم الاجتماعى، وجاء ذلك كله ليؤدى فى النهاية إلى هبات وانتفاضات ضد النظام بأسره^(٥).

١- ابن القلاسى، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣١٧ ؛ ابن قاضى شهاب ، الكواكب الدرية، ص ١٣٨ .

٢- ابننفسه ، نفس المصدر ، ص ٣٣٨ .

٣- نفسه ، نفس المصدر، ص ٣٥١ .

٤- عن الإقطاع العسكرى فى عهد الدولة النورية أنظر الفصل الخاص بالنتائج الاقتصادية للسياسة الخارجية .

٥- الأصفهاني، البستان الجامع، ص ١٤٠ ؛ ابن قاضى شهاب ، المصدر السابق ، ص ١٩٥ .

ونجد مظهراً مهماً من مظاهر قلق أوضاع طبقة العامة من خلال انتشار ظاهرة العيارين والشطار والذين أفرزتهم تلك الطبقة ، ومن المعروف أنهم انتشروا فى بلاد الشام خلال مرحلة الحروب الصليبية، إذ أن المناخ الملائم لهم كان دائماً متمثلاً فى الحروب والصراعات ^(١)، وقد قاموا بقطع الطريق على التجار ^(٢)، من أجل نهب بضائعهم وأموالهم ، ووجدت عناصرهم فى العراق إذ تشير المصادر إليهم فى الموصل ^(٣)، وطبيعى أن كثرتهم ارتبطت بالمناطق ذات الأهمية التجارية مثل مدن الشام والجزيرة ذات النشاط الاقتصادى التجارى ، وقد وجدت جماعات من العيارين فى عهد الدولة النورية بلغت أحياناً أعداداً تراوحت بين الستين والسبعين شخصاً ^(٤)، وقد وصفتهم المصادر أحياناً بتعبير «الحرامية» ^(٥)، ولاشك فى أن انتشار ظاهرة اللصوصية فى حد ذاتها لا يخلو من مدلول اجتماعى هام، فهى فضلاً عن تعبيرها عن فكرة الصراع الطبقي- خاصة أن العيارين اتخذوا شكل المجموعات ولم تتبعثر

١- أحمد رمضان ، المجتمع الإسلامى، ص ١١٥ .

٢- أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٩٣ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج ١ / ق ١ ، ص ٣٢ .

٣- نفسه ، نفس المصدر ، ص ٩٣ .

٤- نفسه ، نفس المصدر ، ص ٩٣ ، ص ١٠٢ .

وفى هذا المجال أوردت المصادر شعراً نظمته عرقلة الشاعر فى مدح صلاح الدين الأيوبي وشحنجيته التى تولاها فى عهد نور الدين محمود ومن شعره الذى يشير فيه إلى ظاهرة اللصوصية :

رويدكم يا لصوص الشام	فإنى ناصح فى مقالى
فيا بالكم وسمى النبى يوسف	رب الحجى والكمال
فذاك مقطوع أيدي النساء	وهذا مقطوع أيدي الرجال

أنظر :

ابن قاضى شعبة، الكواكب الدرية ، ص ١٤٧ .

ولعل ذلك كله يقدم تعليلاً لحرص الدولة على فرض الأمن وترتيب الخفراء ، فى الأماكن المخوفة. أنظر :

ابن الأثير، الباهر، ص ١٧٣- ص ١٧٤ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية، ج ١٢ ، ص ٢٩١ ؛ ابن قاضى شعبة الكواكب الدرية ، ص ٣٢ .

٥- أسامة بن منقذ ، المصدر السابق ، ص ١٠٢ .

أنشطتهم في أدوار فردية- فإنها من ناحية أخرى أوضحت أن العيارين والشطار قد شكلوا قوى شعبية مسلحة قادرة على بث الرعب والاضطراب^(١) وتحدى السلطة الحكومية .

ويلاحظ أن تلك الظاهرة وجدت أمثلة لها من قبل عهد الدولة النورية، فنعرف أن خلف بن ملاعب صاحب حمص وصف من قبل بأنه « يقطع الطريق ويخيف السبل »^(٢)، ومع ذلك فإن حظ تلك العناصر من الإنصاف كان نادراً من جانب المؤرخين الرسميين ، فوصفهم بالعديد من الأوصاف الدالة على احتقارهم لانتماؤاتهم الطبقيّة المتواضعة ، دون أن يدركوا أن النظام السياسي القائم وتركيبية المجتمع نفسه ، هي التي أفرزت تلك الظاهرة، وتفاقم أمرها من جراء التوسع الخارجى .

كذلك حلت بعض النتائج السلبية على الأسرة نفسها، وعلى المرأة بصفة خاصة، إذ أنه مع الطبيعة العسكرية للنظام ، ومع التوسع الخارجى ، تزايدت أعداد القتلى من الجند ، وقد أوجد ذلك على ما يبدو - مشكلة اجتماعية هي ظاهرة الترمل، ووجدت النساء المترملات اللاتي فقدن أزواجهن في ساحات الوغى، وليس من اليسير إدراك صورة مفصلة عن تلك الظاهرة في عهد الدولة النورية نظراً لصمت المصادر، وإن عكست مؤشرات بالغة الأهمية عن انعكاسات الحرب على المجتمع الإسلامى حينذاك ولكن يبدو من إشارة بعض المؤرخين إلى أن الدولة النورية قامت بتزويجهم^(٣)، أنهم كن من الكثرة بحيث تدخلت الدولة نفسها لحل تلك المشكلة ، ومنطقي أنه لو كانت أعدادهن قليلة، لما فكرت الدولة النورية أصلاً في التدخل،

١- رجب النجار ، حكايات الشطار والعيارين ، ص١٧٤ ، مصطفى الهاللى ، «الفتوة والفروسية العربية الإسلامية، المورد ، م (٢) العدد (٢) شتاء ١٩٨٢م، ص٣٠ .

وفى نفس الاتجاه يرى زلنجر وفرانز تشتر يبدو أن إجرام العيارين كانت تحمل فكرة محبة إلى الشعب البسيط لعلها من نوع الأفكار الاشتراكية نظير محاولة القضاء على التوزيع غير العادل للثروة ولو بطرق غير مشروعة أنظر : جبيرارد زلنجر ، «الفتوة هل هي الفروسية الشرقية» ضمن كتاب دراسات إسلامية ت. مجموعة من الباحثين بإشراف نقولا زيادة ، ط. بيروت ١٩٦٠م، ص٢٣١ .

٢- ابن العديم، بغية الطلب- تراجم السلاجقة ، ص١٢٤ .

٣- سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨ / ق٢ ، ص٢٩٨ ؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج٢ ، ص٣٤٠ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج١ ، ص٥٥٦ ؛ ابن قاضى شهاب ، الكواكب الدرية ، ص٢٢٣ .

ومن المرجح احتمال أن أعداداً منهم قد انحرفت أخلاقياً ، بدليل أن الدولة نفسها سعت إلى مواجهة الموقف بمثل هذه الصورة ، ومن ناحية أخرى ، وجد الأطفال اليتامى الذين فقدوا آباءهم فى ساحات الهيجاء ، وأشارت المصادر التاريخية إلى أن الدولة حرصت على علاج أوضاعهم من خلال صرف مخصصات لهم من مال وكساء^(١) إلى غير ذلك ، ويلاحظ أن ظاهرة التيتيم جاءت مؤكدة للظاهرة السابقة ، ألا وهى الترميل ، خاصة أن الظاهرتين كانتا نتاجاً طبيعياً لظروف واحدة مرت بها الدولة النورية .

ويلاحظ أن المؤرخين الرسميين وغيرهم من الذين أوردوا تلك الإشارات المهمة عن الظاهرتين السابقتين لم يذكروها إلا لكى يوضحوا أفضال نور الدين محمود وكرمه على رعيته ، دون أن يوضحوا- بطبيعة الحال- أن ذلك كله جاء كنتيجة للتوسع الخارجى.

ولعل من أهم ما نجم عن السياسة الخارجية النورية على المستوى الاجتماعى ، تغيير خريطة التوزيعات السكانية فى بلاد الشام ، والتحول من الطبيعة البدوية إلى الاستقرار الحضري الدائم أحياناً .

وتجدر الإشارة إلى أن الدولة النورية بعد أن خرجت من نطاقها الحلبى الأول بشمال الشام ، وتوسعت أملاكها وتزايد عامل الإقطاع فى سياساتها خاصة مع تزايد الطبيعة الحربية لها ، وجد المقطع الذى اعتبر الجهة التى حوت إقطاعه بمثابة وطنه ، ويقرر نص هام لابن الأثير ، أن الجند الذين اقطعوا الإقطاعات دافعوا عنها بقوة على اعتبار أنها غدت أوطانهم^(٢) ، خاصة بعد أن غدوا يتوارثونها ، وحيث أن من أولئك الجند العناصر القبلية الكردية والتركسية والعربية ، فمنطقتى أن ذلك نجم عنه استقرارها ومن ثم ساهمت فى التوطين الحضري للمجتمع نفسه .

ومن جهة أخرى : فإن توزيع الدولة للإقطاعات على القبائل العربية القاطنة المناطق الواقعة بين الشام والحجاز ، قد جعلها- على الأرجح- تستقر فى تلك الإقطاعات ، كذلك فإن العماد الأصفهاني يقرر أن الدولة النورية عملت على نقل أعراب بنى عباد من مناطق البلقاء والأردن

١- ابن عساكر ، ترجمة محمود بن زنكى ، ص ١٣٨ : ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٧٣ : ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٣٩٠ : ابن قاضى شهاب ، الكواكب الدرية ، ص ٣٩ ، ص ٢٢٣ .

٢- الباهر ، ص ١٦٩ : ابن قاضى شهاب ، المصدر السابق ، ص ٣١ ، حسين مؤنس ، نور الدين محمود ، ص ٣٨٣ ، شاعر أبو زيد ، الحروب الصليبية ، ص ١٩١ .

إلى منطقة صرخد المقاربة لحوران^(١)، حقيقة أن الدولة هدفت من وراء ذلك إلى اتخاذ عناصر تقوم بحماية تلك المناطق من خطر الإغارات الصليبية المتواصلة- فى بعض الأحيان- على إقليم حوران ، إلا أنه فى نفس الحين أدى ذلك إلى توطين تلك العناصر البدوية فى تلك المنطقة، ولاشك أن ذلك كله تأتى من خلال التوسع الخارجى للدولة النورية وامتدادها إلى دمشق ومقاربتها للوجود الصليبي .

كذلك أحدث التوسع الخارجى للدولة النورية نتائجه الهامة بالنسبة لعنصر مهم من عناصر المجتمع ونعنى به أهل الذمة ، إذ أن تلك الدولة بعد أن اتجهت إلى السيطرة على الأقاليم المجاورة، سعت إلى اتباع سياسة قائمة على التسامح الدينى تجاه أهل الذمة ، ولا مرأ فى أن الدوافع الاقتصادية لتلك السياسة كان لها القدح المعلى، فالعناصر اليهودية مثلاً اشتغلت بالنشاط الاقتصادى لاسيما التجارى^(٢)، وشكلت مراكز ثقل مادية يعتد بها، وقد رأت الدولة النورية ضرورة الإفادة منهم لدعم اقتصادياتها ، خاصة أن البنيان الاقتصادى دعم بصورة كبيرة السياسة الخارجية التوسعية .

وهذا الوضع يفسر لنا التعايش السلمى الذى وجد بين اليهود والمسلمين ضمن النسيج الاجتماعى فى ربوع تلك الدولة، ودليلنا على إتباع تلك السياسة واستمرارها حتى آخر عهدها، أن الرحالة اليهودى بنيامين التيطيلى الذى قد زار بلاد الشام بين أعوام ٥٦٦-٥٦٩هـ / ١١٧٠-١١٧٣م قرر أن اليهود بلغوا ثلاثة آلاف فى مدينة نشطة اقتصادياً مثل دمشق^(٣)، ثم أنه ذكر اشتغالهم بالطب^(٤)، على نحو أوضح أن مجالات عملهم اتسعت ولم تكن قاصرة على الجانب التجارى، مما عكس وضعيتهم الاجتماعية .

١- سنا البرق الشامى ، تحقيق رمضان ششن ، ص ١٢٥- ص ١٢٦ .

٢- ومن الأمور ذات الدلالة أن اليهود قدموا العون للقوات النورية عند حصارها لدمشق عام ٥٤٩هـ / ١١٥٤م ، وطبيعى أنهم أدركوا أن النظام الجديد سيدعم نشاطهم التجارى بصورة أفضل من ذى قبل، أنظر : ابن القلاسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢٧ ، كذلك يقرر المؤرخ السريانى المجهول أن أحد اليهود قد عاون الجيش النورى فى إلقاء القبض على أحد قادة الصليبيين أنظر :

Anonymous Suriac chronicle, p. 301 .

٣- الرحلة ، ص ١١٦ .

وقد وصفهم بأنهم من ذوى اليسار على نحو يدل على مكانتهم الاجتماعية .

٤- نفسه ، نفس المرجع ، ص ١١٧ .

وهكذا؛ فعلى حين اتبعت الدولة النورية تلك السياسة المتسامحة مع اليهود، وجدنا العكس تماماً بالنسبة للصليبيين الذين أقاموا لليهود المذابح خلال الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية^(١)، ومنعواهم من التواجد في مدينة بيت المقدس بعد استيلائهم عليها عام ٤٩٤هـ/ ١٠٩٩ م .

ويلاحظ أن العناصر المسيحية من اليعاقبة، والنساطرة، شملتهم نفس السياسة، وطبيعي أن الدولة النورية قد احتاجت إلى دعمهم من خلال نشاطهم التجاري^(٢)، ولا أدل على اتباع سياسة متسامحة معهم من أن ابن عساكر ذكر وجود بعض الكنائس في مدينة دمشق^(٣)، مما يدل على أن الصراع الحربي مع الصليبيين لم ينعكس في صورة أية مواقف عدائية على عناصر أهل الذمة من المسيحيين في المناطق الخاضعة للدولة النورية .

وهكذا؛ فإن أوضاع أهل الذمة ومكانتهم الاجتماعية لم تلحق بها انتكاسات من جراء التوسع النوري، بل على العكس شهدت انتعاشاً واضحاً .

= ويلاحظ أن اليهود برعوا في الطب أيضا في أوروبا العصور الوسطى بعامة، عن ذلك Therese and Mendel Metzger, Jewish life in the Middle Ages, Hong Kong 1982, p. 166 .

١- عن ذلك أنظر :

The Jews and The Crusaders, The Hebrew Chronicles of The First and Second Crusades, Trans. by Shlomo Eidelberg, Madison 1977 .

Neubauer, "Le memorbuch de Mayence", REJ, IV, Année 1882, pp. 1-30 .

أيضا : patlayean, "Les Juifs, les infideles de l'Europe" L'Histoire, LXVII, Année 1982, pp. 38-39 .

Goitein, "Geniza Sources for The crusader period, ASurvey " in Outremer studies in the Hist. of The crusading kingdom of Jerusalem, Jerusalem 1982, p. 308 .

Lombard, The Golden Age of Islam, p. 212-213 .

-٢-

٣- تاريخ مدينة دمشق، ٢، ص ١٣٧، ص ١٣٨ .

وبلاحظ أن الآثار والنتائج الاجتماعية للتوسع النورى لم تكن قاصرة على الجانب الإسلامى فقط، بل إنها شملت أيضا المجتمع الصليبي ، وتجدر الإشارة إلى أن ذلك المجتمع انقسم إلى ثلاث طبقات رئيسية ، الأولى ، طبقة الأشراف والنبلاء والفرسان ورجال الدين الصليبيين، ثم الثانية ، طبقة الوسطى التجارية^(١)، وأخيراً طبقة الرقيق أو الأكارون^(٢).

وقد وجدت عدة قنوات انتقلت خلالها التأثيرات الاجتماعية من الجانب الإسلامى إلى الجانب الصليبي، فحرية التبادل التجارى التى حرصت عليها الدولة النورية جعلت التجار المسلمين يدخلون إلى مناطق الصليبيين وانعكس نفس الأمر بالنسبة للتجار الصليبيين، ومع التبادل التجارى كان الاتصال الاجتماعى بين الجانبين .

ومن جهة أخرى، أدت المعاهدات والهدنات التى وقعتها الدولة النورية مع الكيان الصليبي إلى توافر فترات سلمية- فى بعض الأحيان- كانت مناسبة للاتصال بين المسلمين والصليبيين.

وبالإضافة إلى ذلك؛ فإن البعض يرى أن من عوامل تواجد مثل تلك الاتصالات الاجتماعية بين المسلمين والصليبيين حينذاك، أن الصليبيين لم يسيطروا إلا على شريط ساحلى ضيق نسبياً ، لم يزد فى المعتاد عن خمسين ميلاً فى عرضه وامتد من الشمال إلى الجنوب^(٣) ، بينما تمكن المسلمون من الاحتفاظ بالعديد من المدن الهامة مثل دمشق، وحلب، وحماه، وحمص، وشيزر ، وأن كافة مراكز الصليبيين لم تكن تبعد أكثر من مسافة يوم واحد عن مراكز المسلمين، ومعنى ذلك أن تجاور المناطق الخاضعة لسيطرة كل طرف، أوجدت مجالات رغبة لقيام اتصالات اجتماعية بين الطرفين^(٤).

١- William of Tyre , vol. II, p. 356 , Rey, Les Colonies Franques de Syrie auxXII me t - XIII siecle, Paris 1883, p. 43 , Prawer, The Latin kingdom, p. 145-146 .

٢- حبشى ، نور الدين والصليبيون ، ص١٤٨ .
أنظر أيضاً :

Anonymous Syriac chronicle, p. 300-301 .

٣- عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس ، ص١١٨ ، نبيلة مقامى، فرق الرهبان الفرسان، ص٧٣ ، شكرى مقبل، الأحوال السياسية والحضارية فى فلسطين فى عصر دولة المماليك البحرية، رسالة ما جستير غير منشورة كلية الآداب- جامعة الرياض ، لعام ١٤٠٢ هـ، ص٤ .

٤- عمر كمال توفيق، المرجع السابق، ص١١٨ .

والواقع أنه لم يكن من الممكن تجنب تلك الاتصالات بين المسلمين والصليبيين، إذ أن الطرفين كانوا يختلطون بشكل دائم، ويمكن إدراك مثال واضح على ذلك في الاتفاقيات المعقودة بشأن الصيد مثلاً.

وتثار هنا قضية مهمة، وهى تتصل بالطرف الذى كان تأثيره أكبر من الناحية الاجتماعية، حقيقة أن ابن خلدون ذكر أن المغلوب مولع بتقليد الغالب^(١)، إلا أننا ينبغي ألا نأخذ ذلك القول على عواهنه، إذ أن ذلك يحدث عندما يكون الغالب أصلاً متفوقاً حضارياً، وبالتالي يشغف المغلوب بتقليده، والتأثر به، على نحو يفتح الأبواب على مصارعها من أجل تلقى التأثيرات خاصة على الصعيد الاجتماعى.

وبالنسبة لبلاد الشام؛ نجد أن المجتمع الإسلامى بها كان متفوقاً حضارياً بصورة واضحة إذا ما قورن بالمجتمع الأوروبى حينذاك، وهو المجتمع الذى صدر الحركة الصليبية، قد يقول قائل إن المسلمين قد هزموا فى أخريات القرن الخامس هـ/ الحادى عشر م، ودليل ذلك نجاح الصليبيين فى إقامة إمارات لهم هناك وفى بلاد الجزيرة أيضاً، ومع ذلك ينبغي ألا نغفل ناحية مؤثرة وهى أن هزيمة المسلمين حينذاك كانت فى حقيقتها هزيمة أنظمة حكم عسكرية متناحرة، وصراعات بين قوى سياسية متنافسة، وهذا الوضع هو الذى هباً للصليبيين الظفر، أما على مستوى السكان أنفسهم، فإن المنطقة كانت على جانب كبير من التفوق - النسبى - إذا ما قورنت بأوروبا العصور الوسطى، وقد تصور الصليبيون من قبل أن يصلوا إلى بلاد الشام أن المسلمين على جانب كبير من التفوق - النسبى - إذا ما قورنت بأوروبا العصور الوسطى، وقد تصور الصليبيون من قبل أن يصلوا إلى بلاد الشام أن المسلمين على جانب كبير من التخلف، ولكن صدمتهم المفاجأة، وهى أنهم وجدوهم يفوقونهم مستوى، وقد اتضح ذلك بجلاء من خلال المواجهة الحضارية بين الجانبين، وتكشف لنا اتصالات أسامة بن منقذ المتعمقة مع الصليبيين عن مقدار تواضع مستواهم العلاجى لعدد من الحالات المرضية^(٢).

١- المقدمة، ص ١١١.

٢- الاعتبار، ص ١٧٠، ص ١٧١-١٧٦؛ محمد مؤنس عوض، أضياء على الطب فى المناطق الصليبية فى المرحلة من (١٠٩٨-١١٧٤ م/ ٤٩١-٥٧٠ هـ) دراسات شرق أوسطية، مركز بحوث الشرق الأوسط، جامعة عين شمس، ١٩٩٥ م، ص ٢٥؛ محمد كامل حسين، «الطب والأقربازين» ضمن كتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوروبية، ط. القاهرة ١٩٧٠ م، ص ٢٨٥، إسماعيل سرور، «الطب العربى فى نظر العلماء والمؤرخين» مجلة تاريخ العرب والعالم، السنة (٥) العددان (٥٩-٦٠) أكتوبر ١٩٨٣ م، ص ٣٢.

وحيث أن الموقف كان يمثل هذا الصورة، وجدنا أن المقولة الخلدونية لا تنطبق على وضع المسلمين والصليبيين في بلاد الشام ، والمحقق أن الصليبيين أنفسهم شغفوا بالعديد من العادات والتقاليد الاجتماعية لدى المسلمين ومن هنا رأى روبرت لوييز «أن الغالبية أغرموا بأسلوب الحياة عند المغلوبين ونقلوا هذا الميل إلى أبناء وطنهم»^(١)، وهكذا فإن الاتصال بين الجانبين ساهم بدوره في تطور المجتمع الأوربي الوسيط نفسه .

وقد تركت سياسة التوسع النوري آثارها على طبقات المجتمع الصليبي، ومن الواضح تشابه آثار ذلك التوسع الاجتماعية لدى كل من الدولة النورية والكيان الصليبي، ويرجع السبب في ذلك إلى أن كلا منهما تشابه في تكوينه ؛ إذ أن الدولة النورية طبعت بطابع الحرب في السياسة الخارجية، والتجارة في النشاط الاقتصادي ، وكذلك كان الوضع بالنسبة للمملكة اللاتينية .

وقد تمتع النبلاء ولافرسان بمكانة اجتماعية مرموقة من خلال دورهم في الدفاع عن حدود المملكة واعتمد تميزهم الطبقي- تمامًا مثلما الأمر لدى القطاع العسكري في الدولة النورية- على الإقطاعات التي وزعتها عليهم المملكة، وحيث أن عهد الأخيرة قد شهد- خلال معاصرتها لعهد نور الدين محمود في بلاد الشام- ظهور عدة أسرات إقطاعية^(٢)، فلاشك في أن ذلك قد زاد من تفوق الوضع الطبقي لعناصر الفرسان داخل المجتمع الصليبي من خلال ظروف الصراع الحربي مع الدولة النورية .

ومن المرجح أيضاً أن الطبقة الوسطى التجارية زادت مكانتها الاجتماعية الأخرى من خلال مكاسبها الطائلة من عوائد المتاجرة مع الدولة النورية وكذلك أسواق عالم البحر المتوسط

ومن جهة أخرى، وجد مظهر للانحلال الخلقي في المجتمع الصليبي- وهو مجتمع يعيش ظاهرة الحرب بصفة شبه مستمرة - ومن المرجح أن كثرة المعارك الحربية مع الدولة النورية قد أدت إلى سقوط العديد من القتلى من الجند على نحو أوجد- أيضاً لدى الجانب الصليبي- مشكلة الترميل ، وقد أقر المؤرخون الصليبيون أنفسهم يتواجد ظاهرة العاهرات في مجتمعهم

١- التأثيرات الشرقية والنهضة الاقتصادية في الغرب ، ص ١٧٣ .

٢- العرينى، نمو طبقة النبلاء الإقطاعيين بمملكة بيت المقدس في القرن الثاني عشر الميلادى، ص ٤٦ .

أيضاً :

التي اشتهرت بهم مدينة كبيرة مثل عكا^(١)، ووجد من أولئك المؤرخين من عد ذلك من دلائل انهيار المجتمع الصليبي بأسره ، ومع ذلك فينبغى أن نلاحظ أن كثرة العاهرات فى المجتمع الصليبي لم تكن ترجع فقط إلى نتائج الحرب مع الدولة النورية، بل أنها وجدت أيضا من خلال وفود العدد الوفير من على ظهور المراكب من الغرب الأوربي لاستخدامهم فى الترويح عن الصليبيين ، وقد أشارت المصادر العربية إلى ذلك بصورة واضحة^(٢).

وقد وجدت أشكال عديدة للتداخل الاجتماعى بين المسلمين والصليبيين فى عهد الدولة النورية، وجاء ذلك كنتاج طبيعى لسياستها الخارجية .

ونجد الاتصال الاجتماعى بين الطرفين فى صورة رحلات الصيد إذ أن المسلمين والصليبيين شغلوا به ووجدت صعوبات لحقت بممارسة تلك الهواية إذ خشى الصيادون من الوقوع فى أسر الأعداء على نحو قد يحتاج إلى دفع فدية كبيرة^(٣)، وعلى ذلك تم الاتفاق على تنظيم عمليات الصيد، وأحيانا كان الجانبان يجتمعان من أجل المشاركة معاً فى ذلك^(٤)، وكان الصيد يتم عن طريق استعمال البزاة والصقور والكلاب^(٥) السلوقية وغيرها .

Jacques de Vitry, Hist. of Jerusalem, Trans. by Stewart, p.p. T, S., Vol. XI, London - ١٨٩٦, p. 64 .

Brundage , Prostitution, Miscegenation and Sexual Purity in the First Crusade, : وأيضاً
in Crusade and Settlement , ed . by P.W. Edbury, Cardiff 1985, pp. 57-65 .

براور ، عالم الصليبيين، ص١٥٣ ، زكى نقاش ، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنجة خلال الحروب الصليبية ط. بيروت ١٩٥٨م، ص١٥٣ .

ولانغفل قرب عكا من مواقع الصراع الحربى بين الدولة النورية ومملكة بيت المقدس. وعلى ذلك ينبغى ألا نقبل ما ذكره ستيفنسن عندما قال «إننى لا أجد أى دليل على الإنحطاط الخلقي بين الأفرنج الذين استوطنوا سوريا فى أواخر القرن الثانى عشر والثالث عشر ، ستيفنسن ، الحروب الصليبية ، ص١٠٩ .

٢- العماد الأصفهاني ، الفتح القسى فى الفتح القدسى ، ط. القاهرة ١٩٦٩م، ص٣٤٧ .

٣- عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس ، ص١٢٥ .

٤- زكى نقاش ، العلاقات الاجتماعية ، ص١٤٩ .

٥- أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص٢٨٧ ، أيضاً ، مصطفى الشكعة ، «من آداب الصيد عند العرب» حوليات كلية الآداب- جامعة عين شمس ، م(٦) لعام ١٩٦١م، ص١ ، محمد الشيخ ، الإمارات العربية فى بلاد الشام ، ص٤٢٢ ، أحمد عبد الرازق، «وسائل التسلية عند المسلمين»، ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط، م (٣) ، لعام ١٩٨٥م، ص٩٠ .

كذلك نجد التداخل بين الجانبين واضحاً على المستوى الاجتماعى ، حيث أن الصليبيين أخذوا عن المسلمين عاداتهم فى الاحتفال بالأعياد ، وقد استعانوا بجوقات الطرب وما صاحبها من آلات موسيقية ، مثل الأرغن ، والمزمار ، والعود ، والقيثارة ، والربابة إلى غير ذلك ، واستعانوا بالمغنيات فى أفراحهم كما أحضروا الندابات فى أتراحهم ^(١).

ومن جهة أخرى انتقلت عادات المسلمين فى الطعام إلى الصليبيين ، وقد تذوق الآخرون طعامهم ^(٢) ، فوقع فى نفوسهم موقعاً حسناً فأقبلوا عليه ^(٣) ، بل إن أسامة بن مقذ نفسه قدم مثالا حياً على مدى تأثير بعض الصليبيين بأذواق المسلمين فى الطعام ، عندما ذكر أن أحدهم صار لا يأكل لحم الخنزير ^(٤).

وقد تأثر الصليبيون كذلك بعادات المسلمين فى ملابسهم ^(٥) فتشبهوا بهم ، وترك بعضهم الثياب الأوربية وتعلقوا بالثياب الشرقية ، نظراً لتوافر عنصر الراحة من خلال إرتدائها وأقبل الصليبيون على الأقمشة الشرقية ^(٦) ، المصنوعة فى دمشق مثل الدمسك وفى الموصل كالموصلين ، وكذلك الثياب المصنوعة من الحرير ، والشفته ، والقصب ، والقطن ، والصوف ^(٧).

١- زكى نقاش ، العلاقات الاجتماعية ، ص ١٤٨ ، جمعة الجندى ، حياة الفرنج ، ص ٢٧٦ .

٢- عن الأطعمة الشامية حينذاك أنظر :

ابن العديم ، الوصلة إلى الحبيب فى وصف الطبيات والطيب ، معهد التراث العلمى العربى التابع لجامعة حلب ، حيث قدم وصفاً مفصلاً لكافة أنواع المأكولات .

٣- جمعة الجندى ، المرجع السابق ، ص ٢٧٦ .

٤- الاعتبار ، ص ١٨٠ ، زكى نقاش ، المرجع السابق ، ص ١٤٨ ، زكى نقاش ، المرجع السابق ، ص ١٤٨ ، عبد الحفيظ محمد على ، الحياة السياسية والاجتماعية عند الصليبيين بالشرق الأدنى فى القرنين ١٢ ، ١٣ م ، رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآداب - جامعة القاهرة لعام ١٩٧٥ م ، ص ١٩٠ - ١٩١ .

٥- Fulcher de Chartres , in peters, The first crusade, pennsylvania 1971 , p. 220 .

٦- عمر كمال توفيق ، مملكة بيت المقدس ، ص ١٣٠ ، ستيفنسن ، الحروب الصليبية ، ص ١٨٧ ، لامونت ، الحروب الصليبية والجهاد ، ص ١٠٧ .

٧- براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٤٧ .

كذلك تأثرت بعض العناصر الصليبية بسلوك المسلمين الاجتماعى، حتى أن منهم من فرض على نسائه أن يرتدين الحمار على وجوههن، ومنعهن من الخروج إلى الأسواق سافرات، ولم يكن يسمح لهن بالخروج إلا فى الأمور البالغة الضرورة، مثل الذهاب إلى الكنائس أو الحمامات، ونجد تلك التصرفات واضحة لدى عناصر البولان؛ وهم الأفراخ الذين ولدوا فى المناطق الخاضعة للسيطرة الصليبية، وقد وصفهم المؤرخ جاك دى فترى بأنهم غيورون على زواجهم ويراقبونهم على نحو صارم وأنهم نادراً ما يسمحون لزواجهم بالذهاب إلى الكنيسة مرة كل عام، وإن وجد من الأزواج - من بينهم - من وافق على خروج زوجته إلى الحمام ثلاث مرات فى الأسبوع ولكن من خلال مراقبة شديدة^(١).

وتأثر الصليبيون بالمسلمين فى عاداتهم الخاصة بالاستحمام، وعلى حين كان برناردى كبير فوه عندما أسس هيئة الداوية فى مجمع تروى عام ٥٢٢هـ / ١١٢٨ م تفاخر بأنهم لا يستحمون البتة، وبعد ذلك بنصف قرن، أشار جاك دى فترى إلى أن ذلك قد تغير، وأن الاستحمام صار عادة لدى سيدات الطبقة الراقية، بل أن الجنوة كانوا يقومون بالاستحمام فى الحمام العام المسمى بالبالنيوم Balneum فى مدينة عكا^(٢).

ويلاحظ أن الحمامات كانت مجالاً رجباً للاحتكاك الاجتماعى بين الطرفين، وانتقال العادات والتقاليد إلى نحو ذلك^(٣).

ومن ناحية أخرى، نجد مجالا للاتصال الاجتماعى بين الطرفين من خلال احتياج الصليبيين إلى الأطباء المسلمين^(٤)، عندما اشتد المرض على بعضهم، ولاشك فى أنهم قدروا كفاءة

١- Jacque de Vitry, Hist. of Jerusalem, p. 65.

وأيضا : عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس، ص ١٣٠.

٢- براور، عالم الصليبيين، ص ١٤٨.

٣- ليلى طرشوى، إقليم الجليل، ص ١٧٦.

٤- عن الأوضاع الطبية لدى الصليبيين أنظر :

John of Wurzburg, p. 44, Theodorich, p. 22, Fetellus, 49, Ann Woodings, "The medical resources and practice of The Crusader States in Syria and Palestine (1096-1193)", "Medical History, vol. XV, no 3, London 1971, pp. 268-277.

الأطباء المسلمين ، ونجد أن الملك عمورى عندما مرض ابنه بلديون الأبرص وعجز الأطباء الصليبيون عن معالجته أرسل فى استقدام الأطباء الدماشقة المهرة^(١) ، كذلك قدم أسامة بن منقذ إشارات خاصة بدور الأطباء المسلمين فى علاج الصليبيين^(٢).

ومن مظاهر التداخل بين الجانبين ، تواجد جوازات المرور والإقامة استعملها المسافرون عندما انتقلوا بين المناطق التابعة لكل طرف^(٣) ، ويرى فى ذلك ، أن نور الدين محمود طلب من الملك بلديون الثالث أن يرسل إليه أحد تلك الجوازات حتى يتمكن أسامة بن منقذ وعائلته من المرور من مصر إلى بلاد الشام براً وبحراً ؛ وغير أن الملك الصليبي نكث وعده ، وتسبب ذلك فى إغراق سفينتهم من أجل الإفادة من أحد القوانين البحرية التى أعطت لذلك الملك الحق فى الاستيلاء على ما تحمله المراكب فى حالة غرقها عند السواحل الصليبية^(٤).

ويرى البعض ، أنه بصفة عامة فإن جوازات المرور والأقامة كان يتم احترامها باستثناء الحادثة السابقة ، وكثيراً ما كان المسلمون يحترمونها أكثر من الصليبيين^(٥).

= مؤنس أحمد عوض، الرحالة الأوربيون فى مملكة بيت المقدس الصليبية، ط. القاهرة ١٩٩٢م ، ص ١٣١ .

١- عمر كمال توفيق ، مملكة بيت المقدس ، ص ١٢٨ .

٢- أسامة بن منقذ ، الاعتبار، ص ١٧٠ ، ص ١٧١ ، ص ١٧٦ .

٣- نفسه ، نفس المصدر، ص ٤٣- ٤٤ ، عمر كمال توفيق ، المرجع السابق، ص ١٢٦ .

٤- نفسه ، نفس المرجع والصفحة .

٥- ومن أمثلة ذلك نقض الأمان الذى أعطاه تانكرد لفارس كردى يدعى حسون، عن ذلك أنظر : أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٨٥- ٨٦ ، وحادثة أخرى لدى ابن الأثير، الباهر، ص ١٥٤ . وعن جوازات المرور أنظر :

ميخائيل عواد ، «أجوزة السفر فى العصور الوسطى»، مجلة الكتاب، السنة (١) ، م (٢) ، ج (٧) ، ط. القاهرة ، ١٩٤٦م ، ص ٤٠ - ص ٥٠ ، «لمحات من أثر الشرق فى الغرب» مجلة المجمع العلمى العراقى، م (٢٥) ، ج (٢) ، أبريل ١٩٨٤م ، ص ٢٤٧ ، أحمد الشامى، العلاقات التجارية بين دول الخليج وبلدان الشرق الأقصى» ، مجلة المورخ العربى، العدد (١٢) ، لعام ١٩٨٠م ، ص ١٢١ .

ومن ناحية أخرى : كان التداخل الاجتماعي بين المسلمين والصليبيين خلال عهد الدولة النورية، له أثره الهام في معرفة مفاهيم كل جانب بشأن الفروسية، ولاشك في أن الفروسية كانت تلقى تقديرًا بالغًا لدى كل منهما، وقد أقر أسامة بن منقذ نفسه، بأن الفضيلة الوحيدة للصليبيين هي تقديرهم للفروسية والفرسان^(١)، وأن فرسانهم كانوا المقدمين بينهم ، ومن الأمور ذات الدلالة أن وليم الصوري أظهر تقديره لنور الدين محمود، وامتدحه بصورة واضحة^(٢)، ولا ريب في أن ذلك المؤرخ قدر تلك القيادة المسلمة من حيث ارتباطها بالأخلاق الفروسية .

وأحياناً وجد تداخل بين فرسان كل طرف ، وخير دليل على مصداقية ذلك ، أسامة بن منقذ الذي تصادق مع فرسان الداوية ، وقد سمحوا له بأن يصلى في المسجد الأقصى^(٣).

وهناك من يقرر أن الحروب الصليبية كانت مجالاً مؤثراً لانتقال المفاهيم الفروسية الإسلامية إلى الجانب الصليبي^(٤)، ونجد أن الفرسان الصليبيين من قبل مقدمهم إلى بلاد الشام اتصفوا بقسوة الطباع وجفافها، وخير مثال لذلك شخصية السيد القمبيطور El- Cambeador في الأندلس والذي يكثر في سيرته «حوادث النهب والسرقة والغدر ونقض العهد»^(٥)، ولاشك أن الصليبيين من خلال تداخلهم اجتماعياً مع المسلمين أدركوا أن الفروسية الإسلامية امتازت بأخلاقيات رفيعة.

١- يقول أسامة «والأفرنج - خذلهم الله- ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ولا عندهم تقدم ولا منزلة عالية إلا للفرسان، ولا عندهم ناس إلا الفرسان ، فهم أصحاب الرأي وهم أصحاب القضاء والحكم» الاعتبار، ص ٨٣- ص ٨٤ أيضاً ، قاسم عبده قاسم، صورة المقاتل الصليبي في المصادر العربية ، المجلة التاريخية المصرية، م (٢٧) لعام ١٩٨١م ، ص ١٦ .

William of Tyre, vol . II, p. 146 , 394 .

٢-

٣- أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ١٧٣ .

٤- عمر الدسوقي ، الفتوة عند العرب، أو أحاديث الفروسية والمثل العليا، ط. القاهرة ١٩٥٩م، ص ٢٦٧، واصف غالى ، تقاليد الفروسية عند العرب، ت. أنور لوقا ، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص ٦٠ .

٥- عاشور ، المدنية الإسلامية ، ص ٢٠٩ ، وعن الفوارق بين الفروسية العربية والصليبية، أنظر : محمد عمارة، الفروسية العربية تواجه الفرسان الصليبيين، ضمن كتاب العرب والتحدى، سلسلة عالم المعرفة، ط. الكويت ١٩٨٠م، ص ١٤٩ .

أما تأثير المسلمين بالصليبيين فلاشك أنه كان محدوداً ، بحكم تفوقهم الحضارى على الغزاه ، ومن هنا فقد ندر أن نجد إشارات فى المصادر التاريخية المعاصرة تدل على وجود مثل تلك التأثيرات الصليبية فيهم .

ومع ذلك فإن تداخل المسلمين مع الصليبيين جعلهم يدركون بعض المعرفة عن معتقداتهم الدينية وأشار أسامة بن منقذ إلى اعتقادهم فى أن المسيح ابن الله وأورد حادثة حوت ذات الفكرة (١) .

كذلك فإن من المسلمين من تحول عن عقيدته واتجه إلى اعتناق المسيحية ، وقد وجدت عناصر من المرتزقة والعبيد والأسرى تركت الإسلام ، واتجهت نحو المسيحية ، وقدم ابن جبير حادثة أقادت بتحول رجل مغربى مسلم عن دينه وذكر أنه خالط الصليبيين وتداخل معهم إلى حد كبير (٢) ، ولاشك أن مثل تلك الحوادث تدل على أن من دوافع تغيير العقيدة : الرغبة فى الحصول على مكاسب اقتصادية ووضعية اجتماعية أفضل لدى أشخاص ضعاف الإيمان أصلاً .

وهكذا : فإن السياسة الخارجية النورية التى قامت على التوسع الخارجى ، أحدثت آثارها الاجتماعية على المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام ، وكذلك على الصليبيين أنفسهم .

ذلك عرض للنتائج الاجتماعية للسياسة الخارجية للدولة النورية ، أما النتائج الثقافية فيتصدى لها بالبحث الفصل التالى .

١- أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ١٧٣ .

٢- الرحلة ، ص ٢٨٥ .

ويذكر أسامة بن منقذ واقعة رجل من الصليبيين اتجه إلى الإسلام ثم ارتد بعد ذلك إلى المسيحية عنه أنظر: أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ١٦٧-١٦٨ .

وعن التنصير فى عصر الحروب الصليبية أنظر هذه الدراسة الممتازة :

Kedar, Crusade and Mission , European Approaches Toward Muslims, Princeton 1988 .

الفصل العاشر

النتائج الثقافية

لم تقتصر النتائج التى نجمت عن السياسة الخارجية النورية على ميادين السياسة، والاقتصاد، والاجتماع فحسب، بل أنها تعدتها لتشمل الجوانب الثقافية أيضاً ، وقد أدت سياسة التوسع النورى إلى إلحاق آثارها الهامة على الصعيد الثقافى وعلى نحو لم يكن من الممكن أن يتأتى بدون سياسة خارجية نشيطة تترك بصماتها على الأقاليم المجاورة.

وتجدر الإشارة : إلى أن النتائج الثقافية فى حد ذاتها تثبت عمق الفعاليات التى واكبت السياسة الخارجية للدولة النورية إذ أن تلك النتائج التى نجمت عنها لم تكن قاصرة فقط على الأصعدة والمستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية فحسب بل تعدتها إلى الناحية الثقافية والمذهبية :

ومن الملاحظ : أن الدولة النورية قد اتبعت سياسة مؤيدة للمذاهب السنية فى مواجهة الأفكار الشيعية الاسماعيلية وحرصت على دعم التوجه السنى بصورة واضحة سواء فى داخل حدودها الأولى أو فيما بعد عندما اتسعت رقعة الدولة اتساعا كبيرا، وهى فى هذا المجال تعد وريثة الدولة السلجوقية وتوجهاتها المذهبية، وفيما يتعلق بسيادة المذاهب السنية نذكر فى هذا المجال دور حجة الإسلام الغزالى^(١)، إذ أنه بعد وفاته بنحو خمسة وثلاثين عاما قامت الدولة النورية، ومن ثم تبنت أفكاره خاصة أنها نفسها تأثرت كثيرا بالدولة السلجوقية من حيث النظم وأساليب الإدارة .

١- عن دور الغزالى فى ذلك أنظر :

كتايبه المنفذ من الضلال ، تهافت الفلاسفة،

أيضا دراستين هامتين عن دوره :

عبد الهادى بوطالب ، « أبوحامد الغزالى وإشكالية العلاقة بين الحكمة والشرعية » ضمن كتاب حلقة وصل بين الشرق والغرب أبو حامد الغزالى وموسى بن ميمون ، أكاديمية المملكة المغربية ، السفر (١٢) من مطبوعات الأكاديمية، ط. ١٩٨٢م، ص ٢٩٩ : ص ٣٤٤ ، صبحى الصالح ، « إشكالية العلاقة بين الحكمة والشرعية عند الغزالى » ، بنفس الكتاب، ص ٣٤٩ - ص ٣٦٥ .

وبلاحظ أن من أهم نتائج السياسة الخارجية النورية على الصعيد الثقافى ، تشييد تلك المدارس حيث شهدت البقاع التى توسعت فيها الدولة النورية إقامة العديد منها ، ومن أمثلة ذلك دمشق التى أقيمت بها العديد من المنشآت التعليمية بعد خضوعها للسيطرة النورية عام ٥٤٩هـ / ١١٥٤م ، ويمكن ملاحظة ذلك من تتبع تواريخ إقامة العديد منها فى المدينة المذكورة ، وينطبق القول أيضا على دور الحديث والبيمارستان فهناك البيمارستان النورى أقيم عام ٥٤٩هـ / ١١٨٤م^(١) والمدرسة العمادية عام ٥٤٩هـ / ١١٨٤م^(٢) ومدرسة الكلاسة عام ٥٥٤هـ / ١١٥٩م^(٣) والمدرسة النورية الكبرى عام ٥٦٨هـ / ١١٦٨م^(٤) ودار الحديث النورية فى عام ٥٦٦هـ / ١١٧١م^(٥) والمدرسة العادلية الكبرى عام ٥٦٨هـ / ١١٧٣م^(٦) .

ومعنى ذلك أنه عقب خضوع تلك المدينة للسيادة النورية كانت نتيجة ذلك إقامة العديد من المدارس بها ، وتاريخ عام ٥٤٩هـ / ١١٥٤م لا يخلو من دلالة مهمة هى أنه فى نفس العام الذى خضعت فيه المدينة المذكورة لسيطرة حلب بادرت الدولة إلى إقامة تلك المنشآت .

١- ابن الأثير، الباهر ، ص ١٧٠ ؛ أبو شامة ، الروضتين، ج١ / ق ١ ، ص ٢١ ؛ خواندمير ، حبيب السير، جلد دوم، ص ٥٥٢ .

٢- النعمى، الدارس فى تاريخ المدارس ، ج١ ، ص ١٨٣ .

Elisseeff, Les Monuments, p. 21 .

٣- ابن شاکر الکتبى، عیون التواریخ ، ج٢١ ، ص ١٩ .

٤- النعمى، المصدر السابق، ج١ ، ص ٦٢٠-٦٢٢ .

أیضا : Sauvair, "Description de Damas", JA, Année 1894, pp. 288-291 .

٥- ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٧٢ ، ابن خلکان ، وفيات الأعیان ، ج٤ ، ص ٢٧٢ ؛ الصفدى ، تحفة ذوی الألباب، ص ١٤٧ ؛ العدوی، کتاب الزیارات ، ص ٤٠ ؛ ابن طولون ، قرة العیون فى أخبار باب حیرون، ص ١٧ ؛ أسعد طلس ، دار الحديث النورية ، المقتطف م (١٠٤) ، العدد (٢) لعام ١٩٤٤م، ص ١٣٢-١٣٨ ، محمد على مدرس ، ریحانه الأدب ، ص ١١٣ .

Sauvaget, Les Monuments Historique de Damas, Beyrouth 1932, p. 58 , Sourdel et Sauvaget, Les monuments Ayyubides de Damas, Paris, 1950 , pp. 15-25 .

٦- النعمى، المصدر السابق، ص ٣٦٣-٣٦٧ .

وينطبق نفس الموقف على دور صلاح الدين الأيوبي - رجل السياسة الخارجية النورية فى مصر- إذ أنه سعى إلى إنشاء العديد من المدارس السنية فيها ، ومنها ما تم تشييده حتى من قبل إسقاط الخلافة الفاطمية نفسها فى عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م .

وخير مثال دال على ذلك : المدرسة الناصرية ؛ وهى أول مدرسة انشئت للسنة خلال عهد الفواطم فى مصر وتم تشييدها عام ٥٦٦هـ / ١١٧٠م^(١) وكان يومئذ وزيراً للخليفة العاضد ، ثم عمل على تشييد غيرها من المدارس مثل المدرسة القمحية ، وقد أقيمت فى نفس العام المذكور أى ٥٦٦هـ / ١١٧٠م^(٢) وبعدها أقيمت الصلاحية عام ٥٧٢هـ / ١١٧٦م^(٣) والسيوفية عام ٥٧٢هـ / ١١٧٦م^(٤).

وهكذا فإن الدولة النورية ، - ممثلة فى صلاح الدين الأيوبي - حرصت على أن تقيم تلك المدارس السنية فى مصر حتى من قبل أن تسقط خلافة الفواطم بصورة رسمية ودل ذلك على حرصها على محاربة الدعوة الاسماعيلية فى عقر دارها .

ومن جهة أخرى ؛ وحيث أن النشاط العلمى حينذاك لم يكن قاصراً على المدارس فقط ، بل امتد إلى الجوامع والمساجد ، نجد أن من نتائج السياسة التوسعية النورية ، أنه عقب السيطرة على المدن الكبرى فى الأقاليم المجاورة مثل دمشق والموصل ، ثم إقامة العديد منها ، وقد بلغت فى المدينة الأولى فى عهد نور الدين نحو مائة جامع^(٥) وفق ما ذكره العماد الأصفهاني نفسه ، ومن أمثلة ما بنى فيها مسجد الرماحين ، ومسجد دار البطيخ ، وجامع الصالحيين^(٦) ،

١- ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٢٨٥ ، عفاف صبره ، «بهاء الدين قراقوش ، الوزير المفترى عليه» ، الدارة ، العدد (٢) ، السنة (١٣) ، أغسطس ١٩٨٧م ، ص ١٤٥ .

٢- ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٨٥ ؛ المقرئى ، الخطوط ، ص ١٩٣ ؛ اتعاط الحنفا ، ج ٣ ، ص ٣١٩ ، عبد الغنى عبد العاطى ، التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، ط. القاهرة ١٩٨٤م ، ص ٦٨ .

٣- أحمد بدوى ، الحياة العقلية ، ص ٤٢ .

٤- عبد الغنى عبد العاطى ، المرجع السابق ، ص ٧٢ ، أحمد بدوى ، المرجع السابق ، ص ٤٥ .

٥- أبو شامة ، الروضتين ، ج ١ / ق ١ ، ص ٢٦ .

٦- أبو شامة ، المصدر السابق ، ص ٤١ .

وطبيعى أن كافة تلك المؤسسات لم تقم إلا بعد عام ٥٤٩هـ / ١١٥٤م ، وفى الموصل نجد أنه تم إنشاء جامعها فى عام ٥٦٦هـ / ١١٧٠م^(١) بعد خضوعها للسيطرة النورية .

ومن الملاحظ أن كافة تلك العماثر الدينية كان لها دورها الهام فى إثارة الشعور الدينى وإيجاد صحة دينية ساعدت بدورها فى تدعيم المواجهة الأيديولوجية مع الصليبيين وقد أمكنها القيام بإعداد جبهة واحدة متماسكة عقائديا ؛ على نحو أدى فى النهاية إلى تدعيم فكرة الجهاد الإسلامى فى ذلك العصر .

ولا نزاع فى أن الدولة النورية قد نجحت فى تحقيق تلك الأهداف بصورة كبيرة ودل ذلك على إدراكها لأهمية العوامل العقائدية والفكرية فى إيجاد كيان داخلى متماسك فى مواجهة الغزو الصليبي .

ومن ناحية أخرى، اتجهت القيادة العسكرية القائمة إلى استقدام العلماء من أنحاء المشرق الإسلامى للتدريس فى تلك المنشآت ، وحيث أنها أتفقت بسخاء على تلك المؤسسات فلاريب فى أن ثراها قد شجع الكثيرين منهم على ترك أوطانهم والقدوم إلى بلاد الشام والجزيرة من أجل تدريس العلوم الدينية المدعومة بالدعم الرسمى غير المحدود . وتفيض المصادر التاريخية الرسمية وغيرها بالإشارة إلى العديد من أولئك الفقهاء^(٢).

١- ابن الأثير، الكامل، ج١، ص ١٦٤ ، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٦٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية، ج١٢ ، ص ٢٦٣ ، وابن قاضى شعبة، الكواكب الدرية، ص ١٩١ ، النويري، نهاية الأرب، ج٢٧ ، ص ١٦٣ ، خواندمير، حبيب السير، جلد دوم ، ص ٥٢٢ .

٢- من أمثلتهم :

برهان الدين البلخي (ت ٥٤٧هـ / ١١٥٢م)

عنه أنظر :

ابن القلاسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣١٦ ، ص ٣٢٣ ؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج٢ ، ص ٢٩٣ ؛ ابن شداد الحلبى، الأعلام الخطيرة، ص ١١٠-١١١ ، وكمال الدين الشهرزورى (ت ٥٧٢هـ / ١١٧٦م) عنه أنظر:

أبوشامة ، الروضتين ، ج١ / ق ٢ ، ص ٣٦٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ٢٧٠ ؛ =

وقد انعكست أهداف التوسع الخارجى للدولة النورية على نتاج بعض الفقهاء ، الذين اتجهوا إلى التأليف فى الجهاد وفضائله وذلك من أجل شحذهم الأهلىن لمقاومة الصليبيين^(١) ، ومن جهة أخرى ؛ وجد التأليف فى مجال فضائل بيت المقدس من أجل أن يؤدى ذلك إلى نفس الغرض السابق ، فمعلوم أن تلك المدينة بالذات مثلت هدفًا دعائيًا للسياسة الخارجية النورية ، من حيث الرغبة فى تحريرها من السيادة السياسية الصليبية ، وينطبق ذلك بصورة واضحة على ابن عساكر الذى ألف كتابًا احتوى أربعين حديثًا عن فضائل الجهاد^(٢) ، وكذلك كتاب المستقصى فى فضائل المسجد الأقصى^(٣) .

ومن ناحية أخرى ، تأثرت اللغة العربية من جراء التوسع الخارجى والاحتكاك بالصليبيين ، ويدل على ذلك دخول العديد من الكلمات ذات الأصل اللاتينى إلى العربية واستعمال المؤرخين المعاصرين للدولة النورية لها ، ومن أمثلتها «الاسبتارية» و«الداوية»^(٤) والتركبولية وغيرها ،

= ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٧٩- ٨٠ ؛ ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٣٤٣ ، وقطب الدين النيسابورى (ت٥٧٨هـ / ١١٨٢م) عنه أنظر :

ابن العديم ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص٢٩٤ ؛ سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، ق١ / ج٨ ، ص٢٩٤ .

١- يكفى للتدليل على ذلك مطالعة مؤلفات الفقهاء المعاصرين التى وردت فى مواضع متفرقة من كتاب الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية لأحمد بدوى ؛ ابن شداد الحلبي ، المصدر السابق ، ص ١٠٠ .

٢- كذلك نعرف أن نور الدين محمود نفسه ألف كتابًا فى الجهاد ، أنظر : سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج٨ / ق١ ، ص٣١٣ ؛ ابن قاضى شهاب ، الكواكب الدرية ، ص٥٧ ، صلاح البحيرى ، عالمية الحضارة الإسلامية ومظاهرها فى الفنون ، حوليات كلية الآداب- جامعة الكويت ، الحولية (٣) ، الرسالة (١٢) لعام ١٩٨٢م ، ص٩٦ ، حاشية (٧٥) .

٣- الواسطى ، فضائل البيت المقدس ، تحقيق اسحاق حسون ، معهد الدراسات الآسيوية والافريقية ، الجامعة العبرية بالقدس ، ط. القدس ، ١٩٧٩م ، ص٤ .

٤- عن ذلك أنظر :

أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص٦٥ ، حاشية (٦٤) ، البدراوى زهران ، اللغة العربية فى عصر الحروب الصليبية ، رسالة دكتوراه جامعة القاهرة ، كذلك دخلت كلمات عديدة إلى اللغات الأوروبية مثل فندق Fondoco ، مخزن Magazin ، دار الصناعة Arsenal ، أنظر : زيجفريد هونكه ، شمس الله على الغرب ، ت. فؤاد حسين ، ط. القاهرة ١٩٦٤م ، ص٣٥٤ .

ولا مراة ، فى أن اللغة بحكم أنها كائن حى ؛ لم تنفصل عن التأثير بواقع الأحداث السياسية حينذاك .

ولعل الشعر، كان أكثر المجالات التى وضع فيها نتائج وتأثيرات السياسة الخارجية النورية على المحيط الأدبى، وقد احتاجت القيادة العسكرية إلى إثارة الشعور الدينى الفياض للجهاد وإيجاد أبواق دعائية تمجد توسعاتها الخارجية فوجدت فى الشعراء خير من يقوم بذلك، ومن ثم عملت على تقرب الشعراء والعمل على إبراز دورهم، ومن جهة أخرى انعكست روح الحرب والصراع مع العدو الصليبي على أشعار الشعراء الذين عاصروا الدولة النورية^(١).

ويلاحظ أن أولئك الشعراء نظموا أشعارهم فى عدة أغراض شعرية خاصة المدح- لاسيما القيادة القائمة- ووصف المعارك وغيرها من الأغراض، وينبغى ألا نغفل أن شعراء ذلك العصر قلدوا قصائد الشعراء القدماء، وانتفى بينهم وجود شعراء مبتكرين إلا قليلاً .

كذلك فإن اتباع الدولة النورية لسياسة توسعية سواء بالنسبة للقوى الإسلامية أو الصليبية المجاورة جعلتها فى أشد الحاجة إلى من يدافع عن وجهة نظرها ويبرر تلك السياسة بكافة الوسائل أفضل من يقدر على تلك المهن المؤرخون والرسميون الذين عملوا فى مناصب إدارية وعلمية وعبروا عن وجهة نظر الدولة الرسمية وذلك بحكم ارتباط مصالحهم بها .

١- من أمثلتهم : ابن منير الطرابلسى ، ت. ٥٤٨هـ / ١١٥٤م، عنه أنظر : ابن القلائسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٢٢؛ ابن قاضى شهبه ، الكواكب الدرية، ص٧٥ ؛ حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ج١ ، ص٧٦٩، الهرفى ، شعر الجهاد فى الحروب الصليبية فى بلاد الشام، ص٢٥٥- ص٢٦٠، هادى نهر ، معارك نور الدين محمود فى شعر الحروب الصليبية ، رسالة ماجستير - كلية الآداب جامعة القاهرة لعام ١٩٦٦م ، ص١٨٩- ص١٩٣ ، وابن القيسرانى ت ٥٤٨هـ / ١١٥٤م ، عنه أنظر :

ابن القلائسى ، المصدر السابق، ص٣٢٢؛ ياقوت ، ارشاد الأريب ، ج١ ، ص٢٤ ؛ الصفدى، الوافى بالوفيات ، ج٥ ، ص١١٢ ، وعرقلة الكلبي، ت٥٦٧هـ / ١١٧١م ، عنه أنظر :

العماد الأصفهاني ، خريدة القصر- قسم شعراء الشام، ج١ ، ص١٧٨، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦ ، ص٦٤ .

وثقه الدين أبو القاسم ، ت٥٧١هـ / ١١٧٥م، العماد الأصفهاني، المصدر السابق، ج١ ، ص٢٧٤ .

ومن الملاحظ : أن النظام الإقطاعى العسكرى قد أثر على نوعية الكتابة التاريخية، فمعلوم أن النظام الإقطاعى يودى إلى تزايد الطابع الإقليمى المحلى، ومن ثم وجد التأليف التاريخى للمدن ونذكر هنا على نحو خاص ابن القلاتسى^(١)، (ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م) وابن عساكر (ت ٥٧١هـ / ١١٧٦م) ، وقد ألف الأول كتابه ذيل تاريخ دمشق وعرض فيه لتطور سياسة نور الدين الخارجية تجاه القوى الإسلامية والمسيحية حتى عام وفاة المؤرخ ، أما ابن عساكر فقد ألف كتابه الضخم عن مدينة دمشق وذلك بإيعاز من نور الدين محمود نفسه، واحتوى تراجم عديدة لأولئك الذين أنحدروا من أصول دمشقية أو ارتبطوا بالمدينة لأى ظرف من الظروف وقدم لنا ترجمة هامة عنه .

أما فيما يتعلق بالعمارة : فنجد أن التوسعات الخارجية النورية قد أوجدت مجالا رحبا لتأثر الصليبيين بالمسلمين فى طرق بناء القلاع والتحصينات الحربية إلى نحو ذلك ، حقيقة أن الاحتكاك بين هذه الدولة والوجود الصليبي لا يزيد عن قرابة ثلاثة عقود من الزمان إلا أن تلك المرحلة كانت قسماً مهماً وفاعلاً من مدة التأثير والتأثر المتبادل بين الجانبين ، فقد تأثر الصليبيون بنظام الباشورات، وهناك من يرى أن المقصود بالباشورة، الحائط الظاهرى للحصن أو القلعة^(٢)، غير أنها مثلت المدخل المنكسر أو ما عرف الإنجليزية باسم Bont entrance^(٣).

١- عنه أنظر :

ياقوت ، إرشاد الأريب ، ج٤ ، ص ١٤٥ ؛ أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ط. القاهرة ، ١٣١١هـ ، ص ١٣٥ ؛ الذهبي ، العبر؛ ج٤ ، ص ١٥٦ ؛ ابن تغرى بردى ، المصدر السابق، ج٥ ، ص ٣٣٤ ؛ المنهل الصافى ، تحقيق نجاشى ، ط. القاهرة ١٩٦٥م ، ص ٣٦ ، شيخو ، «تاريخ دمشق لابن القلاتسى» ، مجلة المشرق ، العدد (٨) لعام ١٩٠٨م ، ص ٦٩ ، المنجد ، معجم المؤرخين الدمشقيين ، ط. بيروت ١٩٧٤م ، ص ٣٤ « المؤرخون الدمشقيون وآثارهم المخطوطة » مجلة معهد المخطوطات العربية م (٢) ، ج٥ (١) مايو ١٩٥٦م ، ص ٨٠ ، جب ، «تاريخ دمشق» ضمن كتاب صلاح الدين الأيوبي ، ص ٤٠ .

٢- سامى الدهان ، تعليقه فى الأعلام الخطيرة ، ج١ ، ص ١١٢ ، حاشية (٢)

٣- أحمد فكرى « فن العمارة والتحف الفنية » ضمن كتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الأيوبية

ط. القاهرة ١٩٧٠م ، ص ٤٢٥ .

وبالإضافة إلى ذلك تأثر الصليبيون عندما بنوا قلاعهم بعنصر السقاطات -Machicola tions^(١) وهى عبارة عن أجسام بارزة عن السور تعتمد على كوابيل مفتوحة من أثفلها ويتم إستخدامها من أجل إلقاء الزيت المغلية والمقدوفات الحجرية على المهاجمين إذا ما أمكنهم تجنب السهام وتهديد السور عن طريق إقتربهم منه ، ولذلك فإنها بنيت عادة فوق الأبواب ، وأحياناً فى أماكن أخرى من السور عى نحو يعوق المهاجم من تسلق السور أو إحداث ثلثة به وهناك من يطلق خطأ على تلك السقاطات تعبیر مشربيات لبروزها ، غير إن الأولى كانت لها وظيفة حربية بينما الثانية وظيفتها مدنية^(٢).

أما المزاغل فهى كذلك من نتائج تأثر الصليبيين بالمسلمين حريباً ، وهى عبارة عن فتحات طوليه (رأسية) ضيقه خارجية ، يتم توزيعها على إمتداد أسوار القلاع وكذلك فى الأبراج ، ويتم تشييدها على أساس أن تكون ضيقة من الخارج لتجنب أن يكون المدافع عرضة للإصابة الخارجية^(٣) ومع ذلك فإن المزاغل كانت متسعة داخلياً على نحو سمح بتواجد مدافع أو أكثر بها ، ويمكنه بسهولة وبسر تصويب السهام^(٤) بدقه صوب المهاجمين ، وغالباً ما كان خلفها حجرات المدافعين على نحو مكنهم من الدفاع وهم فى مأمن من الهجمات الخارجية أو تقلبات الطقس^(٥).

١- فريد شافعى، العمارة العربية فى مصر الإسلامية ، ط. القاهرة ١٩٧٠م، ص ١٩١ .

٢- عنها أنظر :

Creswell, Short Account of Early Islamic Architecture, London 1958 , p. 121 , 122 ,

Fedden, Crusader Castles, p. 25 .

عبد المعطى الجلابى، «التأثيرات الإسلامية فى عمارة الغرب فى العصور الوسطى» ، مجلة عاديات حلب- معهد التراث العلمى العربى- جامعة حلب ، لعام ١٩٧٥ م ، ج ١ ، ص ٢٧٧ ، حجاجى ابراهيم ، «القلاع وتطور الفكر الهندسية» ، المنهل ، العدد (٤٥٢) ، م (٤٨) ، يونيو ١٩٨٧م ، عاشور ، المدنية الإسلامية ، ط . القاهرة ١٩٦٣م ، ص ١٩٩ .

٣- حجاجى ابراهيم ، المرجع السابق ، ص ٢٩٢ .

٤- نفسه ، نفس المرجع والصفحة .

٥- نفسه ، نفس المرجع والصفحة .

كذلك تأثرت العمارة الحربية الصليبية من العمارة الإسلامية بفكرة المتراس Portcullis^(١) وهو الذى يمكن وصفه بأنه عبارة عن باب من أسياخ حديدية تتقاطع مع بعضها وتوضع خارج الباب الخشبي لمدخل الحصن ويرفع عن طريق حبال ملتفة حول بكره بالبوابه ، واستطاع المدافعون قذف السهام من خلالها ، ويتم إسدال المتراس عند محاولة العدو اقتحام القلعة وذلك من خلال خفض المتراس بواسطة حبال أو سلاسل قوية^(٢) .

إلى جانب ذلك : هناك التأثير بفكرة المدخل ذو المرافق العديدة ، وكان الهدف منه أن يتم تكبيد العدو المهاجم للحصن أو للقلعة أفدح الخسائر وذلك فى أثناء محاولته الانطلاق من باب الحصن خاصة خلال الظلام أو عند إنسحابه بعد إخفاق هجومه^(٣) . ومن المؤثرات المعمارية الإسلامية فى العمارة الصليبية فكرة البرقان Barbican وقد أطلقت على البرج الكبير الذى بنى على مسافة من باب الحصن أو قنطرته التى أقيمت فوق الخندق الذى أحاط الحصن^(٤) ومن ناحيه أخرى فإن الصليبيين أفادوا من المسلمين فيما يتل بزيادة سمك جدران أسوار القلاع والحصون وتدعيم دفاعاتها وذلك من أجل إلقاء خطر الزلازل^(٥) لا سيما وأن بلاد الشام خلال حكم نور الدين محمود تعرضت لعدة هزات أرضية عنيفة ذات آثار مدمرة.

يضاف إلى ذلك استفادة الصليبيين من فكرة القوس المنكسر^(٦) فى العمارة الإسلامية وقد

١- فريد شافعى ، العمارة العربية ، ص١٩٦ ، عبد الرحمن زكى ، العمارة العسكرية ، ص١٢٨ .

٢- عبد الرحمن زكى ، المرجع السابق ، ص١٢٨ ، رنسيان ، الحروب الصليبية ، ج٢ ، ص٧٦٠ ، فريد شافعى ، المرجع السابق ، ص١٩٦ .

٣- عبد الرحمن زكى ، العمارة العسكرية ، ص٧٤ .

٤- نفسة ، نفس المرجع ، ص٧٦ .

وعن تأثير الصليبيين بالأبراج فى العمارة الإسلامية ، انظر :

أحمد فكرى ، «التأثيرات الفنية الإسلامية العربية على الفنون الأوربية» ، مجلة سومر ، الجزء (١) ، (٢) م (٢٣) ، لعام ١٩٦٧م ، ص٧٩ .

٥- Fedden, Crusader Castles, p. 29 .

٦- بابا دويولو ، « إشكالية دراسية عمالية للتأثيرات الممكنة ولفن العمارة الإسلامية على فنون الغرب » ضمن كتاب أضواء عربية على أوروبا فى القرون الوسطى ، ت. عادل العوا ، ط. بيروت ١٩٨٣م ، ص١١٤ .

وجدت الأقواس المنكسرة فى قبة الصخرة وفى مسجد دمشق الكبير^(١)، بل إن الصليبيين عملوا على نقلها إلى عمائرهم الحربية فى أوربا نفسها .

أما القناطر المتحركة ؛ فقد استفاد منها الصليبيون من العمارة الإسلامية ، وقد كانت تصل بين الأبواب وبين ضفاف الخنادق والقنات المحيطة بالحصون على نحو صارت تلك القناطر ترتفع فى حالة التهديد بالهجوم ، ويوجد مثل لتلك القناطر فى العمارة الإسلامية فى السور الشرقى لحصن القاهرة الذى شيده صلاح الدين عندما كان وزيراً للخليفة الفاطمى العاضد^(٢) .

أما فيما يتعلق بالطب ؛ فكان للتوسع الخارجى النورى دوره فى زيادة الاهتمام به ، إذ أن تلك الدولة التى جعلت من التوسع هدفها الأول احتاجت إلى الخدمة الطبية اللازمة من أجل علاج الجرحى فى المعارك التى خيض غمارها ، وقد عملت على إنشاء البيمارستانات مثل البيمارستان النورى فى دمشق ، وكذلك فى حلب ، وتجهيزها بالأدوات اللازمة للعلاج ، وقد قدم لنا ابن جبير وصفاً مهماً للبيمارستان النورى فى دمشق وتجهيزاته^(٣) .

ومع ذلك وعلى الرغم من إشارة المصادر التاريخية إلى العديد من أعلام الطب المعاصرين للدولة النورية^(٤) ؛ إلا أن الطب حينذاك لم يشهد ما يوصف بأنه نهضة، إذ لم يوجد من

١- بابا دبولوا ، اشكالية دراسة ، ص ١٢٠ .

٢- فريد شافعى ، العمارة العربية فى مصر الإسلامية ، ص ٢٧٤ .

٣- ابن جبير ، الرحلة، ص ٢٣٠ .

٤- ومن أمثلتهم : أبو الفضل بن وقار (ت ٥٥٤هـ / ١١٥٩م) ، ابن القلاسى، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٥٧ ، ابن البزوخ (ت ٥٧٦هـ / ١١٨٠م) ، ابن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء ، ص ١٥٥ ، وابن البطران (ت ٥٨٧هـ / ١١٩١م) ، ابن أبى أصيبعة ، المصدر السابق، ص ١٧٥-١٨٠ . وعبد المنعم الجليانى (ت بعد عام ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م) ، فسرّات خطاب ، الكعالة عند العرب ، ط. بغداد ١٩٧٥م، ص ٣٧ ، أبو محمد بن حسين المعرى (ت ٥٤٩هـ / ١١٥٤م) عنه : ابن القلاسى ، المصدر السابق، ص ٣٣١ ، وأبو الحكم الأندلسى (ت ٥٥٠هـ / ١١٥٥م) عنه : الأصفهاني، البستان الجامع ، ص ١٣١ ، ابن أبى أصيبعة ، المصدر السابق، ج ٢ ، ص ١٥٥ ، وابن النقاش (ت ٥٧٠هـ / ١١٧٤م) عنه : العماد الأصفهاني ، سنا البرق الشامى، ص ٢٥-٢٦ ، ابن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء ، ج ٢ ، ص ١٦٢ ، أمينة البيطار، «التعليم فى دمشق فى القرن السادس هـ» ، آداب الرافدين ، العدد (١١) ، لعام ١٩٧٩م ص ٦٢ ، السامرائى ، مختصر تاريخ الطب العربى، ج ٢ ، ص ٩٦-٩٧ . وأيضاً إشارات متعددة لدى: مؤنس أحمد عوض ، من إسهامات الطب العربى الإسلامى فى العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٩٧م.

الأطباء من وصل إلى مستوى ابن سينا ، وغيره من مشاهير الأطباء المسلمين السابقين ، ومن المؤلفات التى ألفت فى هذا المجال ارتبط أغلبها بشروح لمؤلفات مشاهير الأطباء اليونان مثل أبقراط ، وجالينوس ، وغيرهما ^(١) ، وهكذا أبان التوسع الخارجى للدولة النورية على الرغم من أنه أدى إلى زيادة الاهتمام بالناحية الطبية إلا أنه لم يؤد إلى إحداث نهضة علمية طبية حقيقية.

ويلاحظ أن آثار ونتائج السياسة الخارجية النورية لم تكن قاصرة على الناحية العلمية فقط ، بل أنها امتدت لتشمل الجوانب المذهبية أيضا .

لقد نتج عن توسع الدولة النورية فى الأقاليم الشامية ؛ دعم المذهب الأشعرى ، الذى جعلته مذهبها الرسمى ، حتى لقد صارت له مكانة الصدارة فى كافة أنحاء الشام ، وطبيعى أن ذلك المذهب لم يكن له نفوذ رسمى كبير عندما كانت تلك الدولة لاتزال فى حلب ، ولكن بعد أن تمكنت من ضم دمشق صارت المناطق الشمالية والوسطى من بلاد الشام تدين بذلك المذهب واصطبغت الحياة الدينية بصبغته الكاملة ، ومن المهم أن ندرك أن الدور الذى لعبه ابن عساكر - محدث الشام الأشهر - فى دعم المذهب الأشعرى ، لم يكن ليتم بدون السيادة النورية على دمشق ودعم الدولة لذلك المذهب هناك .

ومثلما كان الدافع المذهبى له دوره من بين دوافع السياسة الخارجية النورية ، غدت النتائج المذهبية لها شأنها أيضا ، إذ أن المذهب الأشعرى المحافظ - من خلال تلك السياسة - أمكن تصديره خارج الحدود الشامية إلى مصر بكل ما احتوته من ثقل سياسى وعسكرى وأهمية حضارية فى المنطقة ، وكان ذلك على حساب المذهب الإسماعيلى الذى حظى بدعم الفواطم ورغبتهم فى تسييده فى كافة أنحاء المعمورة .

ومن المنطقى أن نلاحظ ، أن ذلك المذهب الأشعرى ما كان له أن ينتقل إلى عقر دار الفواطم بدون ذلك المجهود الشاق الذى خاضت غماره السياسة النورية - بدعم عباسى متواصل ، حتى غدت مصر - فيما بعد - فى عهد الأيوبيين من أهم مراكز الدعوة الأشعرية .

لقد صاحب الدعم الرسمى المذهب الأشعرى فى مصر مثلما كان عليه الحال فى بلاد الشام من قبل ، وغدت المدارس والجوامع تتناول تفاصيله وتخرج الدعاة لنشره ، ويلاحظ أن دور ذلك

١- يمكن الرجوع فى هذا الصدد إلى ابن أبى أصيبعة وكتابه السابق فى مواضع متفرقة .

المذهب لم يكن على المستوى الدينى فقط بل على الصعيد السياسى أيضا بسبب اهتمام الأشعرى نفسه بتنفيذ عقائد الشيعة ، وهو أمر احتاجت إليه الدولة النورية لمقاومة المذهب الاسماعيلى .

كذلك فقد أدى الدعم الرسمى لذلك المذهب وتوطد أركانه فى أنحاء متعددة من بلاد الشام بفضل المساندة النورية له وتوسع تلك الدولة ، أن تم قمع كافة الاتجاهات الفكرية والدينية التى خالفته وتقدم لنا المصادر التاريخية دليلا على صحة ذلك- وإن أحيط برؤية من المؤرخين الرسميين الذين أنكروا كل فكر يخالف السلطة - ، إذ وجد بدمشق رجل يدعى يوسف ابن آدم وقد أظهر الزهد ، والنسك ، وتعدد اتباعه واتهم بأنه أظهر شيئا من التشبيه ، وقد تم التشهير به وطيف به فى أنحاء المدينة على أساس أنه أظهر فى الدين البدع وتم نفيه إلى حران^(١) . ويلاحظ أن إدراك حقيقة مثل تلك الحركات المناوئة ذات الطابع الدينى ، يعد أمرا بالغ الصعوبة من خلال أحادية المصادر التاريخية الرسمية وعدم وجود من يتبنى وجهة النظر الأخرى .

يضاف إلى ذلك ؛ أن التوسع الخارجى النورى قد أوجد تزايدا فى انتشار المذهب الحنفى بالذات ، إذ أن نور الدين محمود نفسه اعتنق ذلك المذهب^(٢) وطبيعى أنه مع نجاح الجيوش النورية فى إسقاط الخلافة الفاطمية ، وجدنا أن أعداد الحنفية تزايدت فى مصر^(٣) وبذلك تدعم وجود معتنقيه فى بلاد الشام أيضا .

وهكذا فمن الممكن أن نلاحظ أن التوسع الخارجى قد أدى إلى تأكيد تغلب نفوذ الحنفية إذا ما قورن بنفوذ كل من الشافعية ، والحنابلة ، والمالكية ، حقيقة أن الدولة نفسها قامت ببناء العديد من المنشآت الدينية لكافة المذاهب إلا أن ضم مصر إلى نطاق سيادتها السياسية قد نجم عنه تفوق المذهب الحنفى ، ويقرر المقرئى أن مما ساعد على ذلك قدوم العديد من الحنفية من بلاد المشرق الإسلامى^(٤) على نحو دعم تواجد ذلك المذهب ، وأكد تفوقه- من خلال الدعم الرسمى- على غيره من المذاهب السنية .

١- عن ذلك أنظر : ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٧٣ ؛ ابن قاضى شعبة ، الكواكب الدرية ، ص ٣٣ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج ١ / ق ١ ، ص ٢٤ .

٢- أبو شامة ، الروضتين ، ج ١ / ق ١ ، ص ١٤ .

٣- المقرئى ، الخطوط ، ج ٢ ، ص ٣٤٤ .

٤- نفسه ، نفس المصدر والصفحة .

وبالإضافة إلى نتائج التوسع النورى وآثاره على المذهب الأشعرى فقد وجد هناك تأثير واضح على التصوف ، إذ عملت الدولة النورية فى أعقاب توسعها فى بلاد الشام ومصر على دعم التصوف السنى المذهب ، وقد رغبتها فى ذلك ليس فقط تنفيذ سياستها الدينية بل أنها أرادت تحقيق هدف سياسى وهو محاربة الخلافة الفاطمية فى صورة دعم التصوف السنى ، خاصة أن الفواطم عملوا على دعم التصوف الشيعى وقد ساعدتهم على ذلك أن هناك صلة وثيقة قد وجدت بين التصوف والتشيع ، ومن أمثلة ذلك الطرق الصوفية الرفاعية والجيلانية ، والأولى نسبت إلى السيد أحمد الرفاعى (ت ٥٧٠هـ / ١١٧٣م) والثانية نسبت إلى عبد القادر الجيلانى (ت ٥٦١هـ / ١١٦٢م) ، وقد اتصلت الطريقتان وغيرهما بالأفكار الشيعية اتصالاً واضحاً^(١) ، وارتبط الرفاعى بنسب علوى عن طريق الإمام السابع موسى بن جعفر الصادق وكذلك أيضاً الطريقة الجيلانية ، وفى الطرق الصوفية الأخرى ، وجدنا شيخ الطريقة مهديا ، أو أنه جعل طريقته متوارثة على النسق الذى اتبعته الإمامة الشيعية^(٢).

وهكذا ؛ فقد شهد التصوف السنى مد نفوذه فى أنحاء بلاد الشام ومصر مع توسع الدولة النورية خارجياً واتخاذها وسيلة لمقاومة المذهب الاسماعيلى وكذلك من أجل مقاومة التيار الفلسفى ، وقد مدت مقاومتها إلى مصر أيضاً ولذا كان اتساع نطاق الاتجاه الصوفى على مستوى قطاعات جماهيرية كبيرة فيما بعد فى عهدى الأيوبيين والمماليك .

ومن الملاحظ ، من خلال دراسة الحركة الصوفية الشامية حينذاك ، أن المتصوفة حظوا بمكانة كبيرة^(٣) خاصة فى اعتقادات العامة ، وظهر الاعتقاد فى الكرامات^(٤) وزيارة قبور الأولياء

١- كامل الشيبى، الصلة بين التصوف والتشيع، ط. القاهرة ١٩٦٩م، ص ٤٤٤ .

٢- نفسه، نفس المرجع ، ص ٥٨٢ .

٣- عن ذلك ، أنظر : ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٣١ ، أيضاً : أحمد رمضان ، «العمائر الدينية فى بلاد الشام فى العصرين الأيوبي والملوكى» ، ضمن الكتاب الذهبى لكلية الآثار، ج ٣ ، ط. القاهرة ١٩٧٨م، ص ١٤٦ ، ويلاحظ وجود عناصر رافضة للاتجاه الصوفى فى عهد نور الدين محمود إذ أن الوهرانى يصفهم بأنهم «انقطعوا إلى المساجد يأكلون وينامون» منامات الوهرانى، ص ٤٨ .

٤- أسامة بن منقذ ، كتاب العصا ، تحقيق عبد السلام هارون ، نواذر المخطوطات ، م (٢) ، ط. القاهرة

١٩٥٠م، ص ١٩٦-١٩٧ .

وذلك على مستوى شعبى، وينبغى أن ندرك أن ذلك كله كان من خلال الدعم الرسمى لفكرة التصوف بصفة عامة خاصة أننا نلاحظ أن رعاية الدولة للحركة الصوفية لم تعد فى حلب فقط، مثلما كان الأمر من قبل، بل فى دمشق وفى وسط الشام بصفة عامة، وكذلك فى مصر أيضا، وكان لذلك الموقف دوره فى أن تدعم الفكر الصوفى فى المنطقة، حتى بعد انتهاء عهد تلك الدولة بزمان طويل، ولا تغفل أيضا أن من عوامل تدعم التصوف حينذاك، تعلق العامة بالمتصوفة من خلال الأزمة النفسية التى أحدثها نجاح الصليبيين فى الاستقرار فى بلاد الشام والجزيرة.

وزيادة على تسيد المذهب الأشعرى وظاهرة التصوف من خلال الدعم الرسمى؛ وجدت نتيجة مهمة قمخض عنها التوسع الخارجى النورى، ونعنى بها انحسار المذهب الاسماعيلى وتراجع عن مصر، ولا شك فى أن سياسة صلاح الدين الأيوبي كان لها دورها الفعال فى القضاء على نفوذ ذلك المذهب فى مصر وخروجه منها، وكان قد اتجه إلى ذلك منذ تعيينه فى وزارة العاضد عام ٥٦٤هـ / ١١٦٩م^(١)، ومن الملاحظ أن تلك النتيجة اتسمت بالحسم؛ إذ أن المذهب الاسماعيلى لم يعد مرة أخرى إلى مصر يمثل ذلك الوضع الذى كان عليه عندما سيطر الفاطميون على مقاليد الأمور بها، ولا شك فى أن القضاء عليه فى ذلك الإقليم قد أضعف من شوكة الوجود الاسماعيلى فى المناطق الأخرى مثل إيران وبلاد الشام؛ إذ أن الاسماعيلية نظروا إلى

١- عن مراحل القضاء على المذهب الاسماعيلى فى مصر أنظر :

الأصفهاني، البستان الجامع، ص ١٣٩؛ ابن الأثير، الكامل، ج ١، ص ٣٦٦؛ ابن قاضى شهابية، الكواكب الدرية، ص ١٩٤-١٩٥؛ المقرئى، اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٣١٧، ويقول الأخير «اختفى مذهب الشيعة الإمامية والاسماعيلية ويظل من حينئذ مجلس الدعوة بالجامع الأزهر وغيره»، المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٢٠.

أيضا :

سهام مصطفى أبوزيد، الدعوة الاسماعيلية ومدى نجاحها فى مصر الإسلامية، رسالة دكتوراه- كلية البنات- جامعة عين شمس لعام ١٩٧٧م، ص ٢٧٣-٢٧٧، حسن على حسن، «العاضد لدين الله، آخر الخلفاء الفاطميين»، مجلة كلية العلوم الاجتماعية - جامعة الإمام محمد بن سعود، (١٢) لعام ١٩٧٨م، ص ٣٥١-٣٥٢.

الخلافة الفاطمية على أنها معقل مذهبهم ، وعلى الرغم من الانشقاقات المذهبية التى وجدت بين الاسماعيلية خاصة دعوة النزارية ، إلا أن القاهرة ظلت تحتل مكانة مؤثرة وفعالة فى الدعوة لذلك المذهب ، أما توسع الدولة النورية فى الاتجاه الجنوبى الغربى وإخضاع مصر لسيادتها ، فإنه وجه لطمة قاسية للمذهب ومعتنقيه ومركز القاهرة المذهبى السابق.

ومن الملاحظ أن المذهب الاسماعيلى قد وجدت له عدة مراكز مهمة للدعوة، من قبل التوسع النورى، فى مصر، وإيران، وبلاد الشام، واليمن، والهند، ولكن مع إخضاع مصر للسيادة النورية وانحسار المذهب المذكور ، فقدت الدعوة الاسماعيلية معقلها الرئيسى فى أفريقيا وأصبح النفوذ قويا لمراكزها المتواجدة فى النطاق الآسيوى، ويلاحظ أن النطاق الأخير تعرض لتوجيه لطمة أخرى قوية من خلال من النفوذ السنى فى اليمن بتوسع صلاح الدين جنوب البحر الأحمر وسيطرته على ذلك الإقليم .

وينبغى ألا نغفل حقيقة مهمة ؛ وهى أن نجاح التوسع النورى فى القضاء على المذهب الاسماعيلى فى مصر قد دعم بصورة جوهرية عدم إقبال الشعب المصرى على اعتناق ذلك المذهب بصورة كبيرة، بالمرجح أن المصريين بعامتهم احتفظوا بمذاهبهم السنية خاصة أن الفاطميين أنفسهم- فى أغلب الأحيان- سمحوا باستمرار تواجد المذاهب السنية فى البلاد دون مقاومة ، إذ يقرر القلقشندي أن مذاهب أهل السنة ظلت قائمة الشعار فى مصر فى عهد الفواطم^(١).

وهكذا يمكن القول إن السياسة الخارجية للدولة النورية كانت من القوة والفعالية بحيث أنها أثرت على كافة الأصعدة والمستويات ومنها الناحية الثقافية والفكرية وكفى للتدليل على فعاليات تلك السياسة الخارجية الطموحة أنها أدت إلى القضاء على النفوذ الشيعى الاسماعيلى فى مصر وإحلال المذهب الأشعرى بدلاً منه. ثم تشييد العديد من المدارس حينذاك والتي ازدهرت فيها الحياة الفكرية فى كافة المجالات .

ولامراء فى أن بقاء بعض المؤسسات التعليمية التى ترجع إلى عصر الدولة النورية وتوسعاتها الخارجية- بقاؤها إلى الآن يدل أكبر الدلالة على حجم عمق تأثير تلك السياسة الطموحة .

ذلك عرض لنتائج السياسة الخارجية النورية على الصعيد الثقافى .

١- القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣ ، ص ٥٢٤ .

الخاتمة

من أهم ما تمخض البحث من نتائج : تناول الدوافع الحقيقية المتعددة التى حركت السياسة الخارجية النورية سواء كانت الدوافع الدينية - ولها أهمية خاصة- وكذلك الدوافع السياسية، والاقتصادية، والعسكرية وأثر كافة تلك الدوافع فى إيجاد ذلك النشاط الكبير فى التوسع الخارجى الذى قامت به تلك الدولة .

وقد تصدى البحث إلى اتجاهات بعض الباحثين الغربيين الذين حاولوا النيل من فكرة الجهاد الإسلامى وتأثيراتها فى عصر الحروب الصليبية، وأكد على أهمية البعد الدينى فى فعاليات السياسة الخارجية للدولة النورية، ومن المعروف أن الرغبة فى القضاء على النماذج الماضية لفكرة الجهاد الإسلامى من خلال ذلك العصر على نحو خاص ؛ كانت من أهم أهداف حركة الاستشراق عندما اتجه المستشرقون إلى دراسة تلك المرحلة الحاسمة من تاريخ أمتنا .

وبالإضافة إلى الدوافع الدينية ؛ درس البحث الدوافع الأخرى مثل الدوافع السياسية ورغبة الدولة النورية فى تدعيم وضعها السياسى فى المنطقة ومواجهة الوجود الصليبي وهو أمر لا يتم إلا بتوحيد القوى الإسلامية المتماثلة فى بلاد الشام والجزيرة من أجل تحقيق أكبر قدر من النجاح فى مواجهة الوجود الصليبي ، ومن الممكن اعتبار السياسة الخارجية النورية فى علاقاتها مع القوى الإسلامية المجاورة سياسة توحيدية وفى علاقاتها مع القوى الصليبية سياسة تتجه نحو الجهاد .

أما الدوافع الاقتصادية ؛ فيمكن إدراكها من خلال الرغبة فى حل مشكلة الوجود البرى الحبيس للدولة النورية وعدم وجود منافذ بحرية تطل على شرق البحر المتوسط ؛ ومن ثم أرادت أن تقضى على وساطة الصليبيين التجارية ، وهم الذين سيطروا على الساحل الشامى، من السويدية فى الشمال حتى غزة جنوباً ، لم يكن من الممكن للدولة النورية إلا أن تستخدم الموانئ الصليبية من أجل تصريف تجارتها الخارجية، وقد أدركت السياسة الخارجية النورية أهمية الساحل الشامى وحيويته ولم يتم حل هذه المشكلة إلا بالاستيلاء على الساحل المصرى من أجل أن يكون بديلاً جزئياً ومرحلياً للساحل الشامى ، وكانت هذه الزاوية بالذات بمثابة نقطة تحول خطيرة فى قضية الصراع الإسلامى الصليبي، ومع ذلك ينبغى ألا نقع فى محذور القولية ونأخذ بالتفسير المادى الاقتصادى بمفرده ونهمل الدوافع الأخرى المهمة ولاسيما الدافع

الدينى . وهو دافع يحتل مكانة عظمى لاسيما خلال العصور الوسطى حيث تعاظم شأن الظاهرة الدينية خاصة خلال مراحل التصادم بين الحضارات كما نجد ذلك فى صورة الحروب الصليبية .

وقد تمخض البحث عن نتائج مهمة على مستوى العلاقات مع القوى الإسلامية وكذلك المسيحية .

فمن خلال تناول العلاقات النورية- العباسية أكد على تواجد حلف سياسى بين الطرفين وأن الخلافة العباسية وجهت أحيانا السياسة الخارجية النورية ودعمتها نحو القضاء على الخلافة الفاطمية ، ومن ثم أمكن وصف نور الدين بأنه كان رجل العباسيين القوى فى المنطقة، وتمت الاستفادة من النقوش الأثرية لتدعيم خصوصية الصلات بين بغداد وحلب، والألقاب التى أغدقتها الخلافة العباسية على رأس الدولة النورية. كذلك أشارت المصادر إلى أن تلك الصلات تدعمت من خلال العون الذى قدمه العباسيون لها مادياً وسياسياً .

وقد اتضح أن عدة دوافع حركت السياسة النورية تجاه الخلافة العباسية، فقد احتاجت إلى دعم الخليفة وموافقته على ضم المناطق الجديدة المضافة إلى أملاكها ، ومن جهة أخرى أدركت أن الحفاظ على علاقات طيبة مع بغداد؛ يعنى تدفق حركة التجارة العراقية إلى بلاد الشام .

وقد أكد البحث على حقيقة هامة تتصل بحفاظ الدولة النورية على استقلالية قرارها السياسى على الرغم من ارتباطها بالخلافة العباسية بحلف وثيق .

أما علاقات الدولة النورية بالقوى المحلية الإسلامية فى بلاد الشام والجزيرة ؛ فلم تكن مبنية على الصداقة- كما تصور البعض- بل كانت مبنية على أساس من التبعية وفرض الهيمنة السياسية ؛ بدليل أن عهد نور الدين محمود شهد انتهاء نفوذ بعض الأسرات الحاكمة هناك ، وضم مناطق كانت تابعة لها، ومن أمثلة وضع أسرة بنى منقذ فى شيزر ، والأسرة الجندلية الدرزية فى بعلبك بسهل البقاع .

ولا مراء فى أن نجاح الدولة النورية فى تحقيق أهدافها التوسعية على حساب تلك القوى، قد أدى إلى القضاء على ظاهرة التشرذم السياسى الذى عانت منه بلاد الشام، والذى كان من أهم العوامل الممهدة لنجاح الصليبيين فى تحقيق أهدافهم فى نهاية القرن الخامس هـ/ الحادى عشر م .

أما العلاقات النورية- الفاطمية ؛ فقد أوضح البحث أن التدخل العسكرى من جانب الدولة النورية فى الشئون المصرية لم يحدث دفعة واحدة، بل كان نتاجاً لمراحل سبقتها مهدت له السبيل، فهناك مرحلة محاولة التنسيق العسكرى المشترك مع الفاطميين ضد الصليبيين ، ولكن حالت أحداث الصراع بين حلب والأسرة البورية فى دمشق دون تحقيق إنجازات لتلك المرحلة ، ثم تلتها مرحلة الاتصالات الدبلوماسية وفيها تردد السفراء بين الجانبين على نحو دعم العلاقات بينهما ، وذلك على الرغم من أن كلاً من الجانبين كان له مذهبه الرسمى المخالف ، فالدولة النورية سنية المذهب أما الفاطميون فشيعة اسماعيلية ، وفى خلال ذلك الحين احتدم الصراع بين المذهبين ، ولكن هنا نجد الدولة النورية دخلت فى علاقات قوية مع الفاطميين لرغبتها فى تحقيق أهدافها فى مصر ، ومرة أخرى نجد تراجع الناحية المذهبية أمام احتياج كل طرف للآخر وتواجد مصالح مشتركة .

مهما يكن من أمر؛ فمن خلال الصراع الوزارى على السلطة السياسية فى مصر الفاطمية ، تهيأت الظروف للتدخل الحزبى النورى المباشر على نحو أدى فى النهاية إلى اسقاط الخلافة الفاطمية عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م ومع ذلك فينبغى ألا نغفل أن سقوطها كان قبل ذلك العام، عندما صار الخلفاء الفواطم العربة فى أيدي الوزراء المتغلبين ، ولاشك فى أن تدهورها استمر حتى اتخذت الشكل النهائى للسقوط فى العام المذكور بفضل فعاليات السياسة الخارجية النورية . ومن المهم أن أقرر هنا أن خلافة الفواطم سقطت من الداخل- يضعف خلفائها وتصارع وزرائها - قبل أن تسقط من الخارج وهى بالتالى خلافة منتحرة من خلال التناصر الداخلى بين كياناتها السياسية. .

ومن النتائج المهمة التى قمخض عنها البحث بالنسبة لعلاقات الدولة النورية مع الإمارات الصليبية ، التأكيد على أن العلاقات مع إمارة أنطاكية - على نحو خاص- اتجهت إلى محاولة السياسة الخارجية النورية إحكام قبضتها على قسم مهم من سهل نهر العاصى، ومد حدود الدولة إلى ميناء السويدية (سان سيمون) الاستراتيجى المهم، الذى هو المنفذ البحرى لإمارة أنطاكية وكذلك مركز تصريف النشاط التجارى لمدن شمال الشام، ولا مرأ فى أن نور الدين محمود أراد أن يحظى بالسيطرة على أحد الموانئ الحيوية على الساحل الشرقى للبحر المتوسط، لينافس باقى الموانئ التى خضعت للسيطرة الصليبية، غير أن مملكة بيت المقدس والإمبراطورية البيزنطية لم تقبلا أن تتسع الدولة النورية على نحو يهدد مصالحها الاقتصادية ويقلب توازن القوى فى المنطقة رأساً على عقب .

أما العلاقات النورية- البيزنطية، فإن البحث أوضح أن ما ذكرته المصادر التاريخية من أن نور الدين كان يسعى إلى إسقاط القسطنطينية لم يكن إلا ضرباً من الدعاية السياسية، إذ أن تلك المدينة لم تكن قط ضمن تطلعات السياسة الخارجية النورية، حيث أن المجال الطبيعي والخيوى لتوسعاتها تمثل فى الإمارات الصليبية ومملكة بيت المقدس والأعمال الجزرية وكذا مصر الفاطمية .

وقد توصل البحث إلى أن قوام السياسة الخارجية للدولة النورية تمثل فى سياسة توازن القوى، وقد أرادت الدولة توسيع مناطق سيادتها؛ من أجل أن توازن قوتها الكيان الصليبي فى بلاد الشام، وساعدها على اتباع تلك السياسة أن القوى الخارجية المعاصرة لها أرادت هى أيضا اتباع ذات السياسة المتوازنة، فالإمبراطورية البيزنطية مثلاً هدفت إلى الحفاظ على توازن القوى بين الدولة النورية ومملكة بيت المقدس ووقفت ضد كل محاولة من جانب الدولة النورية للإخلال بذلك المبدأ الخيوى .

وبالإضافة إلى ذلك؛ فإن البحث تناول قضية التحالفات فى السياسة الخارجية النورية، فعلى حين أكد على التحالف النورى- العباسى، إلا أنه رفض القول بالتحالف النورى- البيزنطى، ومما دعم التحالف الأول ارتباط المصالح المشتركة بين الجانبين؛ إذ رغبت الدولة النورية فى الحصول على الشرعية السياسية اللازمة لتدعيم حكمها فى المناطق التى توسعت فيها، أما الخلافة العباسية فإنها رأت فى الدولة النورية توة معضدة لتنفيذ الخليفة نفسه نظراً لدورها فى مواجهة الكيان الصليبي، أما التحالف النورى البيزنطى - الذى قال به بعض المؤرخين- فإنه لم يكن ليملك مقومات وجوده أصلاً، إذ كان لكل من الطرفين مطامع فى أنطاكية، ثم أن الإمبراطورية البيزنطية حاربت القوات النورية سواء فى بلاد الشام وكذلك فى مصر بعد توقيع اتفاق عام ٥٥٤هـ / ١١٥٩م الذى رأى فيه أولئك المؤرخون ميثاقاً للتحالف بين الطرفين .

ولانغفل كذلك، أن البحث أوضح بجلاء أهمية البعد الجغرافى فى توجهات السياسة الخارجية النورية، فلم يكن من قبيل المصادفة التوجه صوب سهول الوديان الفيضية لأنهار العاصى وبردى والنيل، ولاشك فى أن ذلك يعكس لنا أن الجغرافيا توجه التاريخ، وأن التاريخ - فى بعض جوانبه- ما هو إلا صراع على الجغرافيا بمعناها المتسع الدلالات .

ومن ناحية أخرى أوضح البحث أن السياسة الخارجية النورية حققت العديد من الآثار السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية على كيانها نفسه كدولة من دول الإسلام وكذلك على القوى الإسلامية والصليبية في المنطقة، على نحو كشف بجلاء عن فعاليات تلك السياسة .

ومع ذلك ؛ فيلاحظ وجود بعض النقاط التي لم يتمكن البحث من إيجاد تصور كامل عنها ، ومن أمثلتها موضوع طوائف الحرف في بلاد الشام في عهد الدولة النورية وكذلك أثر السياسة الخارجية تلك الطوائف إذ أن المصادر التاريخية المعاصرة لمجدها لاتسعننا بتقديم إشارات هامة عن هذه الناحية ، وأمام صمت المصادر أصبح من الصعب إيجاد تصور بشأن هذا الموضوع . وبالإضافة إلى ذلك فإنه يلاحظ أن البحث لم يتمكن من إبراز أمر السفارات المتبادلة بين الدولة النورية ومملكة بيت المقدس والسفراء الذين ترددوا بين الجانبين ؛ إذ أن المصادر نفسها لاتقدم ما يفيد في تصور تلك السفارات بصورة أكثر من التي أمكن رصدها والأمل معقود على شباب الباحثين له اهتمام بتلك المرحلة التاريخية من أجل أن يسد تلك الثغرات بجهد يفوق جهدى المتواضع .

الملاحق

ملحق رقم (١)

من رسالة مرسلّة من نور الدين محمود إلى الخليفة العباسي المستضيئ
«وقسطنطينية والقدس يجريان إلى أمد الفتح في مضمار المنافسة ، وكلاهما في وحشة
ليل الظلام المد لهم على استظهار صباح المؤانسة ، والله تعالى بكرمه يدنى قطاف الفتحين
لأهل الإسلام، ويوفق الخادم لحيازة مراضى الإمام»
«ومن جملة حسنات هذه الأيام الزاهرة ما تسنى في هذه النوبة ، من افتتاح بعض بلاد
النوبة والوصول إلى مواضع منها لم تطرقها سنايك الخيل الإسلامية في العصور الخالية.
وكذلك استولت عساكر مصر أيضًا على برقة وحصونها، وتحكموا في محكم معاملاتها
وحصونها ، حتى بلغوا إلى حدود المغرب ، فظفروا من السؤال بعنقاء مغرب»^(١).

ملحق رقم (٢)

رسالة مرسلّة من نور الدين محمود إلى الخليفة

العباسي المستنجد بالله عقب زلزال عام ٥٦٥هـ / ١١٧٠م

«قد أحاط العلم الشريف أجله الله بهذه الحادثة التي أملت بالشام من الزلزلة التي تداعت
له الشغور بالانتلام ، والمعازل والحصون بالانهداد ، والانهدام ، ولم يكن إلا (عبارة لأولى
الأبصار) موعظة وآية من الله لعباده منذرة موقظة وقد عمت حتى عطلت كل حال ، وشغلت
كل بال، وألحقت كل جديد ببال، والحمد لله على كل حال ، وما سكنت النفوس من رعبها ، إلا
بما دهم الكفار من أمرها. فإنها وافقت يوم عيدهم، وهم في الكنائس ، فأصبحوا للردى فرايس
(شاخصة أبصارهم ينظرون) (فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث
لا يشعرون) ، ولولا اشغالهم بما عداهم حيث انقلعت كل قلعة لهم من أساس بنيانها ورجف كل
بلدة في أيديهم بهلاك سكانها لم تؤمن في نوبة هذه النبوة معرفتهم ولم تحسن بعد هذه المضيرة
إلا مضرتهم . وإن بالشغور الإسلامية شدة افتقار إلى تحصينها وإعادة أبنية حصونها قبل أن

يستفحل الداء ويتفرغ لشغلها الأعداء. وما أولى المواقف المقدسة بإيلاء الأيادي واسدائها واعانة من تكفل بسد ثغور الإسلام وصد أعدائها ، وما أحوج الخادم إلى نظرة شانية وعارفة لهذا المخدور كافية ولا ينهض بعبء هذه النوبة إلا بما يرفد به من المعونة ربما يشمله من بركات الأيام الزاهرة الميمونة»^(١).

ملحق رقم (٣)

اتخاذ نور الدين محمود الحمام الهوادي في عام

١١٧١ هـ / ١٧٧١ م، ونص المنشور الصادر بذلك ، من انشاء العماد الأصفهاني

«هي برائد الأنباء، المخصوصة بفضيلة الإلهام والإيحاء، وهي فيوج الرسائل المأمونة الإبطاء، والسابقات الهوج في الاهتداء؛ والحاملات لمطقات الأسرار في أقرب مدة إلى أبعاد غاية، والموصلات مهمات الأخبار في وقتها من أقاصي الأمصار بأكمل هداية، والقاطعات في ساعتها إلى البلاد أجواز القفار والموامى، والنافذات بنجح المرام بعود السهام إلى المرامي، وهي تطوى الفراسخ البعيدة والأشواط في ساعة، وتنتهي إلى أقصى عنايات الطاعة بأثم استطاعة، وقد عم بها نفع المرابطين للغزاه والمجاهدين في سبيل الله، في إهداه أخبار الكفرة إليهم من أماكنها، دالة على مكايدها ومكامنها، طائرة بكتبهم إلى من واءهم من الطلائع والسرايا، مظهرة لهم من أحوالها خبايا الأمور الخفايا، وأنها لميمونة المطار، مأمونة العثار، سالمة على الأخطار، مهدية في الأسفار، أمينة على الأسرار، سابقة إلى الأوكار، صادرة بالأوطار، سائرة إلى المؤمنين بنبا الكفار»^(٢).

ملحق رقم (٤)

رسالة نور الدين محمود إلى قليج أرسلان ١١٧٢ هـ / ١١٧٢ م

«إننى أريد منك أموراً وقواعد ومهما تركت منها فلا أترك ثلاثة أشياء؛ أحدها أن تجدد إسلامك على يد رسولى حتى يحل لى إقرارك على بلاد الإسلام، فإننى لا أعتقدك مؤمناً.

١- الفتح البندارى، سنا البرق الشامى، ص ٤٨، ٤٩.

٢- أبو شامة، الروضتين، ج ١ / ٢، ص ٥٢١.

وكان قلع أرسلان يتهم باعتقاد مذاهب الفلاسفة - والثاني إذا طلبت عسكري للغزاة تسيره
فإنك قد ملكت طرقاً كبيراً من بلاد الإسلام وتركت الروم وجهادهم وهدانتهم ، فاما أن تكون
تنجدي بعسكري لأقاتل سهم الفرنج وإما أن تجاهد من يجاورك من الروم وتبذل الوسع والجهد
في جهادهم ، والثالث أن تزوج ابنتك لسيف الدين غازي ولد أخي»^(١)

مختصرات أسماء الدوريات ومجموعات المصادر

BIFAO , Bulletin de institut Francais de Archaeologie Orientale .

BSOAS , Bulletin of The School of Oriental and African studies .

CMH , Cambridge Medieval History .

CSHB , Corpus Scriptorum Historia Pyzantinae .

EHR , Egyptian Historical Review .

ERE , Encyclopedia of Religions and Ethics .

ESS , Encyclopedia of Social Sciences.

IFD , Institut Francais de Damas .

JA , Journal Asiatique .

M W , Muslim World .

JRAS , Journal of Royal Asiatic Society .

PPTS , Palestine pilgrims Text Society .

RDSO, Rivista degli Studi Orientali .

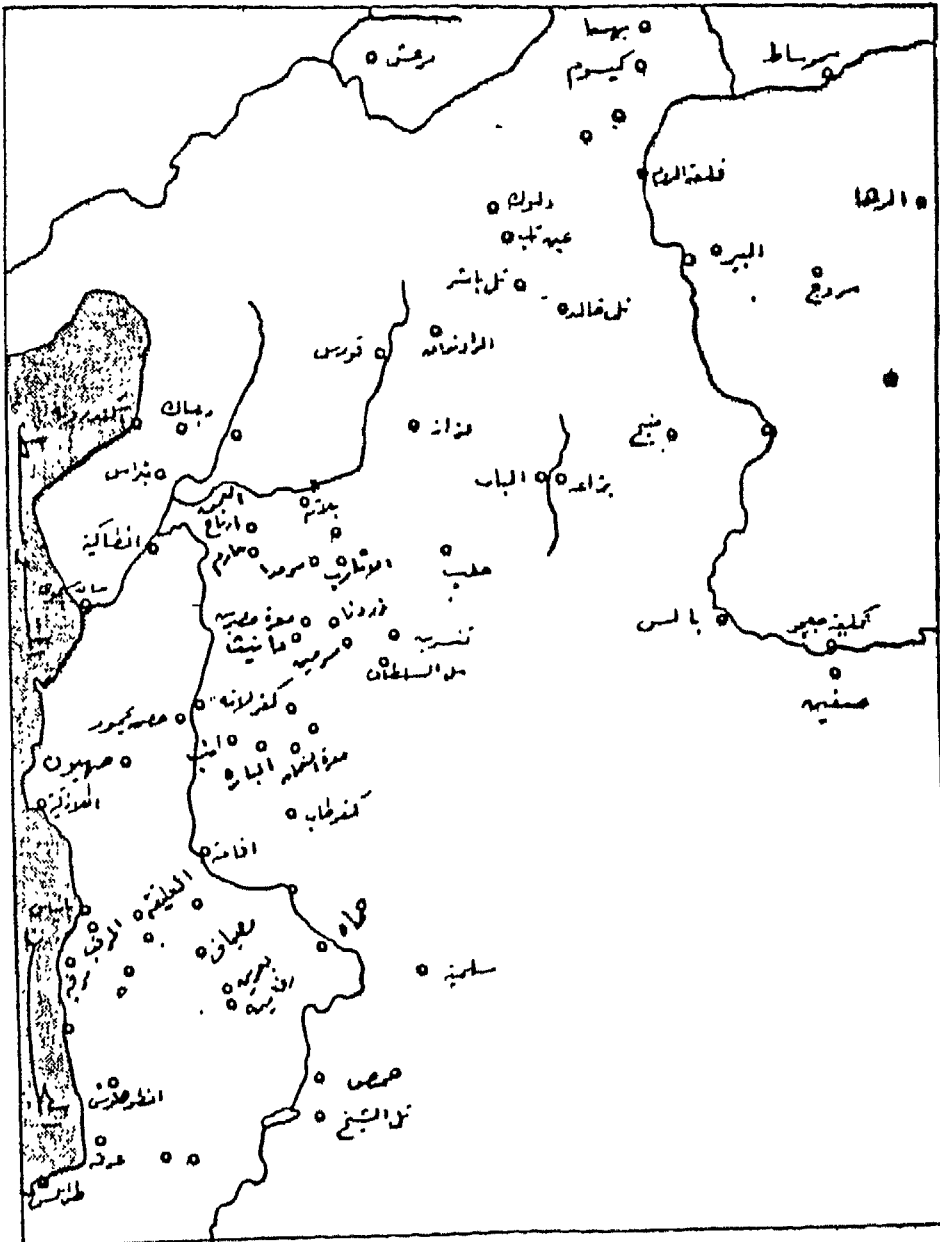
REA , Revue des Etudes Arabes .

REI , Revue des Etudes Islamiques .

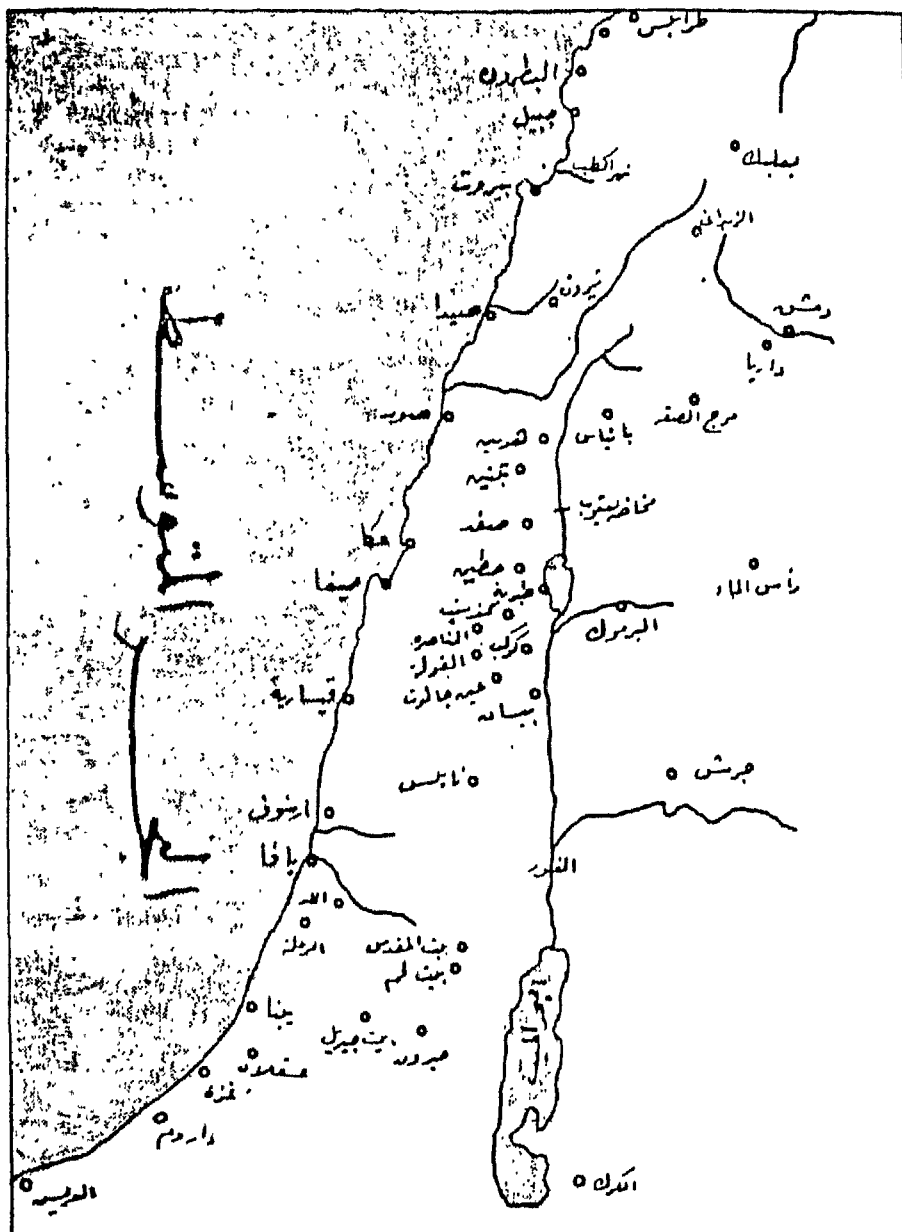
REJ , Revue des Etudes Juives .

RHC , Recueil des Historiens des Croisades .

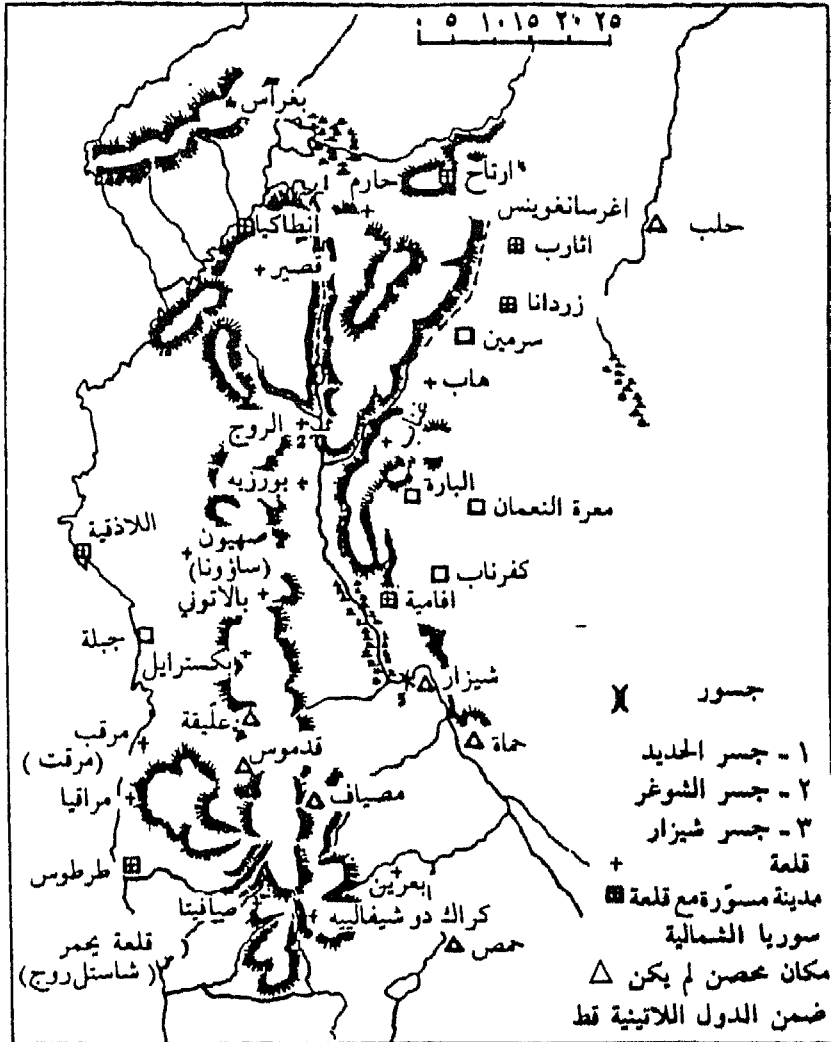
ROL , Revue de l'Orient Latin .



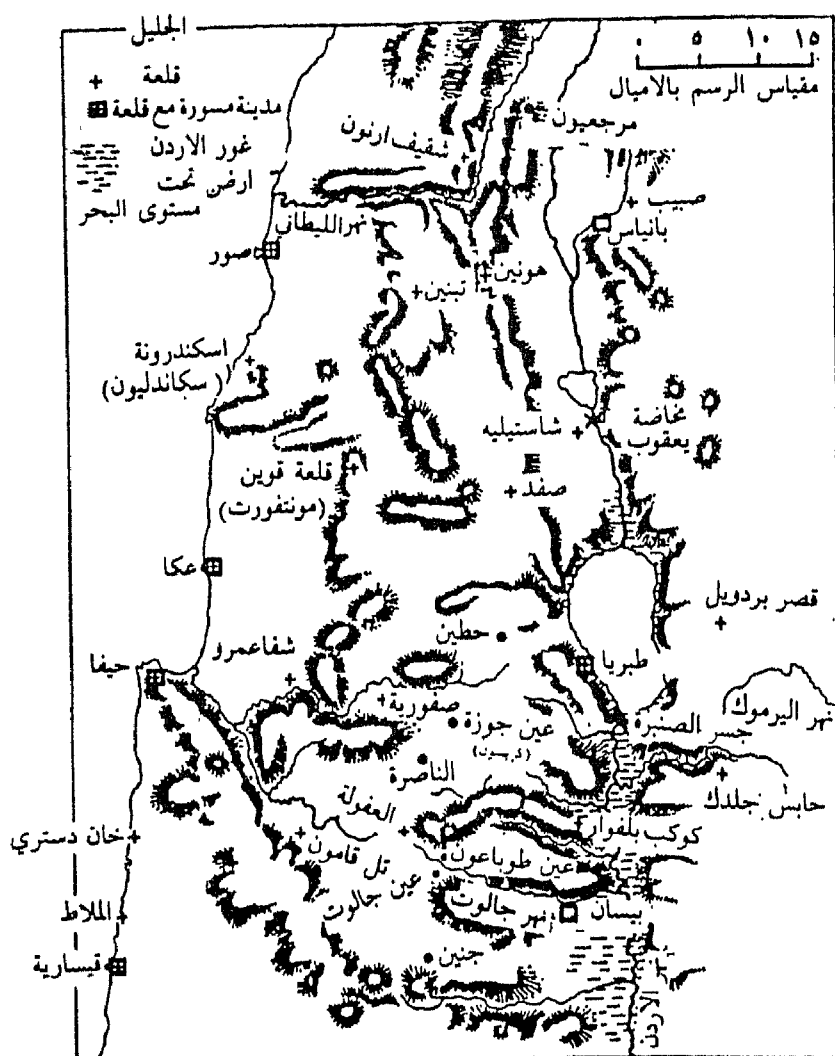
شمال الشام نقلاً عن العربي، الشرق الأوسط والحروب الصليبية.



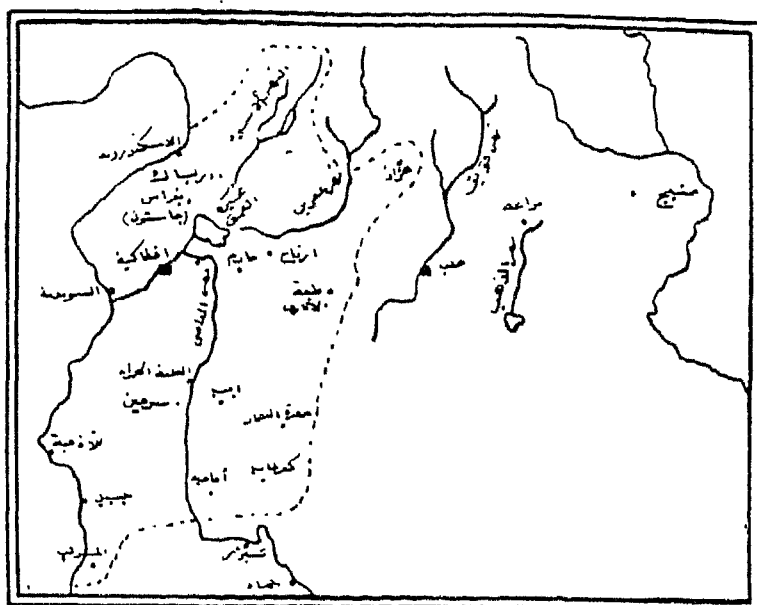
فلسطين نقلاً عن العربي، الشرق الأوسط والحروب الصليبية.



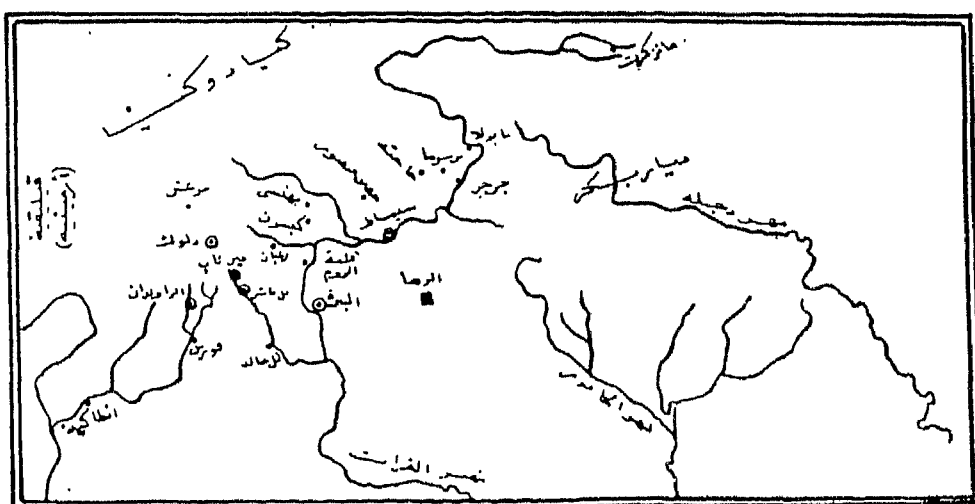
القلاع الصليبية في إمارتي أنطاكية وطرابلس
نقلاً عن سمايل، الحروب الصليبية.



القلاع الصليبية في شمال فلسطين
نقلًا عن سماعيل، الحروب الصليبية.



إمارة أنطاكية، نقلاً عن عمران، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية
في عهد الامبراطور ماثيو الأول



إمارة الرها، نقلاً عن نفس المرجع.

قائمة المصادر والمراجع

- أولا المصادر العربية المخطوطة .
- ثانيا : المصادر العربية المطبوعة .
- ثالثا : المصادر المعربة .
- رابعا : المراجع والمصادر الفارسية .
- خامسا : المصادر اللاتينية واليونانية
والسريانية والأرمنية .
- سادسا : المراجع العربية والمعربة .
- سابعاً : المراجع الأجنبية .

أولاً : المصادر العربية المخطوطة

- ابن أيبك الدوادارى (أبوبكر بن عبدالله ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) درر التيجان و غرر تواريخ الزمان ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ٢٤٠٩ تاريخ .
- ابن الجوزى (أبو الفرج ابن الجوزى ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) المصباح المضئ فى خلافة المستضى، مخطوط بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ٧١٩٧ .
- الخالدى (بدر الدين محمد ت ٩٢٧هـ / ١٥٣١م) المقصد الرفيع المنشأ ، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة، تحت رقم ٢٤٠٤٥ تاريخ .
- السلامى (شهاب الدين أحمد) مختصر التواريخ مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم ١٤٣٥ تاريخ .
- المقريزى (تقى الدين أحمد ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) المقفى ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ٥٣٧٢ تاريخ خاصة ج (١) .

ثانيا : المصادر العربية والمعرية المطبوعة

- ابن أبى أصبيعة (موفق الدين أبو العباس ت ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م) معجم الأنباء فى طبقات الأطباء ، جزآن ط. القاهرة ١٨٨٢م .
- ابن الأثير (ضياء الدين نصر الله ت ٦٣٣هـ / ١٢٣٩م) . رسائل ضياء الدين ابن الأثير ، تحقيق المقدسى ط. القاهرة ١٩٥٨م .
- ابن الأثير (عز الدين محمد بن عبد الكريم ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) الكامل فى التاريخ ، ط. القاهرة ١٢٩٠هـ، ١٣٤١هـ . التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ، تحقيق عبد القادر طليمات ، ط. القاهرة ١٩٦٣م .
- ابن أيبك الدوادارى (أبو بكر بن عبدالله ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) الدرة المضيئة فى أخبار الدولة الفاطمية ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ط. القاهرة ١٩٦١م .
- ابن بطلان رسالة فى طلب الرقيق وتقليب العبيد ، ط. القاهرة ١٩٥٤م .

- ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) الرحلة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ط. بيروت ١٩٦٤م .
- ابن بعرة (منصور بن بعرة الذهبى الكاملى القرن ٧هـ / ١٣م) كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية، تحقيق عبد الرحمن فهمى، ط. القاهرة ١٩٦٦م .
- ابن البيطار (أبو محمد عبدالله أحمد ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ، ج (٤) ، ط. القاهرة ١٢٩١هـ.
- ابن تغرى بردى (جمال الدين يوسف ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج (٥) ، ط. القاهرة . المنهل الصافى المستوفى بعد الوافى ، ج١ ، تحقيق نجأتى ط. القاهرة ١٩٦٥م .
- ابن جبير (محمد بن أحمد الكنانى ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) الرحلة المسماة تذكرة بالأخبار فى اتفاقيات الأسفار، ط. بيروت ١٩٦٨م .
- ابن الجوزى (أبو الفرج عبدالرحمن ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م) المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، ط. حيدر أباد الدكن ١٣٨٩ هـ .
- ابن حماد (أبو الحسين ت ٦٢٨هـ / ١٢٣١م) أخبار ملوك بنى عبيد ، تحقيق فنذر هيدن، ط. الجزائر ١٩٢٧م .
- ابن حوقل (أبو القاسم محمد ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م) صورة الأرض ، تحقيق دى جويه، ط. ليدن ١٩٣٨م .
- ابن خرداذبة (أبو القاسم عبد الله بن عبدالله ت ٣٨٠هـ / ٩٩٣م) المسالك والممالك ، تحقيق دى جويه ، ط. ليدن ١٨٨٩م .
- ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) المقدمة ، ط. القاهرة ب- ت . العبر وديوان المبتدأ والخير ، ط. القاهرة ب- ت .
- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق، محمد محى الدين عبد الحميد ، ط. القاهرة ١٩٤٨م .

٣٠٧

ابن سعيد المغربي (على بن موسى ت ٦٧٢هـ / ١٢٧٥م) بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق خوان خنيس، ط. تطوان ١٩٥٨م. كتاب الجغرافيا، تحقيق العربي، ط. بيروت ١٩٧٠م.

ابن شاکر الکتبی (محمد بن أحمد ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) عيون التواريخ، ج (٢١)، تحقيق نبيلة عبد المنعم، وفیصل السامر، ط. بغداد ١٩٨٤م.

ابن شاهين (غرس الدين خليل ت ٨٧٢هـ / ١٤٦٧م) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق بول رافيس، ط. باريس ١٨٩٤م.

ابن الشحنة (محيى الدين أبو الفضل ت ٨١٥هـ / ١٤١٢م) روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر، بهامش ج (٨) من الكامل لابن الأثير، ط. القاهرة ١٢٩٠هـ. الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تحقيق يوسف سرکيس، ط. بيروت ١٩٠٩م.

ابن شداد (بهاء الدين ت ٦٣٢هـ / ١٢٢٤م) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشیال، ط. القاهرة ١٩٦٠م.

ابن شداد الحلبي (عز الدين أبو عبدالله ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م) الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج (١)، تحقيق سورديل، ط. دمشق ١٩٥٦م. ج (٢)، الطبوغرافيا التاريخية، تحقيق سامي الدهان، ط. دمشق ١٩٦٢م.

ابن الصيرفي (أبو القاسم على بن منجب، القرن ٦هـ / ١٢م) قانون ديوان الرسائل، تحقيق على بهجت، ط. القاهرة ١٩٠٥م.

ابن الطقطقي (أبو جعفر محمد بن تاج الدين ت القرن ٨هـ / ١٤م) الفخرى في الآداب السلطانية، تحقيق ديرنبرج، ط. شالون ١٨٩٤م، ط. بيروت ١٩٦٦م.

ابن ظافر الأزدي (جمال الدين أبو الحسن ت ٦١٢هـ / ١٢١٦م) أخبار الدولة المنقطعة، تحقيق أندريه فرييه، ط. القاهرة ١٩٧٢م.

ابن عبدالحق البغدادي (صفي الدين عبد المؤمن ت ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م) مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق البنجاوي، ط. القاهرة ١٩٥٤م.

ابن عبد الظاهر (محيى الدين ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٣م) تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور، تحقيق فؤاد كامل ، ط. القاهرة ١٩٦١م .

ابن العبرى (غريغوريوس بن الفرغ ت ٦٨٥هـ / ١٢٥٦م) تاريخ مختصر الدول ، ط. بيروت ب - ت .

ابن العديم (كمال الدين أبو القاسم ت ٦٦٠هـ / ١٢٦١م) زبدة الحلب من تاريخ حلب ، ج (٢) ، تحقيق سامى الدهان، ط. دمشق ١٩٥٤م . بغية الطلب فى تاريخ حلب - القسم الخاص بتراجم السلاجقة ، تحقيق على سويم، ط. الجمعية التاريخية التركية ، أنقرة ١٩٧٦م . الوصلة إلى الحبيب فى وصف الطبيبات والطبيب، ط. معهد التراث العلمى العربى- جامعة حلب. سيرة راشد الدين سنان، تحقيق برنارد لويس مجلة الدراسات العربية لعام ١٩٦٦م . REA, Année 1966

ثلاثة تراجم من ابن العديم تحقيق برنارد لويس Melanges Füad Koprülü ط. استانبول ١٩٢٣م .

ابن عساكر (أبو القاسم على بن الحسن ت ٥٧١هـ / ١١٧٦م) تبين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبى الحسن الأشعري، تشر المقدسى ، ط. دمشق ١٣٤٧هـ ، ولالة دمشق فى العصر السلجوقى، تحقيق صلاح الدين المنجد، مجلة المجمع العلمى بدمشق ج (٤) ، م (١١) ، لعام ١٩٤٩م. تاريخ مدينة دمشق ، مجلد (١) ، (٢) ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ط. دمشق ١٩٥١م . ترجمة محمود بن زكى، تحقيق نيكيتا اليسيف مجلة الدراسات الشرقية، م (٢٥) ، لعام ١٩٧٢م . BEO, XXV, Année 1972 .

ابن العماد الحنبلى (أبو الفلاح عبد الحى ت ٨٩٠هـ / ١٦٧٩م) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ط. القاهرة ١٣٥١هـ .

ابن الفراء (أبو على الحسين بن محمد ق ٥هـ / ١١م) رسل الملوك ومن يصلح للسفارة ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ط. القاهرة ١٩٤٧م .

ابن الفرات (ناصر الدين محمد ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م) تاريخ الدول والملوك ، م (٢) ، ج (١) ، تحقيق الشماع ، ط. البصرة ١٩٦٧م .

٣٠٩

- ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن محمد بن إبراهيم ت. ٥٢٩هـ / ١٩٠٣م) مختصر كتاب البلدان ، تحقيق دى جويه ، ط. ليدن ١٨٨٢م .
- ابن قاضى شهبه (تقى الدين أحمد ت. ٨٥١هـ / ١٤٤٨م) الكواكب الدرية فى السيرة النورية ، تحقيق محمود زايد ، ط. بيروت ١٩٧١م .
- ابن القلانسى (أبو يعلى حمزة ت. ٥٥٥هـ / ١١٦٠م) ذيل تاريخ دمشق، تحقيق أميدروز، ط. بيروت ١٩٠٨م .
- ابن الكازرونى مختصر التاريخ ، تحقيق مصطفى جواد ، ط. بغداد ١٩٧٠م .
- ابن كثير (الحافظ عماد الدين اسماعيل ت. ٧٤٤هـ / ١٣٧٣م) البداية والنهاية ، ج (١٢) ، ط. القاهرة ١٩٣٢م .
- ابن ممتى (شرف الدين ت. ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م) قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطيه، ط. القاهرة ١٩٤٨م .
- ابن منكلى (محمد بن منكلى الداعى ت. ٧٧٥هـ / ١٣٧٦م) الأحكام الملوكية والضوابط النموسية فى فن القتال فى البحر ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، تحقيق عبد العزيز عبد الدايم كلية الآداب- جامعة القاهرة ، لعام ١٩٧٤م .
- ابن ميسر (أبو عبدالله تاج الدين ت. ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م) تاريخ مصر ، تحقيق هنرى ماسيه، ط. القاهرة ١٩١٩م .
- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ت. ٦٩١هـ / ١٢٩١م) مفرج الكروب فى تاريخ بنى أيوب ، ج (١) ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط. القاهرة ١٩٥٣م .
- ابن الوردى (أبو حفص زين الدين ت. ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م) تتمة المختصر فى أخبار البشر، ط. القاهرة ب-ت .
- أبو الحسن الحكيم (على بن يوسف الحكيم ، القرن ٨هـ / ١٤م) الدوحة المشتبكة فى ضوابط السكة، تحقيق حسين مؤنس، معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ١٩٦٠م .

- أبو شامة (شهاب الدين أبو محمد ت ٦٥٥هـ / ١٢٦٧م) الروضتين فى تاريخ الدولتين النورية والصلاحية، ج (١) / ق (١) ، تحقيق محمد حلمى محمد ط. القاهرة ١٩٥٦م ، ج (١) / ق (٢) تحقيق محمد حلمى محمد ، ط. القاهرة ١٩٦٢م .
- أبو الفداء (اسماعيل بن على ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) المختصر فى أخبار البشر، ط. بيروت ١٩٦٠م. تقويم البلدان ، تحقيق رينو ودى سلان، ط. باريس ١٨٤٠ .
- الإدرسى (أبو عبدالله محمد ت ٥٦١هـ / ١١٦٦م) نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق، ج (٤) ، تحقيق جابر للى وديلا فيلا ، ط. نابولى ١٩٧٥م .
- أسامة بن منقذ (مؤيد الدولة أبو المظفر ت ٥٨٤هـ / ١١٨٨م) ، كتاب العصا، تحقيق عبد السلام هارون، ضمن نواذر المخطوطات ، م (٢) ، ط. القاهرة ١٩٥٠م . الاعتبار ، تحقيق فيليب حتى، ط. برنستون ١٩٣٠م، ط. بيروت ١٩٨١م .
- الأسنوى (جمال الدين بن عبد الرحيم ت ٧٧٢هـ / ١٣٧٠م) طبقات الشافعية ، تحقيق عبدالله الجبورى، ط. بغداد ١٣٥٠هـ .
- الأشعرى (أبو الحسن بن اسماعيل ت ٣٢٤هـ / ٩٣٥م) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، ط. القاهرة ١٩٥٤م .
- بدر الدين بن محمد ، السمط الغالى الثمن فى أخبار الملوك الفز باليمن، تحقيق محمد عبد العال، مجلة معهد المخطوطات العربية ، ج (١) ، م (٢) ، مايو ١٩٦٤م. (قسم من المخطوط) وقد حققه كاملاً ركس سميث ، ط. كمبردج ١٩٧٤م .
- البدرى (أبو البقا عبدالله ت قرن ٩-١٠هـ / ١٥-١٦م) نزهة الأنام فى محاسن الشام ط. القاهرة ١٣٤١هـ .
- حاجى خليفة (مصطفى كاتب شلبى ت ١٦٧هـ / ١٦٥٧م) كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، ط. استانبول ١٩٤١م .

الحريرى (أحمد بن على الحريرى تاريخ الوفاة غير معروف) الإعلام والتبيين
بمخرج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، تحقيق سهيل زكار، ط.
دمشق ١٩٨١م.

الذهبي (الحافظ الذهبي ت٧٤٨هـ / ١٣٤٨م) دول الإسلام ، تحقيق شلتوت
ومصطفى ابراهيم ط. القاهرة ١٩٧٤م . العبر فى خبر من غير ، تحقيق
صلاح الدين المنجد ، وفؤاد سيد ، ط. الكويت ١٩٦٠-١٩٦٣م .

الدمشقى (أبو الفضل الدمشقى فى القرن ٦هـ / ١٢م) الإشارة إلى محاسن التجارة،
تحقيق الشوربجى، ط. الاسكندرية ١٩٧٧م .

الديار بكرى (حسين بن محمد بن الحسن ت٩٨٢هـ / ١٥٨٢م) النفيس فى أحوال أنفس
نفيس ، ط. القاهرة ١٢٨٣هـ .

الراوندى (أحمد بن على بن سليمان ت ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م) راحة الصدور وآية
السرور ، ت. الشواربى وعبد النعيم حسنين وعبد المعطى الصياد ، ط.
القاهرة ١٩٦٠م .

سبط بن الجوزى (أبو المظفر يوسف ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م) مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ،
ج ٨ ، ق (١) ط. حيدر أباد الدكن ١٩٥١م .

السبكى (تاج الدين عبد الوهاب ت ٧٧١هـ / ١٣٦٩م) طبقات الشافعية الكبرى،
ط. القاهرة ب-ت .

السجلات المستنصرية ، سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله أمير
المؤمنين صلوات الله عليه إلى دعاة اليمن وغيرهم قدس الله أرواح جميع
المؤمنين، تحقيق عبد المنعم ماجد ، ط. القاهرة ١٩٥٤م .

سهراب عجائب الأقاليم السبعة ، ط. فيينا ١٨٩٢٩م .

السهورردى (أبو النجيب ضياء الدين ت ٥٦٣هـ / ١١٦٧م) آداب المريدين ، تحقيق
شلتوت، ط. القاهرة ب-ت .

السيوطى (عبد الرحمن بن أبى بكر ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) تاريخ الخلفاء ، ط.
القاهرة ب-ت .

- شيخ الربوة الدمشقي (أبو طالب الأنصاري ت ٧٢٧هـ / ١٣٢٦م) نخبة الدهر في عجائب
البر والبحر، تحقيق مهرن ط. بطرسبرج ١٩٣٥م .
- صالح بن يحيى (الأمير صالح بن يحيى بن الحسين ت ٨٤٠هـ / ١٤٩٦م) تاريخ بيروت،
تحقيق كمال الصليبي وهورس، ط. بيروت ١٩٦٧م .
- الصفدي (صالح الدين خليل ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) الوافي بالوافيات ، ج (١) ،
تحقيق هلموت رينز ط. فسيادون ١٩٦٢م، ج (٦) تحقيق ديدرينغ، ط.
فسيادون ١٩٧٢م .
- العثماني (صدر الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م) تاريخ صفد ،
تحقيق برنارد لريس ، مجلة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية ،
العدد (٢٥) ، لعام ١٩٥٣م . BSOAS, XXV, 1953
- العدوي (القاضي العدوي ت ١٠٣٢هـ / ١٦٢٢م) الزيارات ، تحقيق صلاح الدين
المنجد ، ط. دمشق ١٩٥٦م .
- العظيمي (محمد بن علي ت ٥٥٦هـ / ١١٦١م) تاريخه ، تحقيق كلود كاهن ،
الجريدة الآسيوية ، لعام ١٩٣٩م . JA, Année 1939
- العماد الأصفهاني (القاضي ت حوالي آخر القرن ٦هـ / ١٢م) البستان الجامع ، تحقيق
كلود كاهن، مجلة الدراسات الشرقية ، العدد (٧) ، (٨) لعام
١٩٣٧-١٩٣٨م .
- BEO, VII-VIII, Année 1937 - 1938 .
- العماد الأصفهاني (الكاتب ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م) الفتح القسي في الفتح القدسي ،
تحقيق محمد صبيح ، ط. القاهرة ١٩٦٥م . خريدة القصر وجريدة
العصر، القسم الخاص بشعراء الشام، تحقيق شكري فيصل ، ط. دمشق
١٩٦٥م . ويوجد قسم نشره درينبرج
- Nouveaux Melanges Orientaux, Année 1886.
- البرق الشامي ، وقد اختصره الفتح البنداري تحت عنوان سنا البرق
الشامي ، تحقيق فتحية النبراوي . ط. القاهرة ١٩٧٩م .

- عمارہ الیمنی (أبو محمد عمارة بن علی ت ٥٦٩ھ / ١١٧٥م) النکت العصرية فی
الوزارة المصرية، تحقیق دیرنبرج ، ط. باريس ١٨٩٧م .
- الغزالی (أبو حامد ت ٥٠٥ھ / ١١١١م) المنقذ من الضلال ، ط. القاهرة ب-ت.
تهافت الفلاسفة ، تحقیق سلیمان دنیا ، ط. القاهرة ب-ت .
- الفارقی (أحمد بن یوسف بن علی ت ٥٧٢ھ / ١١٧٨م) تاریخ میافارقین ، بهامش
ذیل تاریخ دمشق ، تحقیق أمیدروز ، ط. بیروت ١٩٠٨ م .
- القرمانی (أبو العباسی أحمد الدمشقی ، ت ١٠١٩ھ / ١٦١٠م) أخبار الدول
وآثار الأول، ط. القاهرة ب-ت .
- القزوينی (زکریا بن محمد بن محمود ت ٦٨٢ھ / ١٢٨٣م) آثار البلاد وأخبار
العباد، ط. بیروت ١٩٦٠م . عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ،
ط. بیروت ١٩٧٣م .
- القلقشندي (أبو العباسی أحمد بن علی ت ٨٢١ھ / ١٤١٨م) صبح الأعشى فی
صناعة الإنشاء ، ط. القاهرة ب-ت . نهاية الأرب فی معرفة أنساب
العرب، تحقیق ابراهیم الإبیاری ، ط. القاهرة ١٩٦١م .
- مجموعة الوثائق الفاطمية ، وثائق الوزارة وولاية العهد ، تحقیق جمال الدین الشیال ، ط.
القاهرة ١٩٥٨م .
- مجهول الاستبصار فی عجائب الأمصار ، تحقیق سعد زغلول عبد الحمید ، ط.
الاسکندرية ١٩٥٨م .
- المخزومی (علی بن أبی عمرو عثمان ت ٥٨٥ھ / ١١٩٥م) المنهاج فی علم خراج
مصر، تحقیق کلود کاهن ، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، ط. القاهرة
١٩٨٦م .
- المقریزی (تقی الدین أحمد بن علی ت ٨٤٥ھ / ١٤٤١م) البیان والاعراب عما
بأرض مصر من الأعراب، تحقیق عبد المجید عابدين ، ط. القاهرة
١٩٦١م اتعاط الخنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، ج (٣) ، تحقیق
محمد حلمی محمد ، ط. القاهرة ١٩٧١م . المواقظ والاعتبار بذكر
الخطط والآثار ، ط. القاهرة .

- المنهاجى السيوطى (أبو عبدالله محمد بن شهاب الدين ت ٨٨٠هـ / ١٤٨٥م) إتحاف
الاخصا بفضائل المسجد الأقصى ، ج (١) ، تحقيق أحمد رمضان أحمد ،
ط. القاهرة ١٩٨٢م
- ناصر خسرو ناصر خسرو علوى ت ٤٨١هـ / ١٠٨٨م) سفر نامه ، ت . يحيى الخشاب
، ط. القاهرة ١٩٤٥م .
- نظام الملك (الوزير الحسن بن على ت ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م) سياسة نامه ، ت. السيد
العزاوى، ط. القاهرة ١٩٧١م .
- النعمى (محيى الدين أبو المفاخر ت ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م) الدارس فى تاريخ
المدارس، تحقيق جعفر الحسنى ج (١) ، ج (٢) ، ط. دمشق ١٩٤٨م .
- النفرى (أبو عبدالله محمد بن عبدالله ت القرن ٤هـ / ١٠م) موقف المواقف ،
تحقيق بولس نوبا ، ضمن كتاب نصوص صوفية غير منشورة ، ط.
بيروت ١٩٧٤م .
- النورى (شهاب الدين أحمد ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) نهاية الأرب فى فنون الأدب ،
ج (٢٧) ، تحقيق سعيد عاشور ، ط. القاهرة ١٩٨٠م .
- الهروى (أبو الحسن على بن أبى بكر ت ٦١١هـ / ١٢١٥م) ومقتطفات من رحلته
حققها تشارلز شيفر فى مجلة أرشيف الشرق اللاتينى، ج (١) لعام
١٨٨١م . AOL , I , 1881 الإشارات إلى معرفة الزيارات ، تحقيق
جاكلين سورديل ، ط. دمشق ١٩٥٣م . الوهرانى (ركن الدين
محمد بن محمد ت ٥٧٥هـ / ١١٧٩م) منامات الوهرانى ومقاماته ، تحقيق نغش وزميله
ط. القاهرة ١٩٦٧م .
- الواسطى المقدسى (أبو بكر محمد بن أحمد ت القرن ٥هـ / ١١م) فضائل البيت المقدس،
تحقيق اسحق حسون معهد الدراسات الآسيوية والأفريقية- الجامعة
العبرية بالقدس ، لعام ١٩٧٩م .
- اليافعى (أبو محمد عبدالله ت ٧٦٨هـ) مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، ط. حيدر
آباد الدكن لعام ١٣٤٨هـ .
- ياقوت الحموى (شهاب الدين بن أبى عبدالله ت ٦٧٦هـ / ١٢٢٨م) معجم البلدان ، ط.

٣١٥

بيروت ١٩٥٥م. ، تحقيق وستنفيلد ، ط. لبسك ١٨٨٩م. إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، أو معجم الأدباء ، تحقيق فريد رفاعي ، ط. القاهرة ١٩٣٦م. - ١٩٣٨م.
 اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب ت ٢٨٢هـ / ٨٩٥م) كتاب البلدان ، تحقيق دى جويه ، ط. لندن .

ثالثًا المصادر العربية

بنيامين التطيلي (ابن يونه النباري ت ٥٦٩هـ / ١١٧٣م) الرحلة ، ت. عزرا حداد ، ط. بغداد ١٩٤٨م.
 ماركو بولو (ت عام ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م) الرحلة ، ت. عبد العزيز توفيق جاويد ، ط. القاهرة ١٩٧٧م.

رابعًا : المصادر والمراجع الفارسية

خواندمير (غياث الدين بن همام الدين ت ٩٤٥هـ / ١٥٣٥م) حبيب السير ، جلد دوم ، ط. تهران .

رشيد الدين همزاني ، جامع التواريخ ، ط. تهران .
 محمد على مدرس ، ریحانة الأدب فی تراجم المعروفین بالكنية واللقب ، جلد ششم ، ط. تهران .

ميرخوند (محمد بن خاوند شاه ت ٩٠٣هـ / ١٤٩٧م) تاريخ روضة الصفا ، جلد ششم .

خامسًا : المصادر اللاتينية واليونانية والسريانية والأرمينية

Abbot Daniel , The Pilgrimage of The Russian Abbot Daniel , Trans . by Wilson, PPTS, vol. IV , London 1896 .

Albert d'Aix , RHC, Hist . occ ., T . IV .

Anonymous , The Deeds of The Franks and other Pilgrims, Trans . by R. Hill, New York 1962 .

Anonymous Syriac chronicle , The First and Second Crusade, Trans . by Tritton, JRAS, 1933 .

- Burchard of Mont Sion, Pilgrimage of Burchart of Mont Sion, Trans. by Stewart, PPTS, vol. XII, London 1896 .
- Cinnamus , Epitome Historiarum, in CSHB, Bonn 1836 .
- Ernoul, Ernoul's Account of Palestine , Trans . by Conder, PPTS, vol. VI, London 1896 .
- Eugene III writing to king Louis VII of France and his subjects proclaims the second crusade on behalf, March 1146 , in the Crusades, idea and Reality, London 1981, by Louise and Jonathan riely Smith, pp. 57-59 .
- Eugene III announce a crusade, December 1145 in source Book of Medieval History , by Thatcher, New York 1909 , pp. 526-529 .
- Eucherius, Description of Jerusalem, Trans. by A. Stewart, PPTS, vol. III, London 1892 .
- Fetellus, Description of Jerusalem and The Holy Land Trans. by Macpherson, PPTS, vol . V, London 1896 .
- Fulcher of Chartres, History of The Expedition to Jerusalem, Trans. by Rita Rian, Tennessee, USA, 1969, also in Peters, the first crusade chronicles of Fulcher of Chartres and other Materials Philadelphia 1971 .
- Gregoire le Pretre, in RHC, Doc. Arm, T. I .
- Jacques de Vitry, Hist . of Jerusalem , Trans. by Stewart, PPTS, vol . XI , London 1896 .
- Johnes Phocas, Brief Description of the Castles and Cities from the city of Antioch even unto Jerusalem , Trans . by A. Stewart, PPTS, vol. II, London 1894 .

John of Wurzburg, Description of The Holy Land, Trans. by Stewart, PPTS, vol. V, London 1894 .

Joinville, The life of Saint Louis , Trans. by Shaw, in Chronicles of the crusades, London 1963 .

Ludolph von Suchem , Description of The Holy Land , Trans. by Stewart, PPTS, vol. VII., London 1896 .

Marino Sanutos, Secrets for True crusaders to Help them to Recover The Holy Land , Trans. by A. Stewart, PPTS, vol. VII, London 1896.

وقد ظهرت له ترجمة عربية بعنوان : كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب والحفاظ عليها . ت.
الأب سليم رزق الله، ط. بيروت ١٩٩١م

Michel Le Syrien , Chronologique , ed. par Chabot, T. III, Paris. 1903 .

Nicetas Choniates, Historia , CSHB, Bonn 1835 .

Odo of deul , De Profectione Ludovici VII in Orienten19, ed . Berry , New York

Otto of St. Blasion , The Third Crusade from the chronicle of Otto of St. Blasion, in thatcher , Source Book of Medieval History , New York 1903 .

Psellus, Chronographia, in Ashor and Rabie, fifty documents in Medieval history , Cairo 1971 .

The Jews and The Crusades, The Hebrew Chronicles of The First and Second Crusades, Trans. by Shlomo Eidelburg, Madisoh 1977 .

Silvia of Aquitania, Pilgrinage to the Holy Places, Trans . by A. Stewart, P.P. T.S., vol .II, London 1896 .

The Jews and The Crusadas, The Hebrew Chronicles of The First and Second Crusades, Trans. by Shloma crusades, Fidelburg, Madison 1977.

Theodorich , Description of The Holy Land , Trans. by Stewart, PPTS, vol .
V, London 1896 .

Robert Clari, The Conquest of Constantinople , English Trans., New York
1936 .

وله ترجمة عربية قام بها حسن حبشى تحت عنوان فتح القسطنطينية على أيدي الصليبيين .

Villehardoun, The Conquest of Constantinople , Trans. by Shaw, in Chron-
icle of the Crusades, London 1963.

وله ترجمة عربية بعنوان :

عن مذكرات فلهاردولين فتح القسطنطينية قام بها حسن حبشى ، ط. جدة ١٩٨٢ م .

William Of Tyre , A History of The deeds done beyond The Sea , Trans. by
Bebcok and Krey , 2 vols. , New York 1943 .

سادسا : المراجع العربية والمعربة

إبراهيم خليل، (د.) «كريوغا صاحب الموصل» المؤرخ العربى العدد (٥) لعام ١٩٧٤م.

إبراهيم خميس ، (د.) جماعة الفرسان الداوية وعلاقتهم السياسية بالمسلمين فى الشرق
الأدنى حتى نهاية حكم صلاح الدين الأيوبي .

رسالة ماجستير غير منشورة- كلية الآداب- جامعة الاسكندرية، لعام
١٩٨٠ م .

العلاقات السياسية بين جماعة الفرسان الداوية والمسلمين فى مصر
والشام (١١٦٣-١٢٩١) رسالة دكتوراة غير منشورة - كلية الآداب-
جامعة الاسكندرية ، لعام ١٩٨٢ م .

إبراهيم الدسوقي ، (د.) «دور المتصوفة الإيرانيين فى ميدان التصوف الإسلامى
وسياحاتهم فى مصر» ، ضمن كتاب الصلات الثقافية بين مصر وإيران.
لمجموعة من الباحثين، ط. القاهرة ١٩٧٥ م .

إبراهيم زغسروت ، (د.) «العلاقات التجارية الدولية ودور المغرب الإسلامى فيها خلال
القرنين الثانى والثالث الهجريين» ، الدارة العدد (١١) السنة (١١)
يونيو ١٩٧٥ م .

- إبراهيم الصبحى ، «المواصلات عند العرب فى خدمة اقتصادهم» ، مجلة الضياء ، العدد (١٤) ، السنة (٣) مايو ١٩٨٣ م .
- إبراهيم طرخان ، (د) «الإقطاع الإسلامى ، أصوله وتطوره- دراسة مقارنة» ، المجلة التاريخية المصرية، م(٦) لعام ١٩٥٧ م .
- «غانه فى العصور الوسطى» ، المجلة التاريخية المصرية، م (١٣) لعام ١٩٦٧ م .
- النظم الإقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٦٨ م .
- إمبراطورية غانا الإسلامية ، ط. القاهرة . ١٩٧٠ م .
- أبو الفرج العشى ، آثارنا فى الإقليم السورى، ط. دمشق . ١٩٦٠ م .
- أحمد بدر (د) ، «الأندلسيون والمغاربة فى القدس» مجلة أوراق المعهد الأسباني العربى للثقافة، العدد (٤) لعام ١٩٨١ م .
- أحمد بدوى (د) ، الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ط. القاهرة ١٩٧٢ م .
- الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية فى مصر والشام ، ط. القاهرة ١٩٧٩ م .
- أحمد بيللى ، حياة صلاح الدين الأيوبي، ط. القاهرة ١٩٢٦ م .
- أحمد حمدى ، معدات التجميل فى متحف الفن الإسلامى، ط. القاهرة ١٩٥٦ م .
- أحمد دراج (د) ، «عذاب» مجلة نهضة أفريقيا العدد (٩) يوليو لعام ١٩٥٥ م .
- أحمد رمضان (د) ، شبه جزيرة سيناء فى العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٧٧ م .
- المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٧٧ م .
- حضارة الدولة العباسية ، ط. القاهرة ١٩٧٨ م «العناصر الدينية فى بلاد الشام فى العصرين الأيوبي والملوكى» ، ضمن الكتاب الذهبى لكلية الآثار- جامعة القاهرة ، ج (٣) ، ط. القاهرة ١٩٧٨ م .

- الرحلة والرحالة المسلمون ، ط. جدة ب-ت .
- «المسجد الأموي بدمشق بين الحقيقة والأسطورة كما جاء فى تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر» ، العدد (٤) ، السنة (٥) ، لعام ١٩٨٠ م .
- أحمد الشامى (د.) ، «العلاقات التجارية بين دول الخليج العربى وبلدان الشرق الأقصى» المؤرخ العربى العدد (١٢) لعام ١٩٨٠ م .
- أحمد الشريف (د.) ، دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة، ط. القاهرة ١٩٦٨ م .
- أحمد صادق سعد (د.) ، تاريخ مصر الاجتماعى والاقتصادى، ط. بيروت ١٩٧٩ م .
- أحمد عبد الرازق (د.) ، «عقد مراجعة من العصر الفاطمى» ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، م (٣) عام ١٩٨٥ م ، وسائل التسلية عند المسلمين ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط م (٣) ، عام ١٩٨٥ م .
- أحمد فؤاد سيد ، «ملاحظات حول ظهور الماليك» ، ضمن كتاب بحوث ودراسات مقدمة لأبى فهر محمود شاكر ، ط. القاهرة ١٩٨١ م .
- نظم الحكم والإدارة للعصر الأيوبي بمصر، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة عين شمس ، لعام ١٩٨٣ م .
- أحمد فكرى (د.) ، «التأثيرات الفنية الإسلامية العربية على الفنون الأوربية» ، مجلة سومر ، ج (١) ، ج (٢) ، م (٣) ، لعام ١٩٦٧ م .
- «فن العمارة والتحف الفنية» ضمن كتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية، لمجموعة من الباحثين، ط. القاهرة ١٩٧٠ م .
- أحمد الهوارى (د.) ، «نماذج من شعر الجهاد ضد الصليبيين» ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط، م (٣) ، ط. القاهرة ١٩٨٥ م .
- إحسان عباس ونجم (د.) ليبيا فى كتب الجغرافيا والرحالة ، ط. بنى غازى ١٩٦٨ م .
- أرشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، ت. أحمد عيسى، ط. القاهرة ١٩٦٠ م .
- أرشيد يوسف ، سلاجقة الشام والجزيرة فى الفترة ٤٣٥-٥٧٠ هـ ، ط. الرياض ١٩٨٨ م .
- إرنست باركر ، الحروب الصليبية ، ت. السيد الباز العرنى، ط. القاهرة ١٩٦٠ م .

- أسامة زكى (د.) ، الصليبيون وإسماعيلية الشام فى عصر الحروب الصليبية ، القرن الثانى عشر م / السادس هـ ، ط. الإسكندرية ١٩٨٠ م .
- صيدا ودورها فى الصراع الصليبي الإسلامى ، ط. الإسكندرية ١٩٨١ م .
- إسحق عبيد (د.) ، روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتينى لمدينة قسطنطين ، ط. القاهرة ١٩٧٠ م .
- الدولة البيزنطية فى عصر باليوغوس (١٢٦١-١٢٨٢ م) ، ط. بنى غازى ب. ت .
- أسد رستم (د.) ، الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ، ج(٢) ، ط. بيروت ١٩٥٦ م .
- اسكندر داود ، الجزيرة السورية ، ط. دمشق ١٩٥٩ م .
- أشتور ، التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، عبد الهادى عبله ، ط. دمشق ١٩٨٥ م .
- أكرم العلى ، نيابة دمشق حتى نهاية عهد المالك ، رسالة ماجستير غير منشورة ، معهد الدراسات العربية .
- أمال هاشم (د.) ، باتياس الداخلية فى الصراع الإسلامى الصليبي عصر الحروب الصليبية ، رسالة ماجستير كلية الآداب- جامعة الاسكندرية عام ١٩٨٢ م .
- المرقب وقلعتها ودورها فى الصراع الصليبي الإسلامى فى عصر الحروب الصليبية (١٠٩٥-١٢٩١ م / ٤٨٧-٦٩٠ هـ) ، رسالة دكتوراه كلية الآداب- جامعة الاسكندرية عام ١٩٨٧ م .
- أمينة البيطار ، (د.) «التعليم فى دمشق فى القرن السادس هـ» آداب الرافدين ، العدد (١١) لعام ١٩٧٩ م .
- أنتونى بروج ، الحروب الصليبية ، ت. سبانو ، ط. دمشق ١٩٨٥ م .
- أنور عبد العليم ، (د.) الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، سلسلة عالم المعرفة ، ط. الكويت ١٩٧٩ م .

بابا ديولو ، «إشكالية دراسة علمية للتأثيرات الممكنة ولفن العمارة الإسلامية على فنون الغرب» ضمن كتاب أضواء عربية على أوروبا فى القرون الوسطى ت. عادل العوا، ط. بيروت ١٩٨٣م .

باقر الحسينى ، (د.) العملة الإسلامية فى العهد الأتابكى، ط. بغداد ١٩٦٦م .
البدراوى زهران ، (د.) الصراع اللغوى فى عصر الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٨٣م .
اللغة العربية فى عصر الحروب الصليبية، رسالة دكتوراة كلية الآداب- جامعة القاهرة .

بدرى فهد ، (د.) العامة ببغداد فى القرن الخامس الهجرى، ط. بغداد ١٩٦٧م .
برنارد لويس ، الدعوة الاسماعيلية الجديدة، الحشيشية، ت. سهيل زكار ، ط. بيروت ١٩٧١م .

البعلبكى ، تاريخ بعلبك ، ط. بيروت ١٩٠٨م .
بيشوف ، تحفة الأنباء بتاريخ حلب الشهباء ، ط. بيروت ١٨٨٥م .
تشارلز أومان ، الإمبراطورية البيزنطية ، ت. طه بدر، ط. القاهرة ١٩٦٠م .
تيسير بن موسى، غزوات الافرنج ، ط. بنى غازى ١٩٨٣م .
جارسان ، ازدهار وانهيار حاضرة مصرية قوص ، ت. بشير السباعى، ط. القاهرة ١٩٩٧م .
جاسم حمادى ، (د.) «نهاية النفوذ السلجوقى فى العراق»، المؤرخ العربى، العدد (٢٥) لعام ١٩٨٤م .

جمال الدين سرور، (د.) الدولة الفاطمية فى مصر ، ط. القاهرة ١٩٦٠م .
تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق، ط. القاهرة ١٩٦٥م .
جمال الدين الشيال، (د.) نظام الوزارة فى العصر الفاطمى»، ضمن كتاب دراسات فى التاريخ الإسلامى، ط. بيروت ١٩٦١م .
جوزيف داهموس، سبع معارك حاسمة فى العصور الوسطى، ت. فتحى الشاعر، ط. القاهرة ١٩٨٧م .

جوزيف نسيم يوسف، (د.) هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل، ط. القاهرة ب-ت .

- العدوان الصليبي على مصر ، ط. الإسكندرية ١٩٦٧م.
- علاقات مصر بالممالك التجارية الإيطالية فى ضوء وثائق صبح الأعشى» ، ضمن كتاب القلقشندى لمجموعة من الباحثين ، ط. القاهرة ١٩٧٣م.
- الوحدة وحركات البقطة فى عصر الحروب الصليبية، ط. بيروت ١٩٨١م.
- جيرارد زلنجر ، «الفتوة هل هى الفروسية الشرقية؟» ، ضمن كتاب دراسات إسلامية ، ت مجموعة من الباحثين بإشراف نقولا زيادة، ط. بيروت ١٩٦٨م .
- جيرسى بياسكوفسكى ، «الصلب الدمشقى أروع المنجزات فى علم التعدين» الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب، معهد التراث العلمى العربى - جامعة حلب ، ط. حلب ١٩٧٧م.
- حامد زيان ، (د.) حلب فى العصر الزنكى، رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآداب- جامعة القاهرة لعام ١٩٧٠م .
- العلاقات بين صقلية ومصر والشام إبان الحروب الصليبية، رسالة دكتوراه غير منشورة كلية الآداب- جامعة القاهرة لعام ١٩٧٣م .
- حامد غنيم ، (د.) الجبهة الإسلامية فى عصر الحروب الصليبية، جـ (٢) ، ط. القاهرة ١٩٧٢م .
- الحبيب الجنحاني، (د.) «نظام ملكية الأرض فى المغرب الإسلامى» المؤرخ العربى، العدد (٢٣) لعام ١٩٨٣م .
- حجاجى ابراهيم ، (د.) «القلاع وتطور الفكرة الهندسية» مجلة المنهل، العدد (٤٥٢)، م(٤٨)، يونيو ١٩٨٧م .
- حسن ابراهيم ، (د.) الفاطميون فى مصر، ط. القاهرة ١٩٣٢م.
- تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى ط. القاهرة ١٩٦٥م .
- حسن الباشا ، (د.) الألقاب الإسلامية، ط. القاهرة ١٩٥٧م .
- حسن حبشى ، (د.) نور الدين والصليبيون ، ط. القاهرة ١٩٤٨م . الشرق الأوسط بين شقى الرحى، حملة لويس التاسع على المنصورة ، ط. القاهرة ١٩٤٩م.

- «ديوان الإنشاء ، نشأته وتطوره» ، ضمن كتاب القلشندي لمجموعة من الباحثين ، ط. القاهرة ١٩٧٣ م .
- حسن خليفة ، الدولة العباسية ، ط. القاهرة ١٩٣١ م .
- حسن على حسن ، (د.) «العاقد لدين الله آخر الخلفاء الفاطميين» ، مجلة كلية العلوم الاجتماعية ، جامعة الإمام محمد بن سعود ، العدد (٢) لعام ١٩٧٨ م .
- حسن محمود والشريف ، (د.) العالم الإسلامي في العصر العباسي الثاني ط. القاهرة ١٩٦٦ م .
- حسين ربيع ، (د.) النظم المالية في مصر في العصر الأيوبي ، ط. القاهرة ١٩٦٤ م .
- «البحر الأحمر في العصر الأيوبي» الندوة الدولية عن البحر الأحمر في التاريخ الحديث والمعاصر ، ط. القاهرة ١٩٨٠ م .
- دراسات في تاريخ الدول البيزنطية ، ط. القاهرة ١٩٨٧ م .
- حمدي المناوي ، (د.) الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ، ط. القاهرة ١٩٧٠ م .
- حسين أمين ، (د.) «نظام الحكم في العصر السلجوقي» مجلة سومر ، ج (١) ، (٢) ، م (٢٠) ، لعام ١٩٦٤ م .
- تاريخ العراق في العصر السلجوقي ، ط. بغداد ١٩٦٥ م .
- حسين عطية ، إمارة أنطاكية الصليبية- ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة الإسكندرية لعام ١٩٨١ م .
- حسين مؤنس ، (د.) صور من البطولة ، ط. القاهرة ١٩٤٨ م .
- نور الدين محمود ، سيرة مجاهد صادق ، ط. القاهرة ١٩٨١ م .
- حنا فاخوري والمر ، (د.) تاريخ الفلسفة العربية ط. بيروت ١٩٥٧ م .
- خاشع المعاضيدي ، (د.) الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي ، ط. بغداد ١٩٧٦ م .
- الدوري ، (د.) تاريخ العراق في القرن الرابع الهجري ، ط. بغداد ١٩٤٨ م .
- «المؤسسات العامة في المدينة الإسلامية» مجلة الأبحاث - الجامعة الأمريكية ببيروت السنة (٢٣) ، لعام ١٩٧٨ م ، ١٩٧٩ م .

- الدورى ومعروف ، (د.) تاريخ الحضارة العربية، ط. بغداد ١٩٥٢م .
- دريد نوري ، (د.) «ازدهار الصناعة والزراعة فى بلاد السودان الغربى فى القرن الخامس هـ/ الحادى عشرم كما وصفته المراجع الإسلامية»، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة الكويت العدد (٢١) م (٦) ، ط. الكويت ١٩٨١م.
- دوسو ، العرب فى سوريا قبل الإسلام، ت. عبد الحميد الدوخلى، ط. القاهرة ب-ت .
- رأفت النبراوى، (د.) المسكوكات الصليبية فى مصر والشام، رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآثار- جامعة القاهرة- لعام ١٩٨٠م .
- رأفت عبد الحميد ، (د.) بيزنطة بين الدين والفكر والسياسة ، ط. القاهرة ١٩٩٧م .
- راشد البراوى، (د.) حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ط. القاهرة ١٩٤٨م.
- رجب النجار، (د.) حكايات الشطار والعيارين فى التراث العربى، سلسلة عالم المعرفة ، ط. الكويت ١٩٨١م.
- رشيد الجميلى، (د.) دولة الأتابكة فى الموصل بعد عماد الدين زنكى ، ط. بغداد ١٩٧٠م.
- رمزى زكى، (د.) التاريخ النقدى للتخلف ، سلسلة عالم المعرفة، ط. الكويت ١٩٨٧م .
- زامباور ، معجم الأسرات الحاكمة فى الإسلام ، ت. حسن محمود ، وزكى حسن وآخرون، ط. القاهرة ١٩٥١م .
- زبيدة عطا ، (د.) الترك فى العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٧٧م.
- زكريا كتابجى، الترك فى مؤلفات الجاحظ ، ط. بيروت ١٩٧٠م .
- زكى حسن (د.)، الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٥٠م .
- زكى نقاش (د.)، الحشاشون وأثرهم فى المجتمع ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة القاهرة لعام ١٩٥٢م .
- العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية، ط. بيروت ١٩٥٨م .
- زيجفريد هونكه ، شمس الله تشرق على الغرب، ت. فؤاد حسين ، ط. القاهرة ١٩٦٤م .

- سامية توفيق (د.) ، «الثروة الزراعية فى إقليم خراسان» ، مجلة كلية الدراسات الإنسانية - جامعة الأزهر العدد (٣) ، لعام ١٩٨٥م.
- سامى الدهان (د.) ، الناصر صلاح الدين الأيوبي، ط. القاهرة ١٩٦٠م .
- سامى سلطان سعد (د.) ، الاستتارية فى رودس ، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب- جامعة القاهرة لعام ١٩٧٥م .
- ستيفن رنسيما ، الحضارة البيزنطية، ت. عبد العزيز توفيق جاويد، ط. القاهرة ١٩٦١م.
- الحروب الصليبية ، ت. السيد الباز العرنى، ط. بيروت ١٩٦٨م .
- سر الختم عثمان (د.) ، مدينة صور فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر م ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة القاهرة - لعام ١٩٧١م .
- سعد بن مسفر الفامدى، «معركة قطوان ٥٣٦هـ / ١١٤١م»، مجلة العصور ، م(٢) ، ج١ ، يناير ١٩٨٧م .
- سعاد ماهر (د.) ، البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، ط. القاهرة ١٩٦٧م
- مشهد الإمام على بالنجف وما به من الهدايا والتحف ، ط. ١٩٦٩م .
- سعد زغلول عبد الحميد (د.) ، «سياسة نامه لنظام الملك» مجلة تراث الإنسانية، ج (٢) ، م(٩) ، لعام ١٩٧١م .
- تاريخ المغرب العربى من الفتح إلى بدء عصور الاستقلال ، ط. الإسكندرية ١٩٧٨م .
- سعيد الديوجى ، الموصل فى العصر الأتابكى ، ط. بغداد ١٩٥٨م تاريخ الموصل ط. بغداد ١٩٨٢م.
- سعيد عاشور (د.) ، المدنية الإسلامية وآثارها على الحضارة الأوروبية، ط. القاهرة ١٩٦٣م.
- «شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية» المجلة التاريخية المصرية، م (١٦) لعام ١٩٦٩م. الحركة الصليبية ، ج(١) ، ج (٢) ، ط. القاهرة ١٩٦٣م .
- أضواء جديدة على الحروب الصليبية ط. القاهرة ١٩٦٤م .

- الناصر صلاح الدين ، سلسلة أعلام العرب ، ط. القاهرة ١٩٦٥ م .
- «كتاب صبح الأعشى مصدراً لدراسة تاريخ مصر فى العصور الوسطى»
ضمن كتاب القلقشندى لمجموعة من الباحثين ، ط. القاهرة ١٩٧٣ م .
- «ضمن الخلافة العباسية فى الحركة الصليبية» ضمن كتاب العلاقات
بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٧٦ م .
- «بعض أضواء جديدة على ابن عساكر» ضمن كتاب ابن عساكر بمناسبة
مرور تسعمائة عام على ميلاده ، ط. دمشق ١٩٧٩ م .
- «حطين، وقائع وعبر» مجلة العربى العدد (٣٤٤) يوليو ١٩٨٧ م .
- سليمان صائغ ، تاريخ الموصل ، ط. القاهرة ١٩٢٣ م .
- سليمان عطيه (د.) ، التعليم فى فلسطين فى عهد سلاطين المماليك، رسالة دكتوراه غير
منشورة - كلية الآداب- جامعة القاهرة - لعام ١٩٥٠ م .
- سليمان مالكى (د.) ، طرق ركب الحاج العراقى من الكوفة إلى مكة» الدارة ، العدد (٢)
السنة (١١) اكتوبر ١٩٨٣ م .
- «طرق حجاج الشام ومصر منذ الفتح الإسلامى إلى منتصف القرن السابع الهجرى» ، الدارة
العدد (١) ، السنة (١) يونيو ١٩٨٤ م .
- سليم عبدالله ، «تشيد بغداد وأثره فى فن العمارة والعمران العربى والعالمى» ، مجلة
الحوليات الأثرية السورية م (١٢) لعام ١٩٦٣ م .
- السيد الباز العرنى، (د.) «نحو طبقة النبلاء الاقطاعيين بمملكة بيت المقدس فى القرن
الثانى عشر الميلادى» ، حوليات كلية الآداب- جامعة القاهرة، ج (٢) ،
م (٢٠) ، لعام ١٩٥٨ م .
- مصر فى عصر الأيوبيين ، سلسلة الألف كتاب، ط. القاهرة ١٩٦٠ م .
- الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، ج (١) ط. القاهرة ١٩٦٣ م .
- سيد الحريرى ، الأخبار السنوية فى الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٣١٧ هـ .
- السيد عبد العزيز سالم (د.) تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى ، ط.
الإسكندرية ١٩٦٧ م .

السيد العزاوي (د.) ، فرقة النزارية ، تعاليمها ورجالها على ضوء المراجع الفارسية ط. القاهرة ١٩٧٠م.

سونيا هاو ، فى طلب التوابل ، ت. محمد عزيز رفعت ط. القاهرة ١٩٥٧م .
سهام مصطفى (د.) الدعوة الإسماعيلية ومدى نجاحها فى مصر الإسلامية، رسالة دكتوراه غير منشورة - كلية البنات - جامعة عين شمس لعام ١٩٧٧م.

سهيل زكار (د.) مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ، ط. دمشق ١٩٨١م.
الشاطر بصيلى (د.) «الكارمية» المجلة التاريخية المصرية، م (١٣) لعام ١٩٧٥م .
شاكر أبو بدر ، الأسرة الزنكية والحروب الصليبية ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الجامعة اللبنانية، ط. بيروت ب-ت .

شاكر مصطفى (د.) «طفتكين رأس الأسرة البورية» مجلة كلية الآداب - جامعة الكويت، ج (١) ، لعام ١٩٧٢م .

«دخول الترك الغز إلى الشام» ضمن أعمال المؤتمر الأول لتاريخ بلاد الشام الجامعة الأردنية - عمان - لعام ١٩٧٤م.

«دخول الترك الغز إلى الشام فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر» مجلة كلية الآداب - جامعة الكويت، عدد يونيو ١٩٧٧م .

شكرى مقبل ، الأحوال السياسية والحضارية فى فلسطين خلال عصر دولة المماليك الأولى، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب - جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض ، لعام ١٤٠٢هـ .

الشهابى ، الغرر الحسان فى تواريخ الزمان ، ج (١) ط. القاهرة ١٩٠٠م .
صالح الحمارنه (د.) «زراعة قصب السكر وصناعته عند العرب المسلمين» الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب، معهد التراث العلمى العربى - جامعة حلب ، ط. حلب ١٩٧٥م.

صالح العلى (د.) «القبائل العربية فى بلاد الشام فى زمن الخلفاء الراشدين» ، مجلة الدراسات - الجامعة الأردنية ، عثمان - العدد (٤) م (١٤) ، أبريل ١٩٨٧م .

صالح مفتاح ، برقة وطرابلس من الفتح العربى حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة القاهرة لعام ١٩٧٦ م .

صباح الشيخلى (د.) «تطور الوجود العربى فى صحارى فزان ما بين القرنين الأول والسادس هـ/ السابع والثانى عشر م» ، مجلة العلوم الإنسانية جامعة الكويت، العدد (٣) ، م(٦) ، لعام ١٩٨٦ م .

صبحى الصالح ، «إشكالية العلاقة بين الحكمة والشرعة عند الغزالى» ، ضمن كتاب حلقة وصل بين الشرق والغرب ، أبو حامد الغزالى وموسى بن ميمون ، أكاديمية المملكة المغربية السفر (١٢) لعام ١٩٨٢ م .

صبحى لبيب (د.) «التجارة الكارمية فى تجارة مصر فى العصور الوسطى» ، المجلة التاريخية المصرية ، العدد (٢) ، م(٤) ، لعام ١٩٥٤ م .

«سياسة مصر التجارية فى عهدى الأيوبيين والمماليك» ، المجلة التاريخية المصرية م(٢٨) ، (٢٩) لعامى ١٩٨١ ، ١٩٨٢ م .

«الفندق ، ظاهرة سياسية واقتصادية وقانونية ندوة مصر وعالم البحر المتوسط ، كلية الآداب- جامعة القاهرة - عام ١٩٨٤ م .

صفاء عبد الفتاح ، (د.) الموانئ والثغور المصرية من الفتح الإسلامى حتى نهاية العصر الفاطمى ، ط. القاهرة ١٩٨٦ م .

صفى عبدالله ، (د.) «مدن مصر الصناعية فى العصر الإسلامى إلى نهاية عصر الفاطميين» ، رسالة دكتوراة ، كلية البنات- جامعة عين شمس ، لعام ١٩٨٥ م .

صلاح البحيرى (د.) «ديوان الجيش فى الدولة الأيوبية» الموسم الثقافى للجمعية التاريخية المصرية لعامى ١٩٧٦-١٩٧٧ م ، ط. القاهرة ١٩٧٨ م .

«عالمية الحضارة الإسلامية ومظاهرها فى الفنون» حوليات كلية الآداب- جامعة الكويت، الحولية (٧) ، الرسالة (١٢) لعام ١٩٨٢ م .

صلاح الدين المنجد (د.) ، مجلة معهد المخطوطات العربية م(٢) ، ج١ مايو ١٩٥٦ م .
أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب ، ط. بيروت ١٩٦٠ م «المؤرخون

- الدمشقيون وآثارهم المخطوطة». مجلة معهد المخطوطات العربية ، م (٢)، (١)، مايو ١٩٥٦ م ، معجم المؤرخين الدمشقيين ، ط. بيروت ١٩٧٤ م .
- صلاح العبيدي (د.) الملابس العربية الإسلامية فى العصر العباسى من المصادر التاريخية والأثرية ، ط. بغداد ١٩٨٠ م .
- ضيف الله بطاينة (د.) ، الجهاز الإدارى فى الحضارة الإسلامية ، الدارة العدد (٢) ، السنة (١٠) عام ١٩٨٤ م .
- عادل الألوسى ، تجارة العراق البحرية مع أندونيسيا ، ط. بغداد ١٩٨٤ م .
- عادل زيتون ، (د.) العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، ط. دمشق ١٩٨٠ م العلاقات الكنسية بين الشرق البيزنطى والغرب اللاتينى فى العصور الوسطى ، ط. دمشق ١٩٨٠ م .
- عاطف مرقص (د.) ، الأرمن وعلاقتهم بالبيزنطيين من ١٠٧٣ إلى ١١٧١ م رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة عين شمس ، لعام ١٩٨٦ م .
- عامر السامرائى ، الصناعات اليدوية فى العراق ، ط. بغداد ١٩٧٠ م .
- عبد الحفيظ محمد على ، (د.) الحياة السياسية والاجتماعية عند الصليبيين بالشرق الأدنى فى القرنين ١٢ ، ١٣ م رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة القاهرة ، لعام ١٩٧٥ م .
- عبد الرحمن سيد الأهل ، أيام صلاح الدين ط. بيروت ١٩٦١ م
- عبد الرحمن زكى ، (د.) السيف فى العالم الإسلامى ، ط. القاهرة ١٩٥٧ م .
- «العمارة العسكرية فى العصور الوسطى بين العرب والصليبيين» ، المجلة التاريخية المصرية، م (٧) لعام ١٩٥٨ م ، الجيش المصرى فى العصر الإسلامى ، ط. القاهرة ١٩٦٥ م . «القلاع فى الحروب الصليبية» المجلة التاريخية المصرية، م (١٥) لعام ١٩٦٩ م .
- عبد الرحمن فهمى (د.) «النقود الصليبية تحت تأثير النقود العربية فى الشرق العربى» ، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، العدد (١٦) لعام ١٤٠٣ هـ .

٣٣١

- «تعريب النقود ومدلولها الحضارى»، مجلة المنهل ، العدد (٤٥٤) ،
لعام ١٩٨٧ م .
- عبد الغنى رمضان (د.) «شرف الدين مودود» مجلة كلية الآداب- جامعة الإمام محمد بن
سعود ، الرياض ، م(٢) ، السنة (٤) لعام ١٩٧٦ م .
- عبد الغنى عبد العاطى (د.) السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الكسيوس
كومنين ، ط. القاهرة ١٩٨٣ م .
- التعليم فى مصر فى عصر الأيوبيين والمماليك ط. القاهرة ١٩٨٤ م .
- عبد القادر ربحانى «خطط مدينة دمشق» ضمن كتاب ابن عساكر بمناسبة مرور تسعمائة
عام على ميلاده، ط. دمشق ١٩٧٩ م .
- عبد القادر طليمات (د.) مظفر الدين كوكبورى، ط. القاهرة ١٩٦٤ م .
- عبد القادر اليوسف (د.) علاقات بين الشرق والغرب ، ط. صيدا ١٩٦٩ م
- عبد الكريم كريم (د.) «الشام والمغرب خلال القرن العاشر للهجرة» المؤتمر الدولى لتاريخ
بلاد الشام، الجامعة الأردنية - عمان ١٩٧٤ م .
- عبد اللطيف عبد الهادى السيد، السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس الصليبية فى عهد
بلدوين الثالث (١١٤٦-١١٦٣ م) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية
الآداب- جامعة عين شمس عام ١٩٩٠ م .
- عبدالله علوان، (د.) صلاح الدين الأيوبي، ط. القاهرة ١٩٨٣
- عبد المعطى الجلابى، «التأثيرات الإسلامية فى عمارة الغرب فى العصور الوسطى» مجلة
عاديات حلب، معهد التراث العلمى العربى، جامعة حلب، لعام ١٩٧٨ م .
- عبد المنعم ماجد (د.) الإمام المستنصر بالله الفاطمى، ط. القاهرة ١٩٦١ م .
- العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٦٦ م .
- ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ط. القاهرة ١٩٦٨ م .
- عبد النعيم حسنين (د.) سلاجقة إيران والعراق ، ط. القاهرة ١٩٧٠ م .
- عبد الهادى بوطالب، «أبو حامد الغزالى وإشكالية العلاقة بين الحكمة والشرعة» ضمن
كتاب حلقة وصل بين الشرق والغرب ، أبو حامد الغزالى وموسى بن
ميمون . أكاديمية المملكة المغربية ، السفر (١٢) لعام ١٩٨٢ م .

- عبد الهادى التازى، «بلاد الشام فى الوثائق الدبلوماسية المغربية» المؤتمر الدولى الأول لتاريخ بلاد الشام الجامعة الأردنية، عمان ١٩٧١م .
- عثمان عشرى (د.) الأسطول والبحرية فى عصر سلاطين والمماليك، رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآداب- جامعة القاهرة، لعام ١٩٧١م .
- العروسى المطوى، الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب، ط. تونس ١٩٥٤م .
- عزيز سورىال عطيه (د.) العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ت. فيليب صابر، ط. القاهرة ب-ت .
- عصام الدين عبد الرؤف (د.) بلاد الجزيرة فى أواخر العصر العباسى، ط. القاهرة ١٩٧٨م .
- «الأيام الأخيرة فى حياة مصر الفاطمية» الكتاب الذهبى لكلية الآثار- جامعة القاهرة، ج (٢)، ط. القاهرة ١٩٧٨م .
- عطية القوصى (د.) التجارة فى مصر فى العصور الوسطى، رسالة دكتوراه، كلية الآداب- جامعة القاهرة لعام ١٩٧٣م .
- «أضواء جديدة على تجارة الكارمية» المجلة التاريخية المصرية، م (٢٥) لعام ١٩٧٥م .
- «سيراف وكيش (قيس) وعدن من القرن الثالث الهجرى حتى السادس» المجلة التاريخية المصرية، م (٢٣) لعام ١٩٧٦م .
- عطية مشرفة (د.) نظم الحكم فى عصر الفاطميين بمصر، ط. القاهرة ١٩٤٨م .
- عفاف صبره (د.) «شرف الدين مودود التونتكين» الدارة العدد (٢)، السنة (١٢) لعام ١٩٧٦م .
- «بهاء الدين قراقوش الوزير المفتى عليه» الدارة، العدد (٣) السنة (١٣)، اغسطس ١٩٨٧م .
- عفيف بهنسى (د.) «صناعة السيوف الدمشقية»، الكتاب الذهبى لكلية الآثار- جامعة القاهرة، ج (٢)، ط. القاهرة ١٩٧٨م .
- على أحمد السيد (د.) الخليل والحرم الابراهيمى عصر الحروب الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧م / ٤٩٢-٥٨٣هـ، ط. القاهرة ١٩٩٨م .

- على حسنى الخربوطلى (د.) الإسلام والخلافة ، ط. بيروت ١٩٦٩م.
- على صالح المحيميد (د.) الدانشمنديون وجهادهم فى بلاد الأناضول، ط. الاسكندرية ١٩٩٤م.
- على عوده الغامدى (د.) ، «معركة مرياكيفالون ١١٧٦م» جامعة ام القرى ، مكة المكرمة العدد (٢) عام ١٤٠٤هـ.
- عليه الجنزورى (د.) الحياة السياسية فى بلاد الشام فى القرن الخامس هـ، وأثرها فى مقدم الحملات الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية البنات- جامعة عين شمس ، لعام ١٩٦٨م .
- إمارة الرها الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٧٤م .
- عماد الدين خليل (د.) عماد الدين زنكى، ط. بيروت ١٩٧١م .
- إمارة ابن ارتق ، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب- جامعة عين شمس ، لعام ١٩٦٨م .
- «نظم ديار بكر الإدارية فى عهد الأراتقة» آداب الرافدين ، العدد (٦) ، لعام ١٩٧٥م .
- «الجانب الإدارى فى مملكة نور الدين محمود» آداب الرافدين ، العدد (٨) لعام ١٩٧٧م .
- نور الدين محمود وتجرته الإسلامية، ط. دمشق ١٩٨٧م.
- عمر الدسوقي (د.) الفتوة عند العرب ، ط. القاهرة ١٩٥٩م.
- عمر رضا كحالة دراسات اجتماعية فى العصور الإسلامية ، ط. دمشق ١٩٧٣م .
- عمر كمال توفيق (د.) مملكة بيت المقدس اللاتينية ، ط. الاسكندرية ١٩٥٢م تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، ط. الاسكندرية ١٩٦٧م الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين ، ط. الإسكندرية لعام ١٩٨٦م .
- نهر الذهب فى تاريخ حلب، ط. حلب ١٩٤٢م.
- الغزى
- فاروق جرار «أسطول صلاح الدين الأيوبي» مجلة الأبحاث - الجامعة الأمريكية ببيروت، السنة (١٣) ، لعام ١٩٦٠م .

- فاروق عمر (د.) الجذور التاريخية للوزارة العباسية ، ط. بغداد ١٩٨٦م.
- فاطمة الشناوى، معاملة المسلمين للأسرى الصليبيين فى بلاد الشام، ومصر ١١٣٧-١٢٩١م / ٥٣١-٦٩١هـ رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب - جامعة الاسكندرية عام ١٩٩٧م .
- فامبرى ، أنطاكية القديمة، ت. ابراهيم نصحى، ط. القاهرة ١٩٦٧م .
- فايد عاشور (د.) العلاقات بين البندقيّة والشرق الأدنى فى العصر الأيوبي، ط. الاسكندرية ١٩٨٠م . جهاد المسلمين فى الحروب الصليبية، ط. بيروت ١٩٨٥م .
- فتحى أبو سيف (د.) المصاهرات السياسية فى العصرين الغزنوى والسلجوقى، ط. القاهرة ١٩٨٦م .
- فتحى الشاعر (د.) إقليم الشرقية فى عصرى سلاطين الأيوبيين والمماليك ، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب- - جامعة القاهرة ، لعام ١٩٧٦م .
- فتحى عثمان (د.) الحدود الإسلامية البيزنطية ، ط. القاهرة ١٩٦٦م . -
- فتحيه النبراوى (د.) العلاقات السياسية الإسلامية وصراع القوى الدولية فى العصر الوسيط، ط. القاهرة ١٩٨٢م .
- «حياة الإمبراطور الكسيوس كومنن كمصدر من مصادر تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى القرن ١٢م » ، المجلة التاريخية المصرية، م(٢٧)، لعام ١٩٨١م .
- فرات خطاب (د.) الكحالة عند العرب ، ط. بغداد ١٩٧٥م .
- فرديناند توتل ، «زيارة إلى قلعة المرقب» المشرق ج (٤)، م(٢٧) ، لعام ١٩٣٥م .
- فريد أبو حديد ، صلاح الدين الأيوبي وعصره ، ط. القاهرة ١٩٢٧م .
- فريد شافعى (د.) العمارة فى مصر الإسلامية- عصر الولاة، ط. القاهرة ١٩٧٠م .
- فيصل السامر (د.) ابن الأثير ، ط. بغداد ١٩٨٦م.
- فيليب حتى (د.) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ج (٢) ، ت. اليازجى ط. بيروت ١٩٥٩م.

قسطنطين زريق (د.) «مأساهم به المؤرخون العرب فى المائة السنة الأخيرة فى دراسة التاريخ العربى عن فترة الحروب الصليبية»، الأبحاث ، السنة (١٢) ، ج(٢) يونيو ١٩٥٢ م .

كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى، عدة أجزاء ت. رمضان عبد التواب والنجار ، ط. القاهرة .

كازانوف ، تاريخ ووصف قلعة الجبل، ت. دراج ، ط. القاهرة ١٩٧٤ م .

كامل السامرائى (د.) مختصر تاريخ الطب العربى، ج(٢) ، ط. بغداد ١٩٨٥ م .

كامل الشيبى (د.) الصلة بين التصوف والتشيع ، ط. القاهرة ١٩٦٨ م .

كرد على ، خطط الشام ، ط. دمشق ١٩٢٥-١٩٢٨ م . «الشاميون والتاريخ» مجلة المجمع العلمى بدمشق ، ج (١٧) .

كرستى ، تراث الإسلام فى الفنون الفرعية، ت. زكى حسن، ط. دمشق ١٩٨٤ م .

كريزويل وصف قلعة الجبل ، ت. جمال محرز ط. القاهرة ١٩٧٤ م .

كلود كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ت. بدر الدين قاسم، ط. بيروت ١٩٧٠ م.

كمال بن مارس ، العلاقة بين الموصل وحلب وأثرها على الحروب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة عين شمس عام ١٩٩١ م.

كولتون ، عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ، ت. جوزيف نسيم يوسف ، ط. الاسكندرية .

لامونت ، «الحروب الصليبية والجهاد» ، ضمن كتاب دراسات إسلامية ، ت. مجموعة من الباحثين بإشراف نقولا زيادة ، ط. بيروت ١٩٦٠ م .

لويز ، «التأثيرات الشرقية والنهضة الاقتصادية فى الغرب»، ضمن كتاب بحوث فى التاريخ الاقتصادى، ت. توفيق اسكندر ، ط. القاهرة ١٩٦١ م .

لويس شيخو ، «من حماه إلى حلب» المشرق ، العدد (٢٠) ، السنة (٨) ، لعام ١٩٠٥ م.

«تاريخ دمشق لابن القلانسى» ، المشرق العدد (٨) ، لعام ١٩٠٨ م .

«جولة فى الدولة العلوية» ، المشرق السنة (٢٢) ، لعام ١٩٤٤ م .

ليلى طرشوبى، (د.) إقليم الجليل فى فترة الحروب الصليبية، القرن الثانى عشرم، رسالة
دكتوراة غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة القاهرة ، لعام ١٩٨٧م .

لين بول طبقات سلاطين الإسلام ، ت. طاهر مكى، ط. بغداد ١٩٦٨م .

وله ترجمة من جانب محمد السعيد جمال الدين، ط. القاهرة ١٩٧٢م.

مؤنس أحمد عوض (د.) التنظيمات الدينية الإسلامية والمسيحية فى بلاد الشام فى عصر
الحروب الصليبية، القرنين ١٢ ، ١٣ ، رسالة ماجستير غير منشورة،
كلية الآداب- جامعة عين شمس ، لعام ١٩٨٤م .

«بيليوغرافيا الحروب الصليبية ، المراجع العربية والمعرية» ندوة التاريخ
الإسلامى الوسيط،م(٣) لعام ١٩٨٥م .

الرحالة الأوربيون فى مملكة بيت المقدس الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧م ،
ط. القاهرة ١٩٩٢م .

أضواء على الطب فى المناطق الصليبية فى المرحلة من (١٠٩٨-١١٧٤م
/ ٤٩١-٥٧٠هـ) دراسات شرق أوسطية ، مركز بحوث الشرق الأوسط
جامعة عين شمس ١٩٩٥م .

الجغرافيون والرحالة المسلمون فى بلاد الشام زمن الحروب الصليبية ط.
القاهرة ١٩٩٥م .

الزلازل فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية ط. القاهرة ١٩٩٦م .

فصول ببليوغرافية فى تاريخ الحروب الصليبية ط. القاهرة ١٩٩٧م .

من اسهامات الطب العربى الإسلافى فى العصور الوسطى ، ط. القاهرة
١٩٩٧م.

مارجليوس ، المؤرخون العرب ، ت. حسين نصار، ط. بيروت ١٩٦١م .

مارك بلوك ، «مشكلة الذهب فى العصر الوسيط» ضمن كتاب بحوث فى التاريخ
الاقتصادى، ت. توفيق أسكندر ، ط. القاهرة ١٩٦١م .

ماهر حماده (د.) الوثائق السياسية والإدارية فى العهود الفاطمية والأتابكية والأيربية ،
ط. بيروت ١٩٨٤م .

٣٣٧

محمد أحمد حسين ، أسامة بن منقذ ، صفحة من تاريخ الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٤٦م .

محمد الحاج فلفل ، علاقة الأيوبيين فى مصر والشام بالخلافة العباسية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب- جامعة القاهرة ، لعام ١٩٧٧م .

محمد حلمى محمد (د.) مصر والشام والصليبيين، ط. القاهرة ١٩٧٩م .

محمد الخضرى ، تاريخ الأمم الإسلامية- الدولة العباسية، ط. القاهرة ب-ت .

محمد عبد العال (د.) الأيوبيون فى اليمن ، ط. الإسكندرية ١٩٨٠م .

محمد عبد الغنى الأشقر (د.) تجارة الكارم والكارمية فى مصر زمن سلاطين المماليك ٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م . رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة عين شمس عام ١٩٩٧م .

محمد عمارة (د.) «الفروسية العربية تواجه الفرسان الصليبيين» ضمن كتاب العرب والتحدى، سلسلة عالم المعرفة ، ط. الكويت ١٩٨٠م .

تيارات الفكر الإسلامى، ط. القاهرة ١٩٨٢م . -

محمد كامل حسين (د.) «الطب والأقربائين» ضمن كتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوروبية ، ط. القاهرة ١٩٨٠م .

محمد محمد الشيخ (د.) الإمارات العربية فى بلاد الشام فى القرنين ١١ ، ١٢ م ، ط. الاسكندرية ١٩٨٠م .

محمد يوسف موسى (د.) القرآن والفلسفة ، ط. القاهرة ١٩٧١م .

محمود إسماعيل (د.) سوسيولوجيا الفكر الإسلامى ، ج (٢) ، ط. الدار البيضاء ١٩٨٠م .

الخوارج فى بلاد المغرب ، ط. القاهرة ١٩٨٦م .

محمود الحويرى (د.) الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين ١٢ ، ١٣ م ، ط. القاهرة ١٩٧٩م .

«العادل الأيوبي، صفحة من تاريخ الدولة الأيوبية، ط. القاهرة ١٩٨٠م .

محمود رزق محمود (د.) العلاقات بين أرناط أمير حصن الكرك وصلاح الدين الأيوبي حتى موقعة حطين عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب- جامعة عين شمس، لعام ١٩٧٧م .

محمود سعيد عمران (د.) ، الحملة الصليبية الخامسة ، ط. الاسكندرية ١٩٧٨م .

معركة حارم ، المؤرخ العربى، العدد (٨) لعام ١٩٧٧م .

السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد مانويل كومنين ، ط. القاهرة ١٩٨٥م .محمود عامر (د.) دولة بنى مروان فى ديار بكر ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة .

محمود الهرفى (د.) شعر الجهاد فى عصر الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٧٩م .

محمود ياسين التكريتى (د.) الأيوبيون فى شمال الشام والجزيرة ، رسالة دكتوراه ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة، لعام ١٩٨١م .

«الأيوبيون فى اليمن وتاريخهم السياسى» آداب الرفادين ، العدد (١٢) . لعام ١٩٨٤م

مختار العبادى (د.) قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام ، ط. القاهرة ١٩٦٩م .

ميرفت محمد سالم ، حصن الأكراد ودوره فى الصراع الصليبي- الإسلامى ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة الإسكندرية عام ١٩٩٢م .

مسفر الغامدى (د.) الجهاد ضد الصليبيين، ط. جدة ١٩٨٦م

معركة قطوان ٥٣٦هـ / ١١٤١م، مجلة العصور ، ج (١) ، م (٢) يناير ١٩٨٧م .

مصطفى الحناوى (د.) ، جماعة الاسبتارية ودورها فى الصراع الصليبي الإسلامى فى عصر الحروب الصليبية (١٠٩٩-١٢٩١م / ٤٩٣-٦٩٠هـ) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة المنيا ١٩٨٠م .

مصطفى زيادة (د.) مصر والحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٤٢م .

حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة، ط. القاهرة ١٩٦٦م

مصطفى الشكعة (د.) سيف الدولة الحمدانى، ط. القاهرة ١٩٥٩م .

- «من آداب الصيد عند العرب» حوليات كلية الآداب - جامعة عين شمس ، م (٦) ، لعام ١٩٦١ م .
- مصطفى الكنانى (د.) العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامى ١١٧١ - ١٢٩١ م ، ط. الاسكندرية ١٩٨٠ م .
- مصطفى عبد الرازق (د.) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ، ط. القاهرة ١٩٦١ م .
- مصطفى الهلالى ، «الفتوة والفروسية العربية الإسلامية» مجلة المورد، العدد (١) ، م (٢) شتاء ١٩٨٣ م .
- مصطفى طلاس، ومحمد وليد الجلاذ ، قلعة الحصن ، حصن الكرك ، ط. دمشق ١٩٩٠ م .
- مكسيموس مونروند ، تاريخ الحرب المقدسة فى الشرق المدعوة بحرب الصليب ، ط. القدس ١٨٦٥ م .
- منير كمال ، الحمامات الدمشقية ، ط. دمشق ١٩٦٤ م .
- منى عبد الرحمن ، السفارات الأجنبية فى مصر على عصر سلاطين المماليك، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب - جامعة القاهرة عام ١٩٧٥ م .
- موريس لومبار ، «الأسس النقدية للسيادة الاقتصادية والذهب الإسلامى من القرن السابع إلى القرن الحادى عشر» ضمن كتاب بحوث ودراسات فى التاريخ الاقتصادى، ت. توفيق أسكندر، ط. القاهرة ١٩٦١ م .
- موننجومرى ، (الفيلدمارشال) الحرب عبد التاريخ ، ج (٣) ، ت. عبدالله النمر ، ط. القاهرة ١٩٧٢ م .
- ميخائيل زابورف ، الصليبيون فى الشرق ، ت. إلياس شاهين ط. موسكو ١٩٨٦ م .
- ميخائيل عواد «أجوزة السفر فى العصور الإسلامية» مجلة الكتاب ، ج (٧) ، م (٢) ، السنة (٨) ، ط. القاهرة ١٩٧٦ م .
- «لمحات من أثر الشرق فى الغرب» مجلة المجمع العلمى العراقى ، ج (٢) ، م (١٢) أبريل ١٩٨٤ م .
- ناصر النقشبندى ، «الدينار الأتابكى» مجلة المجمع العلمى العراقى م (٤) ، ج (١) لعام ١٩٥٦ م . نافع العبود ، الدولة الخوارزمية ، ط. بغداد ١٩٧٨ م .

- نبيله مقامى (د.) ، فرق الرهبان الفرسان فى بلاد الشام فى القرنين ١٢ ، ١٣ م ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب - جامعة القاهرة لعام ١٩٧٤م ، نشرت بالقاهرة عام ١٩٩٤ واستعنت بالأصل المخطوط.
- نصرى فهمى (د.) «الأهمية العسكرية لليمن فى العصر الأيوبي» ندوة التاريخ الإسلامى ، م (٦) ، كلية دار العلوم - جامعة القاهرة ، لعام ١٩٨٧م .
- نظير حسان سعداوى (د.) التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين الأيوبي ، ط. القاهرة ١٩٥٨م .
- نقولا زيادة (د.) سوريا زمن الصليبيين «المقتطف ، ج (١) ، م (٨٧) ، لعام ١٩٣٥م . «الطرق التجارية فى العصور الوسطى» مجلة تاريخ العرب والعالم ، العددان (٥٩) ، (٦٠) ، السنة (٥) ، أكتوبر ١٩٨٣م .
- رواد الشرق العربى فى العصور الوسطى ، ط. بيروت ١٩٨٦م.
- نعمت غلام (د.) فنون الشرق الأوسط فى العصور الإسلامية ، ط. القاهرة ١٩٧٣م .
- نعيم قداح والحكيم ، أفريقيا الغربية فى ظل الإسلام ، ط. دمشق ب-ت.
- نيكيثا اليسيف ، «الحياة الاقتصادية فى دمشق فى عصر ابن عساكر» ، ضمن كتاب ابن عساكر بمناسبة مرور تسعمائة عام على ميلاده ، ط. دمشق ١٩٧٩م .
- هادى نهر ، معارك نور الدين محمود فى الشعر العربى رسالة ماجستير ، كلية الآداب - جامعة القاهرة ، لعام ١٩٦٦م .
- هاملتون جب ، «تاريخ دمشق» ضمن كتاب صلاح الدين الأيوبي ، بحوث ودراسات فى التاريخ الإسلامى ت. يوسف أيبش ، ط. بيروت ١٩٧٣م . «جيوش صلاح الدين» ضمن الكتاب السابق ، «هكذا انتصر صلاح الدين» مجلة الجيل العدد (٩) ، م (٨) ، لعام ١٩٨٧م .
- هايد ، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، ت. محمد رضا ، ط. القاهرة ١٩٨٦م .
- هسى ، العالم البيزنطى ، ت. رأفت عبد الحميد ، ط. القاهرة ١٩٧٧م .
- واصف غالى ، تقاليد الفروسية عند العرب ، ت. أنور لوقا ط. القاهرة ١٩٦٠م .

- وديع نقولا ، قاموس لبنان ، ط. بيروت ١٩٢٧ م .
- وفاء محمد على ، الدولة البورية ودورها فى عصر الحروب الصليبية ط. القاهرة ١٩٨٤ م.
- يوسف بغدادى «الرها» المشرق ، العدد (٢) ، السنة (٨) ، لعام ١٩٠٥ م .
- يوسف سمارة ، جولة فى الإقليم الشمالى ، ط. القاهرة ١٩٦٠ م .
- يوسف غوانه (د.) ، «الأفضل بن بدر الجمالى وموقفه من الحملة الصليبية الأولى» ، مجلة كلية الآداب- جامعة الإمام محمد بن سعود ، م (١٠) ، لعام ١٩٨٣ م .
- يوسف فضل (د.) «المعالم الرئيسية فى الهجرة العربية إلى السودان» المجلة التاريخية المصرية، م (١٣) ، لعام ١٩٦٧ م .
- يوشع براور ، عالم الصليبيين، ت . قاسم عبده قاسم وخليفه، ط. القاهرة ١٩٨١ م .
- يونس السامرائى (د.) السفارات فى التاريخ الإسلامى حتى قيام الدولة العباسية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية دار العلوم - جامعة القاهرة ، لعام ١٩٧٦ م .
- الدولة المرداسية فى حلب، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية دار العلوم - جامعة القاهرة، لعام ١٩٨٢ م .

سابعاً : المراجع الأجنبية

- Al Petkin (C.) , The Reign of Zangi (521-541/ 1127-1146) , A Taturk University 1978 .
- AL- Zanki (J.) The Emirate of Damasus in The early crusading Period (488-549-1095-1154) ph . thesis , St. Andrews University 1989 .
- Archer (T.) , Kingsford (C.) , The Crusades, the story of the latin kingdom of Jerusalem , London 1894 .
- Atiya (A.S.) , The crusades, Historiography and Bibliography . London 1960 .
- The Crusade in the later Middle Ages, London 1962 .
- Balard (M.), “Des chateaux forts en Palestine”, l’Histoire, XLVII, 1982 .

- Baldwin, (M.) "The latin states under Baldwin III and Amalric I" In setton ,
History of the crusades, vol . I. Pennsylvania 1958 .
- Bathayean (E.) , "Les Juifs, Les infideles de l'Europe", l'Histoire, LXVII,
Année 1982 .
- Berry (F.), " The second crusade" , in setton , History of the Crusades, vol .
I, Pennsylvania 1958 .
- Bernoud , The crusades, London 1962 .
- Boase (T. S. R.), Kingdoms and Strongholds of the Crusades, London 1971 .
- Bouchier (M. A.), Short History of Antionch , London 1921 .
- Bradford (R.) , The shield and the sword , New York 1973 .
- Brauwer, Saint Bernard l'homme d'Eglise, Paris 1953 .
- Breheir, Le Monde Byzantine, vie et mort de Pyzance, Paris 1946 .
- Brundage (J.) , Prostitution, Miscegenation and Sexual Purvdy in the First
Crusade , in Crusade and Settlement, ed . by P. W. Edbury, Car-
diff 1985.
- Cahen (C.) , "La campagne de Mantzikert" Byzantion, IX , Année 1934 .
La Syrie du nord al'epoque de croisades, Paris 1940 .
"The turkish invasion: in setton, History of the crusades, vol. I,
Pennsylvania 1958 .
- Cavaliero, The Last of the crusaders, London .
- Chalandon (F.), Les commnenes, T. I. Paris 1912 .
- Charanis (P.) , "The Byzantine Empire in the Eleventh Century" in setton,
History of the crusades, I, Pennsyylvania 1958 .
- Compe, Wiet, Sauvaget, Repertovere d'epigraphie Arabe, T. IX .
- Conder (C. R.), The Latin kingdom of Jerusalem . London 1897 .

٣٤٣

Diel (ch.), History of the Byzantine Empire, English Trans. by Ives, New York 1945 .

Duggan (A.), The story of the crusades, London 1960 .

Ebeid (I) , "Was pope innocent III an accomplice in the diversion of the fourth crusade 1204 " , EHR , XV , Cairo 1969 .

EL- Azhari (T.) , The Saljuqs of Syria during The Crusades 463-549 A. H. 1070-1154 A.D., Perlin 1997 .

Elisseeff, (N.) ,

, " Les monuments de Nur - Al- Din " BEO , XII, Année 1949-1951 .

, " La titulature de Nur Al- Din " BEO , XIV Année 1952-1954.

, "Corporation de Damas sous Nur- Al- Din, matériaux Pour une topographie économique de Damas , Au XII, siècle REA, III, Année 1956 .

, " La description de Damas d'Ibn Asakir, Damas 1959 .

Nur Al- Din , un Prince musulman au temps de croisades, Damas 1967 .

, L'Orient Musulman au Moyen Ages, Paris 1977.

Favier (J.) , :Les templiers, ou l'échec des banquiers de la croisade", L'Histoire, XL VII, 1982 .

Fedden (R.) , Crusader castles, London 1950 .

Finlk (H.) , " Maudud of Mosul Precursor of saladin " M. W. XL III , 1953 .

Fischel (W.) , Jews in The Economic and Political Life of Mediaeval Islam, London 1937.

Gibb (H.) , The Damascus chronicle of the crusades, London 1932 .

, "Zengi and the fall of Edessa" in setton, history of the crusades, vol. I, Pennsylvania 1958 .

, " The Career of Nur Al- Din" in setton, history of The crusades, vol. I, Pennsylvania 1958 .

Goitein (S.), " Geniza source for the Crusader period , Asurvey" in outrmer studies in the history of the of crusading kingdom of Jerusalem , Jerusalem 1982.

Grousset (R.) , Histoire des croisades, T. III, Paris 1949 .

Hagenmayer, " Chronologie de la Premiere croisade ' Rol, VII, Année 1899.

Hiyari (M.A.) , " The origins and development of the Arabs during the seventh / thirteenth and eighth fourteenth centurues ", BSOAS, XXXVIII, Part 2 , 1979 .

-Hussey (J.), The Later Macedonians, the comnenes and the angelos, in CMH, vol. V. Cambridge 1979 .

Kedar (B.) , Crusade and Mission, European appraaches Toward Muslims, Princeton 1988.

Kerr, The crusades, New York 1946 .

Khayat (M.) , " The shite Rebellions in Aleppo in the 6 the A.D/ 12 the A. D. century " RDSO, XLVI, december 1971 .

King, The knights hospitallers in the Holy Land , London 1930 .

Kingsford (C.), " The Kingdom of Jerusalem", in CMH, vol. V, Cambridge 1948 .

Koplan (M.) , " Le sac de constantinople" , l'Histoire, XLVII, Paris 1982 .

La Monte (J.) ,, "To what extent was the Byzantine Empire suzarian of the latin crusading states", Pyzantion, VII, 1932 .

Feudal monarchy in the latin kingdom of Jerusalem , Cambridge
1982 .

Lane- Poole- (S.) , History of Egypt in the Middle Ages, London 1901 .

, Catalogue of the collection of Arabic coins Preserved in the
Khedieval library in Cairo, London 1887 .

Lavoix. Catalogue des monnaies musulmans, Paris 1896 .

Le Roulex (D.) , "Inventaire de Pieces terre sainte de l'ordre de l'hospital"
ROL, III, Année 1895 .

, " Bulles Pour l'Ordre de Temple" ROL, XI , Année .

Le Strange (G.), Palestine under Islam, London 1890 .

Lewick and Johnson, West African food in the middle ages, Cambridge
1974 .

Lewis (B.) , The Assassins , Aradical sect in Islam, London .

, "The Ismailites and Assassins" in setton, history of the cru-
sades , vol . I, Pennsylvania 1958 .

Lombard (M.) , The Golden Age of Islam , Trans . by Jean spencer , Hol-
land 1975 .

Lopez and Raymond , Medival trade in Mediterranean world , Oxford 1955 .

Margoliouth, " The Assassins" in ERE, vol. II.

Massignon (L.) " Islamic Guilds" in ESS, vol. VII, New York 1954 .

Max Van Berchem, " Inscriptions Arabes de Syrie, " MIE, III, Le Caire
1922 .

Mayer (H.) , The Crusades , trans . by Gillingham, Oxford 1922 .

Metzger (T and M) , Jewish life in the Middle ages, Hong kong 1982 .

Micheau (F.), "La bataille de Hattin , Saladin de fait l'occident", l'histoire,
XLVII, 1982 .

- Nicol (D.) , A Biographical Dictionary of The Byzantine Empire, London 1991.
- Neubauer, "Le Memarbuch de mayence " REJ, IV , Année 1882 .
- Northup (L.E.) , The knights templars (1118-1187) , thesis of master of Arts, Faculty of Arts, California University 1948 .
- O'leary (D) , Short History of the Fatimid khalifate , London 1923 .
- Oldenberg (Z) , Les croisades, Paris 1975 .
- Oman (Ch.) , History of the Art of war in the Middle Ages, vol . II, London 1924 .
- Ostrogorsky (G.), History of The Byzantine State Trans. by Hussey, Oxford 1956 .
- Prawer (J.) , Histoire de royaume latin de Jerusalem, T. II.
 , "The Settlement of the latins in Jerusalem", speculum, XXVII.
- Rey (E.) , Les colonies franques de syrie aux XII me et XIII siecle, , Paris 1883 .
 , "Resume chronologique de l'histoire des princes d'Antioch",
 ROL, IV , Année 1986 .
- Richard (J.) , Le Royaume latin de Jerusalem, Paris 1953 .
 , La comte de tropli sous la dynastie toulousaine , Paris 1945 .
 , "An account of the Battle of Hattin referring to the frankish Mercenaries in oriental moslem states" speculum XXXII.
- Riley- Smith (J.), The knights of st. John of the latin kingdom of Jerusalem , London 1967 .
- Rohricht (R.) , Beitrage zur Geschichte de Kreuzzuges, Easter band , band , Berlin 1974 .

- Runciman (S.) , The Byzantine civilisation , London 1934 .
- A History of the crusades Combridge 1978.
- Salibi (K.) , The Maronites of lebanon under Frankish and Mamluk rule (1099-1516) , "REA, IV, Année 1957 .
- , "The Buhturids of the Garb", Mediaeval lords of Beirut and The southarn Lebanon" , REA, VIII, Année 1961 .
- Sauvaget (J.) , Les Monuments Historiquecs de Damas , Beyrouth 1922 .
- "Quelques decrets seljoukids", IFD , Année 1967 .
- Sauvaget et Seurdel , Les monuments Ayyubides de Damas, Paris 1950 .
- Sauvaire, "Description de Damas " JA, Année 1894 .
- Schlumberger (G.) , Les Campagnes de roi Amaury I en Eglise , Paris 1906
- , Rnauld de chatillon prince d'Antioch au Temps de croisades, Paris 1933 .
-
- Serjeant, Islamic Textiles, Material for A History up to the Mongul conquest , Beirut 1972 .
- Sourdel , Nouveaux documents sur l'histoire Sociale et Religieuse de Damas au Moen ages " , REI, XXXII, Année 1964 .
- Smail (R.C.) , The Crusaders in Syria and The Holy Land , Londn 1974 .
- Steingss, Persian- English dictionary , Neirut 1970.
- Stevenson (W.B.) , The Crusaders in the East , Beirut 1962 .
- Vacandard (E.) , Vie de Saint Bernard , Abbé de clairvaux , Paris 1899 .
- Vasiliev (A. A.), History of the Byzantine Empire, vol . II Madison 1929 .
- Whitting , Monnaies Byzantines , aris 1975 .
- Ziada (N.) , :Factors Influences trade relations between North Africa and the western Sudan in the middle ages" .
- الموسم الثقافي للجمعية التاريخية المصرية العام ١٩٧٦ م / ١٩٧٧ م ط. القاهرة ١٩٧٨ م .

رقم الإيداع ٩٨/٧٠٩٣

الترقيم الدولي 9 - 91 - 5487 - 977 I.S.B.N.

دار روتابرينت للطباعة ت: ٣٥٥٢٣٦٢ - ٣٥٥٠٦٩٤
٥٣ شارع نوبار - باب اللوق



لدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES